هذا

(المجلد الثالث وهو الاخير)* من كتاب اتحاف ملوك
الزمان* بتاريخ الامبراطور شرلكان* مسبوقا
بمقدمته المسماة اتحاف ملوك الالبا*
بتقدم الجمعيات فى اوروبا* ترجمه من
الفرنساوية الى العربية الفقير
الى الله تعالى خليفه محمود
عفا الله عنه والمسلمين
امين

فهرست الجزء الثالث من كتاب اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان

صحيفة

المقالة التاسعة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

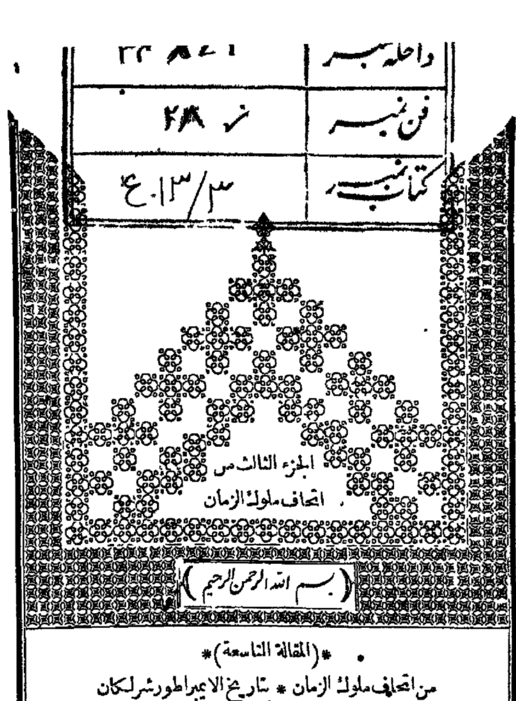
صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

الجزء الثالث وهو الاخير من كتاب اتحاف ملوك
الزمان بتاريخ الامبراطور شرلكان
ترجمه من الفرنساوية الى العربيه
الفقير الى الله تعالى خليفه
محمود عفى عنه
امين



سنة ١٥٤٧

(المقالة التاسعة)

من اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب غيرة الملك فرنسيس من نصر الايمبراطور ونجاحه وازدياد شوكته

من المعلوم ان رعب الايمبراطور شرلكان من تأهب البابا وملك فرانسا واستعدادهما للحرب كان فى محله ولم يكن ناشئا عن ظنون وهمية ولا اوهام تخيلية لا حقيقة لها وذلك ان البابا كان قد ظهر منه مايدل على غيرته من الايمبراطور وبغضه له وكان ثم من الاسباب مايبعث الايمبراطور على ظنه ان ظفره بالمعتزلة الملتئمين بعضهم قد احيى فى قلب فرنسيس العداوة القديمة التى اوقعت بينهما التفاقم والشقاق مدة مستطيلة وقد حصل اذ ذاك ماحقق ظنه وذلك ان الملك فرنسيس لحقه من نجاح عساكر الايمبراطور غم شديد ولم يمكنه منع هذا النجاح لما اسلفناه لك من الاسباب ولكنه استشعر بعد ذلك انه ان لم يبذل وسعه فى هذا الامر قويت

شوكة

شوكة خصمه وعظمت صولته حتى يكون له اقتدار على الزام سائر بلاد الافرنج بما شاء من الاحكام والقوانين فلما عنّ له هذا الخاطر ولم يكن سببه مجرد الغيرة الناشئة عن المعاصرة بل كان على وفق آراء اهل السياسة والحذق فى ذلك العصر سلك عدة طرق مختلفة يمنع بها تقدم الايمبراطور ونصراته وسعى بالتدريج فى تحزيب عصبة ذات اقتدار على قمعه وتعطيل مقاصده

سنة ١٥٤٧

مطلب مداولته مع عصبة المعتزلة

فامر رسله الذين كانوا ببلاد ألمانيا ان يبذلوا غاية جهدهم فى تقوية قلوب عصبة المعتزلة ومنعهم عن الامتثال لاوامر الايمبراطور والدخول تحت طاعته وأمدهم بامدادات عظيمة ولم يقطع المكاتبة والمراسلة بينه وبين منتخب سكس وحاكم هيسه وكانا رئيسى العصبة المذكورة واعظم اربابها قوة وشوكة فأبدى لهما جميع الاسباب التى تحذرهما من الايمبراطور وتحملهما على عدم التأسى بغيرهما من اهل تلك العصبة الذين اذعنوا له وفوضوا امرهم اليه يفعل بهم كيف شاء من حيث دياناتهم وحريتهم

مطلب مداولته مع السلطان سليمان

وفى اثناء سعيه هذا فى ابقاء الحرب المدنى الذى اوقع الشقاق ببلاد ألمانيا كان مشتغلا ايضا بتحريض اعداء اجانب على الايمبراطور حيث حث السلطان سليمان على الهجوم على بلاد المجار وافهمه ان مقتضيات الاحوال تعينه على ذلك كل الاعانة فان الايمبراطور أخرج منها جميع العساكر الذين يمكنهم الذب عنها لقتال ارباب عصبة سمالكالد وحرض البابا ايضا على ان يبذل جهده فى انتهاز تلك الفرصة حتى يجبر ما وقع منه من الخلل فى اعانته للايمبراطور حيث ارتقى بذلك الى اعظم درجة فى الشوكة والصولة

مطلب مداولته مع البابا واهل البنادقة

وكان البابا يعرف من نفسه انه قد أخطأ خطأ عظيما فى اعانته وكان يخشى عاقبة ذلك ففرح حين اخذ ملك فرانسا يتفاوض معه فى شأن الايمبراطور وكان رضاء البابا معينا للملك فرنسيس على استمالة قلوب اهل البنادقة اليه فحاول ان يفهمهم ويوقع فى اذهانهم انه لا سبيل الى انقاذ ايطاليا بل وسائر بلاد اوروبا من ظلم الايمبراطور واجحافه واستعباده لاهلها الا اجتماعهم معه ومع

سنة ١٥٤٧

البابا حتى يصيروا جميعا عصبة واحدة يكون الغرض منها قمع الايمبراطور واضعاف شوكته لانه لطمعه وشدة حرصه يخشى منه على الجميع

مطلب مداولته مع ملك دانيمرقة وملك انكلترة

وبعد ان اخذ فى المفاوضات مع دول جنوب اوروبا سعى فى استمالة ملوك شمالها وكان هناك اسباب خصوصية توجب تظلم ملك دانيمرقة من الايمبراطور فأيقن فرنسيس ان هذا الملك يبادر الى الدخول فى العصبة الا انه كان هناك اسباب سياسية تمنعه عن الانضمام اليها فلذا عرض عليه فرنسيس ان يزوج ابنه بملكة ايقوسيا حتى لا يلتفت الى تلك الاسباب واما انكلترة فكان يحكمها حينئذ الوزراء بطريق النيابة عن ملكها ايدوارد السادس لانه كان اذذاك قاصرا وكان هؤلاء الوزراء بعد موت ملكهم هنرى قد تظاهروا بالميل الى الدين الجديد وأعلنوا بانهم من احزابه لانهم كانوا يودون ذلك قبل وفاة ملكهم المذكور ولكنهم لم يتجاسروا على اظهار هذا الامر فى حياته لانه كان شديد الحمية على دين الكنيسة بحيث لا يستطيع ان يرى احدا من رعيته يعدل عنه الى دين آخر فكان فرنسيس لما يعده فيهم من الحمية والميل الى دين المعتزلة يرى ان نفوسهم تأبى ان يتغافلوا عن الايمبراطور ويتركوه يدمر المعتزلة ويمحوا أثر دينهم ومع انه كان يعلم ان كل مملكة لم يبلغ ملكها رشده لا تخلو عادة عن الفتن ويرى بظواهر قرائن الاحوال انه لا بد من حرب قريب الوقوع بين ايقوسيا و انكلترة طمع فى استمالة قلوب وزراء دولة الانكليز وادخالهم فى عصبته

ثم ان فرنسيس فى اثناء سلوكه هذه المسالك وبذله الهمة العجيبة فى تحريض ملوك اوروبا على الايمبراطور كان لا يهمل شيأ من الوسائل التى تخصه فجند الجنود من سائر اقاليم مملكته وجهز المهمات الحربية وتحالف مع بلاد السويسة لتمده بطائفة كبيرة من العساكر ورتب خزائن مملكته على وجه عجيب وارسل الى منتخب سكس وحاكم هيسة مبالغ جسيمة وبالجملة فقد استعد بجميع ما يلزم من الوسائط حتى يكون فى وسعه ان يبدأ خصمه بالحرب مع العزم التام حين تبدو له فرصة ذلك

وكان

سنة ١٥٤٧

وكان من المستحيل ان تخفى على الامبراطور هذه الامور الجسيمة مع ماتستدعيه من التجهيزات العظيمة فعما قليل بلغه ماوقع من فرنسيس من الدسائس والفتن التى اضرم نارها فى دول اوروبا واخبر ايضا بتجهيزاته الداخلية وانه قصده ان حربه مع ملة اجنبية يمنعه من تنجيز أغراضه فى بلاد المانيا كان كلما افكر فى تدبير فرنسيس وتحزبه مع الدول الاجنبية عليه ارتعدت فرائصه واشتد رعبه وفزعه ولكن كان يظهر له انه لامحيص عن وقوع هذه الاخطار لانه كان يعرف مافى نفس السلطان سليمان من مزيد الحرص والطمع ويعلم ماهو عليه من الحزم والتبصر وكان يعهد فى هذا السلطان الماهر انه لايضيع مثل هذه الفرصة بل ينتهزها ويشرع فى الحرب مع الحزم والعزم وكان هنالك ايضا من الاسباب مايدعو الامبراطور الى ظن ان البابا لايقصر فى ابداء اسباب وعلل يحتج بها فى قتاله وانه لايخشى بأس حربه * وفى الواقع كان البابا قد ظهر منه مايدل على ذلك فانه لما بلغه ان منتخب سكس انتصر على الامير ألبرت دوبراندبورغ اظهر من الفرح والسرور مالايليق بشأن امام دين النصرانية ورئيس كنيسة الملة المسيحية وكذلك لما تحقق ان ملك فرانسا صار من انصاره واعوانه اظهر كل العداوة والبغضاء للامبراطور * وكان شرلكان ايضا يعلم ان اهل البنادقة منذ مدة مستطيلة فى غيرة شديدة وحيرة تامة من نجاحه وظفره فهم بلا شك يجيبون فرنسيس الى مادعاهم اليه من المعاهدة معه نعم وان كان من عادتهم البطء والتردد فى المشروعات الا ان الامبراطور كان يخشى ان يؤول امرهم الى التصميم على الدخول فى هذا الحزب العظيم ولايخفى انه كان هنالك اسباب خصوصية توجب غيظ الدانيمرقية والانكليز من الامبراطور ودواع قوية تدعوهم الى التعصب عليه وكان خوفه من فرنسيس اشد من غيره لانه كان يعتبره روح العصبة ويعتقد أنه هو الذى عليه مدارها لاسيما وكان فرنسيس قد ادخل ويرينا (الذى سبق ذكره فى فتنة جنوية) تحت كنفه واظله بظل حمايته وكان هذا الامير قد فر

مطلب فزع الامبراطور

سنة ١٥٤٧

الى مدينة مرسيليا حين ظهر حال عصبة الامير فيسك فلذا كان شرلكان دائما يتوقع الحرب فى ايطاليا ويظن ان فتنة جنويرة ليست الا مبدأ لهذا الحرب

مطلب امل شرلكان لابلائه مرض فرنسيس

ولكن بينما كان الايمبراطور فى حيرة وقلق عظيم من هذا الامر اذ ظهرت حادثة اقل بها النجاة من هذه الاخطار التى كانت نصب عينيه وذلك ان ملك فرانسا اعتراه مرض تغيرت به صحته وانحرف به مزاجه لان انهماكه على اللعب واللهو كان قد أورثه على حين غفلة داء تناقصت به صحته شيأ فشيأ حتى ضعفت بنيته فعند ذلك اخذت تجهيزات الحرب والمفاوضات مع الدول الاجنبية تضمحل وتضعف بضعف عقل مدبرها ومركزدائرتها وفى اثناء ذلك تغلب الجنويزية على قلعة مونتوبيو وقبضوا على الامير جيروم دوفيسك وقتلوه هو ورؤساء عصبته وبذلك خمد ما كان باقيا من آثار نيران الفتنة وحصل ايضا أن عدة من المدن الايمبراطورية فى ألمانيا يئست من أن يأتى لها عند الحاجة مدد من مملكة فرانسا فانقادت الى الايمبراطور ودخلت تحت طاعته بل ظهر من الامير حاكم هيسة انه يميل الى التخلى عن حزب منتخب سكس ويرغب فى الصلح مع الايمبراطور على اى وجه كان وكان الايمبراطور ينتظر مع القلق ماذا تكون عاقبة فرنسيس هل يبرأ من مرضه ويتم امر هذه العصبة الكبيرة التى يريد ان يدخل فيها اغلب ملوك اوروبا فيلزم شرلكان ان يتفرغ لها ويقطع النظر عن غيرها من اغراضه ومقاصده اوأن هذا المرض يريحه من هذا الملك وتزول بزواله الموانع والعوائق فيستمر على ما كان عليه ويتمم ما كان شارعا فيه من الاستيلاء على دوقية سكس

مطلب موت الملك فرنسيس وذكر مناقبه وطباعه ومخاصمته مع الايمبراطور

وكانت كواكب سعد الايمبراطور شرلكان وعائلته لم تزل فى سماء المعالى طالعة ونجوم عزهم فى افق السعود نيرة ساطعة حتى ان بعض المؤرخين سمى ما امتاز به هو وعائلته من السعد الدائم الاوفر والعز الشامل الاكبر بكوكب بيت الاستروسيا فلم يخب امله فى هذه الفرصة واجابه السعد لمطلوبه وزالت عنه الغصة حيث مات الملك فرنسيس الاول بمدينة رامبوليت فى آخر

سنة ١٥٤٧

يوم من شهر اداره عن ثلاث وخمسين سنة حكم منها ثلاثا وثلاثين ومكث من تلك المدة ثمانيا وعشرين سنة وهو فى عداوة كبيرة وشقاق عظيم مع الامبراطور ولم يكن هذا الشقاق مقصورا على دولهما بل عم معظم دول اوروبا واوقعها فى حروب مستمرة كانت اعظم واهول من الحروب التى حصلت فى الازمنة السابقة لان مقتضيات الاحوال اذذاك كانت تزيد هذه الحروب شدة وقسوة فان مخاصمة الامبراطور والملك فرنسيس كانت مؤسسة على تعارض مصالح خصوصية ومبنية على غيرة نفسانية وقواها ما حصل بينهما من الاساءة والمنقصة فى حق بعضهما ولم يكن لاحدهما مزية يفضل بها الآخر الاوكان للثانى مايعادلها فان دول الامبراطور وان كانت اوسع من دول فرنسيس الا ان دول فرنسيس لم تكن مشتتة عن بعضها كدول الامبراطور وكان فرنسيس مطلق التصرف فى حكومته واما الامبراطور فكانت شوكته مقيدة ولكن كانت مهارته وسياسته تعوض عليه مافاته من اطلاق التصرف وكانت عساكر فرنسيس اشد جسارة من عساكر الامبراطور غير ان عساكر الامبراطور كانت اكثر منها تجلدا وصبرا واعظم منها ضبطا وربطا وكانا ايضا على هذا القياس فى الفضل والمعارف وكان لذلك دخل عظيم فى اطالة حروبهما فكان فرنسيس سريع التصميم ومتى اخذ فى مشروع دقق فيه اولا وسلك فى تنجيزه مسالك الجسارة والمهارة لكن لم يكن من دأبه المواظبة اللازمة للظهور على العوائق والموانع بل كان فى الغالب يترك مشروعاته اوتفتر همته فى تنجيزها لقلة صبره اولعدم رزانته بخلاف الامبراطور فكان من دأبه التؤدة فى المذاكرات والتأنى فى العزم والتصميم ومتى اجمع رأيه على شئ وهم به لم يعدل عنه الى سواه ولم تمنعه عن تتميمه وتنجيزه اخطار جمة ولا عوائق تكل بها الهمة ولاختلاف طبعهما كان بينهما معادلة فى الظفر والنجاح فكان فرنسيس فى الغالب بسرعة اعماله يفسد على الامبراطور مقاصده التى احكم تدبيرها وكان الامبراطور بتتبع مادبره مع الرزانة والتؤدة والمواظبة يغلب خصمه و يفسد عليه مشروعاته الجسيمة وكان فرنسيس

سنة ١٥٤٧

فى مبدأ الحرب ينقض على عدوه كسيل العرم الذى يدفع كل ما صادفه فى طريقه وكان الأيبراطور لا يعجل بالحرب والقتال بل يتربص حتى تفترهمة خصمه فيهم دفعة واحدة و يأخذ ما سلبه منه بل و يزيد عليه غالبا امورا جديدة وطالما هم فرنسيس بفتح بلاد من ولايات خصمه وكان له رونق عظيم فى مبدأ غزواته ولكن قل ان نجح فى عواقبها واما الايبراطور فكثيرا ما اهتم بمشروعات خطرة كان لا يخطر بالبال امكان تتميمها الا انه نجح فيها اتم النجاح وكان فرنسيس يغتر برونق المشروعات والايبراطور لا يلتفت الا الى ما يترتب على كل مشروع من المصالح ومع ذلك لم تكن درجتهما فى الفضل والشهرة على حسب ما يستحقه كل منهما بمقتضى استقصاء معارفهما وفضلهما فى ادارة الحكومة وسياسة المملكة و بتفقد مقاصدهما ونجاحهما والحكم مع عدم الغرض على كل بما يستحقه بالنسبة للآخر فاما فرنسيس فكان من الملوك الذين فاقت شهرتهم فضلهم وافعالهم وهذه الشهرة مبنية على عدة اسباب اذ لا يخفى ان نصرة الايبراطور فى واقعة باوية قد فاق بها على خصمه الى آخر حكمه واكتسب بها شوكة عظيمة وصولة كبيرة صار له بها بأس شديد عند فرنسيس وغيره من ملوك الافرنج حتى ان اغلب الدول صارت تستعظم من فرنسيس سعيه فى اضعاف شوكة الايبراطور التى كانت دائما آخذة فى النمو والازدياد وعظم وقعه فى نفوسهم لكونه تصدى لمقاومة من هو اعظم منه قوة وصولة كما هو العادة بين الناس اذا حكموا بين خصمين متفاوتين فى القوة مع تساويهما فى الاقدام لاسيما وكان الايبراطور عدوا لسائر الدول الافرنجية وكانت كلها تخشى بأسه فلم تنصف فى حكمها عليه وعلى خصمه ولا يخفى ايضا ان شهرة الملوك لاسيما عند اهل عصرهم كما يراعى فيها فضلهم فى ادارة مصالح دولهم يراعى فيها ايضا صفاتهم الذاتية واخلاقهم النفسية فالملك فرنسيس وان اخطأ اكثر من مرة خطأ فاحشا فى اموره السياسية وادارته الداخلية الا انه كان اهل مروءة وكرم وحلم يحب فعل الخير وكان له هيبة بدون تكبر ولين جانب بدون دناءة وكان حسن المعاملة مع الناس بدون غش ولا مخادعة فكان

سنة ١٥٤٧م

مألوفا محترما عند من تقرّب اليه وكان يحب اهل الفضل ويكرمهم ويقربهم منه فصفاته الجيدة من حيث كونه انسانا اغترت رعاياه فعموا عن عيوبه ونقائصه من حيث كونه ملكا فكانوا يألفونه و يحبون منه لانه كان اعظم امرآء مملكته رقة وظرفا فلذلك كانوا لا يتضجرون مما يرتكبه احيانا من القسوة والتشديد فى ادارته واحكامه ولو كان ذلك من ملك آخر دونه فى اللطف ولين العريكة لما اغضوا عنه واحتملوا قساوته ومع ذلك فالذى اراه ان تعجب الناس منه ومدحهم فيه كان حقه ان يكون وقتيا يزول بزوال احزابه وندمائه وان اغترار الناس بفضائله الذاتية كان حقه ايضا ان يزول بزوال السلف من معاصريه وان الخلف يحكم عليه حكما صحيحا صادقا فانظر اليه فى سلوكه فى مصالح الدولة ولكن كان هنالك مايعادل ذلك فانتقل اسم الملك فرنسيس الى الاجيال التى اعقبته محفوفا بالفخر والرونق بل وزاده مرور الدهر رونقا وبهجة وذلك ان العلوم والفنون قبله كانت غير متقدمة فى مملكة فرانسا ولم يخرج منها عن حدود ايطاليا الا القليل حيث كانت قريبة العهد بها وكانت لا توجد فى غيرها من ممالك اوروبا فتظاهر الملك فرنسيس بمساعدة العلوم والفنون وتوسيع دائرتها وحذى حذو البابا ليون العاشر فى بذل الهمة والسعى فى نشر الآداب وتوسيع دائرة العلوم حيث دعا العلماء الى ديوان فرانسا واكرمهم واحسن مثواهم وادخلهم فى خدمة دولته واولاهم المناصب العلية والمراتب السنية وشرفهم بتعويله عليهم ووثوقه بهم ولا يخفى ان اهل المعارف تنشرح صدورهم اذا عوملوا بما يرون انه حقهم من الاحترام والاكرام كما يسخطون اذا احرموا مما هم اهل له فرأوا انه لا يمكنهم الوفاء بشكر هذا الملك الكريم على نعمه الجزيلة التى عمهم بها فجعلوا يتسابقون الى مدح فضائله ومعارفه وبنى مؤلفوا الخلف تأليفهم فى هذا المعنى على ما أسسه السلف حتى فاقوهم فى مدح فرنسيس وكان يكنى بأبى الآداب فصار بهذه الكنية له موقع جليل عند المؤرخين حتى كأنهم رأوا ان الاقرار بعيوبه ومثالبه من كفران النعم فلذا كان فرنسيس اشهر من الايمبراطور وان كان دونه فى المعارف والنجاح فالفضائل الذاتية التى

سنة ١٥٤٧

اجتمعت فيه فقد اكسبته من المدح والثناء ما لم يحظ به الامبراطور مع اتساع قريحته ونجاح سياسته لانه كان دون فرنسيس في الصفات التي تستدعى المحبة وتستميل القلوب

مطلب ما ترتب على موته

وقد ترتب على موت فرنسيس تغيير عظيم في حالة اوروبا وذلك ان ابنه تولى الحكومة بعده وكان شابا صغيرا وكان ايضا هنرى الثامن ملك انكلترة قد مات قبله بمدة وتولى الحكومة بعده ابنه وكان ايضا حديث السن ومثل هذين الشابين ليس كفوء المقاومة الامبراطور حيث كان قد شب في الحكم وشاب وتقادم عهده في الادارة والسياسة وكان قد مضى عليه زمن طويل وهو يقاتل عظماء الملوك كهنرى الثامن والملك فرنسيس وينتصر عليهم غالبا * وبموت فرنسيس استراح الامبراطور وانشرح صدره حيث صار يمكنه ان يشرع مع النجاح فيما كان عزم عليه واضطر الى تأخيره خوفا من ملك فرانسا من قتال منتخب سكس فانه كان يعلم ان هنرى الثانى الذى جلس على كرسى فرانسا لا يبلغ في المعارف شأو والده فرنسيس لاسيما وقد هجس في نفسه ان هذا الملك الجديد لبغضه لوزراء ابيه ستمضى عليه مدة يشتغل فيها بعزلهم وتولية غيرهم من ندمائه وخاصته فهو اذن لا يخاف بطش هذا الملك القليل الخبرة ولا بأس عصبة يعزم عليه

مطلب توجه الامبراطور الى قتال الامير منتخب سكس

ولما كان يصعب على الامبراطور أن يعرف قدر مدة هذا الهدء والامن بادر الى انتهاز هذه الفرصة فبمجرد ما بلغه موت فرنسيس توجه من ايغر الى حدود مملكة بوهيمه المعروفة بمملكة چه غيران جيشه كان قد ضعف جدا بسفر جنود البابا ورجعة الفلمنك حتى لم يمكنه ان يجمع منه سوى ستة عشر الف مقاتل ومع قلة عساكره شرع في تلك الغزوة الآتية التي ترتب عليها نفوذ كلمته وقوة شوكته فيما بعد ببلاد ألمانيا ولكن مع صغر جيشه بهذه المثابة كانت عساكره كلها من العساكر القديمة الاسبانيولية والايطالية فلم يكن شروعه في مثل هذه الغزوة من باب المخاطرة بل كان معولا فيها على شهامتهم وشجاعتهم وكان يؤمل ان سعيه لا يضيع سدى بل تكون عاقبته الفوز بالظفر والنجاح

١٣ من شهر نيسان

نعم

سنة ١٥٤٧

ثم وان كان منتخب سكس قد جهز جيشا اكثر عددا من جيش الامبراطور الا ان عساكره كانت لا تبلغ درجة العساكر الامبراطورية فى التجاريب والضبط والربط وكذلك ضباطه كانوا ايضا هون ضباط الامبراطور فى الخبرة والمعارف لاسيما وكان الامير منتخب سكس قد اخطأ خطأ كبيرا اضاع عليه ثمرة كثرة جنوده وزيادة عددهم على عدد جنود الامبراطور بل ربما كان يترتب عليه دماره وخراب دياره بالكلية وذلك انه عوضا عن ان يبقى جنوده منضمة الى بعضها اشتت شملها بارساله منها فرقة كبيرة الى حدود مملكة چه حتى يسهل عليه الانضمام الى العصاة من اهالى تلك المملكة وبعث منها ايضا طائفة كبيرة لتقيم بالمدائن السكسية التى كان يعلم ان الامبراطور يبدأ بالاغارة عليها ولقلة حزمه ظن ان هذه الطائفة تكفى فى مقاومة هذا العدو والمدافعة عن هذه المدن والحال انها كانت غير حصينة لا تجدى مثل هذه الطائفة فيها نفعا

مطلب ظفره ونجاحه

ثم ان الامبراطور دخل بلاد السكس من جهة حدها الجنوبى وهجم على مدينة التورف الواقعة على نهر ايلستير فظهر حينئذ ان ما دبره الامير منتخب سكس لم يصادف محلا بل كان خطأ محضا لان العساكر الذين كانوا محافظين بهذه المدينة سلموا بدون مقاومة وكذلك العساكر الذين كانوا ارسلوا الى المدائن الاخرى الواقعة بين التورف ونهر البه فان منهم من تأسى بهؤلاء العساكر فى التسليم وعدم المقاومة ومنهم من هرب بمجرد قدوم العساكر الامبراطورية ولم يمهل الامبراطور اهل سكس حتى يفيقوا مما الجأهم من الدهشة والفزع بل تقدم اليهم بدون تراخ ولا مهلة واما منتخب سكس الذى كان قد جعل معسكره فى ميسينة فانه كان مضطربا متحيرا فى امره كما هى عادته وصار كلما اشتد الخطب يزداد حيرة وترددا فكان تارة يظهر عليه انه مصمم على المدافعة عن شواطئ البه وعلى المخاطرة بنفسه فى القتال متى وصل اليه العساكر الذين ارسل يحضرهم لاعانته وتارة يرى ان هذا المشروع خطر عليه فيستصوب المحاولة وعدم المبادرة بالحرب ويصمم على ان يلتجئ بحصون مدينة ويتانبرغ فلا يهجم عليه فيها عساكر الامبراطور الا ويضرون بانفسهم كل الضرر

سنة ١٥٤٧

و يكون هو آمنا فيها حتى يصل اليه المدد من ميكلانبورغ و بوميرانيا ومدن المعتزلة الواقعة على بحر بلطق ولكنه لم يصمم على امر من هذين الامرين بل كسر قنطرة ميسينة وسار على الشاطئ الشرقي من نهر ألبه حتى وصل الى موهلبرغ واخذ يتذاكر ثانيا فيما يصنع وبعد أن مكث مدة مستطيلة وهو يتردد فيما يكون من امره عدل الى امر آخر لايستحسنه الا الضعاف الخاملون الذين لا اقتدار لهم على التجلد والثبات والتصميم على المشروعات فترك من عساكره سرية في موهلبرغ ليصدوا عساكر الايمبراطور عن عبور النهر من تلك الجهة وسار هو بجيشه حتى بعد عن هذه المدينة ببعض اميال ونزل بالعسكر هناك لينتظر ماذا تكون عاقبة هذا الامر ليدبر بموجبها فيما بعد اموره وحركاته

مطلب عبوره نهر البه

واما الايمبراطور فلم يزل يحث السير بجيشه حتى وصل في مساء الثالث والعشرين من شهر نيسان الى شواطئ نهر ألبه تجاه مدينة موهلبرغ وكان عرض هذا النهر من تلك الجهة ثلثمائة خطوة وعمقه يزيد على اربعة اقدام وكان شديد التيار وكان الشاطئ الذي عليه عساكر السكس اكثر ارتفاعا من الشاطئ الذي عليه عساكر الايمبراطور ولكن لم تفتر همة الايمبراطور بهذه العوائق بل جمع كبار ضباطه لا ليتفاوض معهم او يستشيرهم كما هي عادته بل ليعلمهم انه قد صمم على عبور النهر في الصباح وانه ليشن الغارة على العدو حيث كان فتعجبوا جميعا من صعوبة هذا المشروع حتى ان كلا من الدوق دالبة الذي كان جسورا بالطبع لا يبالي باقتحام الاخطار والامير موريس دوسكس الذي كان عدوا مبينا للامير منتخب سكس ويود دماره وهلاكه عرض على الايمبراطور ان هذا المشروع شديد الخطر ولكن كان شرلكان يثق بنفسه و يعتمد على رأيه او على بخته وسعده فلم يصغ لقولهما بل عجل باعطاء الاوامر اللازمة لتنجيز هذا الغرض

فعند طلوع الفجر تقدمت طائفة من المشاة الاسبانيولية والايطالية الى النهر وجعلت تضرب نيرانا شديدة على العدو وكانت العادة اذ ذاك جارية باستعمال قربانات طويلة ثقيلة فكثر ما قتل رجال على الشاطئ الذي عليه عساكر

سنة ١٥٤٧

الاعداء بل اشتدت الحمية الحربية بجماعة من عساكر الامبراطور وأرادوا الدنو من العدو زيادة على ذلك فنزلوا فى النهر الى صدورهم وتمكنوا من الاعداء حتى كانت مراميهم لا تخطى وكان الامبراطور فى اثناء ذلك مشتغلا بانشاء قنطرة من القوارب لتعدية المشاة واما الخيالة فكانت كيفية عبورهم النهر أن رجلا من الفلاحين حضر الى معسكر الامبراطور واخبر أنه يعديهم من مخاضة فى النهر يعرفها فأجابوه الى ذلك وساروا معه هذا وقد بذل عساكر السكس الذين كانوا فى موهلبرغ جهدهم فى منع العساكر الامبراطورية عن تميم الاعمال التى كان القصد منها تعدية النهر فرتبوا طابية من المدافع وصاروا يرمون بها على عساكر الامبراطور ولكن لما كانت الاراضى المنخفضة من شواطئ ألبه مستورة بضباب كثيف لم يمكنهم ان يحكموا مراميهم فلم يضروا بعساكر الامبراطور ضررا كبيرا بل ادركهم التعب من شدة نيران العساكر الاسپانيولية والايطالية فأحرقوا بعض قوارب كانت قد اجتمعت قريبا من موهلبرغ وتأهبوا للفرار فلما ادرك منهم ذلك عساكر الامبراطور بادر عشرة من الاسپانيول الى خلع ثيابهم وجعلوا السيوف بين اسنانهم وعدوا النهر عائمين وهزموا بعض عساكر السكس الذين ارادوا منعهم وأنقذوا من النار ما كان يلزم لهم من القوارب فى تميم القنطرة التى كانوا اشرعوا فى عملها فتقوت قلوب اصحابهم بهذه الفعلة العظيمة الناشئة عن جسارتهم وقوة جنانهم وتمكن الرعب من قلوب اعدائهم

ثم ان كل فارس من الخيالة اردف خلفه واحدا من المشاة وأخذوا جميعا فى عبور النهر وكانت الخيالة الخفيفة امامهم و بعدها الخيالة الثقيلة خلف الامبراطور وكان راكبا على فرس من جياد الخيل وعليه حلة فاخرة و بيده رمح فاضطرب النهر بهؤلاء الفرسان الكثيرين حيث صاروا ينعطفون فيه على حسب ارشاد دليلهم فكانوا تارة يسيرون على ارض صلبة وتارة يعومون حتى رأى منهم اصحابهم الذين كانوا باقين على الشاطئ منظرا بهجا ومرأى ظريفا ولم يزالوا كذلك حتى ظهروا على جميع الموانع ببسالتهم وشجاعتهم

سنة ٧٤٥ ﻫ

ولم يظهر على احد منهم ادنى فزع او اقل خشية وخوف لاسيما وكان الايمبراطور معهم يقاسمهم الكروب والاهوال ويزاحم ادناهم فى اقتحام الاخطار و بمجرد وصوله الى الشاطئ وثب على السكس كالاسد يقدم عساكره الذين عبروا معه النهر ولم ينتظر بقية المشاة وكانت الفرقة التى معه قد ازدادت بها الحمية وتقوى قلبها بسبب نجاحها فى اجتياز النهر ونظرت الى العدو بعين الاحتقار حيث لم يتجاسر بالهجوم عليها وقت الفرصة حين كانت مشغولة بالسباحة وخوض النهر ولم تكترث بكثرة عددهم بل توجهت لقتالهم مع الثبات وعدم المبالاة كأنها جازمة بالنجاح والنصرة

مطلب قبح سلوك الامير منتخب سكس

وقد استغرقت تلك الامور زمنا طويلا فى اثنائه كان الامير منتخب سكس مقيما بعسكره ولم يفعل ادنى شئ يمنع به عدوه بل كان لا يصدق ان الايمبراطور عبر النهر بجيشه وصار قريبا منه وذلك عمى بصيرة يستغرب على مثله حتى ان المحققين من المؤرخين نسبوا ذلك الى خيانة جنرالاته واكابر ضباطه حيث ذكروا انهم كانوا يغشونه ويشيرون عليه بغير الصواب فلما اتاه غير واحد واخبره بانه عاين الايمبراطور قد عبر النهر بجيشه علم انه قد اخطأ واضر بنفسه فأمر فورا بالرجعة الى وتيامبرغ ولكن كان جيشه فى ارتباك وورطة كبيرة لكثرة مهماته ومدافعه كما هى عادة الجيوش الالمانية فلم يمكنه ان يسرع بالسير حتى يفر من العدو بل بمجرد شروعه فى المسير ظهرت عساكر الايمبراطور الخفيفة فعلم الامير منتخب سكس انه لا محيص عن القتال وكان له فى القتال

واقعة مولهوزان

همة عجيبة وشجاعة غريبة كما كان له فى المفاوضات حيرة وتردد كبير فرتب عساكره للقتال ترتيبا جيد الانشأ الا عن قريحة صحيحة وفطنة رجيحة وحجب جناحى جيشه بأجمة عظيمة كانت هنالك بحيث صار لا يخشى أن تحيط به خيالة العدو وكانت اكثر عددا من خيالته وكان الايمبراطور أيضا قد صف عساكره بمجرد قدومهم وصار يطوف على الصفوف وهو على جواده ويحرض العساكر على القتال ويعظهم بما قل ودل من كلمات الحماسة التى تورثهم الحمية وقوة الجنان حتى يقوم كل واحد منهم بما عليه من الواجبات وكان لكل من

سنة ١٥٤٧

الفريقين اسباب خصوصية تبعثه على التجلد والثبات و بعد ان كانت السماء مظلمة بالغمام ومحجوبة بالضباب الكثيف انقشع سحابها وانجاب ضبابها على حين غفلة فأثرت هذه الحادثة في قلوب الطائفتين على حسب حالهما وما كان قائما بانفسهما أما السكس فادركتهم الدهشة وفترت همتهم لما رأوا العدو قد دهمهم وصاروا عرضة لطعنه وضربه وأما عساكر الامبراطور فاستبشروا برجوع الشمس وايقنوا أن ذلك دليل النصرة والظفر وتحققوا أن عساكر المعتزلة صاروا في قبضتهم ومابقي لهم خلاص من بطشهم ولما رأى منتخب سكس دنو العدو منه وأنه لا محيص عن القتال ابدى من الشجاعة والهمة ماقوى به قلوب عساكره وأحيي عزمهم ولولا ذلك لثبتت النصرة لعساكر الامبراطور من اول وهلة ولم تطل مدة الحرب بين الفريقين فطرد السكسونيون اولا الخيالة الخفيفة المجارية وكانت اول من حمل عليهم من العساكر الامبراطورية وثبتوا مع العزم وقوة الجنان امام الخيالة الثقيلة التي حملت عليهم بعد الفرقة المجارية المذكورة ولكن لما كان هؤلاء الخيالة الثقيلة هم الذين عليهم مدار الجيش الامبراطوري وكانوا يقاتلون بقوة وعزم شديد لوجود الامبراطور بين أظهرهم اضطر السكسونيون الى التقهقر فانضمت العساكر الخفيفة الامبراطورية الى بعضها بعد طردها وشتاتها وانقضت دفعة واحدة على جناحي عساكر العدو فاختل نظام صفوفهم وحقت عليهم الهزيمة الا ان شرذمة قليلة من العساكر المنتخبة كانت مع الامير منتخب سكس فلم تزل تقاوم وتدافع عن نفسها وتبذل جهدها في انقاذ اميرها وارادت ان تجول به داخل الأجمة ولكن احاط بها عساكر الامبراطور من سائر الجهات فجرح اميرها في وجهه وكانت قواه ورأى انه لا فائدة حينئذ في المقاومة فسلم واخذه الاعداء اسيرا وتوجهوا به حالا الى الامبراطور وكان حينئذ قد رجع من اقتفاء اثر الهاربين بعد ان طردهم وبدد شملهم وصار ينظر الى ميدان الحرب فرحا بنصرته ونجاحه وصار يأتي اليه ضباط جيشه ليهنوه بهذه النصرة التي انتصرها بحزمه وحسن تدبيره وكان الامير منتخب سكس مع ما آل اليه امره من

مطلب انهزام الامير منتخب سكس واسره

سنة ١٥٤٧

سوء الحال لم يزل باقيا على العزة وشرف النفس فوقف بين يدي غالبه من غير أن يظهر كبرا ولا انفة لان ذلك لا يليق بالاسير لكنه لم يبد ما يزري بعقله بين امراء ألمانيا من التذلل والخضوع بل اخذ يخاطب الايمبراطور بقوله ان الحرب سجال حيث جعلتني اسيرا عندك ايها الايمبراطور الفاخر وامل أن اعامل * فما أتم هذه الكلمة الا وقطع عليه الايمبراطور كلامه مع الغلظة والجلافة قائلا أتعترف لي الآن بالايمبراطورية وقد كنت قبل ذلك تلقبني كرلوس دي غانده سأجازيك بما انت اهله ثم صرف وجهه عنه واهمله مع الانفة والكبر هذا وحصل من ملك الرومانيين ايضا انه آلمه حينئذ بالكلام ووبخه باكثر مما وبخه به الايمبراطور فما كان من منتخب سكس الا ان التزم السكوت ولم يتفوه بشئ ولم يظهر عليه ادنى فزع ولا خوف بل بقي على اصل حاله من التؤدة والهدء وسار خلف العساكر الاسبانيولية التي انيطت بخفره وحراسته

مطلب تقدمات شرلكان بعد نصرته

ولم يقتل من عساكر الايمبراطور في هذه الوقعة الكبيرة الا خمسون رجلا واما عساكر السكس فهلك منهم في القتال والهزيمة الف ومائتان واسر منهم اكثر من ذلك ونجت منهم طائفة تبلغ اربعمائة رجل تقريبا ووصلت الى ويتامبرغ مع الامير ابن منتخب سكس وكان قد جرح ايضا في المعركة ثم ان الايمبراطور اقام يومين في محل الوقعة ليريح جيشه وهرع اليه حينئذ رسل المدائن القريبة منه لقصد مبايعته والدخول في حمايته وطاعته وبعد ذلك توجه الى ويتامبرغ قاصدا التغلب عليها لينهي امر الحرب واخذ معه الامير منتخب سكس كأنه يتباهى ويفتخر بامرائه في حال الاسر لرعاياه السكسونيين وقد حزن عليه كل من رآه في هذه الحالة من احبابه الذين كانوا يحترمونه ولكن كل ذلك لم يذهب بأنفة هذا الامير وشممه بل بقي على ما كان عليه من الرزانة والتؤدة وكانت مدينة ويتامبرغ حينئذ دار اقامة الفرع

مطلب محاصرته لمدينة ويتامبرغ

المنتخب من عشيرة السكس وكانت من اقوى مدن ألمانيا واحصنها ولو كان فيها ما يدافع عنها حق المدافعة لكان التغلب عليها من اصعب ما يكون وكان الايمبراطور قد بادر بالتوجه اليها مؤملا ان ما ترتب من الفزع والدهشة

على

سنة ١٥٤٧

على نصرته وقد شاع خبرها في سائر البلاد فتهافت اهلها على التسليم بدون مقاومة كما فعل ابناء وطنهم ولكن الاميرة سيبيلة دوكليوس زوجة الامير منتخب سكس كانت بمكان من الفضل والمعارف فعوضا عن ان تشتغل بالبكاء والنحيب على ما أصاب زوجها اظهرت عزم الابطال حتى يتأسى بها اهل المدينة وصارت تحرضهم على القتال وتقوى قلوبهم على مكابدة مشاق الحرب فلما دعاهم الايمبراطور الى التسليم اجابوه بجواب لا يصدر الا عن اولى العنفوان والشهم وافادوه بانه يلزم ان يعامل اميرهم بما يليق بمقامه من الاحترام والاعتبار والا عاملوا الامير ألبيرت دو براندبورغ وكان اسيرا عندهم بما يعامل به اميرهم هذا وكانت مدينتهم منيعة جدا فظهر للايمبراطور انه لا محيص عن حصارها محاصرة تامة مستكملة اللوازم والشروط اذ بعد هذه النصرة الفاخرة التي انتصرها لا يليق بمقامه ترك حصارها ولكن كان وقتئذ لا يتيسر عنده ما يلزم لهذا الغرض فسهل عليه الامير موريس ما استصعبه من هذا الامر حيث التزم له ان يقوم بجميع ما يحتاج اليه من الزاد والاسلحة والمدافع والمهمات والقزمجية وغير ذلك من لوازم الحرب فاعتمد شرلكان على ذلك وامر بفتح الخنادق ووضع متاريس التحفظ امام المدينة وكان الحامل لموريس على هذا التعهد هو اغتراره بما كان يؤمله من هدم هذه المدينة اذ هي تحت عدة ولايات كان موعودا بان تعطى له جزاء على تخليه عن حزب المعتزلة وحربه مع قريبه منتخب سكس فعما قليل ظهر انه التزم بما ليس في وسعه نعم وان كان لم يجد عائقا في نقل عدة مدافع من تريستة الى ويتامبرغ بواسطة نهر ألبه الا انه لم يكن عنده من العساكر ما يكفي لخفر ما يحضر من دولها الى معسكر الايمبراطور حتى ان القونتة دومانسفلد مع سرية من عساكر السكس نهب جميع الزاد والمهمات الحربية التي كانت آتية الى الايمبراطور وشتت من كان معها من القزمجية فكان ذلك سببا في تعطيل تقدم الحصار وعلم الايمبراطور أن اعتماده على قول موريس كان في غير محله وانه يلزمه التشبث بامور اخرى اقوى من ذلك بحيث تسعفه

سنة ٩٥٤٧

في الاستيلاء على المدينة سريعا

مطلب معاملة الايمبراطور للامير منتخب سكس بما لا يلايم المروءة والانسانيه

وكان منتخب سكس لم يزل اسيرا عند الايمبراطور ففعل معه ما ينافي المروءة والانسانية ليفجع عليه زوجته واولاده ويحملهم على تسليم المدينة فطلب من زوجته سيبلة ان تسلم له المدينة والا ضرب عنق زوجها ولاجل ان يريها ان ذلك ليس مجرد تهديد وارهاب امر حالا باقامة دعوى منتخب سكس ولكن لم تكن اقامة هذه الدعوى على طبق الاصول الجارية فانه عوضا عن كونه يستشير مشورة وكلاء الايمبراطورية او يحيل اقامة الدعوى على محكمة تقضي فيها بما يوافق اصول الجمعية الجرمانية وتقف على حقيقة الذنب احال تحقيق قضية هذا الامير وكان اعظم امراء الايمبراطورية على مشورة حربية مؤلفة من ضباط جيشه الاسبانيول والايطاليين وكان رئيس تلك المشورة هو دوق ألبة وكان هذا الدوق جبارا ذا قسوة وشدة حتى كان عند الايمبراطور بمنزلة آلة للظلم والاعتساف فجعلت هذه المحكمة الغريبة اساس الدعوى على الحكم الذي كان قد صدر في حق منتخب سكس يطرده من الايمبراطورية مع ان هذا الحكم لم يصدر الا عن محض ارادة الايمبراطور واختياره فهو لغو لا يعتد به حيث لم تتوفر فيه شروط الصحة المستدعية لتنفيذه والعمل بمقتضاه فحكمت تلك المشورة على الامير المذكور بالقتل مستندة في ذلك الى ان هذا الامير قد ثبت عليه الغدر والعصيان بمخالفته للفرمان الصادر بنفيه وقد اخبر منتخب سكس بهذا الحكم وهو يلعب الشطرنج مع الامير ارنست دو برنسويك وكان مسجونا معه فسكت لحظة من غير ان تظهر عليه آثار فزع او رعب وبعد أن فكر في عدوان الايمبراطور وبغيه وفي بطلان المشورة التي حكمت عليه بالقتل قال ان غرضه ظاهر لا يخفى فهو يريد قتلي لان ويرتامبرغ لا ترضى ان تسلم له ولكن تهون علي روحي ان كان يترتب على فقدها حفظ مقام عائلتي وبقاء ذريتي آمنة تتمتع بدولي وترثها من بعدي وارجو من الله ان يرزق زوجتي واولادي الصبر على مصابهم بي وان لا يفجعوا من ذلك اكثر من فزعي منه وانهم لا يتركون مناصبهم ودولهم

مطلب على نفس الامير منتخب سكس

الوراثية

سنة ١٥٤٧م

الوراثية لاجل نفس قد طالت حياتها فهي وان اقامت الآن ترتحل غدا انتهى
ثم التفت الى الامير برونسويك وطلب منه ان يتم الدور ولعب معه كعادته
مع التأمل والاعتناء حتى غلبه واظهر من الفرح والمسرة حين غلبه مثل
ما كان يحصل منه لو غلب في وقت آخر وبعد ذلك ذهب الى محله ليصرف
اللحظات القليلة الباقية من عمره في التوبة والاستغفار

مطلب فزع عائلة الامير منتخب سكس

ولكن بمجرد ما وصل هذا الخبر الى مدينة ويتامبرغ حصل فيها هرج
واضطراب فان زوجته سيبيلة وان كانت قد تجلدت كل التجلد حين سمعت
بأسر زوجها لعلمها ان اسره لا يترتب عليه الا ضعف شوكته وتضييق دائرة
التزاماته ارتعدت فرائصها وفترت همتها لما بلغها ان الايمبراطور قد عزم على
قتله وصممت على التساهل في كل شيء يكون به انقاذه من هذه المصيبة وتسكين
غضب الايمبراطور وكان كل من الدوق دوكليوس والامير منتخب
براندبورغ والامير موريس يتضرع الى الايمبراطور في العفو عن منتخب
سكس ويسأله الصفح عنه لاسيما وكان شرلكان لم يطلعهم على الاسباب
التي حملته على قتله وكان لكل منهم في ذلك مارب اما الاول فكان توسطه
في نجاة هذا الامير انما هو لمحض الرأفة باخته سيبيلة والشفقة على زوجها
لكونه صهره واما الآخران فكانا يخشيان الملامة من عموم الناس والقدح
في اعراضهما لانهما كانا قد اشاعا انهما لم ينضما الى حزب الايمبراطور الا بعد
التزامه لهما انه لا يتعرض لاحد باذى ضرر فيما يخص الدين فرأيا انه اذا كانت
اول ثمرة تترتب على انضمامهما الى حزب الايمبراطور هي قتل الامير منتخب
سكس وهو اعظم محام ومنتصر لدين المعتزلة افضى بهما ذلك الى المعرة
والفضيحة لاسيما وكان الامير موريس يرى ان السكسونيين اذا توهموا
ان له مدخلية في قتل منتخب سكس ليستولى على بلاده وهو اقرب الناس
اليه يصير عندهم في اشد العداوة والبغضاء ولا يطمع ابدا في الحكم عليهم مع
الامن والطمانينة

مطلب مداولة عائلة منتخب سكس مع الايمبراطور وتخليها له عن منصب المنتخب

وبينما كان هؤلاء الامراء الثلاثة يتضرعون الى الايمبراطور ويلحون عليه

سنة ١٥٤٧

فى العفو عن منتخب سكس لهذه الاغراض التى ذكرناها كتبت اليه سبيلة واولادها و بعثوا اليه رسلا من طرفهم انه لا يفجعها فى زوجها بل يعفو عنه و يطلب مهما شاء فغرح الايمپراطور بنجاح ما اقترحه واخذ يتساهل و يظهر لين الجانب ووعد بالعفو عن هذا الامير اذا قبل منه ما يلزمه به حتى يصير جديرا بالعفو ومع ان هذا الامير حين بلغه تصميم الايمپراطور على قتله لم يعتره خوف ولا فزع رق قلبه حينئذ لنواح زوجته واجاب عائلته فيما الحت به عليه فقبل شروطا كان لا يقبلها ابدا فى وقت آخر وعقد مع الايمپراطور مشارطة مشتملة على انه يتخلى هو وذريته للايمپراطور عن منصب المنتخب بحيث يتصرف فيه كيف شاء وان كلا من مدينة ويتامبرغ ومدينة غوتا تسلم حالا للعساكر الايمپراطورية وان الامير البيرت دو براندبورغ يطلق من الاسر بدون فداء وان الامير منتخب سكس من الآن فصاعدا ينقاد لاوامر الديوان الايمپراطورى و يقر جميع ما يصدر عن الايمپراطور من النسخ والتغيير فى اصول هذا الديوان وقوانينه ولا يدخل فى عصبة يكون القصد منها اضرار الايمپراطور أو ملك الرومانيين ولا يعقد معاهدة لا يكون هذان الملكان من اربابها او فى نظير ذلك وعد الايمپراطور ان يعفو عنه من القتل بل و يترك له ولذريته مدينة غوتا واراضيها و يرتب له فى كل سنة من ايراد بلاد السكس خمسين الف فلورين (نوع من النقود) ويدفع له مبلغا يوفى منه ديونه ولكنه زيادة على هذه الشروط الصعبة ألزمه بشرط يوقع النفس فى اليأس والقنوط وهو ان يبقى مدة حياته اسير الايمپراطور وكان شرلكان يريد ايضا ان يلزمه بالانقياد لاوامر البابا والمشورة القسيسية فى شأن المسائل الدينية الخلافية ولكن مع رضاء هذا الامير فى سوء حظه بالتخلى عما هو اعز الاشياء عند اغلب الناس لم يقبل هذا الشرط الاخير ولم يمكن لا بالترهيب ولا بالترغيب حمله على العدول عما كان يعتقد حقيته و يرى صحته

١٩ من شهر ايار

مطلب تقليد الامير موريس بمنصب المنتخب

ثم ان بمجرد خروج محافظى السكس من مدينة ويتامبرغ وفى الايمپراطور بما كان وعد به الامير موريس حيث اعطاه هذه المدينة

سنة ١٠٥٤٧

وسائر مدن ولاية السكس مكافأة له على كونه تخلى عن حزب المعتزلة وأعان كثيرا على انحلال عصبة سمالكالد وايقاع التفاقم والشقاق بين اربابها ثم انه شق على الامبراطور اعطاء هذه المدائن للامير موريس لانه بعد انتصاره كان قد داخله الغرور وطمع فى امور أخرى كما هو دأب من ساعدتهم المقادير وكان نجاحهم فوق العادة وصارت نفسه تحدثه بمشروعات جديدة يترتب عليها ازدياد شوكته وقوة صولته فكان بقاء بلاد السكس بيده ينفعه كل النفع فى تنجيز هذه المشروعات الا انه كان لم يدبر أمر هذه المشروعات كما ينبغى حتى يمكنه الشروع فى تنجيزها وتتميمها فخشى ان يظهر ما كان قائما بنفسه من ذلك وبالجملة فرأى من عدم الحزم وقلة التبصر اغضاب موريس فى مثل ذلك الوقت بعدم وفاء المواعيد التى حسنت له التخلى عن حلفائه والانضمام الى حزبه الامبراطورى ولذلك اعطاه المدائن المتقدم ذكرها

مطلب المداولة مع حاكم هيسة

هذا وكان حاكم هيسة الذى هو ابو زوجة الامير موريس لم يزل على غاية من الاحتراس مسلحا العساكره وكان لم يبق غيره وقتئذ ممن يدافع عن دين المعتزلة لكنه لم يكن ضعيف الشوكة حتى يطمع فيه اعداؤه ولا يخشوا باسه بل كانت التزاماته متسعة جدا ورعاياه متولعين غاية التولع بالدين الجديد فلو قاوم الامبراطور حينا وأرهب حزبه لكان من المأمول ان يتقوى حزب المعتزلة بالثانى وينضم الى بعضه حيث لم تكن قواه قد تشتتت بل كان ملتئما لم يقع بين اربابه شقاق ولا اختلاف وكان رؤساؤه معتمدين على اعانات كبيرة من طرف ملك فرانسا ولكن كان حاكم هيسة لا يتجاسر على المشروعات الجسيمة الخطرة فداخله من الفزع والرعب ما داخل غيره من حزب المعتزلة وصار لا يلتفت الا الى كونه يدخل تحت طاعة الامبراطور على شروط تلايمه ورأى أن مقتضيات الاحوال تلزمه بذلك وكان الامير موريس يقوى رغبته فى هذا الامر حيث كان يبالغ له فى شوكة الامبراطور ويفهمه ان له لديه حظوة ونفوذ كلمة فاذا توسط فى الصلح بينهما لم يعقده الا على شروط نافعة وملايمة له لما انه حبيبه وختنه فسلامته اعز شىء عنده فمن ثم كان حاكم هيسة يتردد ما بين

سنة ١٥٤٧

الصلح وعدمه فكان يظهر عليه احيانا انه واثق كل الوثوق بمواعيد موريس ويتراءى منه انه لا يريد الا عقد مشارطة بتية مع الايمبراطور وكان احيانا اخرى ينظر فى احوال الايمبراطور ويفكر فى شدة طمعه وحرصه وعدم التفاته الى شعار الادب والمروءة ودعائم العدالة والانصاف ويذكر الاساءة الفاحشة التى اساءبها الامير منتخب سكس فتشمئز منه نفسه وينفر كل النفور ويقطع على حين غفلة المداولات التى كان شرع فيها القصد الصلح ويرى ان اعتماده على قواه وعساكره اولى من اعتماده على حلم الايمبراطور وكرمه ويصمم على قتاله غير انه لا يدوم على هذا التصميم وكان جزوعا ولم يخطر مثل ذلك بباله الا لقنوطه وبأسه فاذا سكنت نفسه وفكر فى ضعف قواه وعظم شوكة عدوه داخله الفزع والرعب وجعل يقدم رجلا ويؤخر اخرى فتزهق نفسه من المداولات ويود الصلح ويزمع عليه

مطلب الشروط التى الزم بها حاكم هيسة من طرف الايمبراطور

ثم توسط فى الصلح بينهما كل من موريس والامير منتخب براندبورغ ومع ما كان يفخر به موريس من قبوله ونفوذ كلمته عند الايمبراطور كما تقدم قد حصل ان الايمبراطور ألزم حاكم هيسة بشروط صعبة جدا يشق على النفس تحملها حيث ألزمه ان يتخلى عن عصبة سمالكالد وينقاد اليه ويمتثل لاوامر الديوان الايمبراطورى وزيادة على هذه الشروط التى ألزم بها منتخب سكس من قبل ألزمه ايضا ان يسلم اليه فى نفسه ودوله وان يطلب منه العفو وهو جاث بين يديه على ركبتيه وان يدفع له مائة وخمسين الف كورون فى نظير ما صرفه الايمبراطور فى الحرب وان يهدم ما فى مدائن دوله من القلاع والحصون ولا يبقى منها الا قلعة واحدة وان يأمر من يجعله فيها من المحافظين ان يبايعوا الايمبراطور على ان يكونوا معه دائما على الصدق والامانة وان يأذن من الآن فصاعدا للعساكر الايمبراطورية فى المرور من دوله عند الطلب وان يسلم له جميع ذخائره ومهماته الحربية من مدافع وغيرها وان يخلى بدون فدية سبيل الامير هنرى دوبرونسويك وغيره ممن اسرهم فى الحرب والزمه ايضا ان لا يشهر عليه سلاحا ابدا وان لا يأذن لاحد من رعاياه ان يتعصب عليه او على حلفائه

سنة ١٠٤٧

مطلب رضاء حاكم هيسة بالشروط المذكورة

وأقر حاكم هيسة هذه الشروط مع غاية الاشمئزاز والنفور لانه لم يجد فيها شرطا يخص الكيفية التي سيعامله بها الامبراطور بل رأى ان امره في ذلك مفوض لحلمه وارادته فكان قبوله هذه الشروط كرها لان الامبراطور بعد استيلائه على بلاد السكس صار يسلك مسلك الجبر والانفة كما هي عادة الفاتحين مع اعدائهم المغلوبين فأبى الآن يسلم اليه حاكم هيسة في نفسه بدون شروط حتى يكون امره مفوضا الى محض عفوه ولم يرض ان يضاف على الشروط المتقدمة شيء يكون مقيدا القوته الفعالة فيما يخص حاكم هيسة او مبينا للكيفية التي سيعامل بها وهو تحت قبضته وتصرفه اذ رأى ان اشتراط شيء في هذا المعنى فيه تقييد لقدرته ويشعر بأنه كانت مداولته معه حاكم هيسة كالامثال وذلك لا يلائم الحالة التي كان عليها وقتئذ فلم يدرج في المشارطة التي املاها بنفسه شرطا صريحا به يطمئن هذا الامير على نفسه ويأمن على حريته يعني انه يكون آمنا من القبض عليه اذا حضر لمقابلة الامبراطور ومع ذلك حصل ان منتخب براندبورغ والامير موريس نالا من شرلكان او من وزرائه بطريق النيابة عنه ان حاكم هيسة يكون آمنا على نفسه من هذه الحيثية ولا يخشى في ذلك بأسا ولا ضررا ووعد هذان الاميران حاكم هيسة بذلك ووعداه ان الامبراطور سيعامله بما عومل به الامير دوق ويرتامبرغ وانه بعد مبايعته للامبراطور يرجع الى دوله آمنا مطمئنا ولكن كان حاكم هيسة يستخون الامبراطور ولا يأمن غدره فلم يعتمد في مثل هذا الغرض المهم على القول الشفاهي وطلب ما يستمسك به لدى الاقتضاء فكتبا اليه وثيقة عليها امضاء كل منهما يذكران فيها انه ان حصل له ادنى ضرر عند مقابلته للامبراطور سلما انفسهما الى اولاده يفعلون بهما كما يفعل الامبراطور بأبيهما

مطلب ذهابه الى الامبراطور

ولما التزماله بذلك وكان قد رضي بالشروط المتقدمة لم يجد بدا من مقابلة الامبراطور وزال ما كان عنده من الخوف والفزع فذهب الى المعسكر الامبراطوري بمدينة هالة في بلاد السكس غير انه حصلت هناك حادثة لم تكن تخطر بباله اوقعت في نفسه الريبة والوسواس وادركه منها الخوف

سنة ١٥٤٧

والرعب ثانيا وذلك انه عند دخوله فى ديوان الايمبراطور لاجل البيعة وطلب الصفح عرضت عليه نسخة من الشروط التى اقرها وطلب منه ان يضع امضاءه عليها فلما قرأ هذه النسخة لاحظ ان وزراء الايمبراطور زادوا عليها شرطين لم يكونا فى الاصل احدهما انه ان حصل لبس واشتباه فى معنى البنود الاولى من المشارطة فللايمبراطور ان يؤول ذلك بما يستحسنه والثانى انه يجب على حاكم هيسة ان يمتثل لكل امر صدر من المشورة القسيسية التى ستنعقد بمدينة ترنته بدون بحث ولا مناقشة فادرك ان الغرض من عرض ذلك عليه فى هذا الوقت هو التقوى عليه بمقتضيات الاحوال ظنا بانه حينئذ لا يفكر الا فى ذله ومثوله بين يدى الايمبراطور فلا يسعه الا قبول ما لا يقبله فى وقت آخر تكون فيه حواسه مجتمعة وذهنه غير مشوش فغضب من ذلك غضبا شديد الاسما وكان بالطبع ذا حمية وحدة فلم يطق كتمان ما قام بقلبه من الحنق والغيظ بل افصح عنه بكل ما سولته له نفسه فى تهورها وأبى ما ارادوا ادخاله عليه من الحيلة والمكر وعضده على ذلك كل من الامير منتخب براندبورغ والامير موريس وبذلا معه غاية جهدهما حتى نالا من وزراء الايمبراطور الغاء الشرط الاول بالكلية لكونه محض ظلم واجحاف وتلطيف الشرط الثانى على وجه بحيث لو أقره حاكم هيسة وقبله لا يعد به بين الناس انه قد عدل عن دين المعتزلة وكان قبل ذلك بقليل يعتقده ويذب عنه فيلزمه عنه جهرا يعد نفاقا ونكرا ويكسبه من العار ما لا مزيد عليه

مطلب كيفية تلقى الايمبراطور له

وبعد ازالة هذا المانع صار حاكم هيسة فى قلق لاجل مقابلة الايمبراطور لانها وان كانت تشق عليه لما كان يراه فيها من المذلة والاهانة الا انها كانت لازمة له فى نيل العفو والصفح وكان الايمبراطور وقتئذ جالسا على كرسى فاخر لابسا جميع نشانات المنصب الايمبراطورى وحوله جم غفير من امراء دولته وكان من جملتهم الامير هنرى دو برونسويك الذى كان قبل ذلك بايام يسيرة اسيرا عند الامير حاكم هيسة فانظر الى تقلب الدهر وصروف الايام حيث كان هنرى المذكور ممن عاين مذلة هذا الامير الذى مثوله بين يدى الايمبراطور

سنة ١٥٤٧م

اذ كان ادخاله بالديوان الايمبراطورى مع غاية الرسوم حتى دنا من الكرسى وجثى على ركبتيه وكان خلفه حامل ختامه فامره عند ذلك بقراءة الصحيفة التى كان يعترف فيها بما ارتكبه من الاساءة فى حق الايمبراطور وبانه يستحق عليها اشد العقاب وانه قد سلم نفسه ودولته الى الايمبراطور يتصرف فيها كيف يشاء وانه يطلب العفو من فيض حلمه ومحض كرمه وكان ختامها ان التزم للايمبراطور بانه من الآن فصاعدا يعمل بمقتضى ما يجب على الرعية للراعى من الامانة والانقياد ولا يجحد ابدا نعم الايمبراطور عليه ولا ينساها بل يرعاها و يقابلها بالشكر على الدوام وفى اثناء ما كان حامل ختامه يقرأ هذه الصحيفة المشتملة على ما يؤذن بخضوعه ومذلته كانت اعين الحاضرين شاخصة لهذا الامير السيء البخت وهو جاث على ركبتيه بين يدى الايمبراطور ولا شك ان الانسان اذا رأى اميرا ذا انفة قوى الشوكة مثل حاكم هيسة يتذلل لطلب العفو لابد وأن يتأثر من ذلك لا محالة و يرثى لحالة المتضرع ويفكر فى غرور الدنيا وتلونها وتقلب الايام و يدرك ان لا بقاء لما تمنحه للنوع الانسانى من المناصب العالية والرتب السامية واما الايمبراطور فلم يتأثر من ذلك ولم تأخذه الرافة عليه بل بقى على ما كان عليه من الشمم والكبر ولازم الصمت الكلى ولم يتفوه بكلمة واحدة وانما بعد قراءة الصحيفه اشار الى احد كتابه ان يقرأ الجواب وكان مضمونه انه وان كان له الحق فى ان يعاقب حاكم هيسة عقابا شديدا لما فرط منه فى حقه الا انه لكرمه وحلمه وتضرع عدة من الامراء اليه فى شأن هذا الجانى واستشفاعهم له وتوبة المذنب نفسه وندمه على ما فرط منه لا يعامله بما تقتضيه صعوبة القوانين ولا يعاقبه بشئ غير مسطور فى بنود المشارطة و بمجرد ما فرغ الكاتب من قراءة الجواب نهض الايمبراطور وذهب عن هذا المسكين من غير أن يظهر له ادنى شئ يدل على رأفته به وصفحه عنه بل تركه جاثيا على ركبتيه ولم يشر اليه بالقيام فقام حاكم هيسة من تلقاء نفسه ودنا من الايمبراطور ليقبل يده ظنا منه انه قد عفا عنه فيسوغ له ذلك ولكن خشى الامير منتخب براندبورغ ان يغضب الايمبراطور من هذا الامر الذى

سنة ١٥٤٧

لا يفعله الا المتقربون اليه فنخ حاكم هيسة ودعاه الى ان يذهب معه صحبة الامير موريس الى القلعة فى مسكن الامير دوق دالبة

مطلب

فلما دخل معهما فى القصر عند الدوق المذكور تلقاه مع التعظيم والتبجيل اللائق بمقامه ثم حضر الطعام فاكلوا واشتغل بعد ذلك حاكم هيسة بلعب الشطرنج فاخذ الدوق المذكور كلا من منتخب براندبورغ والامير موريس واطلعهما على الاوامر الصادرة له من الايمبراطور بابقاء حاكم هيسة مسجونا فى هذا المحل وان تجعل عليه فرقة من العساكر الاسپانيولية لاجل خفره وكان هذان الاميران يعتقدان الى ذلك الوقت صدق الايمبراطور فى وعده لهما فلما رأيا هذا الامر الصادر منه اشتدت بهما الحيرة والغضب حيث خادعهما وغدر بهما وجعلهما وسيلة فى فضيحة صاحبهما وخراب دياره فسلكا سبيل التضرع والتظلم والبرهنة ليسلما من العار الذى يلحقهما باضرار حاكم هيسة وبذلا غاية جهدهما فى انقاذه من هذه المكيدة التى لم يوقعه فيها الا وثوقه بهما واعتماده عليهما ولكن لم يزل دوق دالبة يدقق فى عدم اجابتهما ويتعلل بانه يجب عليه العمل بمقتضى اوامر الايمبراطور وكان حاكم هيسة لا علم له بذلك ولا يخطر بباله انه قد وقع فى اشراك المكيدة فلما دخل الليل تأهب للخروج فعرض عليه الامر المشؤم فبهت واطرق مليا لا يستطيع التكلم لما ادركه من الدهشة والحيرة فلما افاق اظهر حنقه وغيظه بألفاظ خشنة اجراها على لسانه نفوره من مثل هذا الظلم والخداع الفاحش وصار يتظلم ويتضرع ويغضب وهو يقدح تارة فى الايمبراطور بأن مثل هذه الحيل والمكايد لا تليق بملك ذى كرم واقتدار وتارة يلوم صاحبيه الامير موريس ومنتخب براندبورغ ويوبخهما على عدم تبصرهما حتى دخلت عليهما حيل الايمبراطور وأمنا غدره وخداعه واخرى يصفهما بالجبن والخداع ويتهمهما بانهما تواطئا مع الايمبراطور على تلك الخيانة الفاحشة ثم ذكرهما بالعهود المعقودة بينهما وبين اولاده وطلب منهما ان يعملا فورا بمقتضاها ولما سكن غضبه جعل الاميران المذكوران يحلفان له على انهما بريآن من هذه

سنة ١٥٤٧

التهمة وانه لاذنب لهما فى هذا الغدر والترماله انهما بمجرد مقابلتهما للامپراطور راجعانه فى ذلك الامر لانه كما هو محض ظلم وجور فى حق حاكم هيسة يدنس عرضهما ويورثهما الخزى والعار بين الناس وبقى معه الامير موريس تلك الليلة فى المحل الذى كان مسجونا به ليسليه على ما اصابه

مطلب عدم نجاح الامير موريس ومنتخب براندبورغ فى تخليصه

وفى الصباح دخل منتخب براندبورغ والامير موريس معا عند الامپراطور واخبراه بانه يلحقهما العار والخزى وتمزق عرضهما فى سائر بلاد ألمانيا اذا هو سجن حاكم هيسة وافاداه انهما لو كانا يعلمان ان سجنه هو ثمرة امتثاله وانقياده لما اشارا عليه بالحضور اليه والمثول بين يديه واخبراه ايضا بانه يجب عليهما السعى فى عدم سجنه لانهما قد تعاقدا مع اولاده ان يسلما اليهم انفسهما رهنا حتى يحضر اليهم ابوهم فلم يؤثر ذلك كله عند الامپراطور شيأ ولم يقبل منهما صرفا ولا عدلا وذلك انه لم يكن حينئذ محتاجا اليهما فى شئ فتأسفا لما عرفا منه انه نسى ودهما الاول حيث هو لا يراعى خاطرهما ولا يقبل منهما شفاعة وما كان جوابه لهما الا ان قال انى لا اعرف العهود والمشارطات الخصوصية المنعقدة بينكما وبين حاكم هيسة ولا يجب على ان اعمل بما التزم به غيرى ولا اعرف الا ما التزمت به من ان حاكم هيسة لا يسجن عندى مدة حياته وهذا لا يمنع من سجنه مدة وبعد أن تكلم بهذا الكلام على وجه لا يقبل نقضا ولا ابراما خرجا من عنده وهما جازمان بانه لا سبيل الى استمالته حيث ظهر لهما منه انه مصمم كل التصميم على ما شرع فيه واضطرا الى اخبار حاكم هيسة بعدم نجاحهما فى التوسط والسعى فى تخلية سبيله فلما سمع ذلك ازداد به الغضب والغيظ واعترته حدة اشد من الاولى حتى خشيا انه ليأسه وقنوطه ربما فعل ما يؤدى الى تلفه فلاجل منعه عن ذلك وعداه بانهما لا يتركان الامپراطور الا اذا جلاه بالحاحهما وابرامهما على اطلاقه وتخلية سبيله * فصبرا حتى مضت ايام قلائل وخاطبا الامپراطور فى هذا الشأن فوجداه متشددا اكثر من الاول بل بلغهما انه لا تطيق نفسه ان يسمع قولا ما فى هذا الشأن فاذا استمرا على هذا الالحاح امر فورا بنقل صاحبهما الى بلاد اسپانيا ليسجن بها فخشيا حينئذ

سنة ١٥٤٧

ان يعود سعيهما بالضرر على حاكم هيسة ورجعا عن خطاب الايمبراطور في هذا المعنى بل صمما على ترك ديوانه والخروج من خدمته ولم يخبرا حاكم هيسة بذلك شفاها خوفا من اضراره بهما لفرط غيظه اذا سمع منهما مثل هذا الامر بل حررا اليه كتابا يذكران فيه سبب سفرهما و ينصحانه على اجراء ماوعد به الايمبراطور و يفهمانه ان ذلك هو اعظم وسيلة في نيل حريته وخلوصه من ربقة الاسر في اقرب وقت

وقد زاد يأس حاكم هيسة وقنوطه بتخلي هذين الاميرين عنه ولكنه لقلقه على اطلاقه ونيل حريته رأى انه يجب عليه العمل بمقتضى نصحهما فدفع المبلغ الذي ضرب عليه وامر بهدم القلاع والحصون التي في بلاده ونقض ما كان بينه وبين غيره من المعاهدات التي توقع الشك والارتياب في نفس الايمبراطور ولكن لم يترتب على هذا الامتثال ادنى تأثر عند الايمبراطور بل استمر على سجنه مع التشديد والتدقيق فكان هو والامير منتخب سكس يقادان الى اي جهة توجه اليها الايمبراطور وكانت معزته ومذلتهما تتجدد كل يوم على رؤس الاشهاد وكان منتخب سكس على غاية من التجلد لتحمل هذه المصائب والنكبات بخلاف حاكم هيسة فكان عنده من القلق والحنق ما لا مزيد عليه لانه لحدة طبعه كان لا يطيق ذل الاسر بل كان كلما فكر في الحيل والمخادعات الذميمة التي اوقعته في اشراك المكيدة وأفضت به الى وضعه في السلاسل والاغلال ظلما وعدوانا اشتد به الحنق والغيظ حتى تخال أن به جنة

مطلب ظلم الايمبراطور في بلاد ألمانيا

وكان الايمبراطور كلما مر بهذين الاسيرين على مدينة وراهما اهلها على هذه الحالة السيئة سخطوا عليه وذموه بكل لسان ورأوا أن معاملته لهذين الاميرين الشهيرين على هذا الوجه اساءة ادب في حق الجمعية الجرمانية بتمامها وتظلموا جهرة من المعاملة القاسية التي كان يعاملهما بها وكانا من اعظم امراء الايمبراطورية الالمانية غير أنه حصلت لهم امور اخرى تخصهم فاشتغلوا بها عن غيرها وذلك أن الايمبراطور طغى و بغى وسلك من الظلم والاجحاف مسلك الفاتحين اذا استولوا على مملكة من الممالك فامر عساكره

بضبط

سنة ١٥٤٧ م

بضبط ما كان لارباب عصبة سمالكالد من المدافع والمهمات الحربية فجمع بذلك ما ينيف على خمسمائة مدفع وكان هذا القدر جسيما بالنسبة لذلك العصر فبعث ببعضها الى مملكة البلاد الواطية وبعضها الى ايطاليا وبعضها الى اسبانيا رغبة فى نشر نصرته فى سائر البقاع وجعل تلك الآثار دليلا على ظفره بملة كانت الى ذلك الوقت معدودة من الملل المهابة القوية التى لا يمكن الظهور عليها وبعد ذلك ضرب من تلقاء نفسه مغارم جسيمة على من نصح فى خدمته ووفى فى الحرب بوظيفته وعلى من خرج عن طاعته ونشر اعلام العصيان عليه فاما الاول فضرب عليه تلك المغارم على سبيل الاعانة له ومساعدته على مصاريف الحرب حيث ان الغرض منها مصلحة اعضاء الامبراطورية كافة فينبغى اذن ان تكون مصاريفها على الجميع واما الآخرون فكان ضربها عليهم فى نظير جرمهم وعصيانهم فبلغ ما جمعه من هذه المغارم ما يزيد على مليون وستمائة الف كورون وهو مبلغ جسيم بالنظر لذلك القرن اعنى القرن السادس عشر من الميلاد وكان اهل المانيا فى فزع عظيم من ظفر الامبراطور ونجاح عساكره حتى تلقوا جميعا امره بالقبول من غير توقف ولكن لا يخفى ان مثل هذا الظلم يغضب الامة الالمانية لا محالة لانها كانت تغار على حقوقها ومزاياها وكانت منذ عدة قرون قد تعودت على اعتبار الشوكة الامبراطورية كشوكة مقيدة لا يخشى بأسها فظهرت علامات الغيظ والحقد على وجوههم جميعا وان بذل كل منهم وسعه فى اخفاء غضبه وكظم غيظه وسيأتى ان هذا الغيظ الذى كظموه الآن قهرا عنهم لعجزهم وعدم اقتدارهم قد اظهروه بعد ذلك بقليل واضطرمت به نيران الفتن ببلاد ألمانيا

مطلب شروع فرديننـد فى اضرار حرية رعاياه بمملكة بوهيمه

وبينما كان الامبراطور يلزم اهل المانيا بما شاء ويامرها بما احب بعد فتكه بها وانتصاره عليها كان اخوه فرديننـد فى مملكة بوهيمه يعامل رعاياه باكثر منه شدة وقسوة وذلك ان اهالى هذه المملكة كانوا يتمتعون بمزايا وخصائص عظيمة لا تضاهيها مزايا اى دولة كانت من الدول التى دخلت فيها

سنة ١٥٤٧

اصول الحكومة الالتزامية وبهذا السبب كانت مزاياملوكها ضيقة قليلة جدا
بل كان التاج الملوكى فيها انتخابيا بمعنى انه لايتولى عليها ملك الابانتخاب اهلهاله
ولما دعى فرديننند الى الولاية عليها اقر حقوق اهلها حسبما كانت تقتضيه
الرسوم التى كانوا يشددون فيها محافظة على اصول حكومتهم لانهم كانوا
متولعين بها كل التولع ولكنه عماقليل سئمت نفسه من ضيق شوكته وتقييد
تصرفه واحتقر التاج الملوكى حيث لم يكن فى وسعه ان يجعله وراثيا ينتقل الى
ذريته من بعده فصمم على نقض ما اخذ عليه من العهود والمواثيق وشرع
فى نسخ ما كان عليه العمل بهذه المملكة من الاصول القديمة حتى يصيرالتاج
الملوكى وراثيا ولكن لم تكن اهل مملكة چه ممن يتساهلون فى مثل هذا الغرض
ويرضون ان تسلب منهم مزاياهم العظيمة التى طالما تمتعوا بها هذا وكان كثيرمنهم
متمسكا اذذاك بالدين الجديد وكان كل من حناهوس وجيروم دو براغه قد
ادخلاه ببلادهم فى اوآئل القرن الخامس عشر فانضمت حميتهم الدينية الى
حميتهم على المدافعة عن الحرية وتقوت احداهما بالاخرى حتى صمم اهل چه
على مشروعات كبيرة جدا وابوا ان يعينوا املاكهم على عصبة سمالكالد
وعقدوا معاهدة اكيدة مع منتخب سكس واتفقوا فى محفل عام على ان يدافعوا
حق المدافعة عن اصولهم القديمة بل وصمموا على ان لايزالوا مصرين على هذا
الغرض حتى ينالوا مزايا جديدة بها تكون اصول حكومتهم القديمة احكم وامتن
عما كانت عليه اذذاك وانتخبوا من بينهم الامير غاسپارفلوغ وجعلوه
سرعسكرهم وكان من ذوى الفضل والمعارف كما كان من اهل الحسب والنسب
وجمعوا جيشا بلغت عدته ثلاثين الف محارب ليعتمدوا عليه فى تنجيز مطلوبهم
ولكن كانت عملياتهم الحربية دون ما كان قائما بهم من الغيرة والحمية حين صمموا
على تلك المشروعات ولايعلم هل كان ذلك ناشئا عن ضعف رئيسهم اوعن عدم
اتفاق عساكرهم فى الكلمة لكونهم مع كثرتهم قد جمعوا مع العجلة فلم يكن بينهم
ما يلزم من الاتحاد والالتئام وربما كان ناشئا عن اسباب اخرى غيرمعلومة وغاية
ما يقال انهم اضاعوا زمنا طويلا فى المفاوضات والمذاكرات مع حزب اعدآئهم

سنة ١٥٤٧

حتى انهم قبل دخولهم فى بلاد سكس كانت واقعة موهلبرغ قد انقضت وانهزم فيها منتخب سكس وجرد عن دوله ومناصبه واسر حاكم هيبة وانحلت عصبة سمالكالد بالكلية وتبدد شمل اهلها عن آخرهم ولهذه الاسباب لحق اهل مملكة چه الرعب والخوف من الامپراطور كما لحق سائر اهل المانيا فبمجرد ما رأوا ملكهم فرديننند قادما اليهم بطائفة من العساكر الامپراطورية تشتتوا كل الشتات ظانين ان مبادرتهم بالانقياد والرجوع الى الطاعة تمحو عنهم ذنب الخطأ الذى ارتكبوه فى حق ملكهم وتبعثه على الصفح والعفو عنهم ولكن كان فرديننند قد قدم اليهم وهو على غاية من الحنق والغيظ كما هى عادة الملوك اذا احتقرهم رعاياهم وعصوا عليهم فلم تؤثر فيه توبتهم ولم يقبل تندمهم على ما فرط منهم فى حقه لاسيما ولم يكن اقلاعهم عن العصيان الا بعد أن ضاقت بهم الفرص واشتدت بهم الكرب فلم يرث لحال اهل پراغه حين اتوا اليه طائعين باكين وخروا على اقدامهم يتضرعون له فى طلب العفو بل شدد فى الحكم عليهم حيث ابطل جملة من مزاياهم وضيق عليهم ما بقى منها وبدل صورة حكومتهم بصورة اخرى جديدة وقتل منهم جماعة كانت مدخليتهم فى العصبة عليه اقوى من غيرهم وحكم ايضا على جم غفير منهم بضبط امواله واملاكه الى جانب الميرى وعلى آخرين بنفيهم من المملكة نفيا مؤبدا وألزم جميع رعاياه على اختلاف درجاتهم ان يسلموا اسلحتهم لتستودع فى القلاع التى كان محافظوها من عساكره وبعد أن جردهم عن اسلحتهم ضرب عليهم مغارم جسيمة لم يسبق لهم مثلها فانظر كيف كانت عاقبة مشروع اهل چه وقد كان غرضهم منه توسيع دائرة مزاياهم وتكثير خصائصهم فلعدم حزمهم وسوء تدبيرهم لم ينشأ عن سعيهم الا توسيع دائرة المزايا الملوكية وكانوا يريدون تقليلها وحصرها فى حدود ضيقة بل واضاعوا الحرية وكان قصدهم تمكينها وتوسيع دائرتها اكثر مما كانت عليه

مطلب عقد مشورة الديته فى مدينة اوكسبورغ

ثم ان الامپراطور بعد ان اذل اهل المانيا وظن انه قد ازال من طبعهم الميل الى الاستقلال عقد مشورة الديته بمدينة اوكسبورغ ليبث امر

سنة ١٥٤٧

الخلاف الذي كان حاصلا اذ ذاك في الدين واوجب منذ زمن طويل تعكير بلاد المانيا ولكن لم يتجاسر على تفويض هذا الغرض المهم الى الالمانيين حتى يحكموا فيه بما يرونه وان كانوا حينئذ يخشون بأسه ولا يستطيعون مخالفته فيما يأمرهم به بل دخل المدينة المذكورة ومعه عساكره الاسبانيولية وعين لهم بها مساكن واسكن بقية عساكره في القرى التي بجوارها حتى ان ارباب مشورة المدينة كانوا الذي المذاكرة يرون انفسهم محاطين بالجيش الذي قهر ابناء وطنهم والحاصل انه بمجرد دخوله المدينة المذكورة في محفل عام حصل منه مادل على مقاصده السيئة التي كان مصمما عليها في حقهم فتغلب قهرا على الكنيسة الكبرى وعلى كنيسة اخرى من الكنائس العظيمة الموجودة بتلك المدينة وبعد أن طهرهما القسوس القاثوليقية بطرق مختلفة واذهبوا عنهما الرجس الذي تركه بهما على زعمهم الحبر المرسل اليهما من طرف المعتزلة واعادوا اليهما في محفل عام مناسك كنيسة رومة ورسوم عبادتها

مطلب تحريض الايمبراطور للالمانيين على الرضاء بعقد مشورة قسيسية عامة

وكان ارباب هذه المشورة كثيرين جدا لانه اجتمع فيها سائر امراء الايمبراطورية واعيانها ووكلاء المدائن التي لها الحق في ابداء الرأى في تلك المشورة وكان لاجتماعهم فيها سببين * احدهما اهمية المواد التي ستكون المذاكرة في شأنها * والثاني خوفهم غضب الايمبراطور عليهم اذا هم تخلفوا عنها فانه ربما حمله تخلفهم على اساءة الظن بهم وقد افتتح الايمبراطور المجلس بخطبة دعا فيها ارباب مشورة المدينة الى الالتفات للغرض الذي يعرضه عليهم وبعد أن بين لهم ماترتب على المجادلات الدينية ببلاد المانيا من العواقب المشؤومة وذكر لهم مابذله من الجهد والسعي في عقد مشورة قسيسية عامة اذ لادواء لهذا الداء غيرها اخذ يحرضهم على الرضاء بعقد تلك المشورة القسيسية وتنفيذ ما تحكم به لانهم نفسهم كانوا قد طلبوا عقدها اولا وأبدوا اذ ذاك انه لا يصلح للحكم في مسائل الخلاف الدينية سواها وان اربابها هم الذين لهم الحق في ذلك دون غيرهم

ولكن هذه المشورة القسيسية التي كان الايمبراطور يريد أن يفوض لها

سنة ١٠٥٤٧

امر الحكم فى مسائل الخلاف الدينية . كانت قد تغيرت تغيرا عظيما وذلك ان البابا بولس خلوفه وغيرته من ظفر الامبراطور وظهوره على عصبة سمالكالد كان يبذل غاية جهده فيما يكون به منع تقدم العساكر الامبراطورية ثم دعا اليه عساكره الذين كانوا فى خدمة الامبراطور وصار عنده الامبراطور عدوا مبينا لا قدرة له على دفعه ولا محيص له من اجحافه وظلمه وادرك ان عاقبة الشوكة المطلقة التى اكتسبها الامبراطور ببلاد المانيا هى ان يصير مطلق التصرف فى احكام المشورة القسيسية مالم تنعقد بمدينة اخرى غير مدينة ترنته ورأى ان بقاء الامبراطور مع شدة طمعه على اطلاق التصرف فى تلك المشورة القسيسية من اكبر الاخطار لانه ربما يستعين بذلك على تضييق دائرة شوكة البابات او محقها بالكلية فرأى حينئذ ان اعظم وسيلة يحترس بها من وقوع هذا الخطر هى ان ينقل المشورة القسيسية الى مدينة اخرى تكون تحت حكمه بحيث لا يخشى فيها من عساكر الامبراطور ولا من فتنه ودسائسه ولوفور حظ البابا حصلت اذ ذاك حادثة تحتم بها نقل المشورة القسيسية الى مدينة اخرى غير مدينة ترنته وذلك ان واحدا او اثنين من ارباب المشورة ماتا فجأة وكذلك مات بعض افراد من خدمهم ولم يعلم لموتهم سبب فقال الاطباء ان سبب موتهم مرض وبائى معد ولا يدرى هل حكم الاطباء بذلك لوجود علامات فى الموتى ظهرت لهم فأوقعتهم فى الخطا او كان حكمهم هذا لاخذهم رشوة من وكلاء البابا وعلى كل فقد وقع الخوف فى قلوب جماعة من اهل المشورة القسيسية فبادروا الى الفرار من مدينة ترنته خشية ان يصابوا كاصحابهم ومن بقى منهم كان فى جزع وقلق عظيم لا يود الا الخروج من المدينة فوقعت المفاوضة فى هذا الشأن مدة قليلة واستقر الرأى على نقل المشورة القسيسية الى مدينة بولونيا وكانت تحت حكم البابا

مطلب نقل المشورة القسيسية من ترنته الى بولونيا فى ١١ من شهر ادار

وجميع الاساقفة الذين كانوا من حزب الامبراطور قد عارضوا فى نقل المشورة القسيسية من مدينة ترنتة قائلين انه لا داعى الى ذلك وانما هو مبنى على علل باطلة واسباب غير صحيحة وبقى فى تلك المدينة جميع قسوس الاسبانيول

سنة ١٥٤٧

واغلب قسوس نابلي حيث وردلهم بذلك امر صريح من الامبراطور واما غيرهم من ارباب المشورة فصحبوا وكلاء البابا وانتقلوا معهم الى مدينة بولونيا وكانوا اربعة وثلاثين رجلا فحصل بذلك التفاقم والشقاق بين ارباب هذه المشورة مع ان الغرض من انعقادها لم يكن الا ازالة ما كان واقعا فى شأن دين النصرانية من الشقاق والاختلاف وذلك ان القسوس الذين توجهوا الى بولونيا شنعوا على الذين مكثوا بمدينة ترنته قائلين انهم قد عصوا اوامر البابا وهو خليفة المسيح وامام الملل النصرانية كما ان الباقين بمدينة ترنته عابوا على الذين ذهبوا الى بولونيا بانهم خافوا من امر وهمى وخطر خيالى حتى انتقلوا الى مدينة تضيع فيها ثمرة مذاكرات المشورة القسيسية مع ان القصد منها اعادة الراحة والامن ببلاد المانيا ونشر اعلام الصلح بين اهلها

مطلب دلائل الغم التى ظهرت بين الامبراطور والبابا

وقد بذل الامبراطور غاية جهده فى اعادة المشورة القسيسية الى مدينة ترنته ولكن كان البابا فى فرح شديد من نجاح سعيه فى نقلها الى احدى مدائنه حتى لا يكون للامبراطور عليها سلاطة فلم يلتفت الى طلب الامبراطور ولم يعبأ بسعيه فى ذلك حيث كان قصده من اعادتها الى ترنته ظاهرا لا يخفى على احد وقد مضى فصل الصيف فى مفاوضات بينهما لا طائل تحتها لانه كان كلما اشتد الحاح احدهما فى هذا الشأن ازداد عناد الآخر وبعد ذلك كله قد حصلت حادثة ترتب عليها اضرام نار العداوة بينهما وصمم البابا على كونه لا يصغى لاى قضية تعرض عليه من طرف الامبراطور وذلك ان الامبراطور كما تقدم كان قد اغضب الامير بطرس لويزفرنيز ابن البابا حيث امتنع من تقليده بحكومة اقليمى پارمة و پلزنسة فكان هذا الامير يبحث دائما عما ينتقم به لنفسه من الامبراطور فى نظير امتناعه فمن ذلك انه بذل وسعه فى ايقاع الحرب بين ابيه والامبراطور وطالما الح على ملك فرانسا فى ان يشن الغارة على بلاد ايطاليا ومن شدة بغضه للامبراطور كان يبغض ايضا من يلوذ به و يرى له الحظوة عنده فطالما اجحف بالامير غونزاغ حاكم ميلان وحرض فيسك على ما كان عزم عليه من اضرار الامير

سنة ٧ ٥٤ ١ م

اندره دورية وسبب ذلك هو أن الامبراطور كان يثق بكل من الامير غونزاغ والامير دورية المذكورين ويحبهما ويحترمهما كل الاحترام وكانت هذه العداوة لا تخفى على الامبراطور كما كان لا يخفى عليه دسائسه التى كان يوقعها فى حقه سرا وانما كان ينتظر فرصة يستعين بها على الانتقام من فرنيز المذكور وكان الامير غونزاغ والامير دورية يودّان ان يكونا المتكفلين بعقابه وكان فرنيز المذكور سيئ الاخلاق قبيح السلوك منهمكا على اللعب واللهو ما ترك فاحشة الا ارتكبها ولا كبيرة الا اقترفها ولهذه الخصال الذميمة التى توازى ما يرتكبه الملوك الطاغون من المظالم وهتك حرمة الجنس البشرى كان فرنيز مكروها عند جميع الناس حتى كان يظهر أنه مستحق لكل ما يفعل به من انواع الاساءة والقسوة فعما قليل ظهر من بين رعاياه رجال يعينون على قتله بل ويعدّون اهلاكه مما يكسبهم الشرف والفخار ويثابون عليه فى دار القرار وذلك ان الغيرة كانت متمكنة من قلب هذا الامير على ما هو العادة من ان صغار الملوك لا يسلمون من تلك الآفة وضعيف الشوكة منهم يستعين على تنجيز مقاصده بالقسوة والخيانة فسلك فرنيز هذا المسلك فى اضعاف شوكة الاشراف الذين كانوا فى حكمه وسعى فى محقهم فاتفق خمسة من اعيان اشراف بليزنسة على الانتقام منه لانفسهم ولعصابة الاشراف فى نظير اساءته لهم خاصة ولهذه العصابة عامة وتواطئ الخمسة على ذلك مع الامير غونزاغ ولا يدرى هل هو الذى حرضهم اولا او هم الذين عرضوه عليه فاجابهم واستصوب رأيهم ثم انهم دبروا امرهم مع غاية الحزم والتبصر واحكموا كتمان دسائسهم وابدوا فى تنجيز غرضهم ما لا مزيد عليه من قوة العزم وثبات الجنان حتى عدت جسارتهم من اغرب شئ ذكر فى التاريخ من هذا القبيل وذلك ان طائفة من المتعصبين نزلوا على حين غفلة وقت الظهيرة وهجموا على ابواب قلعة بليزنسة وكان فرنيز مقيما بها فاشتتوا خفره وطردوا رجاله وقتلوه وفى اثناء ذلك كانت منهم طائفة اخرى تتغلب على المدينة وتحرض اهلها على حمل السلاح لاحياء حريتهم القديمة التى حرمهم منها حكامهم الظلمة الفجرة فعند

مطلب قتل ابن البابا

١٠ من شهر ايلول

سنة ١٥٤٧

ذلك انقض اهل المدينة على القلعة وكان قد اطلق منها ثلاثة مدافع وكان ذلك هو العلامة المتفق عليها مع غونزاغ وقبل ان يعرف اهل المدينة سبب الهرج ومن هو الذى اثار الفتنة رأوا جسم فرنيز معلقا من رجليه فى احد شبابيك القلعة وكان مكروها عند جميع الاهالى فلم يتأسف عليه احد منهم حين ابصروه على هذه الحالة السيئة بل فرحوا جميعا وهللوا استحسانا لما حصل ومدحوا من كان سببا فيه لكونه أنقذ وطنهم من جور هذا الظالم ثم طرحوا جسمه فى الخنادق التى حول القلعة وصارت جثته غرضا للاساءة والمسبة من الرعاع ثم رجع كل منهم الى شغله كالعادة حتى كانه لم يحصل بينهم شئ مهم

مطلب استيلاء عساكر الايمبراطور على بليزنسة

وكانت طائفة من العساكر الايمبراطورية معسكرة على ضواحى ميلان لانتظار عاقبة تلك الحادثة فبمجرد ما بلغها خبر ذلك سارت من يومها وتغلبت على مدينة بليزنسة باسم الايمبراطور واعادت الى اهلها جميع مزاياهم وخصايصهم القديمة ثم اراد هؤلاء العساكر ان يتغلبوا ايضا على مدينة بارمة بغتة ولكنها تخلصت منهم بسبب تيقظ ضباط محافظيها ونصحهم وامانتهم وكان هؤلاء الضباط قد ولاهم فرنيز محافظتها وكان البابا بولس يحب ابنه فرنيز حبا جامعا ما كان عليه من عدم الاستقامة وقبح السلوك وانهماكه على المآثم والفواحش فلما بلغه خبر قتله لحقه من الغم والاسف ما لامزيد عليه وازدادت حسرته باستيلاء عساكر الايمبراطور على مدينة بليزنسة فجمع مشورة الكردينالات واتهم الامير غونزاغ بانه هو القاتل لابنه ليحكم محله وطلب من الايمبراطور فورا ان ينتقم له من غونزاغ بالقتل وان يرد مدينة بليزنسة الى حفيده اوكتاوه (الذى هو صهر الايمبراطور) لانه المستحق لوراثتها شرعا ولكن كان شرلكان يهون عليه ان يتهم بالمدخلية فى قتل فرنيز وان يكون عرضة لقدح الناس فيه فى نظير حرمان صهره من حق ثابت له بالارث ويشق على نفسه ترك مثل هذه المدينة العظيمة والنزول عنها فحاول البابا فيما طلبه منه وصمم على حفظ بليزنسة واراضيها

مطلب سعى البابا فى المعاهدة مع ملك فرانسا ومع اهل البنادقة

وكان تصميمه هذا مبنيا على طبعه اذ كان لشدته يمنعه عن مراعاة شعار

المروءة والعدالة فغضب البابا منه كل الغضب حتى خرج عما هو عادته من الخمول والاحتراس وتهيأ للقتال ليأخذ بثار ابنه ممن قتله ويسترجع ميراثه الذى كان الايبراطور يريد حرمان عائلته منه لكنه لعلمه بانه لا قدرة له على مقاومة الايبراطور سعى اولا فى المعاهدة مع ملك فرانسا وجمهورية البنادقة ليهجم معهما عليه غير أن ملك فرانسا اذ ذاك كان مشتغلا بامور اخرى وهى ان حلفاءه الاقدمين اعنى اهل ايقوسيا كان قد هزمهم الانكليز فى حرب كبيرة معدودة من اعظم الحروب التى حصلت بين هاتين الملتين مدة معاداتهما لبعض فعزم هنرى على ارسال كتيبة كبيرة من رجاله الذين شبوا وشابوا فى العسكرية وكان عزمه على ذلك لامرين احدهما منع الانكليز عن التغلب على بلاد ايقوسيا والثانى توسيع الدولة الفرنساوية بتزويج ابنه الدوفين لملكة ايقوسيا حتى تلحق تلك المملكة باراضى فرانسا ولاشك ان مثل هذا المشروع يترجح عنده على معاهدة البابا لاشتماله على فوائد جسيمة يظهر عليها علامات النجاح بخلاف ثمرة المعاهدة مع البابا فكان يراها بعيدة الحصول لعدة اسباب منها ان البابا كان قد طعن فى السن وبلغ حد الثمانين وكانت صحته دائما فى الضعف والتناقص لاسيما ولم يكن غرضه من هذه المعاهدة الا الانتقام لنفسه من الايبراطور فعوضا عن أن يعدل هنرى عن سلوك طريق الحزم والتبصر بادخال نفسه فى تلك المعاهدة اخذ يخادع البابا ويشاغله بمواعيد مبهمة لم يكن غرضه منها الا مجرد منعه عن الصلح مع الايبراطور وحاول ان لا يعقد معه مشارطة بتية خشية ان يجره ذلك الى قتال الايبراطور مع انه لم يكن مستعدا لمحاربته * واما اهل البنادقة فانهم مع ما ادركهم من الخوف والفزع باستيلاء عساكر الايبراطور على بليزنسة تأسوا بملك فرانسا وسلكوا فى هذه المادة ما يسلكونه عادة من المحاولة فى امر المداولات والمفاوضات ولما لم يمكن للبابا بأى وجه كان ان يضرم نيران الحرب حالا كظم غيظه حتى تظهر له فرصة تعينه على الاخذ بالثار ولم ينس ما حصل فى حقه من الاساءة والمنقصة فكان قلبه مملوأ بالحقد والحنق ولم يرده عجزه عن اجراء هذا المشروع الا شدة

سنة ١٥٤٧

مطلب
استدعاء مشورة المدينة المنعقدة فى اكسبورغ باعادة المشورة القسيسية الى ترنتة

سنة ١٥٤٧

وتصميما وفى اثناء ما كان على غاية من الغيظ والحنق وكان متلهفا على الانتقام لنفسه عقدت مشورة الديتة بمدينة اوكسبورغ بمقتضى اوامر الايمبراطور وعرضت على البابا باسم الجمعية الجرمانية تطلب منه ان يأمر القسوس الذين ذهبوا الى مدينة بولونيا بالرجوع الى ترنتة وان يشرعوا فيما كانوا عليه من المفاوضات والمذاكرات وكان قد حصل للايمبراطور مشقة كبيرة فى حمل مشورة الديتة على موافقته فى طلب ذلك من البابا وكان ايضا قد ظهر له اختلاف كثير بين آراء المعتزلة فيما ألزمهم به من الانقياد لما تحكم به المشورة القسيسية فكان بعضهم لا يرضى بذلك مطلقا وكان بعضهم يميل الى قبول احكامها بشرط ان تخفف الامور الصعبة التى كان الايمبراطور يريد الزامهم بها فبذل جهده فى استمالة بعضهم وايقاع التفاقم والشقاق بين البعض الآخر وهدد المنتخب البالاطينى وكان ضعيف الشوكة يخشى ان يعاقبه الايمبراطور فى نظير الامداد الذى امده به قبل ذلك عصبة سمالكالد واما الامير موريس فلم يصدر عنه ادنى توقف ولا معارضة فيما كان يقصده الايمبراطور لانه كان يؤمل منه ان يخلى سبيل حاكم هيسة وان يوليه عوضا عن الامير منتخب سكس واما الامير منتخب براندبورغ فانه كان اقل اهل عصره ميلا الى المصالح الدينية فاقتدى بالاميرين المذكورين واجاب الايمبراطور فى كل ما طلبه بدون توقف ثم ان الايمبراطور بعد أن استمال هؤلاء الامراء بقى عليه ان يستميل رسل العمالات والمدن وكانوا اشد منهم تدقيقا ومحافظة على الاصول والرسوم الجارية عندهم قديما ومع ما بذله من الجهد فى ترهيب بعضهم وترغيب البعض الآخر بالمواعيد المزخرفة لم يرضوا ان يلتزموا باقرار ما تحكم به المشورة القسيسية الا اذا التزم هو بانه يأذن لعلماء اللاهوت سواء كانوا من حزب الكنيسة او حزب المعتزلة ان يدخلوا فى مشورة الديتة ويبدوا فى المذاكرة ما شاؤا من الآراء وان لا يحكم فى المسائل الخلافية الا بمقتضى نص الكتاب المقدس والرسوم والعوائد التى كانت جارية فى الكنيسة بحسب الاصل ولما عرضوا على الايمبراطور التقرير المحتوى على

سنة ١٥٤٧

هذه الامور سلك فى التحيل والمكر فى هذا المعنى مسلكا غريبا وذلك انه لم يقرأ التقرير ولم يطلع على ما فيه من الشروط التى اشترطتها المدائن الايمپراطورية بل اظهر أنه معتقد أن تلك المدائن قد رضيت بما طلبه منها وشكر رسلها على قبولها وامتثالها الاوامر المشورة القسيسية فتعجب هؤلاء الرسل مما سمعوه من الايمپراطور ولم يرضوا ان يغضبوه بل رأى كلا الفريقين ان ترك هذا الامر على الابهام اولى من التوضيح الذى يؤدى الى المجادلة بل ربما ادى الى الحرب ولما فاز الايمپراطور من مشورة الدينة بهذا الامتثال الظاهرى لاوامر المشورة القسيسية اتخذ ذلك علة جديدة يستند اليها فى طلب اعادة تلك المشورة الى مدينة ترنتة ولكن لما كان البابا يود غيظ الايمپراطور ونكايته وكانت نفسه تأبى انتقال تلك المشورة الى ترنتة صمم على عدم الاجابة ولكن كان لا يريد أن يلاحظ عليه الناس ويفهموا ان عدم اجابته الى ذلك مبنى على كراهته للايمپراطور فحاول حتى حمل القسوس الذين كانوا بمدينة بولونيا على عدم الرضاء بالانتقال الى ترنتة والمعارضة فى عقد المشورة القسيسية بها وذلك انه احال عليهم النظر والبحث فى الاستدعاء الذى ورد اليه من مشورة الدينة وكانوا اجمعين على تحيزما أوصاهم به فى هذا الغرض نواب البابا فابدوا ان رجوع المشورة القسيسية الى مدينة ترنتة بعد خروجها منها يزرى بمقام اربابها ويحط بشأنهم ما لم يذهب القسوس الذين تخلفوا بمدينة ترنتة الى مدينة بولونيا ليجتمعوا فيها باخوانهم وينضموا اليهم وأبدوا ايضا انه ولو صار هذا الاجتماع لا يرجى حصول فائدة فى شأن الديانة من مذاكرات المشورة القسيسية مادام اهل المانيا لا ينقادون الى اوامر تلك المشورة واحكامها فلابد ان تكون هناك ادلة قاطعة تدل على تصميمهم على الطاعة والامتثال لما سيصدر عنها من الاوامر والاحكام

مطلب
محاولة البابا فى اجابة هذا الاستدعاء

٢٠ من شهر كانون الاول

مطلب
مناقضة الايمپراطور فى عقد المشورة القسيسية بمدينة بولونيا

وقد ارسل البابا هذا الجواب الى الايمپراطور وحرضه على ان يرضى بهذه الامور المطلوبة حيث انها معقولة لا تقبل تعللا ولكن كان الايمپراطور

سنة ١٥٤٨ يعلم ان من طبع البابا الغش والخداع فلم ينخدع بهذه الحيلة الخالية عن حسن السبك وايقن ان القسوس الذين فى بولونيا لايتجاسرون على اتباع غير ما يأمرهم به البابا وليسوا الا كآلات فى ايدى غيرهم فجوابهم ليس الا عن لسان البابا وعلى طبق مرامه ولعلمه ان المشورة القسيسية مادامت بمدينة بولونيا لايسوغ له ان يطمع فى ان تكون له فيها كلمة نافذة حتى يمكنه ان يحمل اربابها على اعانته فى تدبير اغراضه رأى انه لابد له من الاحتراس عما يمنع به البابا عن التمكن من هذه المشورة المهمة والافهو اسطتها يمكنه ان يضر به كل الضرر فارسل الى مدينة بولونيا اثنين من امناء الدين برهما بحضرة نواب البابا على أن نقل المشورة القسيسية من مدينة ترنتة لم يكن له موجب

١٦ من شهر كانون الثانى صحيح ولاضرورة تدعو اليه وانما كان منبيا على علل باطلة وحجج عاطلة وقالا ان تلك المشورة مادامت منعقدة بمدينة بولونيا لاتكون الا عبارة عن جمعية خرجت عن اصول دين النصرانية فتكون احكامها لاغية واوامرها باطلة وان البابا ومن تبعه من القسوس قد تركوا مصلحة الدين واهملوها وحيث ان الايمبراطور هو حامى الدين وظهيره فلابد له ان يستعين بما منحه الله تعالى من الشوكة والصولة ليقى الكنيسة مما هى عرضة له من المصائب وبعد ذلك بايام

٢٣ من شهر كانون طلب سفير الايمبراطور الذى كان بمدينة رومة ان يقابل البابا فاذن له فى ذلك واجتمع عند البابا الكردينالات وسائر رسل الدول الاجنبية فاخذ سفير الايمبراطور بحضورهم يقدح فى سلوك القسوس الذين بمدينة بولونيا ويشنع عليهم بما لايليق بمقامهم

مطلب انشاء الايمبراطور لمذهب دينى لاجل العمل به فى بلاد المانيا

ثم ان الايمبراطور بعد قليل اخذ فى اجراء ما كان يهزع به البابا وارباب مشورة بولونيا القسيسية من التهديد والتخويف وذلك انه افاد ارباب مشورة الدينية بانه قد بذل جهده فى تحصيل جواب مناسب لسؤالهم الذى عرضوه على قسوس مدينة بولونيا ولم ينجح فى سعيه وذكر لهم ايضا ان البابا لم يحصل منه ادنى التفات الى ما طلبوه منه ولا الى ما بذله هو من الاجتهاد فى مصلحة الكنيسة وأبى ان يأذن لارباب المشورة القسيسية بالاجتماع فى مدينة ترنتة

سنة ١٥٤٨

ولنه وان كان لا ينبغي اليأس من عقد تلك المشورة القسيسية في محل تكون به حرية مطلقة في مفاوضاتها ومذاكراتها حتى تحكم بما شاءت الا ان مثل ذلك يبعد حصوله مع توقف البابا بهذه المثابة وان بلاد المانيا قد تمزقت بسبب الشقاق الحاصل في الدين وان صفوة الدين قد تكدرت وعقول الناس قد اضطربت بالمذاهب الجديدة وتشعب عقائدها وكثرة الخلاف فيها بما لم يكن له وجود قبل ذلك عند النصارى واوهمهم انه بالنظر لكونه رئيس الامبراطورية وحامي حمى الكنيسة الرومانية قد انتخب عدة من علماء اللاهوت المشهورين بالفضل والمعارف وامرهم بجمع مذهب جديد ليتمسك به الناس ولو بطريق الجبر والالزام الى ان تنعقد مشورة قسيسية على وفق المرام * ثم ان الذين جمعوا هذا المذهب هم يغلوغ و هلدنغ و اغريقولا اما الاولان فكانا من اكبر رجال الكنيسة الرومانية وكان لهما مزيد اعتبار ووقار لحسن اخلاقهما وميلهما بالطبع الى الصلح والاصلاح بين الناس واما الاخير فكان من علماء اللاهوت المعتزلة وقد اتهم بتهمة صحيحة لقيام بعض قرائن عليها وهي انه لبعض هدايا اهديت اليه واطماعه في امور اخرى جنح الى ان يغدر في هذه الفرصة بحزب المعتزلة او يسعى في اضلاله وكان المذهب الجديد على منوال البنود التي قدمت الى مشورة الدينة سنة ١٥٤١ من الميلاد لقصد الاصلاح بين حزبي الكنيسة والمعتزلة ولكن حيث ان الامبراطور من ذلك الوقت كان قد تغير حاله وساعدته الايام حتى صار لا حاجة له بمداهنة حزب المعتزلة ومراعاتهم عدل عما كان عليه اولا من ترغيبهم بالاقطاعات الواسعة الكبيرة فكان الكتاب الجديد المؤلف في الدين محتويا على مذهب جديد أعلمه مطابق لمذهب الكنيسة الرومانية الا ان معظمه كان اسلس عبارة واعذب تركيبا وكانت احكامه ما بين عبارات مقتبسة من الانجيل واخرى مبنية على حسن السبك وان كانت مشتبهة مشكلة المعنى وقد اقر هذا الكتاب جميع اصول القاثوليقية وعقائدهم وانبنوا فيه سائر الاصول والاحكام التي كان يعدها المعتزلة من البدع الدخيلة في الدين وانما تساهلوا في امرين خففوا في العمل بهما احدهما انه ابيح

سنة ١٥٤٨

القسوس الذين كانوا متزوجين ولم يرضوا بفراق نسائهم ان يبقوا على وصف القسيسية ولا يمنعوا عن اجراء شيء من وظائفها وثانيهما أن الاقاليم القسيسية التي كانت متعوّدة على استعمال الخبز والنبيذ في ترسيم القربان المقدّس المسمى اوخاريستى ابيح لها المحافظة على مزية الترسيم بهذين الصنفين غير انهم نصوا في هذا الكتاب على ان الترخيص في هذين الامرين ليس الا لاجل مسمى وما ذاك الا لقصد ايقاع الصلح ومنع التفاقم والشقاق ومراعاة لضعف عقول الناس وكثرة اوهامهم الباطلة العاطلة

ثم ان المذهب المذكور قد اشتهر فيما بعد باسم النائب الوقتي لانه كان مشتملا على قوانين وقتية بمعنى انه يجري العمل عليها حتى تنعقد مشورة قسيسية عامة مطلقة التصرف وقد عرضه الايمپراطور على مشورة الديتة وافهمها ان مقصده من ذلك مقصد حسن وهو ازالة الخلل والتعكير الحاصل في الكنيسة وتجديد الراحة والامن بها وانه يؤمل ان يحل هذا المذهب عندها محل القبول وان يعين اتم الاعانة على نيل المرام وبعد ان تمت قراءة تقرير الايمپراطور وثب مطران مايسة ورئيس ديوان المنتخبين قائما على قدميه وشكر الايمپراطور على ما بذله من الجهد في الطاعة والتقوى من تاييد الدين وجلب الراحة والامن الى الكنيسة وأبدى عن لسان مشورة الديتة انهم قد استحسنوا المذهب الجديد وأقرّوه وانهم قد صمموا على اتباعه والعمل به حرفا بحرف فتعجب من فعله ارباب المجلس لمخالفة ذلك للرسوم والقوانين الجارية عندهم وعجبوا ايضا من جسارته حيث حكم بشيء عن لسانهم قبل ان تحصل فيه المذاكرة بينهم ولكن لم يتجاسر احد منهم على معارضة هذا المطران فيما ابداه بل بعضهم منعه الخوف وبعضهم منعه الحياء واما الايمپراطور فاعتبر قول المطران اقرارا صحيحا للمذهب الجديد واخذ يبذل جهده في اجرائه والعمل بمقتضاه حتى كأنه امر صادر من الايمپراطورية

وفي مدة انعقاد المشورة المذكورة كانت زوجة حاكم هيسة واولاده

[حاشية: قوله اوخاريستى هو من الخارية عند النصارى ...دلوا انهم يتناولون الخبز ...ى سبيل كونه جسم المسيح ...نبيذ على سبيل كونه دمه]

مطلب
عرض هذا المذهب المسمى بالنائب الوقتي على مشورة الديتة

١٥ من شهر ايار

مطلب
اقرار الديتة لهذا المذهب كرها

سنة ١٥٤٨

مطلب
خيبة السعي في تخليص حاكم هيسة

يبذلون جهدهم في استعطاف ارباب تلك المشورة واستمالتهم الى ترجي الامبراطور في التفريج عن هذا الامير حيث كان حاله قد ساء من اسره وكان الامير موريس منتخب سكس يساعدهم على ذلك بجميع جهده غير ان الامبراطور كان لا يريد اطلاقه فرأى ان صبره على ذلك حتى يأتي اليه طلب ارباب مشورة الديتة ليس من الصواب لان عدم اجابة هؤلاء الناس المحترمين وردهم خائبين مخالف لاصول الحزم والكياسة فجعل يأخذ معهم تفصيلا ما حصل بينه وبين حاكم هيسة وبين لهم الاسباب التي حملته على اسره وذكر ان تلك الاسباب لا تسوغ له ان يمن عليه باطلاقه وتخلية سبيله ولا شك انه لم يكن ثم اسباب مقبولة يصح ان يستند اليها فيما صمم عليه من ابقاء هذا الامير على الاسر وانما ذلك من محض الظلم الذي تفرسه النفوس ولكن كان يعلم انه يكفيه في ذلك ان يتعلل ولو بعلل واهية حيث ان المشورة المذكورة كانت تراعيه كل المراعاة ولا تخشى شيأ بقدر ما كانت تخشى من اظهار كونها تعرف حقيقة افعاله وكانت ترى ان التغافل في هذا الخصوص اسلم عاقبة لها فلذا قبلت ما تعلل به في ذلك وعدته من العلل الصحيحة التي يكفي الاحتجاج بها و يصح الاستناد اليها فبعد أن سألوه ان يفرج عن حاكم هيسة ويشمله بعفوه وكرمه ضربوا عن ذلك صفحا وتركوا التوسط لدى ذلك الطاغ لهذا المظلوم ولكن اراد الامبراطور أن يضعف ما قام بقلوب الناس من الغم منه بسبب صعوبته وعدم لين عريكته وان يريهم انه كما يعاقب على المعصية بالانتقام يكافىء على الطاعة بمزيد الانعام فقلد الامير موريس بالمنصب الانتخابي واجرى في تقليده العوائد والرسوم المقررة وصنع له موكبا عظيما وكان ذلك بمحل قريب جدا من المحل الذي كان المنتخب المعزول مسجونا فيه بحيث كان يتمكن من رؤيته اذا نظر من الشبابيك ولكن لم تنقص هذه الاساءة ما كان عليه من السكون والثبات بل نظر الى الاحتفال ورأى خصمه وهو يتوج بالتاج المنتزع منه من غير ان يتفوه بشيء يزري بشممه او يخل بشرف نفسه الذي كان لم يزل محافظا عليه مع ما حصل له من المصائب والنكبات

مطلب
عدم قبول المذهب الجديد عند حزب الكنيسة وحزب المعتزلة

وبمجرد انفصاص مشورة الديتة اذاع الايمپراطور مذهبه الجديد باللغة الالمانية واللغة اللاطينية وحصل فى هذا المذهب من المناقضة والمعارضة ما يحصل عادة لمثله من المذاهب لدى عرضها على اناس كانوا فى منازعة وشقاق مع بعضهم فقام كل من حزبى الكنيسة والمعتزلة على الايمپراطور وناقضه فى هذا المذهب * اما المعتزلة فقالوا ببطلانه معللين ذلك بانه مشتمل على الضلالات والبدع الفاحشة الموجودة فى مذهب الكنيسة وانما افرغت فى قالب آخر لا يخفى الا على كل عبى جاهل او مخادع متغافل واما حزب الكنيسة فبدوه وراءهم ظهريا قائلين انه قد اهملت فيه احكام الكنيسة او اوتى بها ملتبسة مبهمة بحيث تضل العقول الصحيحة فضلا عن كونها ترشد الجهال وتقمع اعداء الدين من اهل الزيغ والضلال فكان علماء دين لوتير يقدحون فى هذا المذهب من جهة وكبير طائفة الدومينيقان يشنع عليه كل التشنيع من جهة اخرى ولما عرف مضمون هذا المذهب فى مدينة رومة اشتد غضب احزاب الكنيسة والقسوس وتظلموا من الايمپراطور وجسارته حيث تعدى على وظيفة ائمة دين النصرانية وبلغ به الادعاء والزعم الى ان تصدى مع استعانته باللاييك او العوام الى تفسير احكام الملة المسيحية وتحرير اصولها وقالوا ان مثله فى ذلك كمثل عزيا حين انتهك حرمات الله او كمثل من تجاسر من الايمپراطرة الذين ساءت سيرتهم بما تصدوا اليه من نسخ دين الكنيسة النصرانية بل قالوا انه فى هذا المعنى كهنرى الثامن وخافوا ان يتأسى بهذا الملك ويتغلب على لقب رئيس الكنيسة النصرانية ويغتصب منه حق الافتاء والقضاء واجمعوا على ان الايمپراطور شرلكان قد صار عدوا لدين النصرانية وانه يخشى منه على هذا الدين فيلزم اتحاد واسطة قوية لحماية الدين المذكور والذب عنه قبل ان يتسع الخرق عليهم فيخيب سعيهم ويذهب اجتهادهم هباء منثورا

قوله عزيا ويقال ايضا عزياهو بضم العين المهملة وتشديد الزاى المكسورة بعدها مثناة تحتية مفتوحة فألف فهاء مضمومة فواو وهو احد ملوك سبطى يهوذا وبنيامين وكان من امره انه لما قتل ابوه امصيا او امصياهو تولى بعده على هذين السبطين وكان عمره يومئذ ست عشرة سنة وملك اثنتين وخمسين سنة وبلغت عساكره ثلثمائة الف مقاتل ثم لما خالف سنة الكهنوتية فى استعمال البخور المحترم على سبط لاوى دعا عليه بعض الاحبار فأصابه البرص وتنغصت عليه ايامه وضعف امره وتغلب عليه ولده يوثم وكانت وفاته سنة ٩٩٩ من وفاة موسى عليه السلام

مطلب
رأى البابا فى هذا الشأن

وكان البابا قد وقف بالتجاريب والممارسة على امور البشر واحوالها اكثر من غيره من القسوس فكان رأيه فى هذا الشأن اصوب واحكم ووجد لنفسه الراحة فيما افزع ارباب مشورته واهل ديوانه واوجب لهم الحيرة والقلق وذلك انه

يجب

سنة ١٥٤٨

تعجب من الامبراطور حيث مع فراسته وحزمه داخله الغرور لمجرد نصرة واحدة انتصرها حتى توهم انه يمكنه بها ان يكون مشرعا للناس وان يجرى عليهم قوانينه واحكامه ويكلفهم بأشياء من مواد الدين مع انهم كانوا لا يطيقون اذ ذاك امرا احدا في هذا الخصوص وادرك ان الامبراطور لو انضم الى احد الفريقين المتشاحنين ببلاد المانيا لكان خيرا له في قمع الفريق الآخر وان ما سولته له نفسه بناء على غروره بالنصرة المذكورة من تعلق آماله بقمع الفريقين جميعا هو مما لا يمكن حصوله بل ان مذهبه لا تطول مدته حيث ان جميع الاحزاب قائمة على رفضه وعدم قبوله وليس فيهم من يتصدى لتأييده والمدافعة عنه فلا حاجة الى سعيه بنفسه في ابطال مذهب لابد وان ينهدم من اساسه بمجرد فتور همة مجدده ويصير نسيا منسيا

مطلب
سعى الامبراطور في اجراء مذهبه

ولما كان الامبراطور متولعا بنشر مذهبه بذل غاية جهده في اجرائه وتنفيذه حسبما كان مصمما عليه وكان المنتخب البالاطيني ومنتخب براندبورغ والامير موريس لاجل تنفيذ مآربهم وتحصيل اغراضهم يظهرون الميل الى طاعة الامبراطور والامتثال الى ما يأمر به بخلاف غيرهم فلم ينحوا نحوهم في ذلك بل اظهروا الاباء والنفور فان الامير حنا ملقرم براندبورغ انسماح مع كونه بذل جهده مع الامبراطور في حربه مع عصبة سمالكالد الى العدول عن الاصول الدينية القديمة وذكر الامبراطور بالمواعيد التي صدرت عنه الى حلفائه من المعتزلة بانه يتركهم على حرية الديانة بحيث لا يتعرض لهم في شيء مما يخص امر دينهم بناء على ذلك لا ينبغي قبول هذا المذهب ولا يجب عليه اتباعه ووقع مثل ذلك ايضا من بعض امراء آخرين وابوا ان يقروا هذا المذهب فاغتنم الامير منتخب سكس المسجون هذه الفرصة واظهر من العزم والثبات ما استوجب به المدح والثناء الجميل وذلك ان الامبراطور لعلمه بأن هذا الامير اذا اتبع مذهبه الجديد اقتدى به في ذلك حزب المعتزلة بذل جهده في حمله على اقرار المذهب المذكور وسلك معه لذلك سبيل المداهنة والترغيب كما سلك مسلك التهديد والترهيب فكان احيانا يعده بتخلية سبيله واطلاقه من قيد

سنة ١٠٤٨

الاسر واخرى يهدده بان يعامله باشد مما هو فيه ومع ذلك كله لم يتدعر ولم يفزع بل صمم على عدم العدول عن عقيدته وبعد أن ابدى تصميمه على بقائه على دين المعتزلة قال لا ترضى نفسى وانا شيخ هرم ان اعدل عن مذهب قضيت شبابى فى تأييده والمدافعة عنه ولا اعتبر ان يكون عدولى عنه يترتب عليه خلاصى وفك اسرى ولم يبق من عمرى الا القليل فانا لا اتحول ولا اعدل عن مذهب كابدت من اجله المشاق ولان اقاسى من اجله اكثر مما قاسيت احب الىّ من ذلك وانى لأوثر أن ابقى فى السجن محترما مبجلا عند اهل الفضل مطمئن السريرة آمن الذمة من القلق وتطرق الوساوس على أن اظهر على وجه الارض ثانيا والناس تسلقنى بألسنتهم على نفاقى بعدولى عن دين المعتزلة الذى هو الحق عندى فنغص علىّ بذلك بقية ايامى انتهى وبهذا التصميم دل هذا الامير ابناء وطنه على الطريق التى يسلكونها فى هذا المعنى فنسجوا على منواله وكان الايمبراطور يؤمل منه خلاف ذلك فلما رأى منه هذه المعاندة غضب كلى الغضب وزاد عليه فى التضييق والتشديد ونقص عدد خدمه وطرد من كان عنده الى ذلك الوقت من قسوس المعتزلة بل وأخذ منه الكتب الدينية التى كان يتسلى بها فى سجنه واما الامير حاكم هيسة الذى كان مسجونا ايضا عند الايمبراطور فلم يبد فى هذا المعنى ما ابداه منتخب سكس من العزم والثبات بل لطول مدة اسره عيل صبره وفل عزمه وداخله القلق والجزع حتى صمم على ان يقتدى بنفسه باى فداء كان فكتب الى الايمبراطور انه قد اقر المذهب الجديد وانه يمتثل الاوامر الايمبراطورية فى كل ما اراده الايمبراطور ولكن كان شرلكان يعلم ان هذا الامير ولو فعل ما فعل لا يقتدى به فى التمسك بمذهبه اولاده ولا رعاياه ولا يمكنه حملهم على ذلك فلم يقبل منه صرفا ولا عدلا بل ابقاه مسجونا على حاله من غير أن يخفف عنه ادنى شىء من اثقال الاسر فباء حاكم هيسة منه بالخزى والخذلان لكونه سلك ضد ما سلكه الامير منتخب سكس من غير أن تحصل له ادنى مراعاة من طرف الايمبراطور بل جلب لنفسه بهذا المسلك الذميم ازدراء الناس له وسقوطه من اعينهم

سنة ١٥٤٧

مطلب
امتناع المدائن الحرة عن قبول مذهب الامبراطور

وقد كانت مناقضة المدائن الامبراطورية لمذهب شرلكان اكثر من غيرها وذلك ان هذه المدائن كانت اشبه بجمهوريات صغيرة وكان اهلها متولعين بالحرية والاستقلال وكانوا اول من بادر الى قبول دين المعترلة بمجرد ظهوره وانتشاره سلاد المانيا لان الميل الى الامور الجديدة والابداعات من خصوصيات اهل الحرية وكانت احزاب المعترلة تكثر وتزداد فى تلك المدن وكان مشاهير علماء اللاهوت قد استوطنوا بها بوظيفة وعاظ ومعلمين واستولوا على ادارة المدارس والتعليم حتى تخرج عليهم تلامذة ماهرون متمكنون من عقائد دين المعترلة ومتولعون بتأييدها والذب عنها ولم يكن هؤلاء التلامذة على قليل من العلم والمعارف حتى يقتدوا بغيرهم بل كانوا متمكنين من معرفة الاصول والقواعد وكانوا قد تعودوا على المجادلة والمناظرة فى المسائل الخلافية حتى كانوا يرون ان لهم الحق فى مباشرة الامور بأنفسهم وانهم اهل لذلك فبمجرد أن انتشر مضمون مذهب الامبراطور بين الناس اجتمعوا مع بعضهم وصاروا عصبة واحدة واتفقوا على انكاره وعدم اقراره فرفعت الشكاوى الى الامبراطور من مدينة استراسبورغ ومدينة قونسطنسه ومدينة بريجة ومدينة ماغدبورغ وعدة مدائن اخرى اصغر منها وكان مضمون تلك الشكاوى تظلم هذه المدن من كون المذهب الجديد لم يحصل فيه مذاكرة بمشورة الدينة على حسب الاصول الجارية وانها تتضرع الى الامبراطور فى كونه لا يكدر سرائر الناس ودمتهم بحمله لهم على قبول مذهب يظهر لهم انه مخالف للقواعد الصحيحة والاصول المرضية التى جاء بها النص فى الشريعة المنزلة على عيسى عليه السلام ولكن لما كان الامبراطور قد ألزم عدة من امراء الامبراطورية بقبول مذهبه واقراره لم يعتن بشكوى المدائن المذكورة ولم يعبأ بما عرضته عليه من التظلم والترجى مع انها لو تعاهدت مع بعضها وصارت عصبة واحدة لا يمكن ان يخشى بأسها ويخاف سطوتها لكنها كانت متباعدة عن بعضها فكان يسهل عليه قهرها واحدة بعد واحدة قبل أن تجتمع وتنضم الى بعضها

سنة ١٥٤٨

مطلب
الزامها بقبول المذهب المذكور

ثم ان الايمبراطور رأى انه يلزمه لاجل تحيير عرصه ان يستعمل وسائط قويه ويبادر باجرائها قبل ان يتسع الوقت مع اعدائه ويدبروا امرهم مع بعضهم فيصعب عليه قهرهم وادخالهم تحت الطاعة وكان قد اتخذ المبادرة والسرعة قاعدة لا يعدل عنها فى سلوكه ومشروعاته فبدأ بمدينة اوكسبورغ ولا يخفى أن حضور عساكره بها ربما كان كافيا فى انزاع اهلها ومع ذلك كان الايمبراطور متيقنا انهم مصممون على عدم قبول مذهبه كغيرهم من اهالى الايمبراطورية فأمر فرقة من عساكره ان تتغلب على ابوابها وورع الباقى على ارقتها وحاراتها ثم جمع سكانها وامرهم صريحا بابطال صورة حكومتهم التى كانوا عليها وفسّد ونقض ما كان بينهم من المعاهدة والمؤاخاة وعين منهم جماعة قليلة ليقوموا من الآن فصاعدا بادارة المصالح وتدبيرها واخذ على كل واحد من هؤلاء الجماعة العهد والميثاق ان لا يعمل الا بموجب المذهب الجديد ولا يعدل عنه الى غيره فى شئ ما ولا شك ان هذا الامر من باب الظلم الفاحش حيث فيه حرمان اهل المدينة من اشتراكهم ولاتهم فى حكومة بلدتهم ومنعهم من رؤية المصالح وجعلهم تحت حكم اناس لا فضل لهم الا الضعف والجبن حيث امتثلوا أمره بدون توقف ولذا نفروا جميعا منه غير أنهم لعجزهم عن مقاومة الايمبراطور وتشدده وكان اقوى منهم بطشا واشد بأسا لم يسعهم الا السكوت والانقياد ثم ان الايمبراطور ترك فى المدينة المذكورة فرقة من جنوده لاجل محافظتها وقصد مدينة اولم فقمع اهلها وبدل حكومتها وقبض على من لم يرض من علمائها بمذهبه وحبسهم واخذهم معه حين ارتحاله عن هذه المدينة مكبلين فى السلاسل والاغلال ولم تكن ثمرة هذه القسوة مقصورة على كون هاتين المدينتين اللتين هما اقوى المدائن واكبرها صولة وشوكة قبلتا مذهبه والتزمتا العمل به بل ترتب عليها ايضا ان وقع الرعب والفزع فى سائر المدائن حتى خشيت انها ان بقيت على عصيانها لحقها الضرر والاذى من طرف ابراهيم الايمبراطور فحصل ان عدة من المدن المذكورة بادرت بطاعته والتزام كل ما يلزمها به لتسلم من بطشه وبأسه غير أن هذه الطاعة لم تكن ناشئة

سنة ١٥٤٨

الا عن الخوف منه لا عن طيب نفس وخلوص قلب فلم ينشأ عنها نقص ولا ابرام في عقائد اهل المانيا وانما عملوا بظاهر مذهبه على قدر ما يكون به دفع الضرر عنهم حتى ان وعاظ المعتزلة كانوا اذا بينوا للناس رسوم المناسك وشعائر العبادة المفروضة في مذهب الايمبراطور يوضحون لهم ما يترتب عليها على وجه بحيث لا يعدلون به عن عقائدهم الاولى وكان الناس منذ ظهر دين المعتزلة قد تغيرت احوالهم بالكلية حتى صاروا كأنهم جيل جديد وخلق آخر وكان هذا الدين قد تمكن من قلوبهم حتى صاروا يبغضون شعائر دين الكنيسة الرومانية بل حصل في عدة بلاد أن القسوس القاثوليقية الذين اعيدوا الى كنائسهم التي كانوا فيها قبل ذلك لم يمكنهم ان يقوا انفسهم من اساءة الرعاع وايذائهم وحصل لهم غاية المشقة والتكدير في اجراء وظائفهم الدينية ومن ذلك يعلم ان انقياد كثير من المدن لم يكن الا بحسب الظاهر فقط وان اهلها المتعودين على حب الاستقلال والحرية لم يجنحوا الى مذهب الايمبراطور الا مع اشد الكراهة والتعصب لان عقائدهم كانت معاندة لاصول هذا المذهب ورسوم العادات المقررة فيه ولكنهم الجأتهم الضرورة الى كتمان ما كان قائما بأنفسهم من الغيظ والحنق وقد جرت العادة بان البشر لا يداومون على التزام ما التزموا به كرها فبعد مدة اظهر هؤلاء الناس ما كان كامنا في نفوسهم ولم تردهم ضرورة الكتمان السابقة الاحجية وقسوة

مطلب
امر البابا بفسخ المشورة القسيسية المنعقدة في مدينة بولونيا

ولما انشرح صدر الايمبراطور باذلال اهل المانيا وادخالهم تحت طاعته سافر الى مملكة البلاد الواطية مصمما على الزام الدوك الذي كانت لم تزل الى ذلك الوقت عاصية عليه بقبول مذهبه واخذ معه اسيريه وهما الامير منتخب سكس والامير حاكم هيسة اما للخوف من ابقائهم ببلاد المانيا او لانه اراد أن يفتخر بين ابناء وطنه الفلمنكيين بكونه قهر اعداءه وظفر بهم لشدة بطشه وصولته وقد بلغه قبل وصوله الى مدينة بروكسيلة ان وكلاء

١٧ من شهر ايلول

البابا بمدينة بولونيا قد فسخوا المشورة القسيسية واخروا انعقادها الى وقت غير معين وان الاحبار الذين كانوا مجتمعين في هذه المدينة قد انصرفوا الى

سنة ١٥٤٨

اوطانهم * وكانت الضرورة قد الجأت البابا الى سلوك هذا المسلك لانه بعد انفصال من عارض فى نقل المشورة القسيسية الى مدينة بولونيا وبعد سفر جماعة آخرين كانوا قد سئموا من طول المكث بهذه المدينة من غير ان يصدر لهم اذن بالمذاكرة فى المصالح التى كان لاجلها انعقاد تلك المشورة لم يبق من اربابها الا افراد قلائل اعلاهم ليس من الاحبار المعتبرين فلم يكن من اللائق حينئذ ان تسمى هذه الجمعية باسم المشورة القسيسية العامة وبناء على ذلك رأى البابا ان الصواب فسخ تلك المشورة حيث انها سقطت الى حضيض الازدراء ودرك الاحتقار وظهر بها لسائر الملل النصرانية عجز كنيسة رومة نعم ان أمر البابا بفسخ تلك المشورة كان لابد منه لمقتضيات الاحوال اذ ذاك غير انه اشعر بشئ لا يليق وذلك انه بهذه الفعلة كان كمن منع عن مريض دواءه وقت العمل يعنى وقت ان احس المريض موافقة هذا الدواء لمزاجه وصلاحيته لمداواة دائه هذا ما كان يهمه الايمپراطور من سلوك البابا فقابل بين ما وقع من البابا فى هذا الغرض من الاهمال والتساهل وبين ما بذله هو من الجهد فى محق دين المعتزلة ليجعل البابا مكروها عند القاثوليقية وأمر القسوس الذين كانوا من حزبه ان يبقوا فى مدينة ترنته ليتبين للناس ان المشورة القسيسية لم تزل موجودة وليكونوا على اهبة واستعداد حتى تلوح لهم الفرصة فيشرعوا ثانيا فى المذاكرة لمصلحة الكنيسة الرومانية

مطلب
ملاقاة الايمپراطور لابنه فيليش بمملكة البلاد الواطية

وكان شرلكان يحب التنقل فى ممالكه من مملكة الى اخرى ولكن ذلك بمفرده لم يكن السبب فى رحلته الى بلاد الفلمنك بل كان يريد ملاقاة ابنه فيليش ولم يكن له سواه من الذكور وكان فى السنة الحادية والعشرين من عمره ودعاه من اسبانيا الى بلاد الفلمنك ليثبت له بموجب اقرار مشورة وكلاء مملكة البلاد الواطية حق الوراثة لملكها من بعده وكان له من احضاره مأرب آخر وهو تسهيل امر جسيم مهم سأوضحه عن قريب حق التوضيح وابين الغرض منه كما ابين ما ترتب عليه وذلك الامر هو تتويج ابنه فيليش عوضا عنه بتاج الايمپراطورية

سنة ١٥٤٨ | وكان فيليبش المذكور قد سلم حكومة اسبانيا للامير مكسيمليان بكرى عمه الملك فرديند وكان الامبراطور قد زوجه بنته مارية وبعد أن سلمه تلك الحكومة سافر الى ايطاليا ومعه جم غفير من امراء اسبانيا واشرافها وكان قبطان الدونما القائمة بحفره هو الامير اندره دورية وكان حينئذ قد طعن فى السن ومع ذلك طلب ان يتشرف بخدمة الامير فيليبش كما تشرف بخدمة ابيه ورسى فيليبش سالما على مدينة جنوية وسافر منها الى ميلان ثم مر ببلاد

٢٥ شهر تشرين الثانى | المانيا ووصل بالديوان الملوكى بمدينة بروكسيلة وعما قريب بادرت مشورة وكلاء برابنطه ومشاورسائر الاقاليم الاخرى كل اقليم بحسب رتبته الى اقراره على حسب الرسوم الجارية بحق الوراثة بعد ابيه وهو كذلك صدر منه

سنة ١٥٤٩ غرة شهر نيسان | على حسب العادة ميثاق بان يحافظ على مزاياهم ولا يتعدى على شئ منها وتلقوه فى مملكة البلاد الواطية مع الاحتفالات والتشريفات العجيبة بجميع المدائن التى مر بها ولم يترك السكان شيأ مما يدل على احترامهم له ولا مما يكون سببا فى انشراح صدره فكنت ترى فى كل محل اعيادا ومواسم والعابا كألعاب التورنواس وغيرها من الالعاب والافراح العامة التى تتباهى باشهارها الملل الكسيدة اذا حصلت حادثة تحملها على العدول عن مذهب الاقتصاد والتوفير المتعودة عليه ولكن فى اثناء تلك الافراح والمواسم ظهر على فيليبش ما يدل على فظاظته وخشونة طبعه لاسيما وهو مع صغر سنه كان لا يوجد فى ذاته شئ يؤلف به وان كان له مصلحة جسيمة فى استمالة قلوب الناس حينئذ ليعودوا عن ابرامه من اقرارهم اياه على حق الوراثة لابيه فى الحكم غلب عليه طبعه فلم يمكنه ان يظهر لهم البشاشة حتى تنشرح منه صدورهم ويحببوه فى مطلوبه كيف وكان فى جميع اوقاته ملازما للتؤدة والشمم متردّيا برداء الهيبة والوقار يظهر المحبة والميل الى الاسبانيوليين الذين كانوا بصحبته ويرجح على رؤس الاشهاد عوائد اسبانيا عن غيرها فاغضب ذلك الفلمنكيين وكان سبب العداوة بين هاتين الملتين ومنشأ الفتنة الكبيرة التى حصلت بعد ذلك فى بلاد الفلمنك واضرت بمملكة اسبانيا كل الضرر

سنة ١٥٤٩

واصطر شرلكان الى الاقامة بمملكة البلاد الواطية مدة مستطيلة بسبب تحرك داء النقرس عليه وكان هذا الداء يشتد به غالبا حتى اضعف صحته كل الضعف ومع ذلك لم يكن منه فتور ولا تراخ فى تنفيذ مذهبه الجديد المتقدم ذكره * وبعد أن مكث اهالى مدينة استراسبورغ مدة وهم يناقضون فى هذا المذهب حق عليهم الصمت ورأوا انه يجب عليهم الطاعة والامتثال وكذلك اهالى قونسطنسة بعدان هموا بالسلاح وركنوا الى العصيان والقيام قهروا والزموا بقبول المذهب المذكور بل وتنازلوا عن مزاياهم الثابتة لهم بوصف كونهم سكان مدينة حرة والزموا ايضا بالامتثال الى الامير فرديننـد بوصف كونه ارشدوق الاستريا وان يقبلوا بوصف كونهم رعايا هذا الامير محافظين من عساكر الاستريا وكل المدائن الحرة الكبيرة قد امتثلت لاوامر الايمبراطور ودخلت تحت طاعته ما عدا مدينة مكدبورغ ومدينة بريمه ومدينة هموبورغ

(انتهت المقالة التاسعة)

(المقالة العاشرة)

من اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب ما احترس به البابا من الايمبراطور

وكان الايمبراطور لا تعتريه همة ولا يكل له جهد فى فعل ما يقمع به نفوس المعتزلة ولكن كان سعيه فى هذه المرة يعادله سعى البابا فى تفسيد تدبيره وتخييب آماله لان بعض البابا له كان كل يوم فى نمو وازدياد وذلك ان الايمبراطور من جهة كان يظهر عليه امارات التصميم على عدم تسليم پليزنسة ومن جهة اخرى كان يتعدى على احكام القسس وخصوصياتهم كما هو مفهوم من احداث المذهب الجديد المتقدم وتصميمه على جمع مشورة قسيسية عامة فى مدينة ترنتة فاستوجب بذلك غضب البابا عليه لاسيما وكان البابا حينئذ لكبره فى السن داولع بعائلته وصولته كما هى عادة كل هرم تحقق اقتراب ساعته فلم يطق ذلك من الايمبراطور واخذ ثانيا يبذل جهده فى عقد عصبة جديدة مع ملك فرانسا

على

سنة ١٥٤٩

على الايمبراطور الا ان ملك فرانسا مع ماورثه عن ابيه فرنسيس من البغضاء والعداوة للايمبراطور ومع خوفه من شوكته حيث كانت كل يوم فى نمو وازدياد ظهر عليه كالمرة الاولى انه لا يريد الدخول فى عصبة على الايمبراطور فاضطر البابا الى العدول عما كان عازما عليه حيث لم يكن له اقتدار على الانتقام لنفسه من الايمبراطور فى نظير ما حصل منه من التعدى والاقتيات غير انه احد يحترس من حصول اقتيات جديد ولهذا الصدد صمم على استرجاع برمة و بليزنسة بعد ان اقطعهما الامير اوكتاوة فأشهر انضمامهما ثانيا الى اراضى الكنيسة واعطاه عوضا عنهما ارزاقا آخر من ارزاقها وكان البابا بولس يأمل بهذه الواسطة ان يحوز بأمرين مهمين احدهما ان يأمن على برمة اذ كان يسهل على الايمبراطور ان يتغلب على تلك المدينة مادامت تنسب لعائلة فرنيز بخلاف ما اذا كانت من جملة اراضى الكنيسة فانه لا يتجاسر على ذلك والامر الثانى هو انه كان يؤمل اخذ بليزنسة من الايمبراطور لانها اذا كانت من جملة املاك الكنيسة يسوغ له ان يطلبها بقلب ثابت قوى ويكون قوله اقبل واوجه اذا كان الطلب باسم الكنيسة لا باسم عائلته وبينما كان البابا مسرورا بهذه الفكرة ويعدها من ملح السياسة وأبكار أفكار أولى الحزم والكياسة حصل من الامير اوكتاوة ما يفسد عليه آماله ويمنعه تحيرا غراضه وذلك ان اوكتاوة كان شابا طماعا جسورا وكان ابو زوجته قد سلب منه نصف املاكه بحصص الاقتيات والتعدى فلم تطق نفسه ان يصبر على حرمانه من النصف الآخر بحيل حذاء عى البابا المذكور فسافر سرا من رومة وهجم بغتة على برمة لكنه لم يمكنه ان يتغلب عليها لامانة متسلمها الذى كان البابا امسكه زمامها فلما خاب امل اوكتاوة من هذه الاغارة اخذ يتداول مع الايمبراطور وعرض عليه ان يتخلى عن حزب البابا وينضم الى حزبه ويعتمد على همته من الآن فصاعدا بحيث يجعل اغراضه وآماله منحصرة فيه وكان البابا بولس بالطبع سوداويا شرس الاخلاق زاده الكبر شراسة كما هى العادة فى من طعن فى السن فامتزج بالغيظ واشتد غضبه لما اخبر بتخلى

سنة ١٥٥٠

حفيده اوكتاوة عنه وانضمامه الى حرب الامبراطور وهوله عدو مبين وظهر عليه انه لابد وان يعاقب اوكتاوة بما يسوّله له صغره وعضه لا محالة وانه لا يرى عقابا يعظم على من عصى والديه وكفر نعمهم ولكن من حظ المغضوب عليه اختطفت المنية البابا بولس فاراحته من حقده وبطشه وكانت وفاته في السنة السادسة عشرة من حكمه وفي الثانية والثمانين من عمره

مطلب موت البابا بولس الثالث فى عشرة من شهر تشرين الثانى

وكان موت هذا الرجل متوقعا من قبل بمدة مستطيلة فاجتمع الكردينالات بمدينة رومة وتسابقوا في نيل منصب البابا سابقا لم يسبقوا به وذلك انه لفسحة الوقت مع الطالبين لهذا المنصب امكنهم ان يدبروا امورهم ويستحضروا امالهم وما عليهم ليقصدوا مقاصدهم حق التقصيد فطالت مدة المذاكرة بديوان الكردينالات في شأن انتخاب من يولى منصب البابا وكان حزب الامبراطور يود انتخاب رجل من انصاره لهذا المنصب كما كانت مملكة فرانسا تسعى في اعطائه لاحد رجالها وكان النصر يظهر طورا لاحدهما وطورا للآخر الا ان البابا بولس على طول حكمه كان قد ولى مقدارا جسيما من الكردينالات اغلبهم ممن امتازوا بالمعارف والفضل وكانوا يميلون الى مصلحة عائلته فانضم منهم حزب عظيم الى الكردينال فرنيز قريب البابا بولس وكان ارباب هذا الحزب على قلب رجل واحد متفقين في الكلمة فامكنهم بانضمامهم الى الكردينال فرنيز واتحادهم مع بعض ان يرفعوا الى كرسي البابا رجلا من الكردينالات يسمى ديلمونته وكان بولس قد جعله وكيله الاكبر في المشورة القسيسية المعقودة بمدينة ترنتة وكان قد أطلعه على اسراره الخفية الدقيقة ولما حصل الاتفاق على تولية ديلمونته المذكور سمي

مطلب انتخاب جاليوس الثالث فى ٧ شهر شباط

باسم جاليوس الثالث وكان مبدأ حكمه ان ردّ الى الامير اوكتاوة فرنيز مدينة برمة اظهارا للشكر مع البابا ولما قيل له انه قد ارتكب اساءة في حق الكنيسة بنزع هذه الارض الكبيرة منها واعطائها لهذا الرجل اجاب بانه يرجح ان يبقى بابا فقيرا مع شهرته بالمكارم وشرف النفس على بقائه بابا غنيا مع ما يحصل له من العار اذا نسي الخيرات التي اغدق عليه بها البابا بولس

سنة ١٥٥٠ ع

في حياته ولم يجر في شأن عائلته ما اوصاه به البابا قبل موته ووعد بتحريره الآن ما اكتسبه من الشرف بين الناس لهذا الجواب الدال على علو الهمة وكرم النفس قد محاه فعل آخر قبيح حصل منه فاغضب الناس واوجب سخطهم عليه وذلك انه بموجب عادة قديمة جارية كان الكردينال الذي يولى منصب البابا له ان ينصب من شاء في منصب الكردينالية الذي يبقى خاليا بعد جلوسه على كرسي الكنيسة فحصل ما اوجب تعجب الناس وهو ان جاليوس اعطى منصبه القديم مع ما يتبعه من الايرادات الواسعة والاعتبار والمزايا كحق لبس نشانات هذا المنصب والتسمي باسمه وغير ذلك الى شاب له من العمر ست عشرة سنة كان يسمى انوسان وكان مجهول الاصل ساقط النسب وكان يدعى بالقرد لانه كان مكلفا بتربية قرد في منزل ديلوتيه ومثل هذا التفريط في اعظم مناصب الكنيسة لابد وان تنفر منه النفوس ولو في اعصر الجهالات التي ترى الاقسة بها محترمين معتبرين والناس يصدقون اقوالهم ويثقون بهم في جميع الامور ولا يبالون من فعل ما يلام على المرء به فما بالك بهذا الفعل وقد حصل في عصر كانت العقول به قد استنارت في الجملة بمصابيح المعارف والفلسفة وعرفت دعائم الادب وعكسه مما يخل بالمرء وفرقت بين المستحسن والمستهجن وقل احترام الناس للاقسة والبابات ونقص اعتبارهم في جميع البلدان حتى كان نصف النصارى عاصيا على كنيسة رومة وبالجملة فهذا الفعل قد اوجب سخط الناس على البابا جاليوس وفي لمحة بصر امتلأت مدينة رومة بالبطاقات والاوراق المشحونة بالهجو والقدح في عرضه لميل نفسه الى فعل دنيء مثل ذلك وطالما تشنع المعتزلة عليه قائلين ان اسرار الله عز وجل لا يمكن ان تودع بقلب جاحد كقلب جاليوس غير طهور وقصدهم ذلك فيما كانوا يقولون به من فساد دين الكنيسة الرومانية وارتدادوا تصميما وعزما حيث ان رئيس تلك الكنيسة الذي هو امام النصارى قد صار ينجس به لفظ النصراني

مطلب بيان طمع جاليوس وسلوكه

وكان سلوك البابا مدة حكمه من قبيل هذا الفعل الذي بدأ به ادارته فبمجرد

سنة ١٥٥٠

رقيه اوج العلا اخذ يعوض على نفسه ما قاساه من المشاق وقت ان كان في الحضيض تابعا لغيره اذ كان حينئذ لمكره وخداعه يحرم نفسه من الحظوظ والمسار تظاهرا بالتقوى كما انه بعد ارتقائه اظهر الرغبة عن جميع مصالح الحذ وصار لا يلتفت الى شيء منها ادنى التفات الا عند الضرورة والاضطرار وانما كان منهمكا على انواع الحظوظ التي تسولها النفس لمن سلمها زمامه ورجح ان يقتدى في الانهماك بالبابا ليون العاشر لا ان يقتدى بعفة ادريان وتقشفه مع ان هذا التقشف كان لازما له ولا بد حتى يمكنه مقاومة مذهب المعتزلة لاسيما ولم يكن هذا المذهب مؤيدا ومعضدا وقتئذ الا بسبب تقشف اصحابه وصون انفسهم عما يحط قدر المرء بارتكابه

مطلب ما آربه واعراضه فيما يخص المشورة القسيسيه العامة

ومع ميل هذا البابا الى الوفاء بميثاقه في حق عائلة فرنيز لم يكلف نفسه مشقة الوفاء بميثاق كان كل كردينال اخذه على نفسه عند دخوله في مشورة الكردينالات وهو انهم تعاهدوا على ان كل من يقع عليه الانتخاب منهم ويتقلد منصب البابا يأمر حالا بانعقاد المشورة القسيسية ويدعو اربابها الى فتح المذاكرة بالثاني لاكراه المعتزلة على الانقياد والامتثال الى الكنيسة الرومانية ولكن سبب امتناعه عن ذلك ظاهر وهو انه كان يعلم بالتجاريب تعذر امكان تغيير عقائد المعتزله والزامهم عدم الخروج عن مضيق دائرة العقائد التي كانت تحتمها الكنيسة الرومانية على الناس كافة وكان يعلم ايضا ان بعض المعتزلة ذو غيرة شديدة وحمية زائدة وان البعض الآخر له جسارة كبيرة وان امراءهم لا تغفل عن حثهم وتقوية قلوبهم ومثل هذه الامور ربما ادت المشورة وهي لا ضبط ولا ربط فيها ولا رئيس لها الى مباحثات عويصة تضر المناقشة فيها بالكنيسة الرومانية كل الضرر وبناء على ذلك حاول البابا المذكور فك نفسه من ميثاقه واجاب الامبراطور فيما خاطبه به في هذا الشأن بجواب مبهم لم يقطع فيه بشيء غير أن الامبراطور لما كان من دأبه عدم العدول عما عزم عليه او كان لكبر نفسه وعتوه يستحسن التصدي الى فعل ما يرى من المستحيل لم يزل مصمما على عزمه من اكراه المعتزلة على الانقياد والامتثال للكنيسة الرومانية لاسيما

وكان

سنة ١٥٥٠م

وكان جارماباي احكام المشورة القسيسية ترعم انوف المعترلة فاخذ يلح على البابا كل الالحاح فى نشر فرمان جديد من عنده بعقد تلك المشورة حتى رأى البابا انه لايمكنه المحاولة فى ذلك وانه لابدّ من عقد المشورة فبادر بنشر اوامره ليثبت له فصل انعقادها حيث كان شيأ مرغوبا عند كافة الناس وعقد جمعية من الكردينالات واحال عليهم ان يبحثوا عما تكون به راحة الكنيسة وصلحها واوصى بان تنعقد المشورة القسيسية فى اقرب وقت حيث هى اعظم واسطة تعين على هذا الغرض ولكن لما رأت جمعية الكردينالات ان معظم المنازعات والمناقصات فى الدين انما هو حاصل ببلاد المانيا عرضت ان تكون مدينة ترنتة محل انعقاد المشورة القسيسية حيث بذلك يسهل على اربابها معاينة الداء عن قرب فيعالجوه بالدواء الاليق به فقبل البابا ذلك منهم و بعث وكلاءه الى كل من الديوان الامبراطورى وديوان فرانسا ليبلغوهما ماعزم عليه

مطلب مشورة الديتة المعقدة بمدينة اوكسبورغ لاقرار مذهب الامبراطور

وكان الامبراطور قد جمع مشورة الديتة فى مدينة اوكسبورغ لقصد تقرير مذهبه الجديد وصدور حجة من اربابها باقرار احكام المشورة القسيسية مع وعدهم بان يعملوا بمقتضى الاوامر التى تصدر من هذه المشورة وذهب الامبراطور بنفسه الى مشورة الديتة المذكورة صحبة ابنه امير اسبانيا ولم يذهب اليها من الامراء المنتخبين الا القليل غير ان من لم يذهب منهم بعث رسلا من طرفه للنيابة عنه * هذا وكان الامبراطور منذ سنتين اذا تفوّه بشئ قاله على صيغة الامر لا تحلوا الفاظه عما يفهم العنفوان والعتو وكان يأمر فى الامبراطورية بما شاء وحيث كان يعلم ان حب الحرية لم ينزع بالكلية من قلوب اهل المانيا احد معه طائفة كبيرة من العساكر الاسبانيولية لتكون له هيبة فى قلوب ارباب مشورة الديتة واول امر حصلت المذاكرة فيه هو انعقاد المشورة القسيسية فاجمع القاثوليقيون الرومانيون على ان يكون انعقاد هذه المشورة بمدينة ترنتة ووعدوا ان يمتثلوا بدون مناقشة الى ما يحكم به اربابها وكان المعترلة فى رعب اذ ذاك ولم يكونوا عصبة واحدة

٢٥ من شهر حيران

سنة ١٥٥٠

كالاول فلولا الامير موريس منتخب السكس لكانوا يوافقون على هذا الرأي حزب القاثوليقيين وسائر ارباب الديانة غير أن الامير المذكور اخذ يبدي مآرب اخرى ويسلك سلوكا مباينا بالكلية لما سلكه الى ذلك الوقت فكفاهم شر اعدائهم وقد تقدم ان هذا الامير بتحيله واخفاء حقيقة مآربه واظهاره السعي في اعانة الايمبراطور على تتميم مقاصده ومخادعته اياه في سائر الاوقات والاحيان قد رقي الى منصب المنتخب واضاف الى بلاده واراضيه الانترامية اراضي الفرع الكبرى من عائلة السكس حتى صار اعظم امراء المانيا شوكة وصولة ولكن باتحاده مع الايمبراطور تلك المدة المستطيلة عرف طباعه وأدرك ما يخشى عاقبته من مقاصده فرأى انه باعانته للايمبراطور كأنه يسعى في صنع السلاسل والاغلال المعدة لكبل وطنه وبلاده وكان كلما نظر الى نمو شوكة الايمبراطور وازديادها يرى انه لم يبق عليه الا اليسير ليصير مطلق التصرف في الايمبراطورية الالمانية كما هو في بلاد اسبانيا وكلما نظر الى علو المنصب الذي رقي اوجه اشتدت غيرته على حفظ مزاياه وحقوقه وزاد خوفه ان يسقط من اوج العلا والاستقلال الى حضيض التبعية ويصير تابعا للايمبراطور يتصرف فيه كيف شاء لا سيما وكان يرى ان الايمبراطور لم يطلق زمام الناس في شأن الدين كما وعد به حين اراد ان يستميل عدة من امراء المعتزلة ليعينوه على عصبة سمالكالد بل انه يريد الزام الناس باتباع دين الكنيسة الرومانية وعدم العدول عن سننها ونهجها وبالجملة فمع ما كلف به موريس نفسه اما لمصلحة خاصة به او لوثوقه بالايمبراطور كان لم يزل مولعا بدين لوتير ويعده الحق فلم يطق ان يبقى خلي الاعراض حين رأى الايمبراطور يسعى في محوه ومحقه

مطلب
مقاصد الامير موريس من اضرار الايمبراطور

وهذه العزيمة وان دعاه اليها تولعه بالحرية او غيرته على الدين كان له فيها مآرب اخرى سياسية ومصالح خصوصية وذلك ان الامير المذكور لما رأى نفسه اذ ذاك في حظ اوفر ورأى الدهر مساعدا له داخله الغرور وتعلقت آماله بمآرب جديدة لا سيما وكان لرفع قدره وشوكته معدا الان يكون رئيس طائفة المعتزلة

مطلب
الاسباب السياسية التي كانت تحسن له عداء الملوك

في بلاد

سنة ١٥٥٠

فى بلاد المانيا حيث ان من كان قبله فى منصب منتخب السكس وان كان اقل منه فضلا ودولا كانت له كلمة نافذة بين حزب المعتزلة وكان موريس ذا بصيرة حتى يمكنه ادراك ثمرة المعالى التى اوليها وذا طمع يحمله على التولع نيلها ولكن بالنظر لمقتضيات الاحوال اذ ذاك كانت صعوبة هذا المشروع مساوية لعظم القصد منه فمن جهة كان اتحاده مع الايمپراطور قويا بحيث لا يمكنه ان يسعى فى فسخه ونقض علائقه من غير ان يثير غيرته وهو شديد البطش ويعرض نفسه الى غضبه وهو بقوة بأسه قد ارعب اوف ارباب عصبة سمالكالد مع انها اعظم عصبة حصلت ببلاد المانيا الى ذلك الوقت ومن جهة اخرى كانت المصائب الكبيرة التى جرها الى المعتزلة لم تزل نصب اعين الناس بحيث لا ترضى نفوسهم ان يعتمدوا عليه او يثقوا به فكان لا يمكنه ان يجدد بينهم علائق الارتباط او يؤلف بين قلوبهم بعد ان كان السبب فى فشلهم وشتات شملهم فانظر الى جسارته وجراءته حيث لم تفتر همته لهذه العوائق الكبيرة فكان اخطار هذا المشروع وخطوبه العظيمة كانت تحسنه اليه فلم يتردد فى التصميم عليه وهو يجل عن ان يخطر ببال من هو ليس ذا قريحة ودهاء وعقل ونهى ولا شك انه بمجرد التفكر فى اخطاره ترتعد فرائص من ليس ذا عزم متين وقلب ثابت مكين •

وكما كان للامير موريس مصالح فى ذلك المشروع كانت له اسباب نفسية تحسنه له وتقوى عزمه عليه وذلك انه كان لم يزل متأثرا كل التأثير مما حصل من الايمپراطور فى حقه من الاساءة لكونه الح على الامير حاكم هيسة واحضره الى الايمپراطور كما تقدم معتمدا على قول وزرائه من ان حاكم هيسة اذا حضر لا يحجر ولا يقبض عليه فلما قبض عليه وسجن وعومل بطريقة غير مرضية صار يتشكى من الامير موريس كما كان يتظلم من الايمپراطور فغضب الامير موريس لذلك كل الغضب وكان ثم اسباب اخرى سياسية فبانضمامها الى الاسباب النفسية ازداد موريس تصميما وعزما على معارضة الايمپراطور فى مشروعاته لا سيما وكان امراء عائلة هيسة يلحون

سنة ١٥٥٠

كل الالحاح على موريس بانجاز المواعيد التى التزم بها لابيهم حاكم هيسة حيث انه لم يسع بنفسه الى الايمپراطور حتى قبض عليه وسجنه الا لوثوقه بقول موريس واعتماده عليه وكان اهل المانيا يتهمون موريس بانه قد غدر بحاكم هيسة مع انه حليفه وحبيبه فكان حقه ان يدافع عنه لا ان يسلمه الى عدوه وقد اثر الحاح امرآء عائلة هيسة ولوم اهل المانيا فى موريس كل التأثير مع ما انضم الى ذلك من ميله القلبى الى صهره حاكم هيسة المذكور حتى بذل كما تقدم غاية جهده ليفكه من الاسر ولم يترك سبيلا لذلك الا وسلكه فطالما تضرع للايمپراطور وندمائه بل وسلك طريق التهديد والتخويف وكل ذلك لم يجد شيأ ولم يزل الحاكم مسجونا مكبولا فلحق موريس الخزى من غدر الايمپراطور به وعدم اعتباره له مع انه كثر ما صدق فى خدمته وكان سببا لنجاحه فى عدة مشروعات فاخذ من ذلك ينتظر ظهور فرصة يستعين بها على الانتقام منه

وكان يلزم للامير موريس ان يكون على غاية من الحزم والاحتراس فى تحرير هذا المقصد الجسيم وذلك انه من جهة كان يخشى عليه من ان يظهر منه ما يغضب الايمپراطور قبل ان يأخذ اهبته ومن جهة اخرى كان يجب عليه ان يتظاهر بفعل جليل ليستميل بالثانى قلوب المعتزلة فيعتمدوا عليه ويدخلوه فى زمرة اصدقائهم فبذل ما فى وسعه من المخادعة والروغان لاجل ان يوفق بين هاتين المصلحتين وحيث كان يعلم ان الايمپراطور لا ترضى نفسه العدول عما عزم عليه من اجرآء مذهبه الجديد والزام الناس باتباعه بادر بدون توقف الى نشره واجرآئه فى دولته ولكن كان يعلم ان هذه البدعة تنفر منها نفوس رعاياه فعوضا عن ان يكرههم على اتباعها كما حصل فى كثير من دول من بلاد المانيا بذل جهده فى ان تكون طاعتهم وامتثالهم لذلك بمحض ارادتهم لا الزام ولا اكراه ولهذا الغرض جمع فى مدينة ليپسيك طائفة القسوس الموجودين بدولته وعرض عليهم نسخة من المذهب المذكور وافهمهم ما يدل

مطلب
نشر موريس فى بلاد السكس المذهب الجديد الذى رتبه الايمپراطور

سنة ١٥٥٠

على انه من الضرورى اللازم اتباعه والعمل بمقتضاه واستحود على بعضهم بالمواعيد وزخرفة القول وعلى البعض الآخر بالتهديد والتخويف لاسيما وكانوا اجمعين فى رعب عظيم من الغلظة والقسوة الحاصلة بالاقاليم المجاورة لهم لالزام اهاليها باتباع هذا المذهب ثم ان ميلنحتون وان كان بفضائله ومعارفه اهلا لان يكون اول فرد بين علماء اللاهوت من المعتزلة كان دأبه الوجل والخوف يحب الصلح ويكره النزاع والجدال كما كان يلزم الامتثال الى ذوى المناصب العالية وطاعة اولى الامر منه وكان لوتير لثبات جنانه لايبالى بخطب ما فكان يقوى قلب ميلنحتون ويثبته على اقتحام الاهوال والاخطار فلما مات لوتير اصبح ميلنحتون المذكور خوفا كما كان ولذا تساهل فى امور غير مرضية لايمكنه ان يقى نفسه اللوم بتسليمه فيها وذلك انه بنفوذ كلمته بين اقسة المعتزلة وبما ابداه لهم من البراهين مع تحيل الامير موريس عليهم حملهم على ان يتعهدوا بالطاعة والامتثال لصاحب الامر فى الاشياء المباحة اى التى ليست من اركان العقائد الدينية نعم ان تعهدهم هذا بالسطر لصيغته لايسوغ عظيم شئ غير ان كل صيغة مثلها قابلة لان يتوسع فى توجيهها لاسيما فيما يخص الدين فانتهى الحال بان درجت جمعية القسوس فى ضمن الاشياء المباحة عدة من الاصول والقواعد التى كان لوتير يفندها قبل موته ويقيم ادلة قاطعة على انها من ضلالات الكنيسة الرومانية وبدعها وادخلت فى ضمنها كذلك اغلب المناسك والرسوم الدينية التى كانت تميز بين دين الكنيسة الرومانية ودين المعتزلة وعلى هذا اخذ القسوس يحرضون الاهالى ويحثونهم على الطاعة والامتثال لاوامر الامبراطور

مطلب ما اظهره موريس من الغيرة على دين المعتزلة والميل اليه

وقد نجح موريس بهذه الخديعة فى نشر مذهب الامبراطور ببلاد السكس من غير ان يترتب عليه شئ من الفتن المهولة كما حصل فى غيرها من بلاد المانيا ولكن مع طاعة اهل السكس وامتثالهم كان فيهم من هو ذو حمية شديدة على دين لوتير فتظلم من ميلنحتون ومن حكموا معه بهذا الحكم ورأى انهم من المضالين ولا ابداهم من رشوة لعدولهم عن الحق اوانهم من المنافقين

سنة ١٥٥٠

المذبذبين لمحاولاتهم وتقسيمهم اصول الدين الى مهمّ وغير مهمّ اوأنهم اهل جبن حتى تساهلوا فيه على هذا القدر مراعاة لخاطر امير مثل موريس لا يبعد عليه ان ينقض كل حرمة لقصد مصلحة تعود على نفسه وكان موريس يعلم ان ماصدر منه يقوّي وجه تهمته عند الناس ويخشى ان يضيع اعتباره من قلوب المعتزلة قاطبة ولذا اشاع منشورا يظهر فيه غيرته على دين المعتزلة وميله اليه ويعد بانه سيبذل غاية جهده فى المدافعة عنه من تعدّى ديوان رومة وفى صيانته من بدع الكنيسة الرومانية وضلالاتها

مطلب مداهنته للايمبراطور

وبعد ان نجح موريس فى تسكين قلوب المعتزلة وازالة ماداخلهم من الخوف والحيرة رأى من الضرورى ان يزيل ماقام بنفس الايمبراطور منه لاظهاره الغيرة على دين المعتزلة ووعده بانه سيبذل غاية جهده فى المدافعة عن هذا الدين ولهذا الغرض اخذ يظهر له مايدل على تأكيد المعاهدة المنعقدة بينهما حتى ان مدينة مكدبورغ حيث كانت لم تزل تدقق فى عدم قبول مذهب الايمبراطور شرع موريس فى الزامها بالامتثال والطاعة وجمع العساكر والجنود اللازمة لهذا المشروع حتى تحير رعاياه فى امرهم حيث ان هذا الفعل مخالف لما وعدهم به اخيرا وتعجب المعتزلة وانبهم عليهم الامر ولم يقفوا لما ربه على حقيقة ومابرح الوسواس صدورهم منه حين نظروا الى سلوكه حتى ان علماء المعتزلة الذين كانوا بمدينة مكدبورغ نشروا بلاد المانيا اوراقا وصفوه فيها بانه عدوّ مبين لدين المعتزلة وانه خائن لايظهر الميل الى هذا الدين الا ليسهل عليه ما اضمره ونواه وهو محقه ومحوه حتى اسمه ورسمه

مطلب ما قصده الامير وريس فى صورة الحكم فى المشورة القسيسية

ولما حصل ذلك من موريس قوى ظن المعتزلة فيه بانه يقصدهم بالضرر واجمعوا على انه من اهل الخداع والمكر وايقنوا انه لا يمكن الوثوق به فى شئ حتى انه لقصد تبرئة نفسه عندهم اضطرّ الى فعل امر جسيم صعب يخشى عليه من عاقبته وهو أن ارباب مشورة الدينية لما تكلموا فى شأن انعقاد مشورة قسيسية عامة اخبر وكلاؤه ان سيدهم لا يقرّ ماتحكم به تلك المشورة القسيسية الا بالشروط الآتية وهى اولا ان جميع المسائل الخلافية التى

سنة ١٥٥٠

انهى حكمها تعرض للمذاكرة بالثاني وما حكم به فيها اول مرة يلغى ولا يعمل به ثانيا ان علماء المعتزلة يرخص لهم في المشورة القسيسية ان يقولوا ما شاؤا ويبدوا آراءهم بدون تقييد عليهم في شيء وان يكون لهم فيها رأي نافذ ثالثا ان البابا يبطل دعواه فيما يطلبه من كونه رئيس المشورة القسيسية وان يلتزم بالامتثال الى احكام تلك المشورة وان يكفر عن الاساقفة اليمين الذي صدر منهم بالطاعة الى دين الكنيسة حتى يكونوا مطلقي القيد لا حرج عليهم في ابداء آرائهم ولا شك ان هذه شروط صعبة كان لا يتجاسر المعتزلة على طلبها ولو في يوم ان كانت حمية حربهم شديدة وكانت الاحوال تساعدهم حق المساعدة فعادلت ما عزم عليه موريس في شأن مدينة مكدبورغ واوقعت المعتزلة بالثاني في الريب منه والشك في حقيقة ما رآه هذا وقد بلغ الحذق والحزم منه الى ان حسن اعماله في عيني الامبراطور حتى لم يظهر عليه تغير منه ولم يعتبر المحبة الاكيدة التي كانت بينهما ادنى تعكير ولم يذكر لنا المؤرخون الذين كانوا معاصرين لتلك الحوادث شيأ مما تعلل به موريس وحسن به عند الامبراطور تجاسره على خطاب المشورة القسيسية بما تقدم ذكره وتكليف اربابها العمل بمقتضاه ولكن لا بد من كونه ابدى من البراهين والادلة ما استحوذ به على الامبراطور حيث انه لم يزل بعد ذلك مستمرا على بذل جهده في نشر مذهبه وفي عقد المشورة القسيسية ولم يزل يثق بالامير موريس ويعتمد عليه في هذين الامرين

مطلب
تصميم مشورة الدينة على قتال مدينة مكدبورغ

وحيث ان تصميم البابا على عقد مشورة قسيسية لم يكن معروفا بمدينة اوكسبورغ كان اهم عرض لمشورة الدينة ان تدقق في نشر مذهب الامبراطور ببلاد المانيا وكانت مشورة اهالي مكدبورغ لم تعترها همة بما فعل معها من التهديد والتخويف وكانت باقية على عدم رضائها بقبول هذا المذهب بل وكانت اخذت تزيد في تحصينات المدينة وتجمع جنودا للمدافعة عنها وقد التمس شرلكان من مشورة الدينة ان تعينه على قمع هذه المدينة حيث ادت بها جسارتها الى القيام والعصيان وعدم الامتثال

سنة ١٥٥١

للاوامر الايمپراطورية ولو كان لارباب مشورة الديتة اقتدار على العمل بما يقتضيه رأيهم لما اجابوا الايمپراطور فى القساسه لان من كانوا يميلون قليلا اوكثيرا الى دين المعتزلة من اهل المانيا وجميع من كانت الغيرة قائمة بانفسهم من ازدياد شوكة الايمپراطور كانوا يرون ان قيام سكان مدينة مكدبورغ امر يمدحون عليه حيث مرادهم به ابقاء حرّية وطنهم بل وظهر ان من لم يكن عنده جسارة على القيام مثل سكان هذه المدينة كانوا يستحسنون القيام والعصيان منهم ويودّون نجاحهم فيه غيران الناس خافت ان تغضب الايمپراطور وكانت عساكره الاسپانيولية راقبة لهم وحصل الرعب لمن كانوا فى مشورة الديتة فلم يتجاسروا على ابداء آرائهم واقرّوا ماطلبه الايمپراطور وحكموا باجراء ما امر به فى حق مدينة مكدبورغ وانحط الرأى بالمشورة على جمع عساكر لحصار هذه المدينة وتعين اناس لتخصيص مايجب على كل دولة ان تقدمه فى هذا الحصار من الرجال والاموال وطلب ارباب مشورة الديتة ايضا ان يكون موريس قائدا لهذا الجيش ورضى الايمپراطور بذلك وانشرح له صدره ومدحهم على حزمهم واصابة رأيهم حيث وقع نظرهم على هذا الامير وكان موريس يسلك فى جميع اموره مسلك التستر ويدبر اموره سرا حتى لا يعلم ان كان سعى اولم يسع فى نيل قيادة هذا الجيش فانتخاب ابناء وطنه له اما ان يكون بمجرّد الاتفاق والصدفة او يكون مبنيا على اعتقادهم فيه بكثرة المعارف والحزم وليس من الجائز ان تكون العواقب التى ترتبت على تقليده بهذا المنصب مما كان يخطر ببال ارباب مشورة الديتة ولم تكن تخطر ايضا ببال الايمپراطور والافزع منها وعلى كل فنال الامير موريس المنصب المذكور بمجرّد عرضه عليه لفرحه بالفوائد الجليلة التى لاحت له منه

مطلب انعقاد المشورة القسيسية بالثانى فى مدينة ترنتة شهر كانون اوّل

وفى اثناء ذلك حرّر البابا جاليوس فرمان الذهب بانعقاد المشورة القسيسية ولم ينس شيأ من الرسوم الدقيقة والتعللات التى يتقن ديوان رومة استعمالها اذا اراد تعطيل شئ مغاير لمقاصده واغراضه ثم نشر هذا الفرمان ودعا ارباب

سنة ١٥٥٠

المشورة القسيسية الى الاجتماع بمدينة ترنتة فى اول يوم من شهر أيار سنة ١٥٥١ وكان البابا يعلم ان بعض الالمانيين لا يسلم ان يكون للكنيسة الرومانية سلاطة على المشورات القسيسية فذكر بالفاظ غليظة فى صدر الفرمان ان له الحق فى عقد المشورة القسيسية وفى الرياسة عليها بل وله ان يدبر امورها ويسوسها كيف شاء وقد ادرك الامبراطور ان هذا البند يغضب الناس وينفر نفوسهم فألح على البابا ان يغيره او يحسن ألفاظه لكنه لم يرض ابدا وقد حصل كما اخبر الامبراطور حيث ان عدة من ارباب مشورة المدينة قد توقفوا فى هذا البند كل التوقف واظهروا النفرة التامة منه ولكن كان الامبراطور قد استحوذ على ارباب تلك المشورة فحملهم على اقرار فرمان به يعترفون ان المشورة القسيسية لا دواء سواها يصلح لمداواة داء الكنيسة الرومانية وقد طلب من كل دولة من دول الامبراطورية ومن جميع امرائها سواء كانوا ممن اتبعوا دين المعتزلة او ممن كانوا متمسكين بدين الكنيسة ان يبعثوا رسلهم الى المشورة القسيسية ووعد ان يعطى ورقة الامان لكل من طلب وان يكون كل من حضر المشورة القسيسية حرا يقول ما بدا له وتعهد بان يقيم بمدينة من الامبراطورية تكون قريبة من مدينة ترنتة لكى يحمى بنفسه ارباب المشورة القسيسية و يعتنى بان تكون المذاكرة فى هذه المشورة على حسب الكتاب المقدس ونهج الحواريين حتى يحصل النجاح ويتم المرام وفى هذه المرة حصل التدقيق فى اتباع مذهب الامبراطور اكثر من كل مرة حتى انه اوعد بالانتقام ممن كانوا الى ذلك الوقت يمتنعون عن اتباعه او يهملون فى العمل به ان لم يرجعوا عن عصيانهم و يبادروا باتباعه والتمسك به

مطلب السعى بلا طائل فى فك حاكم هيسة من الاسر

ومدة انعقاد مشورة المدينة قد حصل السعى فى فك الامير حاكم هيسة من اسره وذلك ان طول مدة الاسر عوضا عن ان يعود هذا الامير على تحمل السجن لم يرده الا حرجا وقلقا وكان الامير موريس والامير منتخب براندبورغ لا تظهر فرصة الا ويلحا على الامبراطور فى تخلية سبيل الحاكم

سنة ١٥١٥

المذكور وغير أنه لما رأى الحاحهما على الايمبراطور لا يجدى نفعا امر اولاده ان يطلبوا من هذين الاميرين بحسب الاصول والقوانين ان يوفيا بما تعهدا به فى حجة صحيحة من كونهما يسلمان انفسهما الى اولاد حاكم هيسة ليفعلوا بهما كما يفعل الايمبراطور بوالدهم ولما طلب اولاده منهما ذلك تعللا بطلبهم وألحا زيادة على الايمبراطور فى تخلية سبيل والدهم ولكن كان الايمبراطور مصمما على عدم اجابتهما فى هذا الطلب وكان يودّ ان يسلم من الحاحهما عليه فأخذ يبذل جهده فى حمل حاكم هيسة على التساهل فيما كان وعده به كل من الامير موريس والامير منتخب براندبورغ ولكن ابى حاكم هيسة ان يتساهل فى هذا الامر وكان يرى انه لازم له ولا بدّ اذ بدونه لا يأمن على نفسه فعند ذلك قطع الايمبراطور هذه العقدة حيث كان لا يمكنه حلها وصدر امره بفك الامير موريس والامير منتخب براندبورغ من ميثاقهما المذكور فى المشارطة الموضوع عليها امضاؤهما ومن كل ميثاق آخر كان منعقدا بينهما وبين حاكم هيسة والى ذلك الوقت لم يكن احد تجاسر على هتك النواميس والمشارطات المبنى عليها امن العباد واطمئنان البلاد وحفظ العرض من التدنيس وعدم ضياع الحقوق بين الناس الاباپات رومة فانهم لادعائهم العصمة عن الخطأ والزلل بوصف كونهم خلفاء عيسى عليه السلام كانوا ينسبون لانفسهم مزية كونهم لهم الحق فى معافاة من شاؤا مما شاؤا من أيمان وعهود وغير ذلك فتعجب اهل المانيا كل التعجب من تجاسر الايمبراطور على فعل ما كان من خصوصيات الپاپات ورأوا ان الايمبراطورية ستنحط الى حضيض الذلة والمسكنة وتقع فى الرق والاستعباد ان كان يرخص للايمبراطور حتى يتمكن من فسخ العهود المتفق عليها على رؤس الاشهاد مع ان هذه العهود هى الاعتماد فى وثوق الناس بعضهم ولولاها ما تيسر اتحاد بين العباد بل كان ينفسد نظام العالم ويخلفه التعكير والاختلال ويؤول امره الى اشنع حال

فلما يئس حاكم هيسة من فك اسره برضاء الايمبراطور أخذ يبذل جهده

سنة ١٥٥١م

فى خلاص نفسه بطريق التحيل والمداهنة ودبر أمر الفرار به من ايدى من كانوا يحفرونه الا ان حيلته قد علمت وعوقب بالقتل كل من ثبت عليه من الخفراء انه اراد اعانته على الهروب ونقل هو نفسه بعد ذلك الى قلعة مالينس وسجن بجامع التشديد عليه اكثر من الاول

مطلب عزم شرلكان على نقل التاج الامبراطورى الى ابنه فيليبش

وقد اشتغلت مشورة الدينية المذكورة بامر آخر يخص الامبراطور وقد ترتب عليه فزع امراء الامبراطورية ورعبهم وذلك ان الامبراطور شرلكان وان كان جامعا للمعارف التى بها يمكن اقتراح كل مأرب جسيم وتحرير كل مقصد عظيم كان كما يعلم مما سبق لا يمكنه ان يغلب على نفسه اذا نالت رماحه وعظم نجاحه بل كان يشتد به الغرور حتى يتجاوز حدود الحشمة واللياقة ويحول عزمه الى اغراض جسيمة تجل عن اقتداره وتعد فى الجملة من المستحيلات من ذلك ما حصل منه بعد ظفره بأرباب عصبة سمالكالد حيث انه لم يكتف بالعوائد الجليلة التى كسبها من هذه الواقعة بل رآها قليلة بالنظر لظهوره على اعدائه وتعلقت آماله بان يرتب فى بلاد المانيا دينا واحدا وان يجعل الشوكة الامبراطورية مطلقة التصرف ولا شك ان مثل هذا الغرض تغتر به النفوس الطماعة ولكن اذا تأمل الانسان يرى تحريره كثير الخطوب والاخطار بل ويظهر له انه قل ان كان ينجح فيه او يتم له مرام ولكن حيث كان الامبراطور الى ذلك الوقت قد نجح فيما شرع فيه لهذا الغرض داخله الغرور فعمى عن كل خطب وعائق او كانت تلك العوائق نصب عينيه فلم يعبأ بها احتقارا لها ومع اشتغاله بتتميم هذا الغرض الجسيم كان يشتغل ايضا بان يثبت لعائلته الممالك الواسعة التى كانت بيده فاراد ان ينقل الى ابنه فى آن واحد امبراطورية المانيا وممالك اسبانيا ودوله الموجودة ببلاد ايطاليا وبمملكة البلاد الواطية وقد مكث زمنا طويلا وهو يقدح فكرته فى هذه النية من غير ان يعلم بها احدا بل ولم يعلم بها وزراءه الذين كان يأتمنهم ويعتمد عليهم ثم احضر ابنه فيليبش من بلاد اسبانيا مؤملا ان يسهل عليه بحضوره تحرير هذا الغرض وتتميمه •

سنة ١٥٥١

مطلب
العوائق الكبيرة التي لاقاها الامبراطور في تحصيل غرضه

ولا يخفى ان مادون هذه الامانى من العوائق الكبيرة كان يكفى فى منع ما عدا الامبراطور عن طمعه فى ذلك وتطلبه له الا انه على طمعه كان متعوّدا على القتال بكل خطب واستسهال كل صعب فلم يعبا بما كان حائلا بينه وبين امانيه فمن جملة الموانع انه لعدم تبصره كان قد سعى بنفسه سنة ١٥٣٠ فى اثبات تاج ملوكية الرومانيين الى اخيه فرديننـد ولم يكن من المظنون ان ملكا شابا مثل فرديننـد له ابن صغير يهون عليه ان يترك حقه فى التاج الامبراطورى لاجل ابن اخيه لاسيما وكان الامبراطور قد وهن العظم منه واخذت صحته فى التزلزل والسقوط فكان يتراءى ان ميراث التاج الامبراطورى سيكون عن قريب ومع ذلك عرض الامبراطور على فرديننـد ان يترك حقه فى التاج الامبراطورى وكان فرديننـد يحترم اخاه كل الاحترام و يمتثل لقوله كل الامتثال لكنه فى هذا الامر ابى ان يمتثل وردّ عليه قوله غير ان شرلكان لم تفتر همته بذلك ولم يرجع عن الالحاح فى طلب هذا الغرض وجعل الواسطة بينه وبين اخيه اخته مارية ملكة المجر وكانت السبب فى نيل فرديننـد تاج بلاد المجر و بلاد چه وكانت لكثرة معارفها ووفر سياستها وحسن اطوارها قد استحوذت على عقل كل من اخويها الامبراطور وفرديننـد فلما طلب شرلكان منها التوسط فى هذا الامر فرحت و بادرت الى اجابته فيه حيث رأت انه يترتب عليه اعتناء عائلة الاسترسيا المعروفة بالاوستريا و ينتج منه ازدياد شوكتها وثروتها وكانت تلك الاميرة تظن ان فرديننـد اذا وعد بان تعطى له مملكة اخرى يرضى بترك حقه فى التاج الامبراطورى فاخذت تثبت عنده ان يعطى فى نظير ما طلبه منه الامبراطور دولا كثيرة من جملتها دولة الدوق دويرتامبرغ حيث يمكن نزعها منه بعدة وجوه ولكن كان فرديننـد شديد الطمع والحرص فلم يعتبر بقول اخته مارية ولم يؤثر فيه تضرعها اليه ولم تسمح نفسه ان يترك منصب الامبراطورية وهو به معدود من اول رتبة بين الملوك لياخذ منصبا آخر يكون به دائما وابدا تابعا لغيره هذا وكان فرديننـد يحب اولاده حبا جما بحيث لا تسمح نفسه ان يحرمهم من التاج الامبراطورى فيخيب

عندهم

سنة ١٥٥١م

عندهم كل أمل جليل يسوله لهم حسبهم ونسبهم وحسن تربيتهم
ومع ما ابداه فرديننـد من التوقف الكلى وعدم الرضاء بما عرض عليه لم يتحول الامبراطور عن نيته وظن انه يمكنه النجاح فى ذلك بواسطة اخرى وهى ان وهم انه لا يتعذر عليه استمالة الامراء المنتخبين الى الرجوع فى انتخابهم الاول من جعلهم فرديند ملك الرومانيين او حملهم على انتخاب فيليبش ملكا ثانيا على الرومانيين بحيث يخلف عمه فرديند مباشرة وهذا كان قصده من اخذ فيليبش معه بمشورة الدينة اذ كان يود أن يعرفه اهل المانيا ليحببوه فيما سيطلبه منهم لاجله وقد بذل ما فى وسعه من تحيل وسياسة لاجل استمالة قلوب المنتخبين وترغيبهم فى اجابته غير أنه حين اخذ يحررهم بمرامه ارتعدت فرائصهم فرعا من عواقب هذا الامر وما يترتب عليه من التعكيرات والفتن وكانوا يعرفون حق المعرفة ان من المضر الواجب اجتنابه اعطاء الامبراطورية لملك قوى الشوكة متسع الدول والممالك لاسيما ولعدولهم عن هذا السنن وتوليتهم شرلكان على الامبراطورية لقوامه ما انعبهم حصل لهم الندم والتأسف وارادوا اعتقادا فى قواعد ملكهم الاولى ورأوا انهم ان جعلوا التاج الامبراطورى وراثيا فى عائلة شرلكان يلقوا من النسل ما لقوه من الاصل اى يلحقهم من اولاد شرلكان من الظلم والاجحاف ما لحقهم منه نفسه اذهم سيتممون ولا شك ما بدأ فيه ابوهم ويهدمون ما بقى من القواعد والاصول المبنى عليها نظام الجمعية الجرمانية

مطلب اجتهاد الامبراطور فى ازالة تلك العوائق

هذا وكان طمع فيليبش قد اوجب نفور اهل المانيا منه وذلك انه وان كان يود الدولة والحكم كان خاليا من كل ما يستعطف الناس و يستميل قلوبهم وكان متكبرا قاسى القلب فعوضا عن تحديد أحباب يعيسونه على ما يريد رفض معاشرة احراب عائلة الاوستريا الاقدمين واحبابها الصادقين حتى نفروا منه كل النفور وكان لا يعتنى بتعلم لغة الامة الالمانية وان كان معدّ للحكم عليها ومدة اقامته ببلاد المانيا لم يكن ليس العريكة فيما تقتضيه اخلاقها وعوائدها وكان لا يطيق من الامراء المنتخبين ان يقعدوا بحضوره مستورى الرؤس وكان

مطلب نفور اهل المانيا من طمع فيليبش

سنة ١٥٥١

دائما على هيئة من العتو والكبر لم يتجاسر أحد من الاعبراطرة قبله على اتخاذها بل ولا والده شرلكان مع ما كان له من الدولة وعظيم الصولة

مطلب
إضطرار شرلكان الى العدول عن مقصده

واما فرديننده فكان بخلاف ذلك حتى انه مدة اقامته ببلاد المانيا قد بذل جهده في استمالة قلوب اهلها وتحببهم فيه بموافقتهم على اخلاقهم بدون تصنع ولا تكلف وكان ابنه مكسمليان قد ولد ببلاد المانيا وكان جامعا للصفات الجيدة الحسنى حتى كان محبوبا مألوفا عند الاهالي كافة فكان احب الاشياء الى الالمانيين توليته على الاعبراطورية وبانضمام حبهم هذا الامر الى الاسباب السياسية المتقدم ذكرها تقوى ميلهم الى الملك فرديننده وابنه مكسمليان ورجحوهما لحسن اخلاقهما ولين جانبهما على الامير فيليبش مع صعوبته وكبره وبناء على ذلك حصلت معارضة كلية للاعبراطور في تميم قصده وناقصه جميع الامراء المنتخبين من اقسة ولاييك حتى اضطر الى العدول عن قصده ورأى انه لا يمكنه تجبيره مع انه كان لا يعدل ابدا عما صمم عليه واضمره ومابذله من الجهد في تميم هذا الغرض لم ينشأ عنه الا فزع اهل المانيا وخوفهم من فرط طمعه وكان ايضا سببا في ايقاع الفشل والشقاق بين اهله وعائلته وذلك ان اخاه فرديننده قد اضطر لقصد حفظ نفسه الى البحث عن استمالة قلوب المنتخبين اليه لاسيما الامير موريس منتخب السكس وجدد معهم من العهود الاكيدة مالا يأذن للاعبراطور أن يؤمل الظفر بمرامه فيما بعد ومع ذلك فلم يرسل ابنه فيليبش الى اسبانيا الا وهو مصمم على ان يدعوه منها بالثاني عند ظهور فرصة تعينه على تمهيد مآربه

قوله لاييك يعني بهذا اللفظ ماعدا الاقسة فيقال حاكم لاييك اى الذى ولاه الملك او ارباب الحل والعقد في الحكومة الدنيوية واما الاقسة فيقال لهم اكليرياستيك ولا دخل للملوك في توليتهم وعلى هذا فمعنى لاييك يقرب من معنى لفظ العوام اذا اعتبرنا ان القسوس يعدون ماعداهم عاميا

مطلب
تصميم كل من البابا والاعبراطور على الاستيلاء على برمة وبلبرنسة

ولما خابت آمال الاعبراطور في هذا الامر وكان مشغولا به منذ زمن طويل حيث ان القصد منه ازدياد شوكة عائلته وثروتها تحول الى تطلب امر آخر كان رغب فيه كثيرا وهو حمل اهالي الاعبراطورية الالمانية على اتباع دين واحد والزام كل من المعتزلة والقاثوليقية بالرضاء والتسليم الى الاحكام التي ستصدر عن المشورة القسيسية المنعقدة في ترنة ولكن كانت ممالكه متسعة جدا

سنة ١٥٥١م

وكان عليه ادارة مصالح جسيمة فلا يمكنه ان يصرف همته الى امر واحد اشبه باستاذ دولاب متسع كبير كثير الآلات حتى ان ادنى اختلال او تصادم فى بعض آلاته يوجب غالبا تعطيل حركة سائر الآلات و يفسد فيه اهم اعماله وقد طرأت عوارض كثيرة فكانت عوائق كبيرة منعته عن تحيير اغراضه فى شأن الدين منها ان البابا جاليوس الثالث عند توليته على منصب البابابوية اثبت الامير اوكتاوه فرنيز فى دوقية برمة لكنه عما قليل ندم على ما فعل وادرك ما سيترتب على ذلك من الامور التى لم يتعطن لها لشدة فرحه لدى توليته اولفرط ولعه بمكافاة عائلة فرنيز وكان الامبراطور لم يزل مستوليا على پليزنسة ولم يزل يطلب برمة ويدعى انها من التزامات الامبراطورية واملاكها وكان غونزاغ حاكم ميلان من جملة من دبروا قتل الامير بطرس لويز فرنيز آخر دوق حكم فى پليزنسة فكان يعلم يقينا انه لابد من الانتقام منه مادامت عائلة فرنيز باقية فصمم على دمار تلك العائلة وقطعها عن آخرها وكان له كلمة نافذة عند الامبراطور لكثرة معارفه وطول مكثه فى خدمته فاخذ يحسن له ان يتغلب على برمة بالقوة ومحض الغصب وكان الامبراطور من تلقاء نفسه يود أن يضم برمة الى ميلان لجمع الى قول غونزاغ وبانت عليه علامات القبول وكان ادنى الاشارات يكفى فى تقوية قلب غونزاغ المذكور فاخذ فى جمع العساكر والجنود وتدبير ما هو لازم لتحيير ما ربه واغراضه

مطلب
طلب الامير اوكتاوه فرنيز الامداد والاعانة من مملكة فرانسا

فلما اخبر الامير اوكتاوه بالاخطار التى هو عرضة لها رأى من الضرورى اللازم ان يشتغل بما يأمن به على نفسه فزاد مقدار المحافظين فى تخته وجمع عساكر جديدة للمدافعة عن بقية بلاده ولكن حيث كانت ايراداته قليلة لا تكفى فى تجهيز ما يلزم له عرض حاله على البابا ورفع اليه اكف التضرع والابتهال ليحفه ببركات اعانته ويجعله فى حماه حيث انه من اتباع الكنيسة وله الحق فى الاستعانة بها ولكن كان رسول الامبراطور قد وصل الى البابا وبالغ له فى الاخطار التى يكون عرضة لها اذا اغضب الامبراطور باعانته للامير اوكتاوه

سنة ١٥٥١

المذكور فى هذا الامر ادهو من محض الظلم والتعدى ويضر بالكنيسة الرومانية ولم يزل ملحا على البابا حتى اخرجه عن حزب عائلة فرنيز فاهمل فى سؤال الامير اوكتاوة ولم يجبه فيما طلب ويئس هذا الامير من نيل الامداد والاعانة من طرف البابا فاضطر الى تحويل سعيه لجهة اخرى ولم يكن اذ ذاك من هو قوى الشوكة حتى يمكنه اعانته الاهنرى الثانى ملك فرانسا ومن حظ فرنيز كانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تأذن لهنرى المذكوران يقبل مثل تلك القضية وذلك انه كان قد تم على طبق مرامه المصالح التى كان يتداول فى شأنها منذ زمن طويل مع مملكتى اربطانيا الكبرى (ايقوسيا وانكلتره) وقد كانت هذه المصالح الى ذلك الوقت قد اشغلته عن الالتفات الى مصالح الارض القارة من بلاد اوروبا وكان ظفره بمرامه فى تلك المصالح ناشئا عن عزم عساكره وجنوده وعن حزمه فى انتهاز كل فرصة لاحت له من الفتن السياسية التى كانت تفرق هاتين المملكتين وتزيد فى حمية اهل ايقوسيا وتصميمهم وتضعف عزم اهل انكلترة وتوقعهم فى التردد وكان اهل ايقوسيا متعاهدين مع هنرى ملك فرانسا المذكور فسعى فى مصالحهم الى ان حمل اهل انكلتره على قبول شروط لطيفة لاهل ايقوسيا حتى استمال قلوبهم اليه ورضى اعيانها بتزويج ملكتهم بابنه ولى عهده بل وحسن لهم نقلها الى مملكة فرانسا لتتربى تحت نظره وعبر ذلك فقد كان استولى بالثانى على بولونيا وما يتبعها من الاراضى وكان هنرى الثامن ملك انكلتره قد نزعها من مملكة فرانسا

مطلب
معاهدة اوكتاوة مع هنرى الثانى ملك فرانسا

وبعد ان تم الملك هنرى هذه الامور المفيدة لمملكته واراح نفسه مع الشرف والعزة من احمال الحرب الذى كان حاصلا بينه و بين انكلترة ومن الامداد الذى كان يمده به ايقوسيا رأى انه يمكنه ان يحذو حذو والده فرنسيس فى المخاصمة والعداوة التى كانت بينه و بين الايمبراطور وبناء على ذلك سر لما عرضه عليه الامير اوكتاوة فرنيز من قصد التعصب معه على الايمبراطور ورأى ان هذه فرصة عظيمة يدخل بها فى بلاد ايطاليا فعقد دون تراخ مشارطة فيها التعهد بان يعضد الامير اوكتاوة وان يمده بكل ما احتاج اليه ولا يخفى ان مثل هذه

المعاهدة

سنة ١٥٥١ م

المعاهدة لا يمكن ان تمضي عليها مدة قبل ان يعلم بها البابا فبمجرد ان وقف على خبرها ورأى ما سيحل به من المصائب اذا انتصب الحرب بقرب دول الكنيسة بعث للامير اوكتاوة أوامر علية بالعدول عن المعاهدة المعقودة بينه وبين ملك فرانسا فلما ابى الامتثال الى اوامره حكم عليه بعد مدة قليلة بحرمانه من التزاماته ودعاه الى الحرب بوصف كونه تابعا قد عصى على سيده ولكن كان لا يؤمل بمجرد قواه الظفر به وهو قد تعاضد بملك قوى الشوكة والصولة فطلب الاعانة من الامبراطور وكان يخشى تغلب الفرنساوية على برمة فأمر الرئيس عونزاغ بان يسوق جنوده لاعانة البابا فكان الفرنساوية حلفاء للامير اوكتاوة والامبراطور معينا للكنيسة وبهذا كان الحرب واقعا بين الامبراطور وهنرى كان كل منهما يشيع بين الناس انه لا يود نقض مشارطة الصلح المنعقدة بينهما في كريسبي هذا ولم يحصل في حرب برمة حادثة كبيرة جديرة بالذكر وانما حصلت عدة وقائع صغيرة كان احد الفريقين يغلب فيها تارة والآخر اخرى وخرب الفرنساوية جزأ من بلاد الكنيسة واما العساكر الامبراطورية فقد خربوا البرموزان وبدؤا في حصار برمة الا انهم اضطروا الى رفع هذا الحصار ولم يكسبوا منه سوى الخزى والعار

مطلب
تجدد الحرب بين الامبراطور وبين هنرى ملك فرانسا

ومما نشأ عن هذا الحرب من الفزع في ايطاليا قد منع اغلب القسيسين والاحبار الايطاليين عن الذهاب الى مدينة ترنتة في اول يوم من شهر ايار حسبما انحط عليه الرأى من أن يكون انعقاد المشورة القسيسية في هذا اليوم ومع ان وكيل البابا ورسله قد حضروا في اليوم الموعود لزمهم ان يبقوا الى اول شهر ايلول مؤملين ان يجتمع هناك حينئذ من الاحبار والعلماء ما يكفي في انعقاد المشورة والمذاكرة بها على الوجه اللائق وفي هذا اليوم حضر الى المشورة ستون حبرا اغلبهم من دول الكنيسة ومن اسبانيا وبعض احبار من بلاد المانيا وافتتحت المشورة على حسب الرسوم المعتادة واستعد اربابها للمذاكرة والمفاوضة واذا بالحبر اميوت رئيس دير بيلوران قد حضر وأبدى

مطلب
تأخير انعقاد المشورة القسيسية

سنة ١٥٥١

مكاتيب ووثائق بانه رسول محضر من طرف الملك هنري وطلب الدخول في المشورة للمكالمة مع اربابها فلما اذن له بالدخول ابدى عن لسان سيده الملك هنري ان المشورة غير صحيحة حيث انها قد انعقدت في اوقات غير مساعدة لانه مع وجود الحرب الذي اشعل البابا نيرانه بدون سبب لا يأمن رسل الكنيسة الغليكانية اي الفرنساوية على انفسهم حتى يذهبوا الى مدينة ترنتة وعلى فرض امكان ذهابهم الى تلك المدينة فلا يمكنهم ان يتذاكروا بالمشورة كيف شاؤا في المسائل الخلافية المترتب عليها الفشل والشقاق بين العباد في شأن الدين وابدى ان سيده لا يعتبر هذه المشورة الاجمعية خاصة عرفية لا يعتد باحكامها وبعد ذلك اظهر نائب البابا عدم الاعتناء بقول هذا الرسول ولم يزل الاحبار ارباب المشورة مستمرين على المذاكرة في شأن المسائل الخلافية المتعلقة بالاوخارستي وبالتوبة وتقديس المرضى لدى الموت ولكن لا يخفى ان مثل هذا الفعل من ملك فرانسا لابد وان يترتب عليه عدم نفوذ احكام المشورة القسيسية فكيف يرضى اهل المانيا ان يحترموها وقد حصلت المعارضة في صحتها لدى افتتاحها من طرف ملك هو اعظم ملوك النصارى شوكة وصولة بعد الايمبراطور شرلكان وكيف تستطيع انفسهم ان يمتثلوا الى احكام بعض افراد قد جعلوا يدعون لانفسهم سائر الحقوق الثابتة لوكلاء الكنيسة والدين وصاروا يأمرون وينهون كانهم وكلاء حقيقة عن الكنيسة مع انه لم يكن احد اقرهم على ذلك

مطلب
مناقضة الملك هنري في صحة المشورة

ومع ذلك قد بذل الايمبراطور وسعه في اثبات صحة المشورة القسيسية حتى يتمكن من تنفيذ الاحكام التي تصدر عنها وكان له موقع عظيم عند ثلاثة من منتخبي القسيسين كانوا بعد البابا اعظم رجال الكنيسة صولة واعلاهم منصبا ومقاما فحمل هؤلاء المنتخبين الثلاثة على الحضور في المشورة بنفسهم والزم ايضا عدة من اصاغر الاساقفة الالمانيين بان يحضروا المشورة في ترنتة او يرسلوا وكلاءهم ليتوبوا عنهم بها واعطى بطاقة الامان للرسل الذين بعثوا الى تلك المشورة من طرف الامير منتخب براندبورغ والامير دوق ورتمبرغ

مطلب
ما فعله الايمبراطور شرلكان من القسر والجبر في حق المعتزلة

وغيرهما من امرآء المعتزلة وحض هؤلاء الامرآء على ان يرسلوا ايضا الى المشورة علماءهم من اهل الثيولوجيا ليعرضوا مذهبهم على تلك المشورة ويدافعوا عنه ويفسروا ما كان محلا للتوقف فيه ويعضدوه مهما امكن ولقد ظهر تحمل الامبراطور على المعتزلة قبل ان يصدر امر مّا فى حقهم من المشورة القسيسية المتقدم ذكرها فعل معهم كما اذا كانت تلك المشورة حكمت بتفنيد مذهبهم وتفنيد آرآئهم واعتقاداتهم واخذ على رؤس الاشهاد فى اجرآء ما يؤدى الى محق كل رأى وقول خالف المعتزلة فيه دين الكنيسة الرومانية وذلك انه امر بجمع قسوس مدينة اوكسبورغ وسألهم عن عدة مسائل مما كانت موضوع التنازع والجدال اذ ذاك ما بين المعتزلة وكنيسة رومة ثم امرهم ان لا يدرسوا شيأ من الآرآء والاعتقادات المخالفة لاصول الكنيسة الرومانية فلما ابى هؤلاء القسوس ان يمتثلوا الامر حيث يحملهم على فعل شئ لا ترضاه ذمتهم امرهم ان يخرجوا من المدينة فى ثلاثة ايام من غير ان يفهموا احدا بسبب طردهم ونهاهم عن وعظ الناس فيما بعد بشئ من مذهبهم فى سائر المدائن والبلدان الموجودة فى حكمه واخذ عليهم ميثاقا بان لا يفعلوا خلاف ما أمرهم به وفعل مثل ذلك ايضا فى حق القسوس المعتزلة باغلب مدائن سوابة حيث عزل المشهورين منهم بالميل الى دين المعتزلة وحطهم عن مناصبهم بدون ان تقام دعواهم بموجب الاصول الجارية على حرفتهم اذ ذاك واعطى مناصبهم لمن شاء ممن كانوا احصاما لهم حتى كاد مذهب المعتزلة ان يكون نسيا منسيا فى هذا الاقليم وهتكت حرمة مزايا المدائن الحرة وألزم الناس بالامتثال لاحكام الكنيسة وكانوا يبغضونها لظلمها واضطروا الى تلقى الديانة عن قسيسيها وكانوا ينفرون منهم ويعدونهم من عباد الاوثان

وبعد ان اظهر الامبراطور بهذه الامور التى لم يكن فعل مثلها الى ذلك الوقت ما كان مصمما عليه من حل نظام الجمعية الجرمانية ومحق دين المعتزلة انتقل الى مدينة انسبروك فى اقليم تيرول واقام بهذه المدينة وكانت قريبة من مدينة ترنتة وموضوعة على حدود ايطاليا ولذلك جعلها دار اقامته

سنة ١٥٥١

حينئذ حتى يمكنه ان يلاحظ امور المشورة القسيسية المنعقدة فى ترنتة وعوائل الحرب فى اقليم برمة مع التفاته الى ما يحصل ببلاد المانيا وفى اثناء ذلك كان حصار مدينة مكدبورغ لم يزل مستقرا ولم يتم امره واما لاحد الحربين اوعليه وكان الايمبراطور شرلكان قد هدد ودم اهل هذه المدينة واخذ يحرض الايالات المجاورة لها على قتال اهلها لكونهم عصوا اوامر الايمبراطورية فهم اعداء لها وكان الامير جيورج دومكلسورغ شقيق الامير الذى كان حاكما اذ ذاك طماعا جسورا فلاعترازه بقول الايمبراطور ومواعيده جمع مقدارا حسيما من العساكر الذين كانوا اتبعوا هنرى دو برونسويك فى عداوته المنكرة وهجم وان كان من حرب دين المعتزلة على اراضى مكدبورغ مؤملا ان يعطيه الايمبراطور حرا من هذه الاراضى فى نظير خدمته له ولم يكن اهل مكدبورغ متعودين على تحمل عوائل الحرب ولزوم الصبر عندها فخرجوا من المدينة واندفعوا دفعة واحدة على الاعداء ليبعدوا ارضهم من السلب والنهب وهجموا على معسكر جيورج مع عزم تام لكن بدون احتياط فطردوا بعد ان هلك منهم اناس كثيرون غير ان عزمهم كان قويا حيث كان قصدهم المدافعة عن حريتهم وعن دينهم فضلا عن ان تفترهمتهم بهذه النكبة الاولى لم يزدادوا الا حمية وصمموا اكمل التصميم على المدافعة والمقاومة من داخل مدينتهم وجاءهم مقدار جسيم من العساكر الاقدمين الذين خدموا فى حروب الايمبراطور وحروب ملك فرانسا وعرضوا عليهم ان ينضموا اليهم ليعينوهم على المدافعة عن مدينتهم فقبلوهم وكان ضباطهم على شجاعتهم من هدنتهم صرفوا التجارب فى الحروب فصار سكان مكدبورغ يتقدمون شيأ فشيأ فى المعارف العسكرية حتى جمعوا بين النظام الجهادى وقوى العزم والشجاعة وصارت المدينة حصينة محفظة حفظا جيدا فلم يمكن للامير جيورج ان يهجم عليها وان كان طمع بسكانها اولا فاقتصر على تخريب ما حولها من الاودية والاراضى وحيث كان ينضم الى عساكر جيورج المذكور اناس كثيرون طمعا فى الغنيمة حتى صاروا جيشا عظيما احب الامير

موريس

سنة ١٥٥١

موريس منتخب سكس ان يأخذ بقلادة هذا الجيش طمعا فيما يترتب عليه من الشهرة ونفوذ الكلمة ومنعا لمن سواه عن اثبات ذلك الفخر لنفسه فركب في عساكره وتوجه بهم الى مدينة مكدبورغ دون تراخ وضم جنده الى جند الامير جيورج وصار رئيسا على الجميع لما ان ذلك حق له لا يشركه فيه سواه بالنظر لمقامه ومعارفه ومنصبه الذي قلدته به مشورة الديتة وبعد ان ضم الجنود الى بعضهم احاط بالمدينة ووضع عليها حصارا محكما غير انه بينما كان يسعى تصديه الى هذه الواقعة في استجلاب الامبراطور له اذ بربه ميله الى تحيير او امره كان المعتزلة يسخطون عليه ويلعنونه بكل لسان حيث هو يساعد الامبراطور على مدينة مكدبورغ وان كان من حزبهم ويشركهم في العقائد الدينية ومع ذلك فكانت عمليات موريس في الحصار بطيئة لان محافظي القلعة كانوا يكثرون من الهجوم على معسكره ويفسدون عليه مايدبره من العمليات والاشغال ويخطفون عساكره من المحطات القريبة من المدينة حتى انهم في احدى هجوماتهم اسروا منه الامير جيورج وكان رؤساء المدينة يقوون عزم سكانها بالمواعظ والخطب كما كان محافظوها من العساكر يشد عضدهم ما كانوا يرونه من شهامة ضباطهم فلم تفتر لهم همة ولم تسأم انفسهم من مشاق المحاصرة واستمر كل منهم على المدافعة من غير ان ينحط تثبتهم عما كانوا عليه اولا بخلاف عسكر موريس فقد سئمت نفوسهم وفترت هممهم وضجروا كل الضجر حتى انهم قاموا المرارا لعديدة وطلبوا صرف ما كان متأخرا لهم من مدة استخدامهم حيث كان يشق على اهل المانيا دفع مصاريف الحرب المذكورة اذ كان على خلاف مرامهم هذا وكان للامير موريس اسباب اخرى خصوصية لم يكن يتجاسر على اظهارها فمنعته تلك الاسباب من التشمير عن ساعد الجد في أخذ المدينة ورأى ان يبقى مع جيشه ولو لم يكن يسلم من التهم لمظنته خيرا من استيلائه عاجلا على المدينة حيث انه وان كان يريده شهرة وفخرا الا انه يحمله على تسريح عساكره اذ لا يبقى له وجه في ابقائهم

سنة ١٥٥١

مطلب
تسليم المدينة الى موريس فى ثلاثة من شهر تشرين الثانى

ولكن من جهة اخذ القحط يشرع وآثاره بين سكان المدينة ومن أحرى تحتم على موريس ان يفصل امر الحصار عاجلا حتى لا يفطن به الايمبراطور وسوأ فيكون ذلك سببا فى ان تفسد عليه ما رابه ومقاصده فتداول مع سكان المدينة ورؤسائها فى طريقة يهايتم النزاع وكانوا فى مبدأ ضنك من جهة المعيشة كما قدمناها فلانوا له وسلموا مدينتهم على الشروط الآتية وهى * اولا ان السكان يلتمسون مع التضرع والتواضع عفو الايمبراطور وصفحه عنهم * ثانيا أنهم من الآن فصاعدا لا يعصون على عائلة الاستريا ولا يقومون بتعضيد من عاداها * ثالثا انهم يمتثلون كل الامتثال لاوامر الديوان الايمبراطورى * رابعا أنهم يعملون بمقتضى ما يصدر من الاوامر عن مشورة الديتة المعقدة بمدينة اوكسبورغ فى شأن الدين * خامسا أن تهدم الاستحكامات والتحصينات التى جددت فى مدينتهم * سادسا انهم يدفعون الى الايمبراطور مبلغ خمسين الف كورون على سبيل الجريمة * سابعا انهم يدفعون اليه اثنى عشرة قطعة من المدافع * ثامن الشروط وهو الاخيران يخلوا سبيل الامير جيورج من عيرفسدية وكذلك كافة الاسرى الذين وقعوا فى ايديهم مدة الحصار وعلى هذه الشروط خرج المحافظون ثانى يوم من المدينة وتملكها موريس فى ابهى احتفال

مطلب
مآرب موريس التى اشرنا اليها آنفا

وقبل ان يتم اقرار هذه الشروط كانت حصلت المذاكرة عدة مرات فيما بين الامير موريس والامير البير فوت دومدسملد وكان باشحكمدار فى مدينة مكدبورغ وبين القوت هيديك احد الضباط الذين امتازوا فى عصبة سمالكالد وكان الايمبراطور هدده لميله الى حرب المعتزلة ومدافعته عنه واما الامير موريس فكان قد ادخله سرًا فى خدمته وكان يطلعه على اسراره ويتداول معه فى كل امر مهم ففى المذاكرة التى حصلت تلك المدة بين الامير موريس وبين هذين الاميرين افادهما بما كان مشغول البال به منذ مدة مستطيلة وهو فك اسر الامير ابى زوجته المسجون بطرف الايمبراطور واسترجاع مزايا الجمعية الجرمانية وتحديد الشوكة الايمبراطورية

حتى

حتى يمتنع اقتياتها وتعذيبها على الجمعية وبعد أن استشارهما الامير موريس عما به يمكن تقيم هذه المآرب الجسيمة الخطرة وعد القونت دو مسفلد سرا بعدم تخريب استحكامات مدينة مكدبورغ ووعده ايضا بان سكان هذه المدينة لا يمسهم ادنى ضرر فيما يخص الدين وانهم لا يحرمون من شئ من مزاياهم الاصلية هذا وقد اسلمت مشورة مكدبورغ الاهلية عنان رياستها الى الامير موريس وجعلته كبيرا عليها حتى تستميله بمصلحة تخص نفسه الى الوفاء بوعده وكان قد سبق اعطاء هذا المنصب قديما الى عائلة منتخبي السكس فصار لها به كلمة نافذة في مدينة مكدبورغ وما يتبعها من الاراضي

مطلب الفوائد التى جمعها موريس من مداولته مع سكان مدينة مكدبورغ

فانظر كيف كانت عاقبة من اخلصوا فى المدافعة عن حريتهم المدنية والدينية اذلا قواعدوهم بقلب سليم وبذلوا من الهمة والجهد ما هو جدير بالعرض الذى كانوا يدافعون عنه فبعد أن مكثوا سنة كاملة وهم لا يكلون عما نزل بهم عقد معهم السلم على شروط كانوا بها فى احسن حال بالنظر لما قد حل بابناء وطنهم الالمانيين الذين انقادوا للامبراطور وامتثلوا احكامه لخوفهم وسخافة عقولهم * وبينما كان معظم اهل المانيا يثنون على اهل مدينة مكدبورغ وهم فى فرح عظيم لنجاتهم بعد ان هدد الامبراطور دمهم كان الناس كافة يتعجبون مما ابداه موريس من الحذق والساهة فى المداولة معهم حيث انتهز من كل حادثة فرصة رتب عليها فوائد جمة لنفسه وكيف لا يتعجب من التفت مع الدقة الى تدبيره حيث اعيى سكان مدينة مكدبورغ عدة شهور واذاقهم العذاب من حربه ثم جعلوه من تلقاء انفسهم بدون اكراه ولا الزام رئيسا عليهم وملتزما على مدينتهم وبعد أن مكثوا مدة وهم يسخطون عليه ويلعنونه بكل لسان وينسبونه الى النفاق اذ كان يقاتلهم لكونهم اختاروا دين المعتزلة وزحزحوه عن دين الكنيسة مع انه نفسه كان يتبع هذا الدين جنحوا اليه وصاروا يثقون به ويعتمدون عليه هذا وكانت الشروط التى صار بموجبها تسليم المدينة مطابقة بالكلية للشروط التى كان الامبراطور قد الزم بها المدائن المعتزلة من قبل على ان

موريس قد زين بجزمه تسخيره لهذه المدينة وألبسه احسن صورة حيث امهلها لتدافع عن نفسها حتى المدافعة فلم يظن الامبراطور به سوأ ولم يتوهم وجود اتفاق مضر به فى هذه المشارطة بل بادر الى اقرار ما احتوت عليه وعفى عن سكان مكدبورغ بعد ان هدر دمهم

مطلب ما دبره موريس حتى يسوغ له ان يبقى تحت طلبه جيشا مكملا

ولكن كان موريس لم يزل متحيرا فى وجود سبب يبنى عليه ابقاء الجنود الذين كانوا يدافعون عن مدينة مكدبورغ مجموعين تحت طلبه فانظر كيف فعل بعد ان فكر فى امره ودبر* من المعلوم انه لم يكن جمع امره كما ينبغى فيما كان يقصده فى حق الامبراطور فمن جهة كان لا يمكنه ان يظهر قصده او يأخذ فى تتميمه جهرا لاسيما وكان وقت الشتاء على قدوم وفى هذا الفصل تتعذر الحرب ومن جهة اخرى كان يخشى ابقاء العساكر على طرفه حتى يأتى الربيع الذى هو فصل الحرب والقتال لان ابقاء العساكر ربما استيقظ وتنبه به الامبراطور وبناء على ذلك اذن بمجرد استيلائه على مدينة مكدبورغ لعساكره السكسونيين بالانصراف الى وطنهم لانهم من رعيته فيسهل عليه جمعهم متى شاء ثم صرف للعساكر المستأجرة التى كانت فى خدمته وللعساكر التى كانت قائمة بمحاصرة مدينة مكدبورغ بعض ما كان متأخر الهم وسرحهم غير ان الامير جيورج بعد ان خلص من الاسر تكفل بان يأخذ هؤلاء العساكر فى خدمته وان يدفع لهم ما كان باقيا من ماهياتهم وكانوا متعودين على الانتقال من خدمة امير الى آخر لقصد الاكتساب فرضوا بما عرضه عليهم جيورج وبقوا مجموعين حتى يمكن موريس ان يطلبهم متى شاء ويوجههم حيث شاء فغفل الامبراطور عن سر هذا التدبير وظن ان الامير جيورج لم يبق هذه الجنود الا لقصد ان

مطلب ما دبره موريس حتى يشا غل الامبراطور ويمنعه عن الوقوف على ما دبره

يظهر على اخيه ويأخذ منه بعض اراضى كان يدعى اذ ذاك انها حقه وبعد أن دبر موريس هذه الامور ليتمكن بها من تنفيذ اغراضه اخذ يدبر فيما يمنع به الامبراطور عن الوقوف على حقيقة ما دبره ويزيل ما يمكن ان يداخله من الريب والشك حتى يبقى مطمئنا من جهته وكان موريس يعلم ان آمال الامبراطور اذ ذاك كانت متعلقة بحمل الايالات والاقطار المعتزلة من المانيا على اقرار

سنة ١٥٥١

المشورة القسيسية المنعقدة فى ترنتة وابعاث رسل من طرفها وقسوس من كنايسها الى تلك المشورة فانتهز موريس هذه الفرصة واخذ يظهر الصداقة للامبراطور ويريه انه يرغب فى تنجيز اغراضه وعين من طرفه رسلا ليبعثهم الى المشورة القسيسية وامر الشهير ميلنختون وبعض اناس آخرين من اعظم علماء اللاهوت فى بلاده بان يكتبوا آراءهم ويعرضوها على تلك المشورة واقتدى به الامير دوق ورتمبرغ ومدينة استرسبورغ وغيرها من البلاد المتمسكة بدين المعتزلة وربما كان موريس هو الذى حملها على ذلك وعينت رسلا وقسوسا من طرفها الى المشورة وكلهم عرضوا الى الامبراطور ان يعطيهم ورقة الحماية ويدفعها اليهم وتوجه رسل الايالات الى المشورة الا ان القسوس المعتزلة لم يكتفوا بورقة الامان المعطاة لهم من طرف الامبراطور بل طلبوا تذكرة اخرى من ذات المشورة القسيسية وللقسوس الحق فى ذلك حيث رأوا فى القرن الذى سبقهم ان المشورة القسيسية التى كانت منعقدة فى مدينة قونسطنسة قد القت فى النار كلا من العارف حناهوس والشهير حيروم دوبراغة ولم ترع حرمة التذكرة الامبراطورية التى كانت معهما ولكن كان البابا لا يرضى ان يكون لعلماء المعتزلة حق فى التكلم بالمشورة القسيسية وان كان الامبراطور يلح فى اثبات هذا الحق لهم وكان وكيل البابا يبذل جهده فى تنفيذ امر سيده ويسلك تارة سبل الترغيب واخرى سبل الترهيب حتى حمل ارباب المشورة القسيسية على ان يمتنعوا عن اعطاء علماء المعتزلة تذكرة خالية عن اللبس والابهام كالتذكرة التى دفعتها المشورة القسيسية التى كانت منعقدة فى مدينة بالة الى احزاب حناهوس فلما شاهد المعتزلة ذلك ابوا الا ان تنسخ لهم صورة تذكرة بالة كلمة بكلمة واجتهد رسل الامبراطور فى اعانتهم على ذلك حتى حررت لهم تذكرة حكم مرامهم وتوجهوا الى المشورة القسيسية وصارت المناظرة ما بين الفريقين وحصلت منازعات كثيرة ومناظرات كثيرة ووكيل البابا يحاول ويمارغ هو وجماعته مؤملين انهم بالمخادعة والمحادلة يظفرون بمرامهم والمعتزلة مصممون على قولهم ويردون بقاطع البراهين ما يورد عليهم وكان الامبراطور وهو

سنة ١٥٥١

فى انسبروك تأتيه الاخبار تفصيلا بما يحصل فى ترنتة وكان يريد أن يجتهد فى رفع الشقاق من بين الفريقين وفى الاصلاح بينهما فرأى انه وقع فى مشكل بعيد الغاية لا يجد له نهاية ولا يعلم سبب تصديه لذلك هل لغيرته على دين الكنيسة او لوثوقه بنفسه فى حل المشكلات والمعضلات ولا يخفى ان كل هذه الدسائس المدبرة كانت تعين موريس حق الاعانة على تنفيذ اغراضه اذ أنه بينما كانت تستغرق اوقات الامبراطور وتمنعه عما سواها كان موريس يدبر فى مقاصده ويجمع امره حتى يحسن الرمى اذا رمى ويصيب ولا يخيب

مطلب
مصالح بلاد المجار

ولكن قبل التعرض الى تفصيل هذه الامور ينبغى ان نذكر واقعة جديدة حصلت فى بلاد المجار وكان لها مدخل عظيم فى الحوادث العجيبة التى نشأت عن سعى موريس واجتهاده وهى ان السلطان سليمان سلك سنة ١٥٤١ مسلكا يليق بامال الطامعين لاعظم شأن فاتح مثله قوى الشوكة والبطش وحرم ملك المجار وكان قاصرا من دوله وبلاده التى تركها له والده ولم يترك له من سائر البلاد التى ورثها عن ابيه سوى اقليم ترنسلوانيا المعروف بولاية اردل وانعم عليه بان يبق على الملوكية فى هذا الاقليم اى بان لا ينزع منه التلقيب بالملك ولكن كان هذا مجرد لفظ لا وجود لمدلوله وحيث كان قاصرا اذن السلطان سليمان بادارة امور هذا الاقليم القسيس مارتينورى اسقف واردين واشرك معه فى ذلك والدة الامير القاصر وانا طهما الوصاية تربيته وكان والده قبل موته قد جعل هذا الاسقف وصيا عليه وعلى المملكة يقوم بامورها حتى يبلغ انه حد الرشد وكان ذلك من الضرورى يوم كانت بلاد المجار باقية على اصلها وحيث كانت الحكومة مشتركة ما بين الاسقف ووالدة الامير القاصر نشأ عن ذلك من الشقاق فى هذا الاقليم الصغير ما ينشأ عادة عن انقسام الكلمة والشوكة فى الممالك الكبيرة كيف لا ووالدة الامير القاصر مع اقتدارها على القيام بالحكومة وحدها كانت طماعة حريصة ولم يكن الاسقف دونها فى الطمع والشره فحصل بينهما النزاع وصار كل منهما يدعى ان الاعتماد عليه فى امور الادارة وكان لكل منهما احزاب من الاشراف

سنة ١٥٥١

وكانت معارف الاسقف لاتسكر في مثل هذا الموقع فاخذ يتقوى على الملكة ايزابيلة والدة الامير القاصر واذابها واوقعته فيما كان يدبره لها من الحيل والدسايس واستصرخت قوى بطش الاسلام

مطلب
تعضيد الاسقف للامير فرديناند على دعواه

وكان الباشاوات الذين هم بالقرب منها يعارون من صولة الاسقف ومن معارفه فوعدوا الملكة ايزابيلة بالاعانة والامداد ولاشك انهم كانوا يحملون الاسقف على التخلي عن ادارة امور اردل لولم يحمله طمعه على اتخاذ طريقة اخرى تحميه بل وتقوى بها شوكته في الاقليم المذكور وذلك انه اصلح الملكة بواسطة بعض من اعيان الاشراف الذين كانوا يخشون تخريب وطنهم لما يترتب على الشقاق والتعاظم الحاصل بين الاسقف والملكة من الحروب المدنية والفتن الداخلية غير أنه بينما كان يشاغلها بذلك ويداهنها ارسل احد اصحاب سره الى الامير فرديناند بمدينة ويانة ليعقد معه مشارطة كما ترى وكان هذا الاسقف سببا في اخراج فرديناند من بعض بلاده الموجودة في بلاد المجار فصرح حين فاتحه الاسقف في هذا الخصوص ملاحظا انه كما امكنه اخراجه اولا من بلاده لا يتعسر عليه ان يردها اليه بالثاني لاسيما وكان الاسقف قد عرض على فرديناند فوائد جمة ووعده بان يسلح لقصد مصلحته اقوى اشراف بلاد المجار واعظمهم شوكة فصمم فرديناند على ان يدخل بعساكره في اقليم ترنسلوانيا ووعد الاسقف بذلك وان كان قد عقد الهدنة مع السلطان سليمان واعد فرديناند لهذا المشروع جيشا جمعه من جنود المانيا واسبانيا الذين شابوا في العسكرية وصار لهم فيها دراية وتمرن وجعل على هذا الجيش الامير كستالدو ماترم بيادينة وقد رباه واحسن تربيته الشهير پسكير الذي اسلفنا ذكره فكان يشبهه بالكلية وكان ذا قريحة لايعبأ بالمعضلات والخطوب جامعا لما جل من المعارف فيما يخص الفنون الحربية ودخل الجيش في ترنسلوانيا وكان مهابا لا لكثرة جنوده حيث كانوا قليلين بل كان مهابا لجراءة عساكره ومهارة رئيسه ومبدأ في الحرب واعانه الاسقف واحزابه من اهل المجار كل الاعانة وكان السلطان وقتئذ مع جيشه على ضواحي بلاد العجم ولم يمكن

سنة ١٥٥١

للباشاوات ان يعينوا الملكة ايزابيلة كما ينبغي بالسطو لما كانت تقتضيه الاحوال اذ ذاك فاشعرت بانها ستبرح عن قريب من البلاد بل ويئست من ابنها وايقنت بهلاكه بين هؤلاء الاقوام

مطلب نجاح ما دبره الاسقف مارتينوزى

وكانت هذه الفرصة تعين الاسقف حتى الاعانة على التوصل الى غرضه فلم يهملها وذلك انه لما رأى الملكة ايزابيلة فى اشد كرب عرض عليها امور الوسعتها منه فى وقت آخر لردته فيها خائبا ساخر ولا وافادها بان من المحال عليها ان تقاوم جيش فرديننند وانها وان كانت تؤمل الاعانة والامداد من طرف الدولة العثمانية فتلك الاعانة تضرها لا تنفعها حيث ان الدولة العثمانية وان كانت تعينها حتى تظفر بخصمها فهى تصير من جملة اتباعها ولا يمكنها التخلص من حكم الاتراك وافهمها ان تسلميها فى ترنسلوانيا للامير فرديننند والتنازل له عن حق ولدها فى الملوكية على بلاد المجار اليق بشأنها وحفظ ولدها وابقاء بلاد النصرانية فى الامن والراحة من استعانتها بالدولة العثمانية حيث ان اغاثتها الاتراك هم اعداء دينها الابد وان تصيرهى وابنها فيما بعد غنيمة لهم ووعدها الاسقف ايضا ان سيحصل لها من الامير فرديننند ما هو كفؤ لها ولمقامها فى مقابلة ما تنزل عنه وكانت ايزابيلة قد تخلى عنها بعض احزابها وتخشى ان يتخلى عنها الباقون ولا تجد ظهيرا ولا نصيرا لتمادى اكتساف الاعداء بها من كل جهة فقبلت ما عرضه عليها مارتينوزى لبأسها وقنوطها وسلمت القلاع وكانت لم تزل محصنة متينة وسلمت سائر النشانات الملوكية من جملتها تاج من الذهب كان اهل المجار يزعمون انه انزل به من السماء حتى ان من يحمله يكون له حق فى الملوكية غير قابل لان ينازع فيه وحيث لم تطق نفس ايزابيلة ان تمكث كآحاد الناس فى بلاد كانت ملكة عليها ارتحلت من وقتئذ مع ولدها الى سيليزيا لتمسك باعة كل من اقليم اوبلان واقليم راتيبور لان فرديننند كان وعد بان يقلد ابنها بحكومة هذين الاقليمين وان يزوجه باحدى بناته

وبعد أن انشيع امر تنازل ايزابيلة وولدها عن المملكة بايع الاسقف الامير

سنة ١٥٥١ م

فرديننند واقتدى به ايصا سائر امراء ترنسلوانيا وكذلك الامير فرديننند لم يبق شيء من التعظيم والتبجيل الا واجراه في حق هذا الاسقف في نظير خدمته واعانته له بجعله حاكما على ترنسلوانيا واثبت له فيها صولة لاحد لها وامر الجنرال كستلدو ان يكون مطيعا لاوامره وان يكون في غاية الامتثال له وان لا يفعل شيأ بدون استشارته ورتب له ماهية غير الايراد الجسيم الذي كان له من قبل واعطاه مطرانية غران واخذ له من البابا منصب الكردينال ومع ذلك فكان الامير فرديننند يضمر في حق مارتينوري خلاف مايظهر ولم يكن في الباطن صادقا في شيء مما فعله في حقه بل انه كان يستحونه ويخشى من سياسته ومعارفه وذلك انه كان يريد ابطال ما كان للاشراف بلاد المجارمن المزايا الزائدة عن الحد فخطر بباله ان ما اكتسبه مارتينوري من الشوكة والصولة سيصرفه في عكس مايصير تدبيره في حق الاشراف لان مثل مارتينوري يرجح اشتهاره بحب وطنه وتأييد حرية ابناء بلاده عن اشتهاره بكونه صادقا في حق ملك او لاه عزا ورفعة

مطلب
جعل الاسقف مارتينوري حاكما على ترنسلوانيا

وبناء على ذلك صدر امر من الملك فرديننند سرا الى كستلدو بان ينتبه الى امور مارتينوري وان يلاحظه مع الدقة في سائر اطواره وحركاته وان يحترس من كل ما يفعله وان يفسد عليه كل ما يدبره ولكن حصل ان مارتينوري لجهله ترقب كستلدو له او لعدم اكتراثه بدسائس فرديننند ومكره قد بدأ بحرب الاتراك وتثبت في قتالهم حتى ظهر عليهم واسترجع منهم عدة مداين كانوا تغلبوا عليها واجهد عليهم مادبروه للتغلب على مداين اخرى ومكن حكم فرديننند في ترنسلوانيا بل وفي ايالة تمسوار وغيرها من البلاد المجاورة لها وكان رأيه في اغلب الامور مخالفا لرأي كستلدو وضباطه وكان يعامل الاتراك الذين اسرهم في الحرب مع غاية المروءة وكرم النفس حتى كان كستلدو في غاية التكدير لذلك وافاد الملك فرديننند به واوهمه بان هذه المعاملة مجرد مكر من مارتينوري يريد به استجلاب الاتراك فيه حتى يمكنه فيما بعد باعانتهم له ان يصير مستقلا بالحكم ويخرج عن طاعته وقد عرض مارتينوري لقصد تبرئة نفسه من هذه

مطلب
مانواه فرديننند في حق مارتينوري

سنة ١٥٥١

المطنون ان مثل هذا فى حق الاتراك لا يليق عند اهل السياسة لان الاتراك قويوا الشوكة والصولة يحرصون على الانتقام مما يحصل فى حقهم فمعاملتهم بالجبر والقسر لا ينشأ عنها لفاعلها سوى الوبال ومع ذلك لم يكن لهذه الحجج موقع عند فرديننده وأبى ان يصدق سوى ما افاده به كستلدو لاسيما وكان يرى ان نزع حكمه من بلاد المجار ليس بعسير حيث كانت صولته فيها ضعيفة وكانت الكلمة والشوكة بها للنائبه مارتينوزى المذكور وكان كستلدو يقوى وسواس فرديننده وشبهته بما كان يبعثه من الاخبار الى اصحاب سره بمدينة ويانة فكان لا يغفل طرفة عين عن تقبيح ما كان يفعله مارتينوزى من الامور الجيدة التى لا تخشى لها عاقبة بالسطر لمصالح فرديننده فما بالك بأموره التى كان يتراءى عليها بعض ما يوجب الوهم والشك وكان يفترى عليه كل الافتراء وينسبه لما لم يكن يحصل منه بل ولا يخطر له ببال ولم يزل كستلدو مستمرا على الوشى فى حق مارتينوزى حتى حقق عند فرديننده انه لا يمكنه ان يبقى ملكا على بلاد المجار الا اذا اراح نفسه منه ومن طمعه وكان فرديننده يعلم ان طلبه لهذا الكاهن فى المحاكم لاقامة دعواه خطر عليه وبه لا يفوز بمرامه حيث ان مارتينورى وان كان من رعاياه الا انه كان قوى الشوكة فربما غدر به وبناء على ذلك صمم على ان يغدر بهذا الكاهن ويستريح منه ورأى ان هذا اسلم له عاقبة من طلبه فى المحاكم اذ كان من الجائز أن القوانين لا تساعده على تنفيذ اغراضه فى حقه فانظر كيف فعل

مطلب قتل مارتينوزى بأمر فرديننده

صدر الامر من فرديننده الى كستلدو بقتل مارتينوزى وتكفل كستلدو باجراء هذا الامر المنكر وافهم به بعض امنائه من الضباط الايطاليين والاسبانيوليين وتذاكر معهم فى كيفية اعدامه فدخلوا ذات يوم مع الفجر فى مسكن مارتينوزى متعللين بان يعرضوا عليه بعض مكاتبات مستعجلة لا بد من ارسالها حالا الى الملك بمدينة ويانة فبينما كان مارتينوزى يمعن النظر فى قراءة كتاب كان بيده ضربه احد المتعصبين بخنجر فى زوره ولكن

١٨ كانون اول

لم تكن هذه الضربة بالقاضية وهجم مارتينورى بقوته على من ضربه وجعله

تحت قدميه غير انه انقض عليه بقية المتعصبين وكان شيخا طاعنا فى السن
ولا نصير له ولا ظهير ولا سلاح بيده فتكاثروا عليه فوقع بينهم بعد قليل وفى جسمه
مائة ضربة بالخنجر وكان اهالى ترنسلوانيا تقمعهم الجنود الاجنبية ولم
يمكنهم القيام لينتقموا له وكان قد مكث زمنا طويلا وهو يخدم بلادهم فاحبوه
ومالوا اليه كل الميل وفزعوا لحتفه وسخطوا على فرديننذ حيث هو
لم يلتفت الى مافعله مارتينوزى اخيرا فى حقه من المعروف وهو ادخاله
ببلاد ترانسلوانيا وتمكينه على كرسيها ولم يلتفت الى ما يجب لهذا الحبر من
الاحترام والاعتبار بوصف كونه من عماد دين النصرانية وسفك دمه وما جنى
شيأ يستوجب به ذلك ولم يكن فيه عيب سوى حبه لوطنه واما الاشراف
فانزعجوا لذلك كل الانزعاج واشمأزت نفوسهم من الملك وديوانه حيث هو
لمجرد تهم لا اصل لها واقوال مجردة عن الصحة امر بقتل رجل يجب احترامه
لفضله وعلو قدره فلزموا اراضيهم وتخلوا عن الملك وخدمته والقليل الذى بقى
منهم فى العسكرية كان يخدم مع الاشمئزاز والنفور واما الاتراك فتقوت قلوبهم
لموت هذا الكاهن لانهم كانوا يخشون بأسه لمعارفه وصولته واخذوا يستعدون
لتجديد الحرب فى اوائل الربيع الآتى فانظر كيف خاب قصد فرديننذ من
قتل هذا الحبر حيث كان يقصد بقتله اراحة نفسه وتمكينه على كرسى ترنسلوانيا
فلم يكن على وفق مرامه بل رأى نفسه عرضة لقوى بطش الاسلام لاسيما وكان
رعاياه فى نفور منه فكان لا يؤمل منهم ان يعينوه على اعدائه اذا زحموا عليه
ولنرجع الى ذكر موريس فنقول انه لما جمع امره ودبر حيله
ودسائسه وجهز سائر ما يلزم للحرب من مهمات وخلافها استعد لأن يظهر
ما كان يضمره وان يقاتل الايمپراطور غير انه لم يفعل كما فعل اهل عصبة
سمالكالد حيث انهم لاوهامهم وجهلهم وضعف سياستهم تجنبوا ان يلتموا
بالاجانب ويتحدوا معهم فحل بهم الوبال لعدم التجائهم الى الممالك القوية فبذل
جهده فى طلب الاعانة من هنرى الثانى ملك فرنسا بقدر ما ظهر قبله اهل عصبة
سمالكالد من التنافر والتباعد عن توسط الملك فرنسيس الاول فى امورهم

سنة ١٥٥١

مطلب
ما نشأ عن قتل
مارتينوزى

مطلب
استعانة موريس
بملك فرانسا

سنة ١٥٥١ ولحظ موريس كان الملك هنرى مستعد السماع قوله واجابته وكان يمكنه اذ ذاك ان يوجه لاعانته سائر جنود الدولة الفرنساوية وذلك انه كان يغار منذ زمن طويل من ظفر الايمبراطور ونجاح جيوشه وكان يتقلب على الجمر فى انتظار فرصة بها يختبر قواه مع قوى من كان لمملكة فرانسا عدوا مبيناويحيى مااشتهرت به حكومة والده فرنسيس وازداد به فخاره من مناضلة شرلكان ومخاصمته وقدحصل من هنرى مايدل على انه يترقب كل فرصة تساعده على معاندة الايمبراطور وهو أن أدخل تحت حمايته الاميردوق برمة وبرزت عساكره امام جنود الايمبراطور فى دوقية برمة وفى اقليم بيمون وبعد انتهاء حربه مع انكلتره بمشارطة عظيمة العائدة له ومشرفة لاهل ايقوسيا وكانوا احلافه ومعاهديه رأى بعساكر دات الفرنساوية فى قلق عظيم لانتظار واقعة تكون اعظم من واقعة برمه واقليم بيمون حتى يظهروا فيها شهامتهم وعزمهم بعلوهم على هام عدوهم

مطلب المشارطة المنعقدة مابين موريس وملك فرانسا

وكان الملك هنرى قدارسل حنادوفايس اسقف بايون الى بلاد المانيا مظهرا انه ارسله ليجمع منها جنودا يعدها لبلاد ايطاليا فامر هذا الاسقف بان يعقد بالنيابة عنه مشارطة مستكملة مع الامير موريس واحزابه ولكن حيث كان لايليق بمقام ملك فرانسا ان يتكفل بالمدافعة عن دين المعتزلة لم يذكر فى المشارطة شئ مما يخص الديانة وان كان للدين مدخل عظيم فيها وفوض امر الدين الى قضاء الله وقدره ولم تذكر من اسباب التعصب مع موريس على الايمبراطور سوى فك قيد ابى وزوجة موريس من الاسر ومنع اضمحلال ترتيب الجمعية الجرمانية التى هى عليه من قديم الزمان ومنع زوال قوانينها القديمة وحفظ شرائعها من الوقوع فى التزلزل والانزواء فى روايا النسيان ولاجل تتميم هذين الامرين ذكر فى المشارطة ان جميع الاحزاب المتعهدين يشهرون الحرب مع الايمبراطور فى آن واحد ولايكون صلح ولاعقد هدنة من غير رضاء المتعهدين فردا بعد فرد وان موريس يصير رئيس تلك العصبة حتى لايحصل فشل بين اربابها او تعاقم فى شأن الرياسة وان تكون

لموريس

لموريس التصرف المطلق فيما يخص امور الحرب وانه هو واحزابه يجهزون سبعة آلاف من الفرسان ومقدارا من المشاة يكون على التناسب مع مقدار الفرسان وان الملك هنرى يعطى من اثمان الذخائر اللازمة لهذا الجيش مدة ثلاثة اشهر من ابتداء الحرب مائتين واربعين ألف كورون وبعد هذه المدة يدفع فى كل شهر ستين الف كورون مادام الجيش فى ميدان الحرب وان الملك هنرى يهجم على بلاد الامبراطور من جهة لورينة مع جيش جرار وانه اذا لزم الحال لانتخاب امبراطور آخر غير شرلكان فلا يقوم بدله سوى من يختاره ملك فرانسا وقد انعقدت تلك المشارطة فى الخامس من شهر تشرين الاول قبل تسخير مدينة مكدبورغ بقليل وقد حصلت المداولة فيه اخفية حتى ان الامراء الذين دخلوا فيما بعد من ضمن المتعاهدين لم يفهم موريس الاثنين منهم حقيقة الحال وهما حنا البرطة دوق مكلسورغ وحاكمها اذ ذاك والامير عليوم دوهيسة ابن حاكم هيسة الذى كان اسيرا عند الامبراطور كما تقدم وبالجملة فقد كانت هذه العصبة مع غاية التدبير والاحتراس حتى خفى امرها على الامبراطور ووزرائه ولم يقفوا لها على جلية خبر بل وكانوا لا يتوهمون حصولها اصالة

سنة ١٥٥١

وكان الامير موريس لم يزل يسعى مع مزيد الهمة فى البحث عن محالفة من يعينه على تتميم اغراضه فلم يكتف بمعاهدة ملك فرنسا بل ولى وجهه شطر انكلترة والتمس من ملكها ادوار السادس ان يمده بار بعمائة الف كورون ليستعين بها على المصاريف متعللا بان العصبة التى انشاها مجعولة لقصد المدافعة عن دين المعتزلة وتأييده ولكن كان ديوان انكلترة اذ ذاك فى اضطراب وفشل لما ان الملك حينئذ كان قاصرا وكان الانكليز مشغولين بامر دولتهم بحيث لا يمكن لوزرائها ان يلتفتوا الى المصالح الخارجية فلم يظفر الامير موريس بشئ منهم وان كانوا اوقتئذ متولعين بدين المعتزلة ولكن لو وثق موريس بحماية ملك قوى اعنى هنرى الثانى ملك فرانسا اخذ يتأهب لاجراء مقاصده بدون مبالاة غير انه كان لم يزل يسلك مسلك الاحتياط فرأى من اللازم اولا ان

مطلب
استعانة موريس بملك انكلترة المسمى ادوار السادس

سنة ١٥٥١

بطلب دفعة اخرى من الايمبراطور تخلية سبيل حاكم هيسة ولهذا القصد بعث رسمار رسالة الى مدينة انسبروكة باسمه واسم منتخب براندبورغ وامرها ان تذكر للايمبراطور جميع الاسباب المبنى عليها ماهى مبعوثة لصدده ثم تذكر بقول واضح غير متخلل مواثيق موريس ومنتخب براندبورغ مع حاكم هيسة ثم تطلب فك اسر هذا الامير حيث التمساه من الايمبراطور اكثر من مرة ولم يجبهما فيه وبعث ايضا كل من المنتخب البلاطينى ودوق ويرتانبورغ ودوقات مكلانبورغ ودوق التنطرتين وملتزم براندبورغ عماريت وملتزم بادة رسلا من طرفهم لتعضيد طلب الاميرين المتقدمين تخلية سبيل حاكم هيسة وكتب ايضا كل من ملك دانيمارقة ودوق باويير ودوقات لونبورغ الى الايمبراطور فى هذا الخصوص وكذلك ملك الرومانيين انضم الى هؤلاء لاجل هذا الغرض وسبب انضمامه اليهم اما ان يكون شفقة على حاكم هيسة وترحما بحاله اويكون لغيرته من علو شوكة اخيه الايمبراطور منذ ما اراد تغيير سلسلة الوراثة فى حكم الايمبراطورية وعزم على نقل ممالكه الى ابنه فيليش

مطلب
التماس موريس تخلية سبيل حاكم هيسة

ثم ان شرلكان لتصميمه على مانواه فى حق حاكم هيسة حاول ان يجيب هؤلاء الامراء فى التماسهم وان كانوا اقوياء الشوكة ولم يجب الرسل المبعوثين له الا بما معناه انه ينتظر مجيء موريس بمدينة أنسبروكة وعند حضوره سيفهمه بما يراه فكأن سعى الامراء لم يجد نفعا لحاكم هيسة غيرأنه كانت فائدته جليلة للامير موريس وذلك انه تعلل به فيما حصل منه بعد وأيقن الناس ان له الحق فى سلوك طريق الحرب لجبر الايمبراطور على تخلية سبيل حاكم هيسة حيث ان الايمبراطور لم يحل سبيله مع التضرع اليه وكان لهذا السعى فائدة اخرى وهى ان الايمبراطور لم يزل فى أمن واطمئنان من جهة موريس لانه لما رأى ان هؤلاء الامراء والملوك يطرقون باب عنايته بأكف الرجاء ظن انهم لايؤملون فك حاكم هيسة الامن محض كرمه وحلمه وقد استعمل موريس حيلا اخرى لاخفاء دسائسه ومخادعة الايمبراطور

سنة ١٥٥٢

مطلب
استمرار موريس على مخادعة الايمبراطور

سنة ١٥٥٢

حتى يتسع معه الوقت ويحكم تدبير اموره فاظهر أنه يبذل غاية جهده في وجود طريقة بها يزيل كل مشكل في خصوص ورقة الامان التي كان علماء المعتزلة يطلبونها فحمل توجههم الى المشورة القسيسية التي هم مرسلون اليها فكان رسل موريس بمدينة ترنتة يتذاكرون كثيرا في هذا الخصوص مع رسل الامبراطور ويخبرونهم بآرائهم بدون تكلف حتى كانهم رسل ملك واحد ثم اراد موريس يفهم ان المنازعات في هذا الخصوص قد هان امرها على ما يرى وكاد أن ينفض مشكلها ولاجل ادخال هذه الحيلة على من اراد مخادعتهم امر مبلغيهم ورفقاءه ان يسافروا الى مدينة ترنتة هذا وكانت مكاتباته مستمرة مع ديوان الامبراطور في مدينة انسبروكة وكان في كل فرصة يظهر ميله وصداقته للامبراطور ويخبر دائما ان مرامه الذهاب الى انسبروكة حتى انه اجر فيها بيتا لنفسه وامر بان يفرش وينظم في اقرب وقت حتى يسكن فيه لدى حلوله تلك المدينة

مطلب
ابتداء الامبراطور في ان يظن سوأ بالامير موريس

وكان موريس يتقن حيله في مخادعة الامبراطور حتى تراءى له ان الحجاب الذي اتخذه لستر مقاصده لا يمكن رؤية ما خلفه بوجه من الوجوه ومع ذلك ظهر عليه عدة امور أضعفت اطمئنان الامبراطور من جهته وجعلته يظن ان موريس لابد وان يكون مصمما على امر جسيم ولكن كان ظن الامبراطور مبنيا على احوال غير مهمة في حد ذاتها او قابلة لعدة احتمالات فسهل على موريس ان يزيله من ذهن الامبراطور خصوصا وكان يخشى ان يكون ظنه السوء بالامير موريس في غير محله فيعاب عليه نقض كل علاقة معه على اوهى سبب بعد أن كان يعتمد عليه كل الاعتماد وكان اغدق عليه بالخيرات وجعله من اخصائه لكن حصلت حادثة رأى الامبراطور انها مهمة يقتضى السؤال عن سببها من موريس وهي ان العساكر الذين استأجرهم الامير جيورج دومكلسبورغ لنفسه بعد تسليم مدينة مكدبورغ كما تقدم كانوا مقيمين في تورنجة وكانوا يتعيشون من سلبهم ونهبهم في الاراضي القسيسية التي كانت بجوارهم فرفع المظلومون ومن كانوا يخشون ان يلحقهم الظلم شكواهم الى الامبراطور واخبروه

سنة ١٥٥٢

ان هؤلاء العساكر لابد وان يكونوا معدين لامر ما غيران موريس لما سئل من طرف الايمبراطور عن ذلك صار تارة يفهمهم ان ما يحكى فى حق العساكر مجرد مبالغة وتارة يعرض انه لا يمكنه تسريح هؤلاء العساكر او ادخالهم تحت الضبط والربط الا اذا كانت تدفع لهم ماهياتهم الباقية بطرف الايمبراطور وبهذا الوجه ازال الشبهة وسوء الظن به ومن الجائز ان الايمبراطور كان لا يمكنه وقتئذ ان يدفع لهم ماهياتهم فسكت ولم يعد خطابا فى هذا الشان

مطلب تاهب موريس لاجراء ما كان يدبره

هذا وكان وقت العمل قد قرب لان موريس كان ارسل الامير البرطة دوبراندبورغ سرا الى مدينة باريس ليتمم امر معاهدته مع هنرى ملك فرانسا ويعجل بسير الجنود الفرنساوية اليه وكان قد اهب ما يلزم لجمع رعاياه وقت الحاجة وما يلزم لحماية بلاد السكس مدة غيابه عنها مع الجيش واما العساكر الذين كانوا فى تورنجة وكانوا معتمده فكانوا متحضرين للسير بمجرد صدور امر لهم بذلك وقد دبرت هذه الامور من غير ان يشعر بها ديوان الايمبراطور وكان شرلكان مقيما فى انسبروكة على غاية من الاطمئنان لا يشتغل بسوى افساد دسائس وكيل البابا الموجود فى ترنتة وتنظيم الشروط التى بموجبها ستدخل علماء المعتزلة بالمشورة القسيسية ولم يكن يتوهم ان ثم امورا اخرى مهمة قرب وقت ان تفجأه فيحول نظره اليها

مطلب امور اخرى ساعدت على مخادعة الايمبراطور ووزرائه

ولا يمكن توجيه اطمئنان شرلكان اذ ذاك وعدم ادراكه ما كان يدبر لاضراره وهو من عادته الدقة فى ملاحظة كل ما يحصل حوله حتى ان فرط دقته فى هذا المعنى كان يوصله غالبا الى اساءة الظن بكثير من الناس ولم يعرف احد سبب عماه فى هذه المرة عن تدبير موريس وانما قيل ان ذلك عماء بصيرة اعتراه فى هذه المرة وان لم يكن من عادته ولكن بقطع النظر عن المهارة الغريبة التى سلكها موريس فى اخفاء مقاصده وتدابيره ثم امران اعانا ولا بد على مخادعة الايمبراطور واعوانه اولهما ان الايمبراطور بعد دخوله فى مدينة انسبروكة بقليل اشتد عليه داء النقرس فهزل جسمه وفقد عقله وقوته وحدته الطبيعية فلم يكن يمكنه ان يشتغل بالمصالح على عادته مع التفطن ومزيد الدقة والامر الثانى هو ان

وزيره الاول المسمى كرانويل اسقف أراس كان من ارباب السياسة
سنة ١٥٥٢ والكياسة الماهرين بالنظر لعصره بل ولسائر الاعصار ومع ذلك كانت سياسته
هذه المرة سببا فى اخطائه وعطله وذلك ان هذا الرجل كان يثق بنفسه كل الوثوق
ويحتقر اهل المانيا فى السياسة فلم يلتفت لنصيحة من اخبروه بمقاصد
موريس الخطرة ودسائسه المستمرة حتى ان الامير دوق دالب لما كان
عنده من الوسواس من جهة موريس اراد احضاره بالديوان
الايمبراطورى للنظر فى امره وسؤاله عن كل امر يوجب سوء الظن به فلعدم
اعتناء كرانويل المذكور بذلك أجاب مع الامانية والعنفوان بان هذه التهم
لا اصل لها وان رأس ثماوى سكران لا يمكن ان تدبر امرا الا ويدركه مع غاية
السهولة ويصده على مدبره ولابد ان وثوق كرانويل المذكور بنفسه يكفى
فى ان يصدر عنه مثل هذا المقال فما بالك وكانت ثم اسباب تثبت فى اعتقاده براءة
موريس وتلك الاسباب هى ان كرانويل ارشى اثنين من وزراء موريس
وكانا يكتبان له تفصيلا كل ما يشاهدانه من سيدهما غير ان هذه الطريقة
وان كان كرانويل قد اتخذها ليعرف بها مقاصد موريس قد اعانت
على اغفاله وايقاعه فى حبائل الحيلة وذلك ان موريس لوفور حظه قد
عرف المكاتبة الحاصلة بين وزيريه وبين كرانويل ولم يعاقبهما على خيانتهما
بل عرف لمهارته ان يسلك معهما بحيث تكون فائدة المكاتبة له ويكون ما قصده
كرانويل من الضرر راجعا لنفسه فصار يظهر موريس لوزيريه انه يثق بهما
كل الوثوق واخذ يتذاكر معهما فى اخص اموره ومصالحه حتى ظنا انه يخبرهما
باعظم اسراره مع انه كان لا يفهمهما بالايما والاشارة الا ما كان يرى من مصلحته
ان يفيدهما به وبناء على ذلك كانت مكاتبات الجاسوسين للوزير كرانويل
لا فائدة لها سوى تمكينه فى اعتقاده صداقة موريس هذا وكان نفس
الايمبراطور فى غاية الاطمئنان من جهة موريس حتى انه لم يلتفت لتقرير
قدم اليه من طرف القسوس المنتخبين وفيه نصحه بان يكون على حذر من
موريس ولم يجب الايمبراطور عن هذا التقرير الا بما افهم صراحة اعتماد

على موريس واعتقاده صدقه واخلاصه

مطلب
مبارزة موريس الحرب مع الايمبراطور

وقد تمت تدابير موريس وتجهيزاته وهو في سرور بكون دسائسه لم يشعر بها احد غير أنه وان كان قرب اوان مبارزته للحرب لم يستصوب ان يرفع الحجاب الذي كان مستترا وراءه الى ذلك الوقت بل اتخذ حيلة جديدة لاعمال اعدائه عدة ايام اخرى فاخبر انه متوجه الى مدينة انسبروكة كما اشاع من قبل اكثر من مرة واخذ صحبته احد الوزيرين اللذين كان كرانويل ارشاهما وبعد ان قطع عدة فراسخ اظهر انه تعب من السفر وارسل الى انسبروكة وزيره الحائن الذي كان برفقته وامره ان يستعذر له عند الايمبراطور في تأخره عن المجيء عن قريب ويفيد انه سيحضر في الديوان الايمبراطوري فبمجرد ما سار الوزير ركب موريس فرسا وطار به نحو تورنجة ليلحق جيشه وكان عبارة عن عشرين الف رجل من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وعند وصوله اليه سار به للهجوم على بلاد الايمبراطور

مطلب
المنشور الذي اذاعه موريس لتحسين فعله في حق الايمبراطور

وقد اذاع موريس حينئذ منشورا مشتملا على الاسباب التي دعته الى قتال الايمبراطور فتعلل بثلاثة اشياء اولها المدافعة عن دين المعتزلة من ايذاء الايمبراطور حيث صمم على محوه ثانيها تعضيد قوانين الايمبراطورية الالمانيانية وابقاؤها على اصلها وصون بلادها من ان يستولي عليها ملك طالما مطلق التصرف ثالثها خلاص حاكم هيسة من الاسر وقد طالت مدته وكان سجنه ظلما وعدوانا فالامر الاول استمال موريس احزاب المعتزلة وكانوا اكثرين ذوي حمية شديدة على دينهم وكانوا لاجحاف الايمبراطور بهم مستعدين لان يفعلوا ما تسوله النفس للمرء اذا يئس وبالامر الثاني استمال قلوب محبي الحرية من قاثوليقيين ومعتزلة فكانوا مستعدين ايضا للانضمام اليه لقصد المدافعة عن حقوق ومزايا يشتركون فيها واما الامر الثالث فهو شيء يوجب ثناء الناس عليه حيث يدل على انه لشرف نفسه لا يريد الا الوفاء بما تعهد به في حق حاكم هيسة وعند ذلك كان فك اسر حاكم هيسة قد صار مرغوب كافة الامراء والملوك لا لمجرد شفقتهم عليه بل

لان الامبراطور كان اعصب سائر الناس بمعاملته طاكم هيئة المذكور بدون حق اسوأ معاملة واذاقته له العذاب لمحض الظلم والتعسف ومع منشور موريس قد ظهر منشور آخر باسم الامير البرطة ملترم براندبورغ كولمباش وقد انضم الى موريس مع طائفة من العساكر جمعها من الاوباش وكان مضمون هذا المنشور عين مضمون الاول غيرانه فى غلطة الالفاظ وفرط التشنيع كان يشبه طبع من هو مكتوب باسمه

مطلب
امداد ملك فرانسا للامير موريس

واذاع ملك فرانسا ايضا منشورا باسمه ذكر فيه علائق المحبة الجامعة من قديم بين الملة الفرنساوية وبين الجرمانيين وذكران الملتين نسل واحد وانه بموجب هذه المحبة الموجودة بين الملتين من قديم استغاث به بعض امراء المانيا فاجابهم حكم مرامهم وجهز من طرفه الجنود والعساكر لقصد احياء ما اندرس من قوانين المانيا وجعل ترتيبها على النسق الاول وخلاص بعض الامراء من الاسر وتعضيد مزايا الجمعية الجرمانية وتأييد حريتها واستقلالها ولقب نفسه فى هذا المنشور بقوله حامى حرية المانيا وامرائها المأسورين ورسم فى اعلاه صورة قلنسوة وهى اشارة للحرية على العادة القديمة وجعل هذه القلنسوة بين خنجرين ليفهم اهل المانيا ان الحرية لاتنال ولاتحفظ الا بالقوة والحرب

مطلب
وقائع موريس

وكان الامير موريس داقريحة ودهاء بحيث يسلك فى كل وقت ما يليق له فكما كان يسلك سبل المداهنة والمخادعة قبل اظهار قيامه على الامبراطور وعداوته له ابدى بعد جمع امره واظهار سره وسيره بجيشه ما اوجب تعجب الناس من الهمة والجسارة وانقض سريعا الى البلاد العالية من المانيا وقد فتحت له سائر ابواب المدائن التى كانت على طريقه واعاد فيها القضاة والحكام الذين كانوا رفعوا من مناصبهم بامر الامبراطور ورد الكنائس الى القسوس المعتزلة وكانوا قد طردوا منها وبعد ذلك زحف الى مدينة اوكسبورغ وكان محافظوها غير قادرين على ان يدافعوا عن انفسهم فولوا على عجل واستولى موريس على هذه المدينة الكبيرة وغير فيها وبدل كما فعل بغيرها من المدائن التى

اول شهر نيسان

امرت بمسالى سيره وبابعته

مطلب
تعجب الايمبراطور وتحيره

وما هنالك من الالفاظ ما يمكن ان يصرح به عما قام بالايمبراطور من التعجب والرعب حين وصله الخبر بذلك وعلم ان عدة من امراء المانيا قد تحزبوا عليه وان بقية امراء الايمبراطورية في معرلة العصيان عليه حيث كانوا الا يودون الانصمام المتعصبين وظفرهم به ورأى ان ملك فرانسا مع قوى شوكته قد انصم الى حزب هؤلاء الامراء وصار حليفا لهم حتى انه لقصد اعانتهم قد سار بنفسه قائدا لجيش عظيم واذ أدرك الايمبراطور ذلك ندم كل الندم على تغافله السابق وعدم اكتراثه بما اخبر به في حق موريس حتى صار عرضة لسخط الخاص والعام وصار في خطب عظيم حيث لا يمكنه ان يدخل رعاياه العاصين تحت الطاعة ولا ان يستعد بما به يدفع ملك فرانسا وكان قد هجم من جهة على دولته وممالكه كيف ولم يكن يوجد اذ ذاك عساكر عند الايمبراطور لان عساكره الاسبانيولية كان ارسل بعضها الى بلاد المجر لقتال عساكر الدولة العثمانية والبعض الآخر ارسله الى ايطاليا حيث كان لازما للحرب التي كانت لم تزل منعقدة في دوقية برمة واما العساكر الالمانية القديمة فكان قد سرحها اد لم يكن له اقتدار على صرف ماهياتها حتى ان بعضها دخل في خدمة موريس بعد محاصرة مكدبورغ وكان الايمبراطور لم يزل مقيما بمدينة انسبروك ولم يكن معه من العساكر الا حفر ذاته بل ولم يكن مقدار من كانوا معه من العساكر كافيا على قدر اللازم لهذا العرض وكانت خزائنه قد هدت وانفضت وكان من مدة لم يصله شيء من الدنيا الجديدة حتى يستعين به على حطه وكان قد ضاع اعتباره عند تجار جنويرة وتجار السادقة بحيث كانوا لا يعتمدونه فلما عرض عليهم ان يقرضوه وقدم لهم ربحا جسيما لم يرضوا ان يقرضوه شيأ فانظر كيف وقع في مشكل لم يكن يجد له نهاية ولا يستطيع دفع خطوبه مع انه بالاجماع كان حينئذ اعظم ملوك النصارى واكبرهم قوة وشوكة والى ذلك الوقت لم يكن حصل له ما يترتب عليه اضاعة صولته ولا ما يحط بقدره ونفوذ كلمته

فلم

مطلب
محاولة الامبراطور فسحة الوقت بطريق المداولة حتى يستعد لدفع اعدائه

فلم يبق للامبراطور وسيلة فى دفع عدوه سوى اتخاذه مسلك المداولة والمحاولة كما هو دأب من احس بعجز نفسه وضعفه ولكن حيث خشى الامبراطور ان يجر مقامه الى الانحطاط اذا بدأ بالمداولة مع رعاياه العاصين وفاتحهم فى امر الصلح بنفسه عدل عن ذلك وجعل الواسطة بينه وبينهم اخاه الملك فرديننده وكان موريس لوثوقه بنفسه موقنا ان هذه المداولة تعود عليه بالفائدة فامل انه اذا اظهر التساهل ولين الجانب وصغى الى مايعرض اليه فى شان الصلح يتمكن من مقصوده حيث انه وان كان من باب المشاغلة والمخادعة يغتر به الامبراطور فلا يجعل تدبير مابه يدافع عن نفسه ولا يستعد بما كان اخذ فى اسبابه لقصد المقاومة فرضى موريس بدون توقف ان يتقابل مع الملك فرديننده بمدينة لنزة فى الاوستريا وتوجه لوقته الى هذه المدينة بعد أن امر باستمرار جيشه على السير وسلم قيادته الى الامير دوق مكلنبورغ

مطلب
نجاح العساكر الفرنساوية

واما ملك فرانسا فعمل كما وعد حلفاءه حرفا بحرف وبادر للبراز مع جيش جرار تدعم ماهيانه ومصاريفه على الوجه الجيد ودخل به فى اقليم لورينة وسلم اليه كل من مدينة طول ومدينة ووردوم بدون توقف ولا مقاومة وبعده سارت عساكره الى مدينة مترة وكان الامير دومونمورنسى الفرنساوى قد استأذن فى ان يدخل بها مع سرية صغيرة من العساكر لحفره وبهذه الحيلة المنكرة ادخل بها من العساكر المقدار اللازم لقمع من كانوا فيها من المحافظين فعند وصول عساكر الفرنساوية اليها تغلبوا عليها بدون قتال ولا سفك دماء ودخل هنرى ملك فرانسا فى سائر قلاعها وحصونها مع مزيد الابهة والاحتفال وحمل سكانها على ان يبايعوه حتى صارت من جملة بلاده ثم ترك بهذه المدينة لقصد حفظها مقدارا عظيما من العساكر وسار بجيشه الى الساسة مؤملا الظفر بفتح بلاد اخرى لاغتراره بظفره الاول

مطلب
كانت المداولة بين الامبراطور وموريس عديمة الجدوى

واما المداولة التى حصلت بين الملك فرديننده والامير موريس بمدينة لنزة فلم يحصل منها فائدة قلت اوجلت فى شأن الصلح والاقرب للعقل هو ان موريس فى الواقع لم يرض بمقابلة الملك فرديننده الا لقصد مشاغلة

سنة ١٥٥٢

الايمبراطور وايهامه لان هذا الامير عرض فى شأن مصلحة حلفائه وفى شأن ملك فرانسا امورا لا يخطر ببال احد أن يرضى الايمبراطور بها وكان جبارا عنيدا غيران موريس مادامت المذاكرة بينه وبين فرديننند لم يحل عما فيه مصلحة حلفائه ولم يغفل عما حمله على العصيان والقيام ومع ذلك اظهر أنه يود أن ينهى بالتى هى احسن امر المنازعة بينه و بين الايمبراطور فاعترارا من فرديننند بهذا القول عرض ان يتقابلا مرة اخرى بمدينة پاسو فى السادس والعشرين من شهرادار وطلب ان تعقد هدنة مابين الفريقين اولها اليوم المذكور وتستمر الى عشرة من شهر حيزران حتى يكون فى الوقت فسحة ليتيسر انهاء اسباب المنازعة

مطلب سير موريس الى مدينة أنسپروكه

وفى هذه الخلال لحق موريس جيشه فى التاسع من شهرادار وكان وصل الى غوندلفنجان وصبحة ثانى يوم من وصوله اليه امر بالسير وكان قد بقى الى مدة الهدنة ستة عشر يوما فاراد موريس ان يقضى تلك الايام فى تتميم امر مهم به يمكنه ان يحرم خصمه من كل فائدة يريدها من المذاكرة التى ستحصل فى مدينة پاسو وان يجعل فائدتها كلها لنفسه و ينال مايطلبه ورأى أن مااظهره من ميله الى الصلح بانضمامه الى توقيع الهدنة عما قليل يوجب اعترار الايمبراطور و يوقعه فيما اصر به اولا من الامن والاطمئنان وبهذه الامانى توجه موريس الى انسپروكه واسرع فى السير بقدر مايمكن بالنظر لثقل جيشه وكثرة عساكره فوصل الى محطة فيسان فى الثامن عشر من شهر أدار وهذه المحطة على مدخل طيرول وهى مهمة جسيمة وكان بها ثمانمائة من الجنود على غاية التحصن جعلهم الايمبراطور بهذا المحل لمنع المتعصبين وردهم فهجم عليهم موريس بقلب ثابت وعزم متين حتى طردهم عن محطتهم وانطووا وهم فى فزع ورعب الى معسكر آخر للايمبراطور بقرب روتبان فاكسبوه لفزعهم رعبا وخوفا وفزع عساكره معهم هاربين بعد مقاومة قليلة

ولفرح الامير موريس بهذا النصر حيث كان فوق آماله سار بعساكره

مطلب
تغلب موريس على قلعة اهربيرغ

الى قلعة اهرنبرغ وكانت موضوعة على صخرة شامخة عالية وهى مفتاح ابواب الجبال الموجودة بتلك الجهة اذلم يكن هناك طريق تسلك غير التى كانت تلك القلعة موضوعة عليها وكان المعتزلة قد استولوا على تلك القلعة فى اوائل حرب عصبة سمالكالد حيث كان محافظوها قليلين فلم يمكنهم المدافعة عنها وكان الامبراطور يعرف اهمية تلك القلعة فاعتنى بامرها وجعل فيها من العساكر ما يكفى لدفع كل عدو ولو كثرت جنوده وكبرت صولته الا انه من اغرب التصادف حصل بعد حلول موريس بجهات تلك الاودية ان احد الرعاة ابقت منه عنز فلدى البحث عنها وجد سبيلا مجهولا به يمكن الصعود الى قمة الصخرة فأتى الى معسكر موريس واخبره بذلك فانتخب مقدارا من عساكره وجعل رئيسهم الامير جيورج دومكلمبورغ وامرهم ان يجعلوا الراعى خريتا لهم ويتبعوه حيث ذهب وكان سيرهم فى المساء وتسلقوا طريقا شامخا وخاطروا بانفسهم وقاسوا ما قاسوا حتى وصلوا بعد معاناة الاين الى قمة الصخرة ولم يرهم احد من الاعلى فلما هجم موريس على القلعة من احدى جهاتها ظهر جماعته من فوق قمتها من جهة اخرى فى الوقت المعين على مقتضى امر موريس واخذوا يتسلقون حيطان القلعة وكانت غير حصينة من تلك الجهة لانه لم يكن يخطر ببال احد انه يمكن الوصول اليها منها فاستولى الرعب على قلوب المحافظين حيث رأوا الهجوم عليهم من جهة كانوا يرون انفسهم منها فى غاية الامن لا يعتريهم خطر ولا وجل فالقوا السلاح وسلموا انفسهم لوقتهم وسخر موريس هذه القلعة بدون سفك دماء عير ما قل وبدون اضاعة وقت وكان الوقت اعظم شئ بالنظر له ولو لم تسعفه المقادير لكانت تلك القلعة سببا فى تأخيره زمنا طويلا واوجبت عليه صرف غايات الجلادة والمهارة ونهايات الشجاعة والشطارة

مطلب
حصلت فتنة فى جيشه فاعاقته عن السير

ولم يكن بين موريس ومدينة انسبروكة التى كان الامبراطور مقيما بها سوى مسافة يومين فلم يهمل لحظة واحدة بل امر بسير المشاة من عساكره الى تلك المدينة واما الخيالة فلعدم نفعهم بتلك الوديان اذ كانت كلها جبالا واوعارا

ابقاهم فى فيسان ليقوموا بحفر البوغاز وكانت نيته السير مع غاية السرعة حتى يصل الى مدينة انسبروكة قبل ان يصل اليها خبر تغلبه على اهرنبرغ ليفجأ الايمپراطور مع اتباعه ويقبض عليهم باجمعهم حيث ان مدينة انسبروكة المذكورة لم تكن حصينة حتى يمكنها المقاومة ولكن لم تساعده الاقدار فى تنفيذ هذه النية بل انه بمجرد شروعه فى السير مع جنوده قامت عليه جماعة من العساكر المستأجرة وابوا ان لا يسيروا حتى يستوفوا حقهم على حسب العادة الجارية اذ ذاك وهى اعطاء كل منهم جعلا فى نظير تغلبهم عنوة على القلعة ولم يتمكن موريس من تسكين تلك الفتنة الا مع المشاق والمقاساة بعد ان ضاع منه انفس اوقاته ولم يمكنه استعطافهم وحملهم على السير الا بعد ان افهمهم انهم قادمون الى مدينة ذات ثروة وسعة فما يأخذونه منها من السلب والغنيمة يكون اعظم مكافأة لهم على ما فعلوه

مطلب
هروب الايمپراطور على اسوء حال من مدينة انسبروكه

ولم يتخلص الايمپراطور من الخطب الا بالتأخير موريس بداعى تلك الفتنة ووصله الخبر ليلا فرأى ان لا مناص له سوى الاسراع بالفرار وخرج حالا من مدينة انسبروكة وكان الليل معتما والامطار هاطلة متتابعة وكان بسبب دائه المتقدم ذكره قد هزل جدا حتى كان لا يستطيع سوى حركة التختروان او الهودج وسافر ليلا على نور الشعل واتخذ سبيله فى جبال البة وسلك طرقا وعرة ليست مطروقة وكان يتبعه ارباب ديوانه وحشمته وهم فى غاية المشقة لان بعضهم كان راكبا خيلا اختطفها من حيث كانت والاكثر كان راجلا والكل فى اسوء حال فانظر دائرة شرلكان وحالته فى هذه الليلة الحالكة قابلها بالاحتفالات والابهة التى لم تنفك عنه منذ خمس سنوات تامة مضت قبل هذه الحادثة ووصل هو وجماعته فى غاية التعب والنصب الى ويلاخ فى قارنثية وربما كان لا يأمن على نفسه فى هذا المحل وان كان مجهول الطرق لا يتمكن احد من الوصول اليه

مطلب
دخول موريس فى مدينة انسبروكه

واما موريس فدخل بمدينة انسبروكة بعد خروج الايمپراطور منها بساعات قليلة فارتعدت فرائصه يأسا حيث علم فرار الايمپراطور كطير جارح

سنة ١٥٥٢

فرت منه غنيمته بعد ان كاد ينهشها بمخسته فتتبع الايمبراطور ردة حتى قطع عدة اميال الى ان علم انه لا يمكن ان يلحقه وقد جعل له الخوف اجنحة يطير بها فرجع الى المدينة بالثاني وامر بنهب سائر امتعة الايمبراطور وورائه لكنه امر ان لا يمس احد شيأ من امتعة ملك الروماني ولم يعلم لذلك سبب انما يقال ان موريس كان قد تحبب مع هذا الملك او كان قصده ان يوهم الناس بوجود محبة بينهما هذا وكان موريس قد حسب اوقاته وقسمها على ما كان في نيته من المشروعات حتى انه لما وصل الى مدينة انسبروكة كان لم يبق سوى ثلاثة ايام الى مبدأ الهدنة المتفق عليها افسافرحا الا ليقابل فرديننـد ملك الرماونيين بمدينة باسو في اليوم الموعود

مطلب تحلية سبيل الامير منتخب السكس

واما الايمبراطور فقبل خروجه من مدينة انسبروكة خلى سبيل الامير منتخب السكس وكان جرده عن اراضيه واملاكه واسره عنده من مدة خمس سنوات وكان في تلك المدة يجره حيث توجه ولا يعلم سبب تحليته سبيل هذا الامير هل كان يؤمل من ذلك ان يحصل للامير موريس خصما يمكن ان ينازعه في دوله ومنصبه او انه لم يستنسب ابقاء هذا الامير اسيرا عنده مع انه يخشى اضاعة حريته ووقوعه اسيرا في ايدي اعدائه الا ان المنتخب المذكور لم يجد طريقا في خلاصه سوى ان يتبع الايمبراطور ويفر معه حيث كان يخشى الوقوع بين يدي موريس الذي هو اصل كل نكبة حلت به فلا يرى لحاله مصحب الايمبراطور في فراره منتظرا ما يكون في شأنه اذا افتتحت المذاكرة بين الفريقين

وقد ترتب على سعي موريس امور اخرى غير هذه وذلك انه بمجرد وصول الخبر الى مدينة ترنتة بانه قد احدق في حرب الايمبراطور وقع الرعب والخوف في قلوب القسوس الذين كانوا بالمشورة القسيسية المعقدة في هذه المدينة فرجع الاحبار الالمانيون الى اوطانهم حالا قصد حفظ املاكهم وعقاراتهم وهرع بقية القسوس الى جهاتهم وكذلك نائب البابا فرح بهذه الفرصة حيث اوجبت انحلال المشورة وكانت على خلاف مرامه لا يتمكن من تعبيد

سنة ١٥٥٢

اعتراضه مع ارباب سياسة وكان الى ذالك الوقت يعارض رسل الامبراطور فيما كانوا
يرومونه من ادخال علماء التيولوجيا من المعتزلة فى تلك المشورة وانعقدت جمعية
من قسوس رومة فى ٢٨ شهر نيسان وصدر عنها امر بتأخير المشورة
القسيسية مدة سنتين فاذا انتشرت اعلام الصلح ببلاد اوروبا بعد هذه المدة
امر بانعقادها وبعد ان فرغت تلك المدة تأخرت المشورة عشر سنوات ولكن
حيث ان عمليات تلك المشورة حين انعقدت فى سنة ١٥٦١ لا مماسة لها بالمدة
التى نتكلم عليها فى تأخيرنا هذا فلا نتعرض لذكرها

مطلب ثمرة اوامر المشورة القسيسية

وكانت جميع دول النصارى تودّ انعقاد المشورة القسيسية مؤملين انه بحكمة
الاحبار الذين يكونون فيها ناظرين على الملة المسيحية ويتقوى بهم واجتهادهم ينشأ
عن هذه المشورة ما يترتب عليه قطع المجادلات والمنازعات الحاصلة فى شأن
الدين اذ ذاك وتنقذ الملل المسيحية من اخطارها ولكن البابات الذين كانوا
يأمرون بهذه المشورة كانت لهم مآرب اخرى فكانوا يبذلون ما فى وسعهم من
السياسة والتدبير والصولة ليصلوا الى تلك المآرب ولكثرة معارف نواب
البابا ومهارتهم وجهل معظم القسوس وامتثال اساقفة ايطاليا لفقرهم
واملاقهم كان لهؤلاء البابات شوكة نافذة فى المشورة القسيسية حتى كانوا
يأمرون بما شاؤا واذا حرروا اوامر فى شأن الدين كانوا يحاولون فيها تأييد
شوكتهم وتمكين الاصول التى يظنونها اساسا لتلك الشوكة ولا يفكرون فيما به
يكون اتحاد الامم المسيحية مع بعضهم ورفع الشقاق والفشل مما بينهم فتراهم
يؤيدون اصولا ما انزل الله بها من سلطان وانما كانت الى ذالك الوقت واردة
بطريق الرواية والتواتر وكانوا يتوسعون فى تأويلها ويعنون بها ما يشاؤون
واثبتوا ابدا اوامر صدرت عنهم مواسم ورسوما لم تكن الى ذالك الوقت معدودة
الا من العوايد القديمة وجعلوها شطرا مهما من قواعد الديانة فضلا عن شفاء
الداء اشتدوه فاتسع الخرق على الراقع وازداد التفاقم بين الحزبين وصار بينهما
سد منيع ولم يزل الشقاق بينهما الى الآن وان لم تحصل عناية الهية لاستمر بينهما
على مدا الدهور والازمان وما نعلمه فى خصوص احوال تلك المشورة وما عمل

بها

سنة ١٥٥٢
مطلب
القاب مؤرخي المشورة القسيسية

بها قد استعد ناه من ثلاثة مؤلفين كل منهم مغاير للآخر * الاول هو القسيس بولص من البنادقة كتب تاريخ المشورة القسيسية المنعقدة فى ترنتة وحرر تاريخه وقت ان كانت حوادث تلك المشورة جديدة قريبة العهد وكان عدة من حضروها فى قيد الحياة فبين هذا المؤرخ الحيل والدسائس التى كانت ماسكة بزمام هذه المشورة واطنب فى ذلك حتى ان ماذكره يحل بشأن تلك المشورة ويضيع شهرتها واعتبارها وبين هذا المؤرخ ايضا كيفية المذاكرة بها واوضح كل الايضاح الاوامر الصادرة عنها وايدها كل التأييد حتى ان كتابه قد عد من اجود تآليف التاريخ الموجودة وهو اهل لذلك وبعده بخمسين سنة تقريبا نشر بلاوسيتى العيسوى تاريخا لتلك المشورة مضادا للتاريخ المتقدم وسلك من الدقة والتدقيق ما به يحاول اضعاف قول خصمه المؤرخ بولص المتقدم ذكره وتفنيد ما اورده من الادلة والبراهين فاجتهد ان يبرهن على ان المذاكرة بتلك المشورة كانت خلية عن الاغراض وان ما انحط عليه الحكم فيها كان مبنيا على الصدق وحسن النية وحاول براءة تلك المشورة وتنزيه اربابها من كل رذلة اذا أخذ بوجه ويهد معانى اوامرها مع الدقة الزائدة * والمؤلف الثالث هو ورغاس فقيه اسبانيولى تعين ليصحب رسل الامبراطور الى مدينة ترنتة ويحضر المشورة معهم وكان هذا الفقيه يكاتب الاسقف درلس بما يحصل فى هذه المشورة ويبين له حق البيان الحيل التى كان يتخذها نائب البابا ليلزم اربابها بان يفعلوا على طبق مرامه فاشتهرت بعض مكاتباته وفيهم مباحثة على ديوان البابا بدون مبالاة وكان بحسب مأموريته اذ ذاك تمكن من ملاحظة امور هذا الديوان وكان يجب عليه ان يبذل ما فى وسعه من الهمة والمعارف فى ابطال مآرب الديوان المذكور حيث كان مبعوثا لهذا الصدد من طرف الامبراطور وعلى كل فاتخذ من شئت دليلا من هؤلاء المؤرخين الثلاث ترى فى بعض ارباب تلك المشورة الطمع والمخادعة طبعا وترى الجهل وفساد الاخلاق متسلطا على الاغلب منهم واذا التفت اليهم ارتسمت لك فى مرآة طباعهم الشهوات البشرية حق الارتسام ولم ترفيهم شيأ من الصداقة وحسن الطوية

والاخلاق المهذبة والميل الى الحق وبالجملة تراهم عارين عما به يمكن للبشر ان يكونوا اهلا لان يدعوا الى معرفة الدين اللائق لذاته عز وجل والسنن الذى يرضيه فيندفع عنك الظن بانهم قد أودعوا شيأ من الاسرار الالهية حتى تحتوى عليه الاوامر الصادرة عن مشورتهم

مطلب قصد الفرنساوية اخذ مدينة استرسبورغ وتسخيرها بغتة

ولنرجع الى ما كان من امر موريس وحلفائه فنقول بينما كان موريس مشغولا تارة بالمداولة مع ملك الرومانيين فى مدينة لنز واخرى بالحرب مع جنود الامبراطور فى طيرول كان ملك فرانسا تقدم فى اقليم الراكة حتى وصل الى استرسبورغ واستأذن من مشورة الست فى المرور بهذه المدينة مؤملا انه يستولى عليها بالحيلة والخداع كما فعل بمدينة متز ثم يجول بداخل بلاد المانيا ولكن اعتبارا بما فعله هذا الملك فى حق اهل مدينة متز لم يرض اهل استرسبورغ ان يأذنوا له فيما طلب وعلقوا دونه ابواب المدينة وجمعوا خمسة آلاف رجل ليكونوا محافظين عليها واصلحوا ما كان محتاجا للتصليح من الاستحكامات والمبانى وهدموا البيوت الموجودة فى الضواحى لئلا توقعهم فى الاختلال عند الضرورة وتجهروا اسائر ما فى وسعهم حتى علم انهم قد صمموا كل التصميم على المدافعة عن مدينتهم الى ان تكل منهم القوى وينفد ما عندهم ولا يبقى لهم وجه من الوجوه للمدافعة وبعثوا ايضا الى ملك فرانسا رسلا من عندهم انتخبوهم من بين اعيان مدينتهم ليترجوه ان يعدل عن سبل الشر ولا يبحث عن اضرارهم ونكالهم وانضم اليهم لهذا الغرض كل من الامير منتخب تريوس والامير منتخب كولونيا والامير دوق دوكليوس وغيرهم من الامراء المجاورة اراضيهم لهذه المدينة والكل ترجوا من هنرى ان لا يجحف بمدينة استرسبورغ حيث ان ذلك مغاير لحلمه ولما رصيه لنفسه كرما واطعامن تعهده بان يكون محاميا لبلاد المانيا ومنقذا لاهلها من قسوة الامبراطور كما يدل عليه لقبه الذى اتخذه لنفسه وصار مسموع الخاص والعام وقد حصل من اهل الاقطار السويسية لاهل مدينة استرسبورغ الاعانة التامة حيث ألح هؤلاء السويسيون على هنرى ان

سنة ١٥٥٢

يحترم تلك المدينة لما انها امدت سنوات عديدة مرتبطة مع جمهوريتهم بعلائق المحبة ووثائق المشارطات والمودة

ومع ان توسط هذا الجمهور من امراء وخلافهم يرى من الدواعي القوية الاكيدة تقول انه كان لايمنع هنرى عن الاستيلاء على تلك المدينة لو كان وقتئذ له اقتدار على ذلك لما انه كان يرى فيه لنفسه فوائد جمة وما رب مهمة غير ان الملوك في ذلك العصر كانوا قصيرى الباع في اتخاذ الاسباب حتى يصلوا الى ثمرة مشروعاتهم وكانوا لم يفهموا على معرفة ادارة مؤنة العساكر ومصاريفها بعيدا عن ممالكهم فكان مثل هذا المشروع وما يلزم له يجل من كل الوجوه عما كان لهم من البراعة في فن الحرب وكانت ايراداتهم اذ ذاك لاتفى بلوازمه ومصاريفه فلم يصل جيش الفرنساوية الى هذه المدينة الا واحسوا بانهم في كرب شديد لنفاد مؤنتهم وفراغ زادهم مع ان المدينة المذكورة ليست بعيدة بكثير عن حدود مملكتهم ولم يكن عندهم ما يكفيهم من الذخائر اللازمة لمثل هذه المحاصرة وكانت تطول مدتها ولا شك لو شرع فيها ومن جهة اخرى كانت ملكة بلاد المجار حاكمة اذ ذاك بمملكة البلاد الواطية فجمعت طائفة عظيمة من العساكر وجعلت عليها الامير مارتين دوروسام فاغار على اقليم شمبانيا وخربه وكان يخشى منه ان يغار على الاقاليم الفرنساوية الاخرى المجاورة لهذا الاقليم ولتلك الاسباب اضطر ملك فرانسا الى العدول عن محاصرة مدينة استرسبورغ وعدل عن هذا المشروع رغما عن انفه ولكن اراد ان يفهم ان عدوله كان لمحض مراعاة خاطر حلفائه ومعاهديه فاظهر لاهل السويسة ان رجوعه عن مشروعه لم يكن الامن باب الامتثال لقولهم وقبول تشفعهم لديه وبعد ذلك امر ان تسقى خيول عساكره من نهر الرين حتى يقال ان فتوحاته قد وصلت الى تلك الجهات ثم امر بالرجوع الى اقليم شمبانيا المتقدم ذكره

مطلب معاركات الامير البير وهو البرطة

وبينما كان ملك فرانسا وجيش المتعاهدين الجرار على هذا الحال كان المتعاهدون قد سلموا الى الامير البير دوبراندبورغ طائفة محتوية على ثمانية

سنة ١٢٥٥

آلاف رجل اكثرهم عساكر مستأجرة دخلوا تحت رايته طمعا في النهب والغنيمة لا في المباهية غير ان هذا الامير لما رأى عساكره مصممين على التوجه معه حيث شاء اخذ يستنكف ويترك علائق الامتثال والطاعة التي كان متشبثا بها الى ذلك الوقت وصار يدبر في امور التعالي التي لا تخطر بعقول اولي الطمع الا نادرا فيما عدا صورة واحدة وهي اذا اشتعلت نيران الحروب المدنية وعم الفشل والشقاق فيحملهم الطمع على المخاطرة بانفسهم مؤملين نجاحا قريبا وبناء على مطامع البير المذكور وأمانيه كان حربه على منوال مغاير لما سلكه سائر المتعاهدين فاجتهد وجد في حركاته واظهر كل القسوة وخرب البلاد التي دخلها حتى يوقع الخوف والرعب في قلوب الناس ليكون له موقع جليل عندهم فيخشوا باسه وفرض على سائر البلاد التي مر بها مبالغ معلومة تدفعها له وكان قصده بذلك ان يجمع من الاموال ما يكفيه حتى يمكنه ابقاء جيشه والقيام بمصاريفه وماهياته وحاول الاستيلاء على مدينة نورمبرغ اومدينة اولم اومدينة اخرى من المدائن الحرة الموجودة باعلى بلاد المانيا حتى يجعلها تخت المملكته الخيالية التي شيدتها مطامعه في فضاء امانيه لكنه وجد تلك المدائن في اتم احتراس مستعدة لمقاومته ودفعه فحول قسوته الى املاك القسوس التابعين للباب وخرب اراضيهم اشنع تخريب حتى زادت مرتبتهم من دين المعتزلة حيث هو يسوغ لمن استمسك به مثل تلك الفعال المنكرة وكان كل من اسقف بمبرع واسقف ورزبورغ عرضة له اكثر من غيرهما فغصب من الاول نحو نصف اراضيه وكانت واسعة وألزم الثاني بمبلغ يدفعه له فدية لبلاده واراضيه ووقاية لها من التخريب والتدمير ولم يلتفت البير الى قول المتعاهدين حيث كانوا ينهونه عن تلك الفعال ولا الى اوامر موريس مع انه كان الميثاق بينهما ان يطيعه بوصف كونه رئيس العصبة وبالجملة فعلم من افعاله وعدم امتثاله انه لم يكن مشغولا الا بمصلحة نفسه ولم تكن له علاقة بالسبب الداعي لانعقاد العصبة واضرام نار القتال مع الامبراطور

مطلب المداولة في شان الصلح

ثم امر موريس برجوع جيشه الى باويرة واذاع منشورا به امر

سنة ١٥٥٢م

القسوس المستمسكين بدين لوتير وامر بجعل الاطفال ان يرجعوا الى وظائفهم فى سائر المدائن والمدارس والاونيورسات التى طردوا منها وبعد ذلك لحق الملك فرديننند بمدينة باسو فى ستة وعشرين من شهر ادار وحيث كانت المداولة بينهما من اعظم المهمات لما انها تتعلق بنشر اعلام الصلح واستقلال الامبراطورية صارت مطمح نظر الالمانيين كافة فغير الملك فرديننند ورسل الامبراطور ذهب الى المدينة المذكورة الامير دوق دوباويرة وكل من اسقف سلدبورغ واسقف اكستات ووزراء المنتخبين ورسل امراء المدائن الحرة الكبيرة وافتتح كل من الامير موريس والملك فرديننند المذاكرة اما الاول فالنيابة عن المتعاهدين والثانى بالنيابة عن الامبراطور واما الامراء الذين كانوا حاضرين ورسل الامراء الغائبين فكانوا واسطة بينهما

مطلب الشروط التى طلبها موريس

اما موريس فشرح حاله بقول اطنب فيه واسهب وذكر الاسباب التى دعته الى النزاع وذكر المظالم التى حصلت من الامبراطور والامور المنكرة التى ارتكبها وكانت مخالفة لاصول الامبراطورية وقواعدها وبعد ذلك اقتصر على ذكر ثلاثة اغراض كان بينها قبل ذلك فى منشوره الذى اذاعه عند ابتداء الحرب وهى ان يخلى سبيل الامير حاكم هيسة بدون تراخ وان ينصف الامبراطور المتعاهدين فيما يشتكون منه فى خصوص ادارة امور الامبراطورية ومصالحها المدنية وان لا يحصل اضرار للمعتزلة ولا تضييق فى التمسك باصول دينهم والعمل بمقتضى آرائهم فلما توقف الملك فرديننند ورسل الامبراطور فى قبول هذه الشروط كلها كتب من كانوا واسطة بين الفريقين كتابا الى الامبراطور به يرجون منه ان ينقذ بلاد المانيا من اهوال الحروب المدنية ومصائبها ويجيب موريس وحزبه فيما يرومه حتى ينقطع الحرب وطلبوا ايضا من موريس واحبابه فى قولهم ان يكون فى الهدنة فسحة حتى يجتهدوا على قدر وسعهم ويأتى جواب قطعى من طرف الامبراطور عما سئل عنه

مطلب مساعدة امراء الامبراطورية للامير موريس حتى المساعدة

وارسل الكتاب الى الامبراطور باسم امراء الامبراطورية باجمعهم من قاثوليقيين ومعتزلة سواء كانوا احبابا للامبراطور واعانوه على ازدياد شوكته

سنة ١٥٥٢

او اعدائه يخشون بأسه ولا يرضون بجو صولته ولم يكن اتفاق هؤلاء الامراء على اعانة موريس وتعضيدهم له ناشئا عن صداقتهم وحسن طويتهم رجاء في الصلح وقطع النزاع بل دعتهم اليه اسباب عديدة اكيدة وذلك ان من كانوا من احزاب الكنيسة الرومانية وانصارها قد شاهدوا ان حرب دين المعتزلة كبير وجنده كثير بخلاف الايمبراطور فانه في ورطة كبيرة لما يلقاه من الصعوبة في جمع امره للمدافعة عن نفسه فعلموا انه يلزم لهم مزيد السعي والهمة وبذل مافوق الطاقة حتى يمكنهم ان يقوموا بقتال المعتزلة وقد عظمت صولتهم لعدم الالتفات اليهم والاحتراس منهم وعبر ذلك كانوا يعلمون بالتجربة وما عهدوه اكثر من مرة انهم اذا شمروا عن ساعد الجد وقاتلوا المعتزلة لايعود عليهم من سعيهم ثمرة بل ان ثمرة انتصارهم وظفرهم لاتكون الا للايمبراطور ولا ينشأ عنه سوى تمكين سلاطته عليهم فيكلفهم بماشاء وتقوى شوكته فيضر بحرية المانيا وبناء على ذلك حصل انهم مع فرط الحمية الدينية اذا ادركوا ترك المعتزلة ليعلموا كيف شاؤا في التمسك بارائهم على مساعدتهم للايمبراطور في قمعهم وقهرهم حيث كانوا يخشون ازدياد صولته ويرون انه يترتب عليه هدم اصول الايمبراطورية وقواعدها وزادهم على ذلك تصميما خوفهم ان تصير بلاد المانيا بالشاني فريسة للتماقم والحروب الداخلية لما رأوا ان بعضها قد آل امره الى الدمار والتخريب بما ارتكبه البير من سوء الفعال والبعض الآخر كان يخشى عليه ان يؤل حاله الى مثل هذا الاضمحلال فالكل كانوا يودون الاصلاح بين الايمبراطور والامير موريس حيث لم يكن ثم طريقة غير الصلح في منع تلك المصائب والاهوال

مطلب
الاسباب التي كانت تحمل الايمبراطور اذ ذاك على قبول الصلح

فهذه هي الاسباب التي حملت الامراء على جعل مصالحهم السياسية والدينية فدية لراحة وطنهم واجمعوا على حث الايمبراطور على عقد الصلح مع موريس وكان ذلك من الضروري اللازم على ان كان للايمبراطور خاصة اسباب اخرى قوية تلزمه بقبول الصلح وهي انه كان لا يجهل ان شوكة المعتزلة قد عظمت باهماله وكبرت حتى صار لا يستطيع مقاومتهم وكان رعاياه الاسبانيوليون قد سئموا

سنة ١٥٥٢

من طول بعده عنهم وتعبوا من حروبه التي كانت لا تنقطع مع انها لا تعود منها ثمرة على بلادهم فكانوا لا يرضون أن يمدوه بشيء يعوّل عليه لا من رجال ولا من اموال فهو وان كان يعلل نفسه بالاماني من جهتهم حيث قد نال احيانا ما طلبه منهم وفاز به اما بالحيلة او بالالحاح والابرام عليهم رأى حينئذ أنه وان كان من الممكن احداث امداد منهم الا ان هذا الامداد لا يعطى له سريعا بحيث يستعين به حسكم مرامه كما هي مقتضيات الاحوال اذ ذاك وكانت خزائنه قد نفدت وعساكره المتمرنة التي يعوّل عليها كان قد سرح بعضها والبعض الآخر في شتات بالجهات واذا جمع عساكر جديدة فمثلهم لا ينبغي ان يعتمد عليهم في التثبت والصدق وما كان يؤمل الفلاح والنجاح بسلوكه سبل الحيل والمخادعة كما فعل في حق عصبة سمالكالد اذ أضعفها بالخداع وفتك بها وانما كان لا يؤمل نجاحا من اتباع سبل المخادعة لان الناس كانوا عرفوا اطباعه بالكنه والحقيقة وكيف يغترون بمداهنته وقد كانوا قبل ذلك فريسة لخداعه وتحيله وباعترارهم بحروف ظاهره وقعوا فيما يكرهون فكان امراء ألمانيا باجمعهم في مزيد احتراس من الامبراطور بحيث لا يمكنه ان يعميهم بالثاني عن مصالحهم ويحبب مع بعضهم ليهلك به البعض الآخر هذا وكان الامبراطور يعلم بالتجاريب والوقائع ان عصبة كان موريس رئيسها الابد وان تكون ادارتها خلاف ادارة عصبة سمالكالد فلا تكون ممن يقدم رجلا ويؤخر اخرى لدى التصميم ولا ممن تحس بحرها لدى العمل وكان ايضا يرى انه اذا استمر على الحرب لابد وان تحزب عليه اقوى ايالات ألمانيا والباقي ان لم يكن عليه لا يكون معه وكان يخشى من شيء آخر وهو أنه اذا اهتم بهذا الحرب ووجه اليه سائر جنوده وعساكره ربما انتهز ملك فرانسا تلك الفرصة وشن الغارة على جهات اخرى من دولته فلا يجد من يدفعه ويطردونه مانع خصوصا وكان هذا الملك قد تغلب على بعض بلاد من الامبراطورية وكان شرلكان يود ان يجمع امره حتى يأخذ منه ما تغلب عليه وينتقم منه في نظير اعانته رعاياه عليه نعم ان ملك فرانسا كان انتقل الى ما امام نهر الرين ولكن كان لم يزل مزمعا على الحرب

سنة ١٥٥٢

واغار على مملكة البلاد الواطية وكان الاسلام بالدولة العلية العثمانية قد اغضبهم الملك فرديننـد لنقضه العهود وهتكه حرمة الهدنة المنعقدة بينهم وبينه ببلاد المجار فبالحاح ملك فرانسا اخذوا يجهزون دونما عظيمة ليشنوا بها الغارة على سواحل نابلى وسيسليا ولم يكن بهذه السواحل من يقوم بالمدافعة عنها الان الملك فرديننـد كان قد اخذ منها كما فعل بغيرها من دولة معظم العساكر المنتظمة المتمرنة ليلحقها بالجيش الذى كان يريد جمعه وقتئذ

مطلب سعى فرديننـد فى تتميم الصلح

وتوجه الملك فرديننـد بنفسه الى ويلاخ ليعرض على الايمبراطور نتيجة ما انحط عليه القرار لدى المذاكرة فى مدينة باسو ولا يخفى أن فرديننـد المذكور كانت له اسباب خصوصية تدعوه الى بذل الهمة فى ايقاع الصلح وتحمله على تعضيد الاسباب التى تعلل بها الامراء لدى المذاكرة فى رفع الحرب ودفع اهواله عن الناس وبيان ذلك هو أن فرديننـد قد حصل له سرور فى الجملة من تصميم الامراء على تضييق شوكة اخيه شرلكان حتى لا يكون مطلق التصرف فى الايمبراطورية وكانت مصلحته توجب عليه السعى فى منع ازدياد شوكة الايمبراطور لكونه اذا قويت شوكته وظهر بمرامه وفتك بالامراء ارباب العصمة لا يدوان يتم ما نماه اكثر من مرة وهو حرمانه من وراثة الايمبراطورية وجعلها بعده لابنه فيليش فصمم فرديننـد على ان يجتهد بما فى وسعه فى تضييق الشوكة الايمبراطورية حتى يمكنه ان يرث ممالك اخيه بعده وغير هذا السبب القوى كان السلطان سليمان قد اغصبه تغلب فرديننـد على اقليم ترنسلوانيا المعروف بالاردل لاسيما وتغلب عليه بالحيل الخبيثة المنكرة فوجه لقتاله مائة الف مجاهد وهزموا جنوده فى واقعة وتغلبوا على جملة مدائن وحصون قوية وصار يخشى منهم ان يتغلبوا على ما بقى من اقليم ترنسلوانيا بايدى فرديننـد بل وان يطردوه بالكلية مما كان باقيا فى حكمه من بلاد المجار وكان فرديننـد لا يستطيع مقاومة صولة الاسلام ورأى أنه ما دام اخوه شرلكان مشغولا بالحرب مع رعاياه لا يمكنه ان يعينه فى شئ اذ لا يرضى امراء ألمانيا ما داموا مقيمين على مخاصمتهم ان يمدوه بما كانت عادتهم ان يعطوه له من الرجال

والاموال

سنة ١٥٥٢م

والاموال فى مثل هذه الصورة لدفع جنود المسلمين وكان موريس قد ادرك تحير فرديننـد فى هذا الامر فوعده بانه اذا تم الصلح وكان على اساس متين توجه بعساكره الى بلاد المجار لاعانته على دفع جنود المسلمين فكان لهذا القول موقع عظيم فى قلب فرديننـد وكان فى ورطة تامة لا يجد له نصيرا ولا ظهيرا فصار يداهع عن اهل العصبة من الامبراطور بما فى وسعه ويعضد قولهم حتى انهم لو كلفوه مهما امكن لالح على الامبراطور فى قبوله لقصد ايقاع الصلح بين الفريقين حيث يرى ان لا وسيلة سواه فى اثبات نجاح المحاولة وكان ينزع منه

مطلب المقتضيات التى ترتب عليها تاخير الصلح

وبالنظر لتلك الاسباب العديدة الاكيدة الداعية الى الصلح كان الناس يترقبون حصوله عن قريب ولكن كان الامبراطور عنيدا ابا الطبع وكان قد صمم على محق دين المعتزلة وبذل فى ذلك غاية الجهد فشق على نفسه العدول عن ما رآه بعد بذل الهمة فيها وعادل ذلك عنده الاسباب التى كانت تدعوه الى الصلح حتى ظهر عليه انه لا يسلم فى امره فحين عرض عليه ماطلب موريس وكان من كانوا واسطة بين الفريقين بمدينة پاسو امتنع كل الامتناع عن اجابة شئ مما كان يشتكى منه الالمانيون وابى ان يقبل شرطا تاما من الشروط المتعلقة بأمر المعتزلة على انفسهم والتمسك بديانتهم واصولهم حسب آرائهم واجبر أن يحيل تلك المواد على مشورة الدينية الآتية ليتداولها اربابها فى شأنها ولم يقتصر الامبراطور على ذلك بل طلب ان يكافئ موراتى نظير ما لحق بلاده من الضرر فى هذا الحرب بطغيان عساكر المتعاهدين والفعال الشنيعة التى ارتكبها رؤساؤهم

مطلب نجاح موريس فى وقوع امر الصلح

وكان موريس يعرف حيل الامبراطور ففهم ان ما اخبر به من احالة الامر على مشورة الدينية ليس القصد منه سوى مخادعته وضياع اوقاته عليه سدى حتى يجمع الامبراطور امره فلم يلتفت الى ترجى فرديننـد وتوجه حالا من مدينة پاسو الى جيشه وكان معسكرا بمدينة فرنقفورت باقليم فرنكونيا وكانت تلك المدينة من ملك امراء الطائفة التيوتونية فلما لحق جيشه امره بالسير وبدأ بالحرب وكان بمدينة فرنكفورت سور لومان اى

سنة ١٥٥٢

فريكفور على نهرماں ثلاثة آلاف رجل ماهيتهم على طرف الايمپراطور ويمكن ان يضروا ببلاد هيسة حيث كانت بجوارهم فتوجه موريس سريعا الى تلك المدينة وضرب حصارها واخذ بعزم قوي وهمة زائدة في انشاء ما يلزم من العمليات لتسخير هذه المدينة فلما سمع الايمپراطور وعلم أن موريس لا تفتر له همة داخله الرعب حتى اخذ يجنح الى امر الصلح ويصغي الى قول فرديناند فمع عتوه وكبره احس بان من الضروري اللازم ان يعدل عن طمعه الى لين الجانب وظهر منه انه يريد التساهل في بعض اشياء من جهته اذا كان موريس يعدل عن بعض مطالبه فبمجرد أن ادرك فرديناند منه ذلك اكثر من الالحاح عليه حتى رضي بانه لا يمتنع في شيء مما يطلبه المتعاهدون ليكونوا به في امن واطمئنان وحيث كان هذا اصعب الامور كتب فرديناند حالا الى موريس وبعث اليه سفيرا يخبره برضاء الايمپراطور ويقسم عليه ان لا يضيع عليه هباء منثورا ما بذله من الجهد والسعي عند الايمپراطور في شأن الصلح وان لا يعند فيضيع تلك الثمرة التي هي مطلوب اهل ألمانيا

ومع نجاح موريس ومساعدة الحظ له اذ ذاك كان مستعدا لقبول نصح فرديناند لعلمه ان الايمپراطور وان كان قد اخذ بغتة قد بدأ في جمع العساكر والجنود لدفع اعدائه وانه مع تحيره حينئذ لما داخله من الرعب والفزع لا بد وان يحزم رأيه فيما بعد ويصدم اعداءه بعزم يليق بعلو شأنه وشوكته واتساع دولته ويبرز بجيش جرار يرهب الناس لا سيما وكان الايمپراطور مشهورا بالنصر والظفر في وقائعه السابقة وكان موريس يرى ايضا ان العصبة لكثرة اربابها لا يمكن ان تستمر مناظرة لا على الاتحاد وحزم الرأي حتى يمكنها مقاومة جيش رئيسه واحد لا يشركه احد في ادارته لا سيما اذا كان هذا الرئيس متعودا على قيادة الجيوش والفتك بعدوه وكما كان الايمپراطور نعم ان موريس لم يكن حصل له واقعة شؤم الى ذلك الوقت غير انه لعلمه كونه رئيس عصبة ليس اربابها على قلب رجل واحد كان يفهم ان لا مانع من وقوع الشقاق بينهم بسبب ما ولا مانع من ان ينفصل عنه احد الامراء ارباب العصبة كما حصل من الامير

سنة ١٥٥٢

البيردو برندبورغ فلا يمكنه ان يدخله بالشانى تحت الطاعة وبناء على تلك المحوطات كان موريس يخشى اضاعة ثمرة سعيه فى شأن المصلحة العامة المنعقدة لاجلها العصبة وكان هنالك اسباب اخرى قوية توجب له خيفة اتلاف مصالحه الخاصة به وهى ان الامبراطور بعد تخليته سبيل الامير منتخب سكس سابقا يرجع فى الفرمان الذى حرمه به من منصبه ودوله فيؤدى ذلك الى خراب موريس لاسيما والمنتخب السابق مع سوء حظه كان محبوبا عند الرعايا محترما لدى حزب المعتزلة وكان الجميع يحاولون ان تجريده عن بلاده واملاكه لم يكن الا محض الظلم والعدوان فاذا سعى فى أخذها بالثانى لابد وان تحصل فى بلاد السكس حركة بما ادت الى ضياع ما كسبه موريس بطريق الحيل والدسائس ومن وجه آخر كان يخشى ان يغدر الامبراطور بحاكم هيسة ويعلم ان الامبراطور اذا أبى اجابة اهل العصبة فى تخلية سبيل الامير المذكور لا يكافئ بشئ هذا وكان الامبراطور يسئ معاملته مدة اسره وأوهم اولاده قبل ذلك حين سعوا فى طلب تخلية سبيل والدهم على ما تقدم انهم ان لم يرجعوا عن مشروعهم يهولا يطلق قيده بل يسمعون عنه عما قليل انه قدتم امره وعوقب بما هو اهل له فى نظير قيامه وعصيانه الذى اوقعه فى الاسر

مطلب
عقد الصلح فى شان الدين بمدينة پاسو
فى ٢ شهر آب

وقد تداول موريس فى هذه الامور مع حلفائه اهل العصبة واتفقوا على الشروط التى يكون الصلح بموجبها غير أن الامبراطور لم يقبل شروطهم كما هى بل محاها واثبت ومع ذلك رأى موريس ان قبولها اصوب من ان يعرض نفسه للحرب حيث لا يعلم عاقبته هل تكون له او عليه فرجع الى مدينة پاسو واقر المشارطة وكانت بنودها الاصلية أولا انه قبل الثانى عشر من شهر آب يضع المتعصبون السلاح ويسرحون جنودهم ثانيا انه فى هذا الوقت بل وقبل حلوله يخلى سبيل الامير حاكم هيسة ويحضر به سالما غانما الى قصره بمدينة ونسعلد ثالثا انه بعد ستة اشهر تنعقد مشورة الديتة للتداول فيما يكون به منع النزاع والجدال من الآن فصاعدا فى شان الدين رابعا انه الى انعقاد تلك المشورة لا يجوز باى وجه كان للامبراطور ولا لخلافه من الامراء ان ينشر

سنة ١٥٥٢

بين هم متمسكون بالاصول الدينية الجارية بمدينة اوكسبورغ بل يبقون فى أمن وأمان لا يعكر عليهم احد فى التمسك بعقائدهم الدينية واجراء مواسمهم كما شاؤا خامسا ان المعتزلة من جهتهم لا يعكرون على القاثوليقيين لا فى اقتناآتهم القسيسية ولا فى مواسمهم الدينية سادسا ان الديوان الايمبراطورى يكون فى ادارته عادلا بين رعاياه الايمبراطورية خليا عن الاعراض فى حق كل من المعتزلة والقاثوليقيين وان ينتخب ارباب الديوان الايمبراطورى من كلا الفريقين على حد سواء سابعا ان مشورة الدينية التى ستنعقد فيما بعد اذا كان لا يمكنها تتميم امر النزاع فى شأن الدين فما ذكر فى المشارطة من عدم الاضرار بالمعتزلة وعدهم مع القاثوليقيين على حد سواء يبقى معمولا به لا تغيير فى شرطه ولا تبديل ثامنا انه لا يطالب احد من ارباب العصبة بما حصل مدة النزاع والحرب تاسعا ان ما يدعى به موريس من تعدى الايمبراطور فى شان اصول الايمبراطورية وحريتها يحول على مشورة الدينية التى ستنعقد فيما بعد لتتداول فى امره عاشرا ان الامير البيردوبراندبورغ يكون داخلا فى ضمن المشارطة اذا رضى بما فيها وسرح عساكره قبل الثانى عشر من شهر آب المذكور

مطلب ملحوظات على هذه المشارطة وعلى الامير موريس

فانظر الى ما احتوت عليه تلك المشارطة الشهيرة وكيف ترتب عليها هدم ما كان الايمبراطور شرلكان يشيده منذ سنين لتعضيد دين الكنيسة الرومانية ويبذل فى شأنه ما فى وسعه من اسباب الصولة والسياسة فقد سحقت تلك المشارطة ما كان رتبه هذا الايمبراطور من القوانين مما يخص الدين وافسدت عليه آماله وما كان يسوّغه له خياله من جعل الشوكة الايمبراطورية مطلقة التصرف ووراثية فى عائلته وأثبتت دين المعتزلة وجعلته على اساس متين ولم يكن له قبل ذلك ببلاد الايمبراطورية قرار حيث لم يحصل فى شأنه ترخيص ولا اقرار وكان الفضل والفخار للامير موريس فى تدبير تلك الامور ولم تكن تخطر بالبال احد وذلك من اغرب الوقائع واعجب الاخبار حيث مكن الامير موريس دين المعتزلة ببلاد ألمانيا مع انه قبيل ذلك كاد أن يمحوه بحيله وخداعه وبوقعه

سنة ١٥٥٢

فى زوايا المحاق والدمار واظهار ان معاصريه قد اعتبروا قصده من سعيه اولا فى محق دين المعتزلة واجتهاده ثانيا فى تمكينه وتأييده ولم يلتفتوا الى الطرق التى سلكها والوسائط التى اتخذها فى كلتا الحالتين لقصد النجاح والظفر فمدحوه على الواقعة الاخيرة عدا لها من حبه فى وطنه وغيرته عليه كما كانوا شنعوا عليه فى الواقعة الاولى لما ظنوا به السوء واتهموه بالموالسة وعدم الصداقة فى حق ابناء وطنه ولا يخفى ايضا ان ملك فرانسا مع غيرته على الدين القاثوليقى وما كان يرتكبه من القسوة والصعوبة فى حق من تصدى من رعاياه لدين المعتزلة كان يبذل وسعه لتعضيد دين المعتزلة وتأييده ببلاد الايمبراطورية واغرب من ذلك ان تلك المشارطة وان كانت مضرة بطبيعتها لكنيسة رومة قد اقرها احد الاساقفة القاثوليقية ووضع عليها امضاءه فانظر ما اعجب الاسباب التى تتعلق بها الحكمة الالهية لتنفيذ ما جرى به القدر ازلا وتدبيره وارشاد العقول البشرية وانقاذها من الزيغ والضلال

مطلب
اهمال مصلحة ملك فرانسا فى المشارطة

ومما ينبغى التنبيه عليه هو انه لم يحصل التفات بمشورة پاسو المذكورة الى مصالح ملك فرانسا بل ان موريس ومعاهديه بمجرد أن بالوا مرامهم لم يفكروا فى امر هذا الملك فكانهم رأوا ان ما استولى عليه من البلاد فى اقليم لورينة يكفيه جزاء له على خدمته وسعيه معهم فلم يتصدوا لامره فى شئ سوى انهم ذكروا فى المشارطة ان الملك هنرى يكون له الحق فى ان يحرر دعواه وسبب تشكيه من الايمبراطور ويرسلها اليهم وهم يعرضونها على الايمبراطور

وليس بعجيب ما لاقاه هنرى حيث ان ذلك هو حظ كل ملك تصدى لاعانة اهل العصب والحربات المدنية وشركهم فى امرهم فلا يستغرب كون المتعاهدين بمجرد ما ظهرت لهم امارات جودبار الفتنة وحصول الراحة قد نسوا بالكلية خدمته لهم مع انه كان معتمدهم وصاروا يجعلون تحليهم عنه سببا يتحببون به عند ملوكهم وولاة امورهم غير أن هنرى مع ما حصل له من الاغاظة والمكيدة لخيانة معاهديه وصلحهم مع الايمبراطور على ضرره رأى ان

سنة ١٥٥٢

مصلحته تقتضى ان يكون فى صلح مع اعضاء الجمعية الجرمانية فلم يسع فى الانتقام لنفسه ممن خانه وأضر به بل ارسل الى موريس والى المتعاهدين ما كانوا دفعوه اليه من الرهن تأييدا لقولهم له حين دعوه الى الدخول فى حربهم واستمر من بعد ذلك على اظهار الميل لهم والرغبة فى المحافظة على ابقاء الامبراطورية على اصولها القديمة وحريتها حتى كأنه لم يمسسه من عدرهم به حنق ولا غيظ

المقالة الحادية عشرة من اتحاف ملوك الزمان

بتاريخ الامبراطور شرلكان

مطلب توجه موريس الى بلاد المجار لقتال المسلمين فى ٣ من شهر آب

وبمجرد أن تمت مشارطة پاسو ووضع عليها امضاء كل من الفريقين توجه الامير موريس قائدا عشرين ألف رجل الى بلاد المجار عملا بقوله للملك فرديننند وما وعده به ولكن لم يحصل منه فى هذه الواقعة ما هو جدير بشهرته ولم ينشأ عن سعيه ما ترتب عليه فائدة لملك الرومانيين وذلك لاسباب وهى ان قوى الاسلام كانت اعظم من قواه وقد عصت عليه عساكره من الماينيين واسپانيوليين لعدم دفع ماهياتهم اليهم وكان فى منافسة مع الامير كستلدو فلم يكن يتمكن من ادارة الجيش كيف شاء

مطلب تخلية سبيل حاكم هيسة

وعقب توجهه الى بلاد المجار بيسير تركه امير هيسة مع عساكره وذهب للقاء ابيه ليسلم له اعنة الحكومة التى كان قد مسك بها مدة غيابه ولكن كانت الشقاوة لم تزل غالبة على حاكم هيسة والده وأبى الدهر الا تنكيده فحصل ان الجسور ريغانبرغ الذى كان من جملة الانفار فى العسكرية وبلغ رتبة ميرألاى وجعل على طائفة من العساكر المستأجرة على طرف هيسة خرج بعساكر طائفته سرا من الجيش وهو فى المسير ولحق بهم الامير البيردوبراندبرغ وكان ابى قبول مشارطة پاسو ولم يزل مستمرا على الحرب مع الامبراطور فمن سوء حظ حاكم هيسة علم هذا الخبر بعد اطلاقه بقليل من قلعة مالين التى كان مسجونا بها فقبل ان يتجاوز حدود مملكة البلاد الواطية وكانت ملكة المجار تحكم فيها بالنيابة عن اخيها حصل ان هذه الملكة ظنت ان حاكم هيسة هو الذى امر ريغانبرغ بالهروب وهذا مخالف للمشارطة التى كانت سببا

سنة ١٥٥٢

فى تخلية سبيله فقصت عليه وسلمته بالثانى الى من كان قائما بخفره والمحافظة عليه مدة سجنه الخمس سنين الماضية وعاد فليبش اسيرا كما كان وصاع منه ما عاد اليه من يسير الهمة لدى اطلاقه من السجن وتغلب عليه اليأس حيث ظن انه لا خلاص له من ربقة الاسر حتى يقضى اجله غير أن الامبراطور علم عما قليل ان حاكم هيسة وابنه لم يكن لهما مدخل فى هروب ريعاسبرغ مع جماعته فامر باطلاقه من اسره وكانت قد طالت مدته فاصعفته واساءت حاله فهو وان عاد الى دولته كما كان كانت نكباته السابقة قد اضاعت منه قوة العقل وحدته فبعد أن كان اكبر امراء الامبراطورية جراءة وجسارة صار اشدهم خوفا واحتراسا فى اموره وقضى بقية ايامه فى الكسل والبطالة قليل العزم فاتر الهمة

مطلب
تخلية سبيل الامير منتخب سكس

وخلى سبيل منتخب السكس ايضا بعد مشارطة الصلح المتقدم ذكرها وذلك ان الامبراطور كان مجبورا على العدول عن تصميمه من تدمير دين المعتزلة فلم يبق هناك داع لابقاء هذا الامير اسيرا عنده وهناك اسباب اخرى دعت الامبراطور الى ذلك وهى انه كان مصمما على قتال الفرنساوية فيحتاج الى اعانة رعاياه الالمانيين وكانوا يحبون منتخب سكس حاكمهم ويحترمونه لفضله ويرثون لحاله لما نزل به من البلاء فعلم الامبراطور ان تخلية سبيل هذا الامير هى اعظم طريقة لتحصيل محبتهم واستمالة قلوبهم اليه ولذا اطلق قيده واخذ هذا الامير زمام ما كان باقيا من بلاده بعد تغلب موريس على حكومته وكانت نكبات الدهر لم تضعف فيه ما كان ممتازا به يوم اقباله من عزة النفس وعلو الهمة بل كان لم يزل ذا همة عالية ونفس شريفة وهو مكبول بالسلاسل والاغلال وعاش بعد ذلك عدة سنوات على الشهرة الجليلة التى اكتسبها بعلى فعاله وحميد خصاله

مطلب
تصميم الامبراطور على الهجوم على مملكة فرانسا

واما الامبراطور فكان فى غم شديد لفقد كل من مدينة متز ومدينة طول ومدينة وردوم وذلك انه قبل تلك الواقعة كان لم يحارب جنود الفرنساوية الا وكانت فائدة الحرب له فرأى ان غلبتهم عليه فى تلك الواقعة تزرى بشأنه

سنة ١٥٥١

وخاره وان من العار له ان يترك لهم المدن التي تغلبوا عليها وكما كان يرى ذلك عارا بالنظر لشأنه وقدره كانت له ثم اسباب سياسية تمكنه في عزمه وتصميمه على اضرام نيران الحرب مع مملكة فرانسا وذلك ان حدود تلك المملكة من جهة اقليم شمپانيا كانت اضعف جهاتها فكان الايمپراطور اذا شن الغارة عليها يصيبها من تلك الجهة فاذا بقي بيد ملكها ما تغلب عليه اخيرا تصير المملكة حصينة مستحكمة من سائر جهاتها لاسيما والمدن الثلاثة المذكورة كما تكسب الفرنساوية الأمن والاطمئنان تجعل الايمپراطور في خوف منهم لانها كانت محصنة لبلاده وممالكه لاستحكامها فاذا بقيت بايدي اعدائه تصير بلاده عرضة للاخطار والاهوال وهذه هي الاسباب التي دعت الايمپراطور الى التصميم على الحرب وما كان استعد به من المهمات والعساكر لقتال موريس ومعاهديه سوغ له أن يهم عاجلا بتتميم هذا المشروع وتدبيره

مطلب تجهيز الايمپراطور للحرب

فبمجرد أن تم الصلح بينه وبين رعاياه بموجب مشارطة پاسو خرج يجر ثياب الخزي من ويلاخ التي كان ملتجئا بها وقت الفتنة وتوجه الى مدينة اوغسبورغ قائدا لطائفة كبيرة من الجنود الالمانية مما هيأتهم عليه وضم اليهم سائر العساكر الذين جمعهم من دولة الايطالية والاسپانيولية ودخل ايضا في حدمته عدة طوائف من العساكر الذين سرحهم المتعاهدون بل وحمل بعض امراء ألمانيا على ان ينضموا اليه مع اتباعهم وكان يعلم ان هذا التجهيز العظيم ربما ايقظ دولة فرانسا فتأخذ أهبتها وتكون على حذر فاشاع انه متوجه الى بلاد المجار لاعانة موريس على قتال جنود الاسلام غير أنه تقدم جهة الرين دون المجار فكانت هذه الحيلة لا تنفع واذا انشبث بحيلة اخرى واشاع انه بوصف كونه رئيس الايمپراطورية يجب عليه ان يقمع اهل الفساد منها فها هو متوجه ليعاقب الامير الـبردو براندبورغ في نظير ما كان يرتكبه اذ ذاك من التعدي على البلاد الالمانية وتخريبها مع جنوده

ولكن كان الفرنساوية يعلمون خداع الايمپراطور وحيله لما مسهم منه في الماضي

فصاروا

سنة ١٥٥١

مطلب
ما اتخذته مملكة فرانسا من الاحتراسات للمدافعة عن مدينة مترة

مطلب
جعل الدوق دوكيز محافظا على مدينة مترة

مطلب
تأهب الدوق لامر المدافعة كما يجب

فصاروا يلاحظونه مع مزيد الدقة في سائر حركاته وادرك ملكهم هنرى حقيقة قصده من تلك التجهيزات وصمم على المدافعة عن فتوحاته بقوة لا تعلوها قوة من صمم على نزعها منه وادرك ايضا ان اوزار الحرب ستقع اولا على مدينة مترة واذا تغلب الامبراطور على هذه المدينة سهل عليه تسخير مدينتى طول و وردوم فاناط بحفظها مدة الحصار المتوقع الامير فرنسيس دولورين دوق دوكيز وكان ذا شهرة وخبرة في الملمات

وكان أمن المملكة متوقفا على امر تلك المدينة وكان الامير المذكور يحب وطنه حبا جما واذا رأى هنرى ان هذا الدوق لابد وان يبذل ما في وسعه لدفع الاعداء فسلم اليه زمام تلك المدينة وكان يتعذر ولا شك انتخاب احسن منه لهذا الغرض اذ أنه مع اوصافه المذكورة كان ذا جراءة وشجاعة كما كان ذا دهى ونهى مستكملا لصفات استحصار العقل اللازمة لكل من قلد رياسة العساكر وقيادة الجنود وكانت نفسه نفس ابطال لا يهوى سوى المشروعات الجسيمة ولا يميل بالطبع لغير صعب الخطوب التى تكل لديها الهمم حتى يزداد رونقا وبهجة وشهرة فانسر حين انيط بهذا المهم وعده فرصة بها يبدى معارفه النادرة لابناء وطنه وكان له عندهم موقع عظيم وكان حينئذ اشراف الفرنساوية وبكراداتهم في ولع وشغف بالوقائع والملمات يستهجنون التقاعد والتأخر عما يرون فيه كسب الفخار فهرعوا الى هذا الخطب من كل فج حتى كنت تراهم يدخلون افواجا في طاعة الدوق وكان جديرا بأن يكون قائدا لهم الى سبل الفخار والشرف وانضم اليه ايضا عدة من الامراء الذين هم من العائلة الملوكية وكثير من اعيان البكرادات وسائر من رخص له الملك بذلك من الضباط العسكرية والكل دخلوا بمدينة مترة طائعين مختارين بدون مقابل فلما رآهم المحافظون الذين كانوا بتلك المدينة ازدادوا قوة وثباتا فكان جنود الدوق كلهم يطيرون كلفا بالفخار وشغفا باظهار عزمهم وعلو همتهم

ومع فرحه بالخطب الذى انيط به ومبادرته الى قبوله رأى مدينة مترة في حالة عجز وضعف بحيث لو كان سردار آخر اقل منه جراءة وتثبتا ليئس من امكانه

سنة ١٥٥٢

المدافعة عنها وانقاذها من شديد بأس الايمبراطور وذلك انها مدينة كبيرة
متسعة الاسوار كثيرة الضواحي غير مستحكمة الحيطان والجدران وكانت
خنادقها ضيقة وكان بها بروج قديمة لا تعد بالحصون وكانت تلك البروج بالبعد
عن بعضها بحيث لا تقي الحيطان التي بينها من اصطدام العدو فاصلح الدوق
ذلك كله مهما امكن بالنظر لضيق الوقت وقدوم الاعداء وهدم سائر الضواحي
حتى ما احتوت عليه من الديور والكنائس بل والكنيسة المسماة سنت ارنوفل
وكان مدفونا بها عدة من ملوك فرانسا غير أنه منعا لان يلوم عليه الناس
ويتهموه بالجحود وقلة الديانة لارتكابه هدم محلات العبادة والنسك وهتك
حرمة الاموات امر بان تنقل الى احدى الكنائس التي بداخل المدينة سائر
الاواني المقدسة وعظام الملوك في زفاف عظيم ومحفل عام ومشى بنفسه على
رأس المحفل مكشوف الرأس ماسكا بيده شعلة كسائر الاحاد وهدمت
ايضا جميع البيوت المجاورة للاسوار ووسعت الخنادق وطهرت واصلحت
الاستحكامات القديمة واحدثت استحكامات اخرى جديدة وكان يلزم لهذه
الاشغال مزيد النشاط والسرعة فاشتغل فيها الدوق بنفسه واقتدى به الضباط
وسائر من تصدوا الى المدافعة عن المدينة بدون تفاضل من تكرارات وامراء
وخلافهم واما العساكر فلما رأوا رؤساءهم يشتركونهم في الشغل سهل عليهم كل
صعب وتجلدوا للمشاق وتحمل التعب والنصب * والزم سائر من لا ينفع
للمدافعة ومقاومة العدو أن يخرجوا من المدينة وملئت المخازن من المأكولات
ولوازم الحرب وابيدت المزارع والحبوب ونباتات المرعى الموجودة على
مسافة عدة اميال من المدينة حتى لم يبق شيء في نواحيها يستعين به العدو لدى
الحاجة واما السكان فبذلوا كالعساكر الهمة في مساعدة الدوق وصار له عندهم
موقع عظيم لما كان عنده من الملاطفة للناس وحسن المعاملة فما رأوه منه حببهم
فيه وآثروا ما كان يهتم به على مصالح انفسهم فلم يحصل لهم ادنى غم مما ارتكبه
من تبديد مزارعهم وهدم بيوتهم وكنائسهم حيث كان قصده بذلك
دفع العدو

واما

سنة ١٥٥٢

واما الامبراطور فبعد أن جمع الجنود واستعد بكل ما فى وسعه استمر فى مسيره الى مدينة متز ولدى اجتيازه من مدائن الرين شاهد آثار التخريب الذى حصل من عساكر البير فى هذه الولاية وكان البير المذكور حين احس بقرب الامبراطور ذهب الى اقليم لورينة كأنه اراد أن ينضم الى ملك فرانسا وكان قد وضع على بيارقه واعلامه صورة ما هو مرسوم على بيارق الفرنساوية وكان معه عشرون الف رجل ومع ذلك كان لا يسوغ له حاله ان يتلاطم مع جيش الامبراطور اذ كان لاشتماله على ستين الف رجل معدودا من اعظم الجيوش التى شاهدها اهل ذلك العصر فى حروب اوروبا

مطلب
حصار مدينة متز

وانيط الدوق دالبة بادارة امور المحاصرة على مقتضى ما يأمر به الامبراطور وجعل الامبراطور رعية هذا الدوق لمعاونته الامير ملترم دومارينان وعدة من انجب جنرالات ايطاليا واسبانيا وانشطهم وكانوا حينئذ فى اواخر تشرين الاول فعرضوا على الامبراطور أن من الخطر بدء القتال فى ذلك الفصل حيث هو كثير الموانع والعوائق سيما ومثل هذا الحصار لابد وان تطول مدته فاتعاب العساكر من الآن لاطائل تحته بل هو مغاير لشروط الحزم والكياسة لكنه كان جبارا عنيدا لا يعدل عما صمم عليه وكان فى غرور الكثرة جيوده جازما بالنجاح فامر بحصار المدينة غير أنه بمجرد ظهور الدوق دالبة

١٩ شهر تشرين الاول

امامها خرجت عليه طائفة كبيرة من الفرنساوية وهجموا وتحاملهم بجانب على طالعة جيشه فأبادوه وقتلوا واسروا منه مقدارا عظيما وفهم الامبراطور حينئذ مهارة ضباط محافظى المدينة وجراءة العساكر وأيقن بوقوفه على حقيقة اعدائه ان مشروعه هذا من الامور الخطرة التى لا ينال يسيرها الا بالعسير ومع ذلك امر باحاطة المدينة وصار الشغل فى المتاريس وخلافها مما يلزم للمحاصرة

مطلب
اجتهاد كل من الفريقين فى استمالة الامير البير الى حزبه

وكان الامير البير مطمح نظر كل من الفريقين اى كان كل منهما يريد استمالة هذا الامير وكان معسكرا بالقرب من ميدان الحرب يقدم رجلا ويؤخر اخرى كالمتردد بين مقاصد شتى لا يدرى ايها الاوفق به اما الفرنساوية فعرضوا عليه

سنة ١٥٥٢

العوائد الجمة لكي ينضم الى حربهم وكذلك الايمپراطور لم يبق شئ يوجب اغترار البير الاووعده به فبعد تردد مدة بين الامرين انضم الى الايمپراطور مستتما فوائده ومرتقبا بها عن غيرها وكان ملك فرانسا بملاحظة احوال البير قد فهم انه يلزم الاحتراس منه فصدرت اوامره الى الامير الدوق دومال شقيق الدوق دوكيز بملاحظته مع الدقة في سائر اموره الا ان البير هجم فجأة على طائفة العساكر الذين كانوا مأمورين بملاحظته ومزقهم كل ممزق وقتل كثيرا من ضباطهم حتى ان الدوق دومال قد جرح واسر في هذه الوقعة ثم صار البير الى مدينة متزة يجر اذيال الفخر بالظفر وانضم مع جنوده الى حرب الايمپراطور وفي مقابلة صنيعه هذا سامحه الايمپراطور فيما ارتكبه قبلا وعاهده على ان يبقى له الاراضي التي تغلب عليها مدة الحرب

٤ من شهر تشرين الثاني

ومع ما حل بالامير دوق دوكيز من الغم والحزن لما بلغه من خبر أخيه الدوق دومال لم تفتر له همة ولم يغفل طرفة عين عن تحضير ما به يقوى على مقاومة الاعداء وكان قد أتعبهم بكثرة وفره عليهم من حين الى حين مع ضباطه وكانوا في شغف بكسب الشهرة يتنافسون في نيل الفخر حتى كان يعسر عليه منعهم اذا آلت شجاعتهم الى التهور بل واضطر المرار العديدة الى غلق ابواب المدينة واخفاء مفاتيحها حتى يمنع الامراء الذين هم من العائلة الملوكية وغيرهم من اعيان المكرادات عن الهجوم على الاعداء هذا وكان عساكر الايمپراطور ايضا يهجمون على المدينة من عدة جهات في آن واحد غير أن فن المحاصرات لم يكن وصل في ذلك العصر الى درجة الكمال التي وصل اليها في اواخر القرن السادس عشر بحرب مملكة البلاد الواطية فبعد اشتعال بدلوا فيها الهمة عدة اسابيع رأوا انهم لا يمكنهم الظفر بشئ ما من المدينة والثلوم التي تحدثها مدافعهم نهارا في الاسوار كان المحافظون يصلحونها ليلا او يجددون عوضا عنها غيرها فدل ذلك في يأس الجنود الايمپراطورية وغضب الايمپراطور حين وصله الخبر بذلك وكان بمدينة تيونويل الى ذلك الوقت لا يتمكن من الخروج لاشتداد داء النقرس عليه فخرج من هذه المدينة مع مرضه وحل في خيمته ان

مطلب همة الدوق دوكيز والمحافظين في المدافعة

٢٦ تشرين الثاني

ولحق

سنة ١٥٥٢

ولحق معسكره لكي يقوى عزمهم بحضوره معهم والواقع انه بوصوله اليهم ازدادوا قوة وعزما وشددوا في المحاصرة كل التشديد

مطلب
الحالة الشنيعة التي كان عليها جيش الايمبراطور

وكان حينئذ وقت شدة فصل الشتاء فكنت ترى معسكر الايمبراطور تارة غريقا في ماء الامطار وتارة مستورا مغمورا بالثلج وقلت به الذخيرة والزاد وقل الوارد اليه وكانت طائفة من فرسان الفرنساوية تطوف حوله وتمنع عنه الذخيرة الواردة اليه او تعوقها عنه وانتشرت الامراض بين العساكر لاسيما العساكر الايطالية والاسبانيولية فقد صاروا فريسة المرض حيث لم يكونوا متعودين على قطر مشؤم مثل هذا فمات منهم مقدار عظيم وعجز كثير منهم عن الخدمة ومع ذلك قصد الايمبراطور ان يهجم على المدينة مرة واحدة ليأخذها عنوة لما رآه من اتساع ثلوم الاسوار فلم يوافقه على ذلك احسن ضباطه وعرضوا ان مثل هذا الفعل فيه مخاطرة كبيرة فهو مغاير لما يلزم من الاحتياط والتبصر في العواقب لاسيما والجنود كلهم ضعفاء لا قوة بهم بخلاف المحافظين فانهم مع كثرتهم وقوتهم فضل رئيسهم شهير في الشجاعة وحسن التدبير ولكن اغلظ عليهم الايمبراطور وابى الا فعل ما صمم عليه واما الدوق دوكيز فانه حين ادرك قصد أعدائه بما شاهده في معسكرهم من الحركة الغير المعتادة لهم نظم جنوده واستعد للاقاتهم وظهر بهم على الاسوار والثلوم وهم في غاية التثبت وحسن النظام حتى ان الجنود الايمبراطورية عوضا عن ان تهجم لدى الاشارة المعهودة فيما بينهم لامر الهجوم تراهم لم يتحركوا وبقوا باهتين فاترين لا يسمع لهم صوت كانما خرست ألسنتهم فلاحظ الايمبراطور فتور همة جيشه ورجع حنقا الى سرادقه وصار يسخط على العساكر لغدرهم به ومخالفتهم لامره فليسوا احديرين بان يطلق عليهم لفظ رجال

مطلب
عدول الايمبراطور عن طريقة الهجوم التي كان صمم عليها الى اخرى

ومع ما لحق الايمبراطور من الغم والخزي لما حصل من العساكر لم يعدل عن المحاصرة وانما رأى من اللازم الضروري ان يغير طريقة الهجوم فامر بابطال نار المدافع عازما على هدم الاسوار بواسطة اللغم لان هذه الطريقة وان كانت ابطأ الا انها امكن واكثر فائدة ولكن لدوام نزول المطر والثلج ازداد التقامي من

سنة ١٠٥٢

كاف بهذا الامر من جنود الايمپراطور مالامر يد عليه من التعب والنصب وكان الدوق دوكيز يفسد عملهم ويبطل مايصنعونه من الالغام فاحس الايمپراطور ان من المستحيل استمرار الحرب والحصار حيث هو يقاتل عدوين فى آن واحد شدائد الشتاء وكتائب الاعداء ولا يمكنه ان يظهر عليهما لا بالقوة ولا بالتحيل والخداع خصوصا وكانت الامراض الوبائية قد حطت بعسكره وصار يهلك منهم كل يوم عدد كبير من الضباط والعساكر فاضطر الى قبول قول جنرالاته وكانوا يلحون عليه كل الالحاح فى رفع الحصار حتى ينجى مابقى من جيشه فقال الدنيا كالدساء تواصل الشباب وتقاطع من شاب

مطلب اضطراره الى دفع الحصار فى السادس والعشرين من شهر كانون الاول

وامر حالا برفع الحصار وكان بدؤه منذ ستة وخمسين يوما والاشغال لا تنقطع وفقد فى تلك المدة ثلاثين الف رجل مابين هالك بالمرض وقتيل بطعن العدو وقد ادرك الدوق دوكيز قصد جنود الايمپراطور فاستعد حالا لان يتبعهم عند انحلالهم وعين عدة جماعات من الفرسان والمشاة لتقفى جيش الاعداء من ساقته واسر من تعقب منهم وكان جيش الايمپراطور عند مسيره فى ارتباك واختلال بحيث يمكن الهجوم عليه بدون مخاطرة وقتل كثير من رجالهم ٠

مطلب تدمير جيش الايمپراطور ومروءة الفرنساوية

غير أن الفرنساوية عند خروجهم من المدينة للطم الاعداء والكر عليهم رثوا لحالهم وتغير حنوهم بشفقة وذلك انهم رأوا معسكر الايمپراطور مشحونا بالمرضى والجرحى والقتلى ومن يحضرهم الموت ورأوا الطرق مملوءة بمساكين اجتهدوا فى الفرار ولم يمكنهم ذلك لضعفهم فوقعوا وكانوا فى نزع من شدة العطش والجوع ففعل الفرنساوية فى حقهم شعائر المروءة والانسانية ولقوا منهم مالا يؤملونه من احبابهم وارسل الدوق دوكيز الزاد بالمزيد الى من كانوا يموتون جوعا وامر الجراحين ان يعتنوا بالمرضى والجرحى وارسل بعضهم الى القرى التى حول متز ومن لا يمكن ارساله الى تلك القرى لشدة مرضه وضع فى مارستانات المدينة المعدة لعساكر الفرنساوية وكل من شفى منهم يرسله الى وطنه مع حفر من عنده ويعطيه مايلزم لمصروفه مدة الطريق وهذه المروءة نادرة

فى مثل

سنة ١٥٥٢

فى مثل ذلك العصر اذ كانت الحروب فى غاية من القسوة كأن الفريقين وحوش تحاول افتراس بعضها فترتب عليها ازدياد بهجة الدوق دوكيز وشهرته التى استوجبها بمدافعته عن مدينة متزة حتى ان نفس الاعداء كانوا يبالغون فى وصفه بالحلم والمروءة عند ابناء وطنهم

مطلب
سوء حال مصالح الامبراطورية فى ايطاليا

وكانت هذه السنة اشنع واشأم سنوات حكومة الامبراطور اذ حصل له خسارة اخرى عظيمة فى بلاد ايطاليا ونزل به من البلاء مالا مزيد عليه وذلك انه مدة اقامته فى ويلاخ طلب من الامير كوم دومديسيس مائتى الف ايكو (نوع من النقود) على سبيل القرض وكان حينئذ غير معتمد فلم ينل هذا المبلغ من الامير المذكور الا بعد أن دفع اليه ولاية پيومبينو على سبيل الرهن ولم يكن للامبراطور سوى هذه الولاية فى توسكانة فلما استلمها الامير كوم المذكور وصار بها مستقلا لا ولاء للامبراطور عليه فانظر ما يلحق نفسا مثل نفس الامبراطور من اضطراره الى رهن ارضه على مبلغ يسير احتاج الى قرضه وقد ضاعت منه ايضا حينئذ مدينة سينة لسوء ادارة نائبه الامير دييغ دوماندوزه

مطلب
قيام مدينة سينة

وسبب ضياع هذه المدينة هو أنها مدة مستطيلة كانت كاغلب مدائن ايطاليا الكبيرة جمهورية مستولية امورها تحت حماية الامبراطورية غير أنه لدى وقوع الفشل والشقاق بين الاهالى وبين الاشراف كما كان ذلك عاما بسائر البلدان الحرة من ايطاليا غلب حزب الاهالى على الاشراف ورتبوا فى مدينتهم اصولا جديدة لادارتها والتمسوا من الامبراطور ان يكون ملاحظا ومحافظا على اجراء ما رتبوه من القوانين فارسل اليهم طائفة من العساكر الاسپانيولية ليكونوا حفظة على اجراء القوانين وابقاء الامن والاطمئنان بين الاهالى وجعل رئيس هذه العساكر الامير ماندوزة وكان اذ ذاك الجى الامبراطور فى رومة فتحيل هذا الامير على الاهالى وهم امة فى سائر البقاع حتى افهمهم ان تجديد قلعة بمدينة سينة يعين على حفظها ويجعلها فى امن من بأس الاشراف وكان يؤمل انه بهذه القلعة يسهل عليه ان يدخل

سنة ١٥٥٢

المدينة فى حكم الايمپراطور فعجل ببنائها وبذل فيه غاية الهمة لكنه قبل تمام القلعة اظهر ما كان من قصده وصار يعامل الاهالى على مقتضى القسوة والغلظة التى كانت من جبلته والجبر الذى كان من طبعه وكانت ماهيات المحافظين من العساكر لا تصرف لهم كعادة الايمپراطور غالبا فى عدم صرف ماهيات عساكره فكانوا يتعيشون من اموال الاهالى مع ما يرتكبونه من التعدى والفعال المنكرة

مطلب استعانة اهالى سينه بمملكة فرانسا

ولهذه الاسباب تفتحت عيون اهل المدينة ورأوا ان من الضرورى اللازم لهم ان يسعوا قبل تمام القلعة فى وقاية انفسهم مما كان ماندوزة مصمما عليه من الاضرار بحريتهم فعرضوا على الجى العرفساوية الموجود ذاك بمدينة رومة يطلبون الاعانة من مملكة فرانسا فسمع قولهم ووعدهم بالاعانة * واخذوا من جهتهم يتأهبون لطرد أعدائهم وقد انسا هم الخطر الذى كانوا عرضة له بعضهم للاشراف ونسى الاشراف ايضا ما كان عندهم من الصغن للاهالى وبعث الاهالى الى الاشراف الذين كانوا مطرودين رسلا يدعونهم الى وطنهم ليسقذوه مما يخشى الوقوع فيه من رق وأسر وجمعوا امرهم معا فى اقرب وقت واظهروا مزيد العزم فى تنفيذ ما دبروه وبادر الاهالى الى السلاح ودخل الاشراف المطرودون بأحزابهم من سائر جهات المدينة مع ما جمعوه من العساكر واتت اليهم طائفة من المستأجرين على طرف دولة فرانسا لتعينهم وهجم الجميع بغتة على العساكر الاسبانيوليين وكانوا اقل عددا ومع ذلك دافعوا عن انفسهم مع مزيد القوة والشجاعة لكنهم يئسوا من ان ترسل اليهم اعانة من طرف الايمپراطور ورأوا انهم لا اقتدار لهم على استمرار الحرب وهم بقلعة لم تتم بناء واستحكاما فرحوا تركها وبمجرد خروجهم منها هدمها الاهالى وجعلوا عاليها سافلها حتى لا يبقى منها شئ يذكرهم باسترقاقهم واسرهم وانفصمت من وقتئذ اسباب المحبة بين اهل سينة والايمپراطور وبعثوا من طرفهم رسلا الى ملك فرانسا يشكرونه على ان كان السبب فى نجاتهم وحفظ حريتهم ويرجون منه ان يبقيها لهم على الدوام بابقائهم على العهد آمنين

سنة ١٥٥٢
سط لمبـــــ
ز و ل جيش
الاسلام بمملكة
نابلي

تحت ظلاله

وحصل عقب هذه الحوادث مع ماترتب عليها للامبراطور من الغم والقلق حادثة اشأم منها وهي ان تجبر الامير دون بدر الذي كان نائبا عنه بمملكة نابلي اعصب اهالي تلك المملكة ونفرهم من حكم الامبراطور وكان كبير عصبة من والاهم الضجر هو امير سالرنة فالتجأ الى مملكة فرانسا وكان كل من يبغض الامبراطور ووزراءه يتلقونه بتلك المملكة برحيب صدر ويعطونه مايلزم له من الامداد فتكلم سالرنة في ديوان فرانسا بما يحكي به امثاله اذا التجؤا الى جهة من المبالغة في قوتهم وكثرة احزابهم حتى يستميلوا الى انفسهم من التجؤا اليه فافهم ان احزابه كبيرة وانصاره كثيرة وان له موقعا عظيما عند الاهالي بحيث يمكنه ان يجعل مملكة نابلي في قبضة الفرنساوية واذا دخل جيشهم بها ينضم اليه عدد كثير من الاهالي ويعضدونه حق التعضيد فرأى الملك هنري في ذلك فرصة تعينه على اذلال الامبراطور لكنه لم يكتف بما وعد به الامير سالرنة بل اراد ان يتمسك بجهات اخرى حتى يتيقن النجاح وتكون عاقبة مشروعه سليمة وكان اقتداء بوالده فرنسيس لم يزل على عهد المودة مع السلطان سليمان ويرى انه اذا ضاق به الامر لا يجد اشد من هذا السلطان بأسا ولا اقوى منه شوكة حتى يستعين به على الامبراطور فوجه اليه آماله والتمس منه ان يجهز دونمة عظيمة ويبعث بها الى البحر المحيط الابيض لتعينه على الامبراطور وكان السلطان في غيظ من عائلة الاوستريا لما ارتكبه الملك فرديننــد ببلاد المجار فاجابه في قوله وجهز مائة وخمسين سفينة وبعث بها الى مملكة نابلي لاعانة الفرنساوية في الوقت الموعود وكان رئيس هذه الدونمة هو الماهر طورغود تربية الشهير خير الدين باشا المشهور عند الافرنج باسم بربروس اي ذي اللحية الصفراء ولم يكن دون استاذه في المعارف والشجاعة بل ولا في السعد ووفور الحظ فسافر بالدونمة حتى ظهر على سواحل كلبرة في اليوم المتفق عليه وزحف على ارض الاعداء مرارا وحرق ونهب كثيرا من القرى والضياع ثم رسا بسفنه في جون نابلي وقد امتلأت منه

سنة ١٥٥٣

او قلوب فى المدينة رعبا وخوفا غير أن دونما الفرنساوية لسبب لم يبينه مؤرخوا العصر لم تلحق دونما الاسلام فى اليوم الموعود وانتظرها طورغود عشرين يوما كاملة ولم يرد اليه منها خبر فرجع بسفنه ثانيا الى القسطنطينية ونجى حاكم نابلى من عدو قوى لم يكن له اقتدار على دفعه لو هجم عليه

مطلب
غم الايمبراطور وضجره من سوء حظه

وكادت مملكة فرانسا تطير فرحا بظفرها فى الحرب حيث لم يسبق لها ان ظهرت على الايمبراطور بهذه المثابة واما الايمبراطور فلما كان متعوّدا على الظفر باعدائه فى كل وقت حصل له غاية الالم من خذلانه فى تلك الواقعة وتوجه من مدينة متز الى مملكة البلاد الواطية وهو فى غاية الهم والغم ولمعاندة الدهر له فى كبر سنه وتألمه من داء النقرس وكان اضعف قواه واضاع حوله صار كالمختل معكرا فى سائر اوقاته لا يتمكن احد ان يدنو منه وكان غالبا لا طاقة له على ممارسة امور الدولة ومصالحها واذا افاق حينا فى خلال ذلك لا يتكلم الا عما يثبت تصميمه على الانتقام من مملكة فرانسا واذلالها حتى يمحو ما لحقه من العار بظهور تلك المملكة عليه فنذ ان افسدت عليه مشارطة باسو آماله وما كان مصمما عليه اولا فى حق الايمبراطورية الالمانية حلت مملكة فرانسا اول منزلة فى ذهنه وصار الانتقام منها مطمح نظره بخلاف مصالح ألمانيا فلم تكن بالاهم عنده حيث كان يئس من امكان اجراء مقاصده فى شأنها واما الامير

مطلب
التعدى الحاصل من الامير البير

البير دو براندبورغ فكان لم يزل طمعه يجرّ به الى اقتحام الاهوال حتى ارتكب فى تلك السنة ببلاد ألمانيا ما اوجب تعكيرها وعدم راحتها وكان قد فقد رجالا كثيرين من عساكره بمحاصرة متز الا ان الايمبراطور دفع اليه ما كان فى ذمته له من المبالغ اما جزاء له حقيقة على خدمته فى المحاصرة او ليجعله ذا اقتدار على مقاومة امراء الايمبراطورية حتى لا ينقطع الشقاق من بينهم فبتلك المبالغ امكن للامير البير ان يجمع من العساكر التى سرّحها الايمبراطور جيشا قدر جيشه الاول وكان كل من اسقف بامبرغ واسقف ورتسبورغ قد رفعا شكواهما الى ديوان الايمبراطورية يتظلمان من تعدى البير عليهما وطلبا ان يصدر عن هذا الديوان امر بالغاء الشروط التى

سنة ١٥٥٢

أن مهمابها البير المذكور وقلاها كرها فاطلبهما الديوان المتقدم ذكره وصدرت عنه الاوامر بانهما غير مكلفين بالعمل بمقتضى ما اقراه كرها والزاما وكلف الامير البير ان لا يتعرض لهما واحتوت هذه الاوامر ايضا على تحريض امراء ألمانيا وحثهم على قتال البير ان لم يعدل عن دعواه فتعلل البير بان ما اخذه من هذين الاسقفين قد اثبته له الايمبراطور فى نظير انضمامه الى حربه بمحاصرة متز ولم يقتصر على ذلك بل وجه العساكر لقصد التغلب على الاراضى التى كانت موضوع التنازع لكى يرهب بجسارته اخصامه فعرضت عليه عدة شروط لائقة مستحسنة لمنع اضرام نيران الحرب ببلاد ألمانيا فلم يقبلها الا انه كان حديد الطبع ذا حمية لا يبالى بالاخطار ويجزم بالنجاح فى كل مشروعاته

مطلب الحكم عليه من الديوان الايمبراطورى

وبناء على امتناع البير صدرت من الديوان الايمبراطورى الاوامر المحتوية على ما تقدم وامر الامير منتخب السكس وعدة امراء آخرين بتنفيذ تلك الاوامر بطريق القهر والغلبة وتكفل موريس وبقية المتعاهدين بتنفيذ اوامر المجلس الايمبراطورى حيث كانت افعال البير موجبة لخلل الايمبراطورية وعدم راحة اهلها ورأوا من الضرورى اللازم منع تعدى البير وما كان يحمله طمعه على ارتكابه من الفعال المنكرة الشنيعة وقد وهم بعض الناس اذ ذاك ان الايمبراطور كان يحرض البير ويحثه على ارتكاب تلك المظالم الفاحشة بل وكان يمده خفية بما يلزم له وكان قصده بذلك ان يتقوى البير حتى يزاحم موريس فى الشوكة وسمو الكلمة فى الايمبراطورية فيعين الايمبراطور اذا اراد تشكيك موريس ونكاله

٢ ابريل

مطلب جعل موريس رئيسا على العصبة المعدة لقمع البير

وتحزب الاقوياء من امراء ألمانيا على البير وكان موريس سر عسكر جنودهم ومع ذلك لم يفزع البير ولم تفتر له همة غير انه كان يرى انه لا يمكنه مقاومة اهل العصبة معا فى آن واحد فاراد ان يهاجمهم واحدا بعد واحد قبل انضمامهم الى بعضهم وسار للقاء موريس حيث كان يخشاه اكثر من اعدائه ومن حظ المتعاهدين انهم فوضوا امر هذا المهم للامير موريس

وكان ذا نشاط وحذق فجمع امره فى اقرب وقت واستعد للقاء خصمه واقتدى به المتعاهدون فدبروا امرهم مع سرعة غريبة قبل ان تيسر لامثالهم من اولى العصب والتحزبات وبذلك صار للامير موريس اقتدار على اصطدام البير وكان الى وقتئذ لم يظفر بعظيم شئ وان كان قد بادر وبدأ بالاغارة

سنة ١٥٥٣

مطلب هجوم موريس على البير

والتقى الجمعان فى سيورهوزان بدوقية لونبورغ وكانت جنود كل منهما نحو الاربعة والعشرين ألفا ولخصاه كل من الرئيسين للآخر لم يثبتا قليلا الا واشتعلت نيران الحرب بين الفريقين

فى ٩ يولية

وكان كل جيش فى حرج عظيم لقلق رئيسه فقدم كل منهما الى النزال بقلب ثابت واشتد القتال بينهم وصار كل رئيس يدبر أمر قومه ولا يضيع فرصة يعلو بها هام عدوه حتى مكثت الحرب زمنا طويلا وكل منهما طورا غالب وطورا مغلوب وتارة طارد وتارة مطرود الى أن بان النصر للامير موريس وكانت فرسانه

مطلب انهزام جيش البير

اكثر عددا من فرسان عدوه وانهزمت جنود البير وقد قتل منهم اربعة آلاف رجل وقبض الغالب على معسكره ومهماته ومدافعه ولكن لم تكن تلك النصرة على موريس بنحس بل فقد من اجود عساكره عددا كبيرا وهلك ولدان للامير دوق دوبرونسويك وامير من دوقات لونبورغ وجملة من الاعيان والاكابر وعظمت المصيبة بقتل الامير موريس وصورة ذلك هو ان هذا الامير قد رد جماعة من الفرسان انثنت وتأخرت عن القتال وحمل بهم ثانيا على الاعداء فاصيب برصاصة فى بطنه ومات بها بعد الواقعة بيومين

مطلب قتل موريس فى الحرب

وكان لم يبلغ من العمر سوى ثنتين وثلاثين سنة ولم يتمتع بمنصب المنتخب الاست سنوات

مناقب موريس

ويعد موريس ولاشك اعظم من اشتهروا فى هذا العصر بوصف الشجاعة واقتحام الاهوال وهو عصر كانت الوقائع العظيمة والحوادث الجسيمة تحصل فيه بغتة فتنبه عقول الناس وتفتح لهم سبلا يسلكونها فى علو قدرهم وتحسينها هم آمالهم ومقتضيات الاحوال اذ الدخار كان شديد طمعه وخداعه واجحافه

سنة ١٥٥٣م

بقريبه وتغلبه على منصبه ودولته لايجعل له حظا فيما يليق من المدح لاهل الفضائل والمزايا الاقارب بحزمه في جمع امره وعزمه في اجراء ماصمم عليه وحظه الذي كان ملازما له في سائر مشروعاته يجعله بمكانة بين اكابر الامراء سيما وكان في سن تمنع المرء شهواته النفسية ان يحترس في اموره ويكون على حذر من العواقب بل وفي هذا السن اعظم القرائح لايتجاوز حد ادراك امر مهم بخصوصه بحزم مع السرعة والثبات واما موريس فقد دبر امورا جسيمة مهمة وسلك فيها طرقا خفيت على الايمبراطور وكان احذق ملوك الامم في ادراك واعظمهم فراسة وانورهم بصيرة هذا ولايخفى ان الايمبراطور كان قد عظم سلطانه وتمكنت صولته حتى كاد أن يكون مطلق التصرف في الحكم وفي اثناء ذلك قام عليه موريس فانظر الى تلك الجراءة مع تيقنه بانه لانسبة ثم بين شوكته وصولة الايمبراطور وانظر كيف حزم رأيه حتى قمع الايمبراطور وكلفه العدول عن التعدي وارتكاب المظالم ورتب الحرية فيما يخص الديانة بل ورتب الحرية المدنية ببلاد ألمانيا وجعل كلا من الحرية الدينية والحرية المدنية على اساس متين لم يعتره خلل الى الآن نعم ان طريقه الذي سلكه قد اوجب له بعض كل من المعتزلة والقاثوليقيين حينا من الدهر الا انه عرف بحذقه ان يواسي الفريقين معا حتى فاق في الصولة وبعوذ الكلمة بينهم سائر امراء عصره ونعاه اهل ألمانيا كافة وحرنوا الفقده وقد عهدوا فيه انه حامي حمى وطنه وحافظ قوانينه وشرائعه من الزوال والاضمحلال

مطلب
استقرار البير على الحرب

وبموت موريس تمكن الحزن من قلوب جنوده فمنعهم ذلك عن اجتناء ثمرة النصر واما البير فكان لجراءته وفرط سخائه قد صار بمكانة من قلوب جنوده وكانوا من الرعاع والاوباش لايعتبرون غير ما اووا من الفوائد ولايفكرون في فعال البير ان كانت من باب الانصاف او الاجحاف فامكنه ان يجمع عساكره بعد شتاتها وصار في اقرب وقت صاحب جيش مشتمل على خمسة عشر الف رجل واستمر الحرب وقد جاوز حد ما كان يرتكبه اولا من منكر الفعال

٢٣ شهر ايلول

وفاحش الاعمال وكان الامير هنري دوبرونسويك قد قاد الرياسة على

سنة ١٥٥٣

جنود المتعاهدين بعد موت موريس فحمل على البير بقوة وهزمه في واقعة اخرى لم تكن دون الاولى في الفناء وسفك الدماء ومع ذلك لم تفترهمة البير ولم تتركه شجاعته بل بذل جهده حتى جمع امره ودبر مصالحه واستعد بالثاني للقاء الاعداء غير أنه لما نفى نفيه بموجب اوامر المجلس الايمبراطوري وتجريده عن املاكه التي ورثها عن آبائه والاراضي التي تغلب عليها وتخلى عنه اغلب ضباط جنوده وعاين كثرة اعدائه اضطر الى الخروج من ألمانيا فارتحل منها الى مملكة فرانسا ليلتجئ بها فانظر الى ما آل اليه وقد مكث زمنا طويلا وهو يرهق بلاد ألمانيا ويفزعها ولبث بمملكة فرانسا بعض سنوات وهو في المسكنة والفاقة وكان بالطبع ذا انفة وتكبر فلم يتحمل ضيق عيشه وقضى تلك المدة وافكاره تقلبه على الجمر ولم يزل ينسل بها ويضمر حتى قضى عليه وكان الامراء المتعاهدون قد وضعوا ايديهم على املاكه واراضيه الوراثية فبعد موته انتقلت بامر الايمبراطور الى ورثته من حواشي عائلة بردنبورغ حيث لم يكن له ذرية ترثها من بعده

مطلب
اضطرار البير الى الخروج من بلاد ألمانيا

موت البير

١٢ شهريران سنة ١٥٥٧

ولم تستقر حال الايمبراطورية الالمانية بخروج البير منها الا وحصلت مشاحنة كبيرة في شأن ميراث منصب الامير موريس وبلاده وذلك انه لم يكن له غير بنت وأخ وكانت بنته متزوجة بالامير عليوم امير اورنجة وكان ابنها ابن ورث عن جده موريس المعارف كما ورثه في الاسم فكان يمكنه ان يبارز لطلب حقوقه ومن جهة اخرى كان الامير حنافريدريق المنتخب سابقا يطلب ان يرد اليه منصبه وما ورثه عن آبائه وجرد عنه بعد حرب عصبة سمالكالد واما اوغسطوس اخ موريس فكان يطلب ما ورثه اخوه عن عائلته ومنصب المنتخب وان كان قد حازه بمحض التغلب وكان اوغسطوس هذا مع غزارة معارفه له بشاشة وطلاقة واطوار مألوفة في معاملة الناس تستميل اليه القلوب فاخذ بذلك عقول اهل السكس حتى نسوا فضائل اميرهم الاول اعني حنافريدريق ونسوا نكباته التي اوجبت لهم ان رثوا اليه قبل ذلك وجنحوا الى حزب اوغسطوس المذكور واختاروا مبايعته وكان متزوجا ببنت

مطلب
حلف اوغسطوس اخاه موريس في منصب المنتخب

سنة ١٥٥٣

ملك دانيمارقة وكان ملك الرومانيين يميل اليه لبقائه على معزة اخيه موريس الهالك فاعانه كل من هذين الملكين حتى الاعانة وعضداه دعواه وكان الايمبراطور سرا من حرب الامير حنا فريدريق وان كان عدوا له قبل الآن ومع ذلك اضطر هذا الامير الى ترك حقوقه للامير اوغسطوس ولم يعط له في نظير تنازله عن حقوقه سوى شئ يسير من الاراضي اضيف الى ما كان في ملكه انما اشترط ان يكون منصب المنتخب لعائلته من بعد اوغسطوس ان لم يوجد ثم ذكور من فرع الامير السير ومع شقوة فريدريق وسوء حظه لم يعدل عن شرف النفس وعلو الهمة ومات في السنة التي اعقبت هذه بعد اقراره تلك المشارطة بمدة قليلة ولم تزل الى الآن ذرية اوغسطوس تتمتع بمنصب المنتخب ببلاد السكس

مطلب
حرب الايمبراطور بمملكة البلاد الواطية

وفي اثناء وقوع هذه الحوادث ببلاد ألمانيا كانت الحرب في شدتها بمملكة البلاد الواطية وذلك ان الايمبراطور كان في حرعه يود ان يطهر من الدنس والرحس الذي لحقه بمحاصرة مترة فجهز جيشا وتوجه به الى مملكة فرانسا وحاصر مدينة تروانة وكانت قلاعها وحصونها في اسوء حال ولم تلتفت الفرنساوية الى تحصينها مع انها كانت ذمام مملكتهم حتى ان الملك فرنسيس الاول كان يقول انها وسادة يمكن لمن كان ملكا على فرانسا ان ينام عليها آمنا مطمئنا فاعتراما من الملك هنري بنجاحه اولا المترة بعد المترة لم يلتفت الى تحصين هذه المدينة وانما ضم الى محافظيها مقدارا من شبان الكرادات الفرنساوية طمعا منه ان ذلك يكفي في دفع اعدائه وخيبة سعيهم وكان حكمدارها الامير ديسة احد الضباط الذين شابوا في العسكرية فلما قتل ضيق عساكر الايمبراطور على المدينة وشددوا في حصارها وبذلوا الجهد في تسخيرها حتى اخذوها عنوة وخشي الايمبراطور من وقوعها بالثاني في ايدي الفرنساوية فامر بهدم قلاعها واستحكاماتها بل وهدم منها البيوت ووزع اهاليها على المدائن القريبة منها وقويت قلوب الجنود الايمبراطورية بذلك فتوجهت الى مدينة هسدين وحاصرتها واخذتها عنوة مع مدافعتها عن نفسها حتى

٢١ شهر حزيران

سنة ١٥٥٣

المدافعة ومن نجى من القتل من محافظيها اخذ اسيرا وكان اينوبل فيليبيردو سابوة امير بيمون قد قلده الايمبراطور الرياسة فى محاصرة هذه المدينة فكانت مظهر معارفه الحربية التى عد بها بعد ذلك بقليل من اعظم جنرالات عصره واستولى على بلاد ابائه وكان تغلب عليها الملك فرنسيس الاول لدى حروبه ببلاد ايطاليا

مطلب
تحير ملك فرانسا من ظفر الجنود الايمبراطورية

ولم يكن فقد هاتين المدينتين بيسير على مملكة فرانسا وقد فقدت معهما مقدارا كبيرا من رجالها الممتازين فى فن الحروب ما بين قتيل واسير وشق ذلك على الملك هنرى واثر فيه جدا تفوق الايمبراطور وعلوه عليه مع الظن وتقنذ بان شوكته قد تلاشت وضعفت منذ انهزامه بمحاصرة مدينة متزة بحيث لا سبيل الى عودتها الى التمكن وندم الملك المذكور على تراخيه وعدم مبادرته بمبارزة الايمبراطور من قبل ان يعلوا عليه فجمع على العجلة جيشا كبيرا وتوجه به الى مملكة البلاد الواطية

ولدى قدومه بهذا الجيش الجرار خرج الايمبراطور من مدينة بروكسيله وكان مقيما بها منذ سبعة اشهر محجوبا عن العالم حتى لغط الناس بموته فى عدة من اقطار اوروبا وكان قد ضعف وتلاشت قوته بمرض النقرس حتى كان لا يستطيع حركة التحرك ومع ذلك سافر بسرعة ولحق جيشه وتأهب للقاء عدوه وصار هذان الخصمان مطمح نظر اهل العصر غير ان الايمبراطور كان ذا احتياط وتبصر فلم يخاطر بنفسه فى مثل هذا الحرب ولم يبادر بفتحها وكذلك الفرنساوية منعتهم كثرة الامطار ان يهموا فى حصار مدينة او قلعة ما ورجعوا على اعقابهم ولم يفعلوا شيأ جديرا بتجهيزاتهم العظيمة

مطلب
عدم نجاح الجنود الايمبراطورية ببلاد ايطاليا

واما جنود الايمبراطور التى كانت ببلاد ايطاليا فلم تنجح مساعيها وذلك أن الايمبراطور لنفاد خزائنه كان لا يمكنه ان يسوق جنودا كثيرة الى جهتين فى ان واحد فكان كلما ارادعزمه بمملكة البلاد الواطية تلاشت قوته ببلاد ايطاليا وكان نائب الايمبراطور بمملكة نابلى قد اتفق مع الامير كوم دوميديسيس ان يتغلبا على مدينة سينة وكانت الجنود الفرنساوية قد دخلت بها فنزع

سنة ١٥٥٣

لذلك كوم المذكور ووافق نائب الامبراطور على تحصين هذه المدينة غير ان الجنود الامبراطورية لدى قرب دونتما الدولة العثمانية من سواحل نابلي عدلوا عن هذا المشروع وتوجهوا الى نابلي للمدافعة عنها وبذلك سهل على الفرنساوية ان يتمكنوا في توسكانة بل وباعانة الاتراك لهم استولوا على جزء عظيم من جزيرة قورسقة وكانت حينئذ في حكم اهل جنويزة

مطلب عدم نجاحهم ببلاد المجار

ولم تنجح جنود الامبراطور ايضا ببلاد المجار وذلك ان عساكر الملك فرديننذ ببلاد الاردل كانت لا تدفع لهم ماهياتهم على الوجه اللائق فكانوا يعيشون بغصب اموال الناس حتى ضجرت الاهالي من سوء فعالهم وظلمهم ونفرت من حكومة فرديننذ حيث هي لا تحميهم من المظالم وانضم الى ذلك انهم كانوا يودون ظهور فرصة بها ينتقمون لقتل الاسقف مارتينوزى الذى تقدم ذكره وكان كل من الاشراف وآحاد الاهالي قد سئموا من تلك الفعال المسيئة واستحسنوا القيام والعصيان وفي اثناء ذلك ظهرت الاميرة ايزابيلة ملكتهم سابقا ببلاد الاردل ومعها ابنها القاصر وكانت طماعة حريصة فندمت على تفريطها في تاجها سنة ١٥٥١ ولم تستطع ان تعيش كاحاد الناس بعيدة عن الملوكية وزينتها فخرجت من العزلة التى كانت بها وتوجهت الى الاردل مؤملة أن اهل المجار لغضبهم من الحكومة الجديدة يساعدونها على اثبات حقوق ابنها في الملوكية و بمجرد وصولها انضم الى حزبها عدة من الاشراف المتمازين وانضم الى حزبها ايضا الباشا والى بلغراد بامر السلطان سليمان واخذ يعينها على فرديننذ واما العساكر الايطالية والاسبانيولية فلعدم دفع ماهياتهم لهم كاذكرنا ابوا أن يتقدموا للقاء الاعداء وافادوا انهم مصممون على الرجوع الى ويانة المعروفة باسم بج فاضطر اميرهم كستلدو الى ترك بلاد الاردل للاميرة ايزابيلة وللاتراك ورجع مع جنوده العاصين خوفا منهم ان ينهبوا الاوستريا عند مرورهم بها

مطلب اضطرار فرديننذ الى ترك بلاد الاردل

وكان الملك فرديننذ مشغولا بشان ألمانيا وما كان حاصلا بها من الفتن

سنة ١٥٥٣

والتعكيرات وكانت خزائنه قد نفدت في حربه الاخير ببلاد المجار فلم يتجاسر ان
يعيد اخذ الاردل ثانيا من ايدي اعدائه مع ان مقتضيات الاحوال

مطلب هم السلطان سليمان وغمه في داخل عائلته

اذ ذاك كانت تعينه على تنفيذ مرامه لان السلطان سليمان وقتئذ غير
اشتغاله بالحرب مع الفرس كانت متراكمة عليه احزان منزلية تمنعه التمكن من
اعدائه وذلك انه وان فاق بمعارفه الغزيرة سائر من عداه من امراء العائلة
العثمانية لم يكن سلم من شديد الشهوات النفسية التي اشتهر بها اهل تلك العشيرة
الفاخرة الجليلة فكان هذا السلطان غيورا على دولته سريع الغضب قاهرا

مطلب ما كان من موت ابنه مصطفى

فتاكا لا يملك نفسه لدى غيظه كما لا يملك قلبه لدى عشقه فانظر كيف ادى به
عشقه وغيرته على دولته * كان له محظية جركسية فائقة الجمال نادرة البهاء
فولد منها ولد سمي مصطفى وكان فطنا ذكيا نجيبا فاحبه السلطان والده وعينه
لان يرث السلطنة من بعده غير ان محظية اخرى موسقوبية تسمى خرم استمالت
قلب السلطان اليها فسلاها والدة الامير مصطفى وصافاها سنوات عديدة
وولد منها بعدة من الذكور وبنت واحدة ولكن لم تكتف خرم بسلبها
عقل ملك كان يتصرف في نحو نصف الدنيا بل كان يزيد قلقها كلما فكرت في كون
الامير مصطفى سيملك ذات يوم كرسي السلطنة واولادها يصيرون فريسة له
على حسب العادة المستهجنة الجارية عند الاتراك من اعدام سوى من هو معد
للحكم من اولاد السلطان حتى يصير الخليفة في امن واطمئنان لا يجد من ينازعه
في الخلافة وبناء على ذلك اعتبرت الامير مصطفى عدو اولادها وبغضته كما
تبغض زوجة الاب ولد ضرتها واوسعت في فقده واتلافه حتى يبقى كرسي السلطنة
لاحد بنيها وكانت مع شدة طمعها ودقة عقلها ذات مكر وخداع لا تعجز عن
الشروع في اي مهم ولا تفتر لها همة لدى السعي في تدبير اي ملم وكان الصدر
الاعظم وقتئذ هو رستم باشا فعن رضاء السلطان زوجته بابنتها وبعد اطلاعه
على سرها واخبرته بنيتها وكان من الوزراء الماهرين الذين يحسنون الحيل
والخداع وبتزوجه بابنة خرم صارت مصلحته تدعوه الى اعانتها على
تتميم غرضها فوعدها بان يساعدها بما في وسعه على هلاك الامير مصطفى

حتى

سنة ١٥٥٣م

حتى يبق الخلافة لاخوة زوجته من بعد السلطان سليمان
ثم بعد تدبير هذه الامور اخذت خرّم تتظاهر بالتقوى والصلاح
والتولع بدين الاسلام وكان السلطان صالحا يتقى الله فى دينه وبعد عرضت
ان تبنى مسجدا ومثل هذه العمارة تبلغ مبالغ جسيمة غير أن ذلك يعد عند
المسلمين رأس الخيرات الاخروية واستشير المفتى عن هذا القصد فاثنى عليه الثناء
الجميل وكان الوزير رستم قد استماله وجعله من معينيه وانصاره فبعد أن مدح
هذا الصنع المبارك قال لخرّم انها لا ترتجى ثمرة هذه الخيرات
بل تكون ثمرتها للسلطان اذ هو سيدها ومالك رقبتها واليه مرجع افعالها
فحزنت خرّم لذلك وتمرضت واظهرت انها سئمت من الحياة الدنيا
وزينتها وكان السلطان وقتئذ مع جنوده فى السفر فلما بلغه حزنها ووقف على
سببه وفعل ما يفعله العاشق لرضاء من يهواه ويحبه فكتب اليها بيده انها حرّة
بالعتق فسرّت خرّم بذلك اذ هو من العلامات الدالة على نجاحها في
نوته فى حق الامير مصطفى واخذت تبنى فى المسجد وهى فى غاية السرور
والفرح وعند رجوع السلطان الى القسطنطينية ارسل احد أغاوات السراية
على حسب العادة ليدعو خرّم الى فراشه فاظهرت انه يشق عليها
عدم اجابة مولاها لكن لا ترضى ان توقعه ونفسها فى المعصية حيث هى عتيقة
وما كان شرفا بالطرفين اذ هى رقيقة صار الان محرما عليها بنص كتاب الله منذ
ان صارت حرة بالعتق فحرّك هذا التعفف المتصنع شهوة السلطان حتى استفتى
فى ذلك فاجابه المفتى بان قول خرّم موافق لحكم القرءان الشريف
وانما للسلطان وجه وهو أن يعقد نكاحها وتكون حليلته وكان الوزير رستم
هو الذى لقن المفتى ذلك وان كان مخالفا لما اوجبته السياسة على آل عثمان منذ
حرب السلطان بايزيد الاول مع التتار حيث ان زوجة هذا السلطان فضحها
التتار حين كان اسيرا فى قبضة تيمورلنك فخوفا من الوقوع فى مثل هذا العار
صار السلاطين من بعد بايزيد لا يفترشون سوى الجوارى المحظيات ومع
ذلك فرح السلطان لقول المفتى وعقد على عشيقته خرّم واشهر

نكاحه بها

ولرضاه السلطان بتلك الامور الجسيمة ايقنت خرّم بحبه لها وعرفت مكانتها عنده حتى صارت تؤمل النجاح فيما تطلب ولا تخشى عاقبة لامر ما فاخذت تدبر فى هلاك الامير مصطفى وكانت العادة جارية اذ ذاك عند السلاطين بتقليد ابنائهم حكومة بعض الاقاليم وكان الامير مصطفى حاكما على عدة اقاليم وكان والده قبل ذلك بقليل قد قلده بحكومة ديار بكر بعد أن نزعها من العرس وضمها الى سلطنته وفى ادارة هذه المصالح على اختلافها كان الامير مصطفى على الحزم لا يميل عن سنن العدالة والانصاف وكان لفتوته وكرم اخلاقه مألوفا عند العساكر والاهالى وكان مع استمالته قلوب الناس كافة على غاية من الاحتراس والتبصر حتى لم يعهد عليه انه اوجب لوالده الوسواس فى اى خصوص كان

وكان من المحال ان يتهم بذنب او بهفوة توجب ضياع اعتباره ومحبته من قلب ابيه غير أن مكر خرّم كان فوق ذلك كله فاستعانت بفضائل الامير مصطفى على فقده وذلك انها اثنت عليه اكثر من مرة بحضور السلطان واطنبت فى نعته بالصفات العلية الشأن ووصفه بالشجاعة والسخاء ومكارم الاخلاق التى صار بها مألوفا عند الناس وبافراط مدحها فيه وتكرار عد صفاته الجميلة وسرد مكارمه الجليلة على الوجه الاليق بقصدها اوجبت وسوسة السلطان من ابنه وان كان يحبه ويحترمه وانتهى به الحال الى ان صار لا يطرا الامير مصطفى على فكره الا ويحدثه قلبه بامور شتى فيغار منه وقد شاهدت خرّم ذلك من السلطان ولم تضع فرصته ففى اختلائها به ذات يوم انتقلت من موضع الى آخر حتى وقع الكلام بالمناسبة على السلطان بايزيد وقيام ابنه الامير سليم عليه ثم تكلمت على شجاعة الجنود الذين كانوا تحت حكم الامير مصطفى واشارت الى ان ديار بكر بالقرب من دول ملك العرس وهو عدو مبين للسلطان سليمان وبحسن سبك عبارات خرّم تريت تقولاتها بزى الحق فاشتدت غيرة السلطان من ابنه حتى نزعت من قلبه شفقة الوالد لولده وضاع

حنانه له وحلفه شديد البغضاء فجعل تقربه عيوبا يرقبونه و يخبرون عن اقواله وافعاله وصار يخشى منه كانه عدوه الاكبر

فلما نجحت خرّم في هذه المساعى ساغ لها ان تسع فى غيرها فطلبت من السلطان ان يأذن لاولادها بالظهور فى الديوان السلطانى وكان مقصدها بذلك انه يقربهم من ابيهم فى ديوان الحكم يمكنهم باظهارهم الطاعة والامتثال واتباعهم حميد الخصال ان يكونوا بمكانة فى قلب ابيهم وان ينسوه ابنه مصطفى وكان السلطان دائما يراعى خاطر خرّم فرضى بذلك وان كان مخالفا لاصول بنى عثمان هذا وحصل من الوزير رستم مخادعات ادق من هذه وذلك انه كتب للباشوات حكام الاقاليم المجاورة لديار بكر ان يكاتبوه فى شأن ما يحصل من الامير مصطفى فى الحكومة وافاد كلا منهما على حدته انه يلذ على السلطان ان يعرف فعال ابنه الحميدة حيث هو معدّ لان يؤيد فخر العشيرة العثمانية بعد أبيه وكان الباشوات يجهلون مقاصد هذا الوزير المشؤمة ففرحوا بما امرهم به اذ عدوه وسيلة بها يستوجبون حب السلطان سليمان وظنوا ان رستم يريد لهم الخير فصاروا يكاتبونه فى هذا الشأن و يطنبون بمراسلاتهم فى مدح الامير مصطفى و يصفونه بانه امير جدير بان يخلف والده وله من المعارف والعوارف ما يلزم لاقتداره على اقتفاء أثر والده وانه ربما ساواه ذات يوم فى الشهرة والفخار وكان كل ذلك مما يضر بالامير مصطفى حيث كانت كل هذه المكاتبات تعرض على السلطان ولا تعرض عليه الا وقت ما يكون يشأ عنها للامير مصطفى كل مضرة فكان كل مدح قرأه فى شأن الامير مصطفى يجرح قلبه بل وظن أن الباشوات الذين كانوا يكاتبون فى هذا الشأن يميلون للامير مصطفى ويلذ لهم أن يساعدوه على نزع السلطنة من يدى والده وبناء على ذلك اشتد به الوسواس حتى تخيل ان الامير مصطفى قد جمع امره ولم يبق بينه وبين الهجوم عليه وخلعه من السلطنة شئ فصمم السلطان على منع هذه المصائب قبل وقوعها واثبات تاج السلطنة لنفسه بقتل ابنه

وتعلل السلطان بانه يريد تجديد الحرب مع الفرس وامر وزيره رستم بالمسير

الى ديار بكر مع جيش جرار لينقذه من والده حيث ان سلامته متوقفة على هلاكه غير أن هذا الوزير كان حازم الرأى ذا احتراس وتبصر فى العواقب فحذرا من ان ينفذ بنفسه ما امر به من اعدام الامير مصطفى حيث انه بذلك يستوجب لنفسه بغض الناس وحقدهم حصل منه انه بمجرد وصوله الى الشام كتب الى السلطان سليمان ان الخطب قد جل وعظم ولا ينفع فيه سوى حضور السلطان فى اقرب وقت وعلل ذلك بقوله ان المعسكر مشحون من جواسيس الامير مصطفى وعيونه وان العساكر اجمعهم من حزبه وتحبه حبا جما وانه كشف سر مداولة حاصلة بين الامير مصطفى وبين حاكم الفرس فى خصوص تزوجه باحدى بنات هذا الملك وبناء على ذلك فنفوذ كلمته فى مثل هذه الحالة لا يجدى نفعا وانه لا اقتدار لاحد على حل هذا المشكل سوى السلطان بنفسه ولا يتمكن انسان آخر من اجراء ما صدر به امره

ولا يخفى أن اتهام الامير مصطفى بالمداولة مع ملك الفرس محض تهمة لا اصل له ومع ذلك تم بها الامر ما كان الوزير وخرّم يقصدانه فى اعدامه وكان السلطان سليمان يبغض الفرس كل البغض فانقبض كل الانقباض حين سمع بذلك وسافر حالا الى الشام واسرع فى سيره بقدر ما كان يخاف ضياع ملكه ويود الانتقام من ولده و بمجرد أن لحق جيشه بقرب حلب وتداول مع الوزير رستم ارسل چاويشا الى ابنه مصطفى يأمره بالمثول بين يديه وكان الامير مصطفى لا يجهل سعى زوجة ابيه ولا خبث الوزير و يعلم شدة بأس السلطان والده غير أنه بمجرد حضور الجاويش اليه اجابه مطيعا امر والده وتوجه اليه مؤملا انه باطاعته وحسن طويته يفهم السلطان حقيقة الامر و يظهر له كذب هؤلاء الواشين ولما وصل الى معسكر والده ودخل به فى ايوان السلطان لم يجد اولا عسكرا متسلحة بجوار السلطان ولا غير ذلك مما يمرعه بل كان مجلس السلطان على حالته المعتادة من الهدء والسكون غير أنه بعد برهة قليلة رأى الخرس فادرك حقيقة الامر وصرخ قائلا وانفساه وانفساه وهم بالفرار فوثب عليه الخرس فوقف وقاومهم وقاتلهم والتمس مع التضرع والابتهال ان

سنة ١٥٥٣

يؤذن له بالكلام مع والده وكان كلما ضعفت قواه أثار هياكل الديه يأسه او امله بانه ان
اخرج عن الخيمة بغيته عساكره وقاوم الحرس مدة مستطيلة ولم يتمكنوا منه
شيء فسمع السلطان صريخه والعاقبة الناشئة عن مقاومته وكان قد صمم على
اعدامه فخشى ان ينجو منه فرفع الستارة الحاجبة بينه وبين المحل الموجود به
مصطفى واخرج رأسه ونظر بعين الغضب الى الحرس فكأنه يتهمهم بالبطء
والخمول فحين رأى هذه القسوة من والده نزحت قواه وكلت همته فعلا الحرس
بالحبل فى عنقه واذاقوه كاس الممات ووضع جسمه امام خيمة السلطان فلما رآه
العساكر احتاطوا به وهم فى غاية الفزع والتعجب وعظمت ضجتهم وزاد سخطهم
وألمهم ولو وجدوا لهم قائدا لقاموا على السلطان لهذه الفعال الفاحشة
وظهرت بذلك محبتهم للامير مصطفى ثم لزم كل منهم خيمته ليبكى بها سرا على
فقد هذا الامير وكان مجوبا مألوفا عند الجميع وامتنعوا جميعا عن الزاد والماء
مدة هذا اليوم وفى صباح اليوم الثانى كنت ترى الحزن مخيما على خيام
العسكر فلا من متكلم ولا من متلفظ فخشى السلطان أن يعقب ذلك فتنة كما يعقب
السمات رياح عاصفة ورأى من اللازم فعل ما به يسكن غيظ العساكر ليسلم من
عواقب هذا الامر فجرد الوزير من اختام المملكة وطرده من الجيش وأعطى
منصبه لضابط مشهور بالشجاعة والجلادة يسمى احمد كان مألوفا عند العساكر
كافة غير ان طرد رستم لم يكن الا حيلة مدبرة متفق عليها بل ان رستم نفسه هو
الذى دبر هذا الامر حيث رأى انه لا يمكن نجاته ولا نجاة السلطان الا بهذه
الطريقة فلما سكن غضب العساكر واخذ اسم مصطفى يمحى من الاذهان
خنق احمد المذكور بامر السلطان واعيد رستم الى منصبه الاول وكانت
خرم قد امرت هذا الوزير ان يمحق ذرية مصطفى فاطاعة لها لم يزل
يسعى حتى اراحها ممن كان لمصطفى من الذرية ولم يكن له الا ولد واحد ربما كان
يمكنه ذات يوم أن يأخذ بثار ابيه فاودعوا الوسواس فى قلب جده من جهته
وصغى الى قولهم وامر بقتله وكان هذا الولد فى بورسة فارسل اليه احد
اعوان السراية ونفذ ما امر به بقلب عارى عن الشفقة والمروءة ولم يبق لاولاد

سنة ١٥٥٣

خزم من يعوقهم عن الصعود الى اوج السلطنة
ومثل هذه الامور الشنيعة لا توجد الا في تاريخ الممالك الكبيرة من بلاد المشرق حيث فيها يظهر أن حرارة القطر مهيجة لسائر الشهوات و بها شهوات الملك تفوق كل حد حيث لا حدود لقدرته وهو مطلق التصرف .

مطلب
تصميم الامبراطور شرلكان على زواج ابنه بمارية امبرة انكلترة

وبينما كان السلطان سليمان واقعا في مشكل هذه الدسائس المنزلية كان الامبراطور شرلكان يشتغل بمقصد جديد به يكون ارتفاع عائلته وصورة ذلك أن ايدوار السادس ملك انكلترة كان كثير الفضائل حتى كان رعاياه مدة قصره يصبرون على مايحل بهم من المصائب الناشئة عن الشقاق والتفاقم الحاصل بين وزراء المملكة لطمعهم و يتحملون كل اذى مؤملين ان يحظوا بالراحة فيما بعد تحت حكمه متى صار رشيد نفسه غير أن هذا الامير لم يحكم الا مدة يسيرة بعد رشده واصيب بداء السل وصار من المأيوس به حياته وحيث كان الامبراطور لا يغفل عما به يكون علو قدر عائلته حصل انه بمجرد اخباره بذلك عده خير وسيلة يزيد بها في شوكة ابنه وفي ممالكه وصمم على ضم انكلترة الى ممالكه بتزويج ابنه فيليبش مع مارية امبرة انكلترة حيث اذا قضى هذا الملك نحبه لا وارث له سواها وكان ابنه فيليبش اذ ذاك ببلاد اسبانيا وكان من الجائز انه لا يرضى بتزويج هذه الامبرة اذ كانت في سن الثمانية والثلاثين فهي اكبر منه باحدى عشرة سنة فصمم الامبراطور مع تقدمه في السن وضعف بنيته على انه اذا امتنع ابنه عن ذلك لا بد وان يتزوج هو نفسه بهذه الامبرة وكانت من اقرب الناس اليه

مطلب
رضاء فيليبش بتزوج هذه الامبرة

وكانت هذه الامبرة مجردة عن جاذبة الفضائل التي تكون زينة المرأة بعد ضياع شبابها ومع ذلك رضي الامير فيليبش ان يتزوج بها ولم يحصل منه ادنى توقف وجعل كما هي عادة الامراء ميل نفسه وحظه فداء لطمعه ولم ينتظر الامبراطور شرلكان بعد موت الملك ايدوار حتى يمهد سبيله الى الوصول لمقصده وانما صبر بعد موته حتى عدلت الامبرة جانة كرى عن دعواها في حق المملكة اذ لم يكن وجه استحقاقها اكيدا او بمجرد ثبوت التاج

سنة ١٥٥٣

الملوكى للاميرة ماريه بعث الى مدينة لوندرة رسالة فى اتم ابهة وبهجة ليعرضوا على هذه الاميرة بعد تهنئتها بالمنصب قصد الامبراطور من تزويجها بابنه فيليش فحظى هذا العرض بحسن القبول وذلك انه بقطع النظر عما قام بنفس ماريه من الفرح بما يكون لها من الفخر بتزوجها بابن اعظم ملوك اوروبا يقال ان هذه الاميرة فرحت لما عرض عليها حيث به تقوى علائق المحبة بينها وبين عائلة والدة الامير فيليش اذ كانت ماريه تحبها حبا جما وثم سبب آخر وهو أن ماريه كانت تودّ أن تمكن الدين القاثوليقى ببلاد انكلترة وكان الامبراطور يفعل كذلك ببلاده فرأت انها بتزوجها مع ابن امبراطور قوى الشوكة شديد البأس تتمكن من تنفيذ مقصدها فى تعضيد دين الكنيسة ومحق دين المعتزلة ولكن كان حال رعاياها بخلاف ذلك اذ كان احزاب دين المعتزلة كثيرين جدا وكانوا يخشون عاقبة هذا الزواج حيث كانوا يعلمون ميل فيليش الى دين الكنيسة الرومانية وكان لفرط حميته فى هذا الشأن فوق ما تسوّغه بدع الاسبانيوليين وعبد ذلك كانت الملة الانكليزية متعودة على أن تعيش مع ملوكها على التألف وعدم التكلف حتى ان بعض هؤلاء الملوك كان ممن ارتقى من حضيض الرعايا الى اوج السلطنة فكانت لا تستطيع المعيشة تحت حكم امير متكبر ذى عنوان مثل فيليش كما هى عادة القسطيليين من الكبر والانفة هذا وكانوا متيقنين ان هذا الامير اذا تزوج بملكتهم يصير له بالضرورة نفوذ عظيم فى المشورة وكانوا يخشون ان يده قد تشب على امور الحكومة الاسبانيولية وهى مخالفة لما تسوّغه الحرية من الاصول الانكليزية فربما حمل اميرتهم ماريه اذا تزوج بها على ان تقتدى به فى السياسة ويقدم لها ما تحتاج اليه من الرجال والاموال لقهر رعاياها واذلالهم

وكان مجلس وكلاء العمالات حينئذ على غاية من الانقياد والامتثال لولى الامر فى المملكة لا يعارضه فيما اراد ومع ذلك لما اقر ارهذا الزواج واوهم بعبارات مقنعة عدم رضائه به واذ بعث عدة رسالات قدحا فى هذا العرض تبين عواقبه الخطرة ونصف على وجه شنيع وقاحة فيليش وتولعه لحد

مطلب

ما كان شأن الاميرة ماريه ورعاياها لهذا الزواج

مطلب

توقف مجلس وكلاء العمالات وعدم رضائهم بهذا الزواج

الافراط بالدين القاثوليقي بدون تعقل غير ان الاميرة مارية لم يكن من عادتها العدول عما صممت عليه فلم تصغ لقول وكلاء العمالات ولم تلتفت الى اشباض رعاياها لهذا الغرض لاسيما ومن كانت تعتمدهم من الوزراء وتثق بهم كانوا من حزب الايمبراطور حيث استمالهم بالرشوة وارسل اليهم مبالغ جسيمة ليصرفوها في استمالة بقية اهل المشورة الانكليزية الى حزبه فاقر هؤلاء الوزراء الملكة على بتها وقد حصل ان البابا بمجرد توليته بعث الكردينال دولابول الانكليزي الى انكلترة بأن ساعيه ليعقد روابط المحبة بين وطنه والكنيسة الرومانية غير انه حجز بمدينة ديلانغان في ألمانيا بأمر الايمبراطور وسبب حجزه هو أن الايمبراطور كان يخشى منه ان يمنع زواج فيليبش بالملكة وأن يعين بنفوذ كلمته قريبه الامير كورتوناي قونتة ديونسير على التزوج بالملكة وكانت الملة الانكليزية تألفه وتود زواجه بملكتهم

هذا وكانت المداولة في شأن الزواج مستمرة بين الايمبراطور وبين ديوان انكلترة ورضي الايمبراطور بدون توقف بكل ما اشترطه وزراء انكلترة لازالة نفرة الملة الانكليزية واذهاب خوفهم من الوقوع في حكم ملك اجنبي والبنود الاصلية من هذه المشارطة هي اولا ان فيليبش مادامت الملكة على قيد الحياة يلقب بملك انكلترة ولكن لا يكون له دخل في امور المملكة بل الحكم يكون للملكة وحدها وهي تتصرف كيف شاءت في ايراد المملكة ووظائفها وما يتعلق بها ثانيا أن اولاد فيليبش من الملكة يرثون دولها بعدها ويكون لهم ملك دوقية بورغونيا ومملكة البلاد الواطية ثالثا اذا مات كرلوس ابن فيليبش من زوجته الاولى ولم يعقب ذرية يكون لاولاد الملكة مارية من ذكور واناث الحكم على مملكة اسبانيا وسائر دول الايمبراطور شرلكان رابعا يؤخذ ميثاق بالملأ على فيليبش قبل عقد النكاح انه لا يتخذ لخدمته سوى اناس من رعايا الملكة وانه لا يدخل في انكلترة احدا اجنبيا يوجب شبهة الملة الانكليزية ووسواسها خامسا انه لا يغير ولا يبدل في قوانين المملكة واصولها وانه لا يخرج منها الملكة ولا احدا

سنة ١٥٥٣

مطلب عقد النكاح

سنة ١٥٥٤ في ١٢ من شهر حزيران

سنة ١٥٥٤ م

من اولادها سادسا اذا ماتت الملكة ولم يكن لها من يرثها من اولادها يبقى الملك لمن يستحقه ارثا ولا يدعى فيليش فى شأنه استحقاقا ابدا ما كان سابعا ان انكلترة لا يلزمها بمناسبة هذا الزواج ان يكون لها مدخل فى الحروب الحاصلة او التى تحصل بين اسبانيا والفرنسيس بل ان معاهدة انكلترة مع مملكة فرانسا لابد من دوامها على ما هى عليه

مطلب غيظ الانكليز وخوفهم عاقبة هذا الزواج

ولكن مع تساهل الايمبراطور وما فعله هو ووزراء انكلترة لازالة خوف الانكليز من عاقبة هذا الزواج كانوا لم يزالوا متحيرين متفكرين ولم يذهب ما كان قائما بهم للشروط المذكورة آنفا وان كانت فى الظاهر عظيمة العائدة لهم وكانوا يرون ان القول والوعد سور غير متين فلا يقيهم من طمع الامير فيليش حيث أنه بوصف كونه زوج ملكتهم يمكنه ان ينقض سائر الشروط المضيقة لقدرته وكلمته او المانعة له عن تنفيذ مآربه ومقاصده وكانت انكلترة تخشى أن يمسها اذا دخلت تحت حكومة اسبانيا ما مس نابلى وميلان وسائر البلدان الاخرى التى انضمت الى تلك الحكومة الظالمة فتضطر كغيرها من هذه البلدان الى أن تذهب اموالها ورجالها فى الحروب مع الممالك الاجنبية مع انها لا تعود اليها منها فائدة ما وبهذه الملحوظات ظهر الغم على الانكليز كافة وصاروا يسخطون على من اعانوا على تميم هذا الزواج من اعيان انكلترة

مطلب فتنة كان توماوبات رئيسها

فلما انتشر الغم بينهم وكانوا مستعدين الى العصيان والقيام اخذ رجل يقال له توماويات فى تحريض سكان كنتة على اشهار السلاح لخلاص وطنهم من حكم الاجانب وكان هذا الرجل من متوسطى الناس اعتبارا غير انه كان يحب وطنه حبا جما ولا يتورط فى مصلحته ففى مدة قليلة اجتمع تحت لوائه عدد كبير وسار سريعا الى مدينة لوندرة ولم تكن الملكة تهيأت للمدافعة وكانت مقتضيات الاحوال لا تساعدها حتى ان هذه الفتنة كانت تضر بحكمها كل الضرر لو انضم بعض الاعيان اولى الاعتبار الى العاصين اولو كان رئيسهم توماويات من القريحة والتدبير ما يساوى جسارته غير أنه لعدم تبصره فى اموره وتردده فى أعلب رجاله وقليل من عساكر الملكة شتت من كانوا باقين

تحت لوائه وقبض عليه نفسه قبل أن يتم امره امهما يكون اهلا لجبنه وغيرته على وطنه وقتل بعد التعذيب فى نظير تجاسره وعصيانه وثبتت صولة الملكة وتمت شوكتها بخيبة هذا المشروع وهزيمة اعدائها وقد قدمنا انه كان باقيا ممن ابهم الدعوى فى حق الملوكية الاميرة جانةكرى فعند حصول هذه الفتنة حرض هذه الاميرة اقاربها على التصدى لطلب التاج الملوكى وسمعت قولهم فقتلت على رؤس الاشهاد مع صغرسنها وعدم ارتكابها ما يوجب حتفها حيث طمع اقاربها هو الذى حملها على التعرض لهذا الامر واما الاميرة ايليزابيطة اخت الملكة مارية فقد جعلت لها عيون ترقبها وتلاحظها فى سائر امورها وبالجملة فقد اقر ديوان البرلمان عقد النكاح واستكملت اركانه وشروطه

مطلب اشهار الزواج

ونزل الامير فيليبش بلاد انكلترة فى احتفال عظيم واشهر زواجه مع مزيد الابهة والزينة غيرأن الطبع يغلب التطبع فتعذر على فيليبش أن يستر ما عنده من الانفة والكبر وان يسلك طرق الملاطفة والرفق ليستميل قلوب الناس اليه واتخذ سبيل السخاء والبذل المفرط لترغيب اعيان الانكليز وتحببهم فيه وكان قصده ان يجعل لنفسه كلمة نافذة فى حكم المملكة الانكليزية ولازالة كل عائق يمنعه عن الوصول الى هذا الغرض جعل الامبراطور على سواحل الفلمنك اثنى عشر الف رجل من العساكر متهيأة لان تنتقل لدى الحاجة الى انكلترة لتعين فيليبش على تتميم مقصده

مطلب شروع الملكة مارية فى محق دين المعتزلة من بلاد انكلترة

وقوى قلب مارية لظفرها وما ألفته حينئذ من المقتضيات المساعدة لها فاخذت مع الجبة التامة فى تحبير مقصدها من محق دين المعتزلة فى دولتها وابطلت الاوامر الصادرة عن الملك ادوار الخامس قبلها فى شأن راحة المعتزلة وطردت قسوسهم واعادت ما بطل العمل به من مواسم الكنيسة الرومانية ومراسمها الدينية وكان الكردينال دولابول نائب البابا محجوزا بامر الامبراطور كما تقدم فبعد أن تم النكاح واشهر الزواج خلى سبيله ورخص له ان ينزل بانكلترة التى هى وطنه ويوفى بوظيفته فيها بدون

سنة ١٥٥٤م

معارض له بوصف كونه نائبا عن البابا بعفى عن الملة الانكليزية على رؤس الاشهاد فى ما جنته من الكبائر باتباعها دين المعتزلة الهراطقة واصلح ما بينهم وبين الكنيسة الرومانية ولكن لم تقنع مارية بتشييد بنيان دين الكنيسة على اطلال دين المعتزلة بل ألزمت سائر رعاياها ان يتمسكوا بديانتها ويتلوا صيغة تعبدها وان يعدلوا عن سائر العقائد والبدع المخالفة لعقيدتها وانيطت عدة اشخاص بالتجسس عمن يتجاسر على ارتكاب كبيرة التمسك بدين المعتزلة واعطى هؤلاء الاشخاص من الكلمة ما صاروا به اكبر نفوذ ممن كانوا فى بعض الممالك كمملكة اسبانيا اعضاء لمحكمة التفتيش الدينى ولم يكن حصل مثل ذلك قط ببلاد انكلترة غير أن قلوب القسوس المعتزلة لم تخشع مع هذا كله ولم تفجعهم اخطاره حيث كانوا يرون ان دين المعتزلة هو الحق وان مذاهبهم ليست الا عن امور لا بد منها لسعادة البشر وراحة الخلق فأبدوا آراءهم على رؤس الاشهاد وعارضوا فيما صدر فى حقهم فتتبعتهم الدولة بما لا ينشأ من القسوة والاساءة الا عن الجهل والعماء فى الدين وتعدادية وانواع الحتف الشنيع الذى كانت الكنيسة الرومانية اذ ذاك تقاصص به اعداءها ولكن حيث كانت الملة الانكليزية لا تعلوها ملة من ملل اوروبا فى الرأفة والانسانية وكانت حدودها لا تخلو عن التلطيف والرفق غضبت وسخطت وامتلأت رعبا وبكاء حيث رأت هؤلاء القسوس مع علو قدرهم ومناصبهم وما يجب لهم من الاحترام والاعتبار لهرمهم وعلمهم وتقواهم يعذبون بما لم يرد به اثر ولا خبر ولم يسبق اجراء مثله فى حق ذوى الكبائر والغش

فتشديد مارية وان بلغ حد الافراط لم تكن غايته ما كانت تؤمله وذلك أن صبر المعتزلة من شيوخ وصبيان ورعاع واعيان وذكور ونسوان وتجلدهم فى اثناء العذاب وعدم مبالاتهم وهم يذوقون كأس الممات التى اوقعهم بديهم وكانوا يرونه حقا قد اثبت كثيرا من المعتزلة فى عقائدهم بل ربما ان من ثبتت عقيدتهم بذلك كانوا اكثر ممن عدلوا عن دين المعتزلة خوف العذاب والحتف واما القضاة الذين كانوا منوطين بتحقيق قضايا المعتزلة كان يؤتى اليهم كل يوم باناس متهمين

مطلب العوائق التى لاقتها مارية لدى تسيد عرضها

سنة ١٥٥٤

بالاعتزال والالحاد حتى سئموا من وطيتهم اذ لم يروا لها انتهاء مع كثرة آثامها هذا وقد رأى احذق وزراء الملكة ان من الخطأ والخطر اغضاب الاهالى بكثرة هذه المظالم المنكرة المنفرة بل ان فيليش مع غلاظة طبعه رأى ان مارية قد تجاوزت الحدود فنصحها بالرفق واللين والعدول عما كانت عليه

مطلب استحواذ الانكليز من فيليش

وكان فيليش بنصحه الملكة الملاطفة واللين يقصد استمالة قلوب الانكليز اليه ومع ذلك لم يزالوا يستحوذونه ويخشون عدوه حتى ان بعض القرى باغواء الديوان الملوكى عرض على ديوان وكلاء الملة ان يقدم امدادا الى الايمپراطور يستعين به فى حربه مع مملكة فرانسا فابى وكلاء الملة وردّوا العرض خائبا وقد حصل ايصال الديوان الملوكى سعى فى حمل ديوان البرلمان اى ديوان وكلاء الملة على تتويج فيليش بوصف كونه زوج الملكة فأبى البرلمان ذلك وعدل الديوان الملوكى سريعا عما كان يلتمسه

مطلب حيرة ملك فرانسا لهذا الزواج

هذا ولا يخفى ما قام بملك فرانسا من الغيرة والحيرة لوقوع المداولة لقصد المواصلة بين الايمپراطور وانكلترة حيث كان يعلم ان زواج فيليش بملكة هذه الدولة القوية يزيد فى قوة عدوه وشوكته ويرى ان الانكليز مع خوفهم واحتراسهم لا بد وان يكون لهم ذات يوم مدخل فى الحروب ويضطروا الى اعانة الايمپراطور على تحقيق ما تسوله نفسه الطماعة فامر وكيله الموجود بانكلترة ان يبذل غاية جهده فى تعطيل هذا الزواج او فى تأخيره ان لم يمكن تعطيله غير أنه لما لم يكن حينئذ امير من عائلة فرانسا الملوكية حتى يبارز فيليش فى تطلب الملكة امر ملك فرانسا وزيره المذكور ان يعين الانكليز مما كانوا يتموّنه من تزوج الملكة باحد رعاياها ولكن قبلت الملكة سريعا زواجها بالامير فيليش فافسدت على ملك فرانسا آماله فعدل الى امر جديد واخذ يسلك ما يقتضيه الحزم والكياسة من اظهار خلاف ما يضمر حتى ان وياث رئيس العصبة المتقدم ذكره وغيره من رؤساء العاصين قد طلبوا الاعانة والامداد من هذا الملك لدى قيامهم وعرضوا عليه فوائد جمة فى نظير اعانته لهم فلم يرض بل وامر وزيره المحكى عنه بانكلترة ان يهنى الملكة على اخماد

نار الفتنة وعلوها على عدوها

مطلب
تجهيزاته الكبيرة للحرب

مر ذكرنا آنفا ان هذا خلاف ما يضمر وانما اظهره امتثالا لاحكام الضرورة والواقع انه كان يخشى عاقبة هذا الزواج حيث به تقوى شوكة الامبراطور وفيه ما يكفيه فى تعويض ما خسره ببلاد ألمانيا لحصول الفتن المتوالية بها على ما تقدم فاضطر ملك فرانسا الى ان يبعث فى آن واحد جنودا الى بلاد ايطاليا واخرى الى مملكة البلاد الواطية لانه كان من المهم الضرورى لهذا الملك ان يحمل الامبراطور على الصلح بشروط مقبولة قبل ان تنال الملكة مارية من رعاياها أن يقروها على اعانة الامبراطور فى حروبه فتمده بما يلزم له من رجال واموال فعدل هنرى عن سبل البطء والتراخى وبذل جهده حتى جمع فى اقرب وقت جيشا جرارا على حدود مملكة البلاد الواطية وانقسم هذا الجيش الى قسمين قسم منه وجه لتخريب اودية اقليم ارتوارة وكانت خالية عن الحصون والقلاع والقسم الآخر سار به الامير مد تمورنسى قائده الى اقليم ليجة واقليم هينوت بطريق غابة الاردين

مطلب
نجاح جنوده

وكان افتتاح الحرب بمحاصرة مدينة مريانبورغ وكانت ملكة بلاد المجار المتولية اذ ذاك حكومة مملكة البلاد الواطية قد صرفت مبالغ جسيمة فى تحصين هذه المدينة غير أنه لم يكن بها سوى مقدار قليل من العساكر والمحافظين فتغلب عليها الفرنساوية بعد ستة ايام من حصارها ولفرح الملك هنرى لهذا الظفر لحق بجيشه وسار به لمحاصرة مدينة بوبنس فاخذها عنوة بدون مقاومة الا القليل وتغلب ايضا على مدينة دينان مع السهولة ثم انقلب الى يساره وسار الى اقليم ارتوارة واما الامبراطور فلما بعثه قبل تلك الواقعة من المبالغ الجسيمة الى انكلترة كان يتعذر عليه ان يستعد للحرب بما يلزم من الجنود والمهمات ولم يكن عنده من العساكر ما يكفى لدفع الفرنساوية

٢٨ من شهر حزيران

مطلب
عدم اقتدار الامبراطور على المقاومة

فى مبدأ الواقعة نعم انه جمع قواه وما كان فى وسعه اذ ذاك غير أن جيشه كان دون جيش اعدائه لكنه قلد برياسته الامير ايمنويل فيليبيردوساوة فمهارته وحسن تدبيره وادارته سد خلل ما فاته من عدد الجنود حيث انه انتخب لمعسكره

سنة ١٥٥٤

وضعا محكما وصار يلاحظ حركات جيش الفرنساوية ويفسد عليهم ما يدبرونه حتى اعجزهم ولم يمكنهم الهجوم عليه ولا محاصرته محاصرة تعود عليهم بالفائدة ولم يروا امامهم على هذا الحال حتى اضطروا الى ان رجعوا على اعقابهم لعدم وجود ما يتقوتون به ولكن عند رجوعهم حرقوا ما كان فى طريقهم من المدائن الغير الحصينة ونهبوا البلدان وخربوا العمران وارتكبوا من الفساد ما يليق بجنود خفيفة غير منتظمة لا بجيش جرار يقوده ملك من اعظم ملوك العصر ولكن لم تسمح نفس هنرى بتسريح جنوده قبل ان يتغلب من بلاد اعدائه على ما يكون له لا لتجهيزاته العظيمة التى استعد بها للحرب فحاصر مدينة رنتى وكانت مهمة الوضع حيث هى موضوعة على حدود اقليم ارتوازة واقليم بولونواس وكانت محصنة للاول من هذين الاقليمين وتعين جيوش الامبراطور لدى عدوها وهجومها على الاقليم الثانى وكانت المدينة المذكورة

مطلب محاصرة الفرنساوية لمدينة رنتى

منيعة الحصون كثيرة العساكر والمحافظين فقاومت الاعداء حق المقاومة ولكن كان من المعلوم ان مثل هذه المدينة لا يمكنها ان تقاوم مدة مستطيلة جيش الفرنساوية وكان جرارا وهجم عليها بجمعه فادرك الامبراطور ذلك وكان حينئذ فى افاقة من آلام داء الملوك اوالنقرس بحيث يستطيع حركة التحترون فبادر بجيشه لانقاذ هذه المدينة وكان قد جاءه امداد جديد حتى صار ذا اقتدار على مقابلة جيش اعدائه وكان الفرنساوية فى حرج ينتظرون وصول الامبراطور اليهم حتى اذا التقى الجمعان تمت محاصرة مدينة رنتى اما عليهم واما لهم غير ان الامبراطور لتبصره فى العواقب كما هى عادته بذل جهده فى عدم ايقاع القتال ولم يكن مطمح نظره الا انقاذ المدينة فاقتصر على المدافعة عنها بما توجبه مقتضيات الاحوال ولم يعرض نفسه الى ريب الحروب

ومع ما احترس به الامبراطور من وقوع الحرب حصل انه لداعى محطة اراد كل من الحربين التغلب عليها ادى ذلك الى التحام الجندين والتقاء الجيشين وكان الامير دوق دوكيز فى جيش الفرنساوية يحكم الجناح الذى كان معظم الهجوم عليه فثبت لاصطدام العدو بمهارة وادارة جديرتين به وبما ابداه

من العزم لدى المدافعة عن مدينة متزة فبعد التثبت من الجهتين واستمرار القتال وبلوغ القوى من الحزبين حد النصب والاين تزحزحت الجنود الامبراطورية وبقيت المحطة بايدى الفرنساوية ولو كان الامير دومو تورانسى اما لبطئه وتردده الذين كانا طبعا فيه واما لغيرته من حصوم اعنى الامير دوكيز لم يتأخر عن التقدم بعسكره الاحتياطية لاعانة عسكر الدوق دوكيز لتشتت شمل الامبراطورية وتمت هزيمتهم ولكن مع ما خسره الامبراطور وتزحزحه عن المحطة المحكى عنها مكث فى معسكره الاول بخلاف الفرنساوية فتركوا معسكرهم لما وجدوه من الضنك والكروب لعدم المؤونة عندهم وعدم امكانهم استمرار المحاصرة بحضور جيش الامبراطور ورجعوا القهقرى غير أنهم لدى التجائهم كانوا على غاية من النظام حتى كان يظن انهم يستصغرون اعداءهم لا انهم يريدون الفرار منهم

مطلب
التحام الصف فى ١٣ شهر آب

وحيث كان مقصد الامبراطور انما هو انقاذ المدينة من اعدائه وقد تممه حكم مرامه لم يتعرض الى الفرنساوية عند التجائهم غير أن الملك هنرى لدى وصوله الى حدود دولته وضع محافظين فى مدائن الضواحى وسرح بقية جيشه فقوى بذلك عزم عسكر الامبراطور وتقدموا وهم فى حد كبير الى اقليم بيكارديا وبالغوا فى تخريبه لينتقموا لانفسهم مما ارتكبه الفرنساوية من التخريب فى اقليمى هينوت وارتوارة ولكن لم تكن عندهم القوة اللازمة لان يتغلبوا على شئ من الحصون الحسية المعدودة فلم يجتنوا ثمرة اجل مما جناه اعداؤهم بهذه الطريقة الحشية المذرية بكل من سيج على منوالها فى حروبه

مطلب
تخريب الامبراطور لاقليم بيكارديا

ثم ان مصالح الفرنساوية ببلاد ايطاليا كانت كل يوم تزداد عطلا وكسادا وذلك ان الامير كوم دومديسيس المعروف بالمهارة والجسارة قد فرغ الدخولهم بمدينة سينة واستيطانهم فيها وسبب فرعه هو أنهم ما داموا بالقرب من ولايته وهى طورنسة لا بد وان يكونوا مستندا لمن كانوا يودون من اهل تلك الولاية ارجاع الديمقراطية القديمة التى ادهها ويطلبون اذهاب الحكومة

مطلب
حال مصالح الفرنساوية فى ايطاليا

سنة ١٥٥٤

المطلقة التى اعانه الامبراطور على ترتيبها فى فلورنسية وعلى ان كوم المذكور كان يعلم انه يميله الى الامبراطور قد صار مبغوضا عند الفرنساوية فهم لغضبهم منه لابد وأن يهجموا على توسكانة اذا لم يطردوا من مدينة سينة قبل أن يتحصنوا فيها فاقوى واسطة يقى بها نفسه من بأسهم هى طردهم من المدينة المذكورة قبل ان يبعث اليهم امدادا من مملكتهم فلا يكون طردهم بيسير غير أنه كان يعلم ان فخر الامبراطور ومصلحته يقتضيان طرد الفرنساوية من هذه المدينة اذ كانوا ابو سط دولة تحاول اولا ان تكون احمال الحرب على الامبراطور وفى اول واقعة لم يبده الا مبلغ قليل صرف على الجنود الامبراطورية من جملة ماهياتهم

مطلب نية الامير كوم فى شأن مدينة سينة

وكانت خزائن الامبراطور قد نفدت بما ارسله الى انكلترة لتتميم الزواج وبما كانت تستلزمه المدافعة عن مملكة البلاد الواطية من الاموال ولهذا كانت تجهيزاته ببلاد ايطاليا ضعيفة جدا فعلم الامير كوم أن الفرنساوية لابد وأن يتقووا ببلاد ايطاليا اذا اعتمد على الامبراطور ولم يلتفت بنفسه الى الحرب ويبذل جهده حتى يخرجهم منها فصمم على طردهم حيث رآه من الضرورى اللازم غير أنه اراد أن تكون له فائدة اخرى غير طرد الفرنساوية من جواره فارسل الى الامبراطور شرلكان مخصوصا من طرفه ليعرض عليه مرامه من التكفل بالحرب مع هنرى والتغلب على مدينة سينة باموالة ورجاله بشرط أن يترك له الامبراطور التمتع بما يتغلب عليه من المدائن والبلدان الى ان يدفع له ما صرفه مدة الحرب وكان الامبراطور اذ ذاك لا يقدر على ان يوفى بمصاريف ما كان مشغولا به من الحروب العديدة فرضى بذلك وكان كوم لا يجهل نفاد خزائن الامبراطور فامل ان سيبقيه يتمتع بالمدائن التى يتغلب عليها حيث لا يقدر ان يدفع له ما سيصرفه فى تسخيرها من المبالغ واستعد كوم المذكور بتجهيزات عظيمة للحرب مع الفرنساوية اعترارا منه بالامانى المتقدمة وكان يعلم ان ملك فرانسا قد وجه سائر قوته الى مملكة البلاد الواطية فصرح حيث جمع من العساكر ما يكفى لمقاومة الفرنساوية ببلاد ايطاليا غير انه كان

مطلب مداولات الامير كوم مع الامبراطور

مطلب تأهب كوم للحرب مع مملكة فرانسا

من

سنة ١٥٥٤م

من الضرورى اللازم لاعانة البابا اياها ومكنه خلى أغراض عن الحزبين فزوج احدى بناته بسبط هذا الكاهن وزوج احداهما بالامير دوق دوروسين ليخلعه من حزب الفرنساوية وكانت عائلته منذ زمن طويل تميل اليهم هذا وفعل كوم ماهو أهم من ذلك وهو أن جعل حنايا كس مدسينو ملتزم ملرشان قائدا لجيشه وكان اصله من الاوباش فارتقى بالتدريج حتى وصل الى رتبة الجنرال وبشهرته بالمعارف صار معدودا من اشهر جنرالات هذا العصر المشهور بالحروب والوقائع لكنه لكثرة طمعه لم يكتف بوصوله الى تلك الدرجة الرفيعة بل لخزيه من دناءة اصله اراد باتخاذه اسما مشاكلا لاسم العائلة المدسيسية ان يعد من ذرية المدسيس اعنى عائلة الامير كوم ففرح كوم بان وجد فى طبيعة هذا الرجل من حب التعالى مايعين على استمالته اليه فأقر بان يكون من اقاربه واذن له فى حمل نشانات هذه العائلة ومن وقتئذ فرح الملتزم مدسينو ورأى من عين فخره خدمة عائلة مشهورة كان يتراءى اذ ذاك انه منسوب اليها وانه من نسلها فاخذ يبذل غاية جهده فى جمع العساكر والجنود وكان قد خدم كثيرا مع الطوائف المستأجرة المتركبة منها جيوش ايطاليا وصارله بين ضباطهم نفوذ كلمة فامكنه ان يستميل اكابر هؤلاء الضباط الى الدخول تحت ألوية الامير كوم

مطلب
تولية مدسينو رئيسا على الجيش

واما هنرى فرأى ان الاحرى بان يبرز لهذا الجنرال الماهر هو الامير بطرس استروزى احد بكرادات فلورنسة وكان بعد نفيه من وطنه مقيما منذ زمن طويل بمملكة فرانسا وكان له من المعارف والشهرة ماصار به اكثر من مرة رئيسا على الجنود والجيوش الجرارة وهو ابن الشهير فيليش استروزى وقد اجتهد والده سنة ١٥٣٧ فى طرد امراء عائلة المدسيس من فلورنسة وفى ترتيب الحكومة الجمهورية بهذه الولاية وقتل فى اثناء همته بتحيير هذا المشروع وكان بطرس قد ورث عن ابيه البغضاء والعداوة لعائلة المدسيس والميل الكلى الى الحرية وانضم الى ذلك حمه الاخذ بثار

مطلب
تولية الامير بطرس استروزى رئيسا على جيش الفرنساوية ببلاد ايطاليا

سنة ١٥٥٤

ابيه حيث قتل في الحرب مع عائلة المدسيس واذا كان الملك هنري يؤمل النجاح بهذا الجنرال حيث فيه اسباب قوية تدعوه الى كراهة عائلة المدسيس لاسيما وهو معتد لان يقاتل في وطنه فلا بد وان يجد من اهل بلاده احزابا وانصارا يعينونه في تتميم ما ربه

نعم أن انتخاب هنري لهذا الامير في محله لظاهر تلك الاسباب المذكورة الا انه كان نحس المملكة فرانسا وذلك أن الامير كوم بمجرد اخباره بجعل عدو عائلته رئيسا على جيش الفرنساوية في توسكانة فهم ان مقصد ملك فرانسا ليس مجرد حماية مدينة سينة بل بنيته الغدر بعائلة المدسيس والاغارة على ايالاتها فشمر عن ساعد الجد في جمع العساكر والجنود ليستعد لقتال الفرنساوية

ومن جهة اخرى كان الكردينال دوفرار مامورا بمصالح فرانسا في بلاد ايطاليا وكان لا يشركه احد في تلك المأمورية فلما علم تولية استروزي داخلته الغيرة من ذلك اذ رأى انه خصم سيشركه في وظائفه او ينفرد بها و يحل محله اذا نجح فلم نجاحه كان غالبا لا يسعفه بما تحتاج اليه عساكره من الذخائر والاموال على ان الامير استروزي نفسه قد اعماه اذ ذاك عداوته لعائلة الميدسيس فعوضا عن ان يسلك بجيشه مسلك الحزم والاحتراس اللائق برئيس ماهر جدير بالرياسة لم يتبع سوى اندفاعات نفسه وكان يسوقها حب الانتقام من عائلة خصمه على والده

مطلب واقعة مرسيانو

وقد بدأ استروزي بالهجوم على عدة مدائن من اقليم فلورنسة وكان هجومه بعزم قوي حتى ان ميدسينو لدفعه ومقاومته قد اضطر الى اخذ معظم جيشه المشغول بمحاصرة سينة وكانت تلك المحاصرة قد بدئ فيها قبل مجيء العدو ولكن لا يخفى ان الامير كوم لعدم معين له على الحرب كان لا بد من نفاد خزائنه بعد قليل وكان كل من نائب الامبراطور في نابلي وحاكم ميلان لا يمكنهما اعانته بوجه من الوجوه وكانت العساكر التي ابقاها مدسينو بمحاصرة سينة لا يمكنهم الشروع في شيء مما يخص المحاصرة مدة غيابه وبناء

على

سنة ١٥٥٤م

على هذه الاسباب كان يجب على استروزي التأني وتوجيه جميع عساكره الى ارض فلورنسة وكان ذلك هو الاليق به لمقتضيات الاحوال كما ذكرناه انفا غيرأنه كان في تهور عظيم لحقده من عائلة كوم ويريد هدم مباني علاها مرة واحدة فبدأ أعداءه بالحرب قريبا من مرسيانو وكان الجيشان متساويين عددا ولكن حصل اما خيانة او جبنا من الضباط ان طائفة من خيالة ايطاليا كان يعتمد عليها استروزي كل الاعتماد فرت قبل القتال فبقيت المشاة وحدها عرضة لقوى جيش مدسينو ومع ذلك ثبتت للقاء العدو اقتداء برئيسها استروزي اذ أنه وان كان قد جرح جرحا خطرا حين اراد يجمع شمل الفرسان الذي هربوا منهم كنت تراه في كل محل من حيشه يثبتهم ويقوي عزمهم فابدوا من العزم والقوة ما اوجب الثناء عليهم ولكن احاطت بهم عساكر مدسينو من كل جهة وركبت عليهم مدافع مهولة شديدة النار وهجمت عليهم الخيالة فانحل نظامهم وتزلزلت اقدامهم وحقت عليهم الهزيمة واما رئيسهم استروزي فبعد أن رحت قوته بنزيف دمه ويئس وندم على ما ارتكبه من عدم التبصر في العواقب احد في الفرار مع قليل من رجاله ولم ينج الا بشق الانفس

مطلب
هزيمة الفرساوية في ٣ من شهر آب

وبعد أن تمت النصرة لجيش مدسينو توجه به لمحاصرة مدينة سينه واما استروزي فمع ما بذله من غاية جهده لم يمكنه ان يجمع من عساكره بعد هزيمتهم طائفة مقتدرة على تعطيل جنود مدسينو في اشغال المحاصرة وعملياتها واما اهل مدينة سينه فلم تكن تفتر همتهم وان كانت هزيمة استروزي منعتهم ان يؤملوا امدادا من اي جهة كانت واستعدوا للمدافعة عن مدينتهم الى آخر رمق ودافعوا عنها بقوة عظيمة لا تنشأ عن غير حب الحرية واعانهم على ذلك حق الاعانة الضابط مونلوك حكمدار جنود الفرنساوية الذين كانوا محافظين بهذه المدينة وكان هذا الضابط قد دعي الى محافظة هذه المدينة لغزارة معارفه وكثرة شجاعته وكان يأبى أن يتقدم بخلاف هذين الوصفين فاجتهد ان يمتاز في هذه الواقعة بما يترتب عليه حقا امتياز المرء من الشجاعة وثبات

مطلب
محاصرة مدسينو لمدينة سينه

مطلب
مدافعة اهل سينه عن مدينتهم واعانة الضابط مونلوك لهم حق الاعانة

سنة ١٥٥٤

القلب فاول شيء اهتم به هو أن اصلح ما كان فى الاستحكامات والتحصينات من الخلل ودرب اهالى المدينة على التعليمات العسكرية وعودهم على اقتحام المشاق والتحام الاخطار مع العساكر وكان العدو قد سد جميع المسالك فيما حول المدينة فاعتنى مونلوك بصرف الذخوات مع غاية التدبير وحمل المحافظين والسكان على الاكتفاء بقليل من الزاد فى كل يوم وامتثلوا لذلك مع ما فيه عليهم من المشقة واما مدسينو فلم يمكنه لقلة عساكره التغلب على المدينة بمحض القوة وان كان قد هم مرتين فى ان يأخذها عنوة فانه رأى منهم غاية التثبت وفقد لدى هجومه على المدينة رجالا كثيرين فيئس من امكان اخذها عنوة وضرب حصارها حتى يحملها بقطع الوارد عنها وبالجوع والقحط على أن تسلم اليه

مطلب سد مسالك المدينة

وحصن مدسينو معسكره غاية التحصين واستولى على اهم المحطات حول المدينة ليسد مسالكها ويمنع مواصلتها مع غيرها من البلدان مؤملا ان يلزم بهذه الطريقة سكانها بفتح ابوابها له لكنهم لحميتهم وغيرتهم على حريتهم صبروا على الضنك والضيق وتحملوا مهالك القحط والمجاعة واما مونلوك فحطاباته وتكليف نفسه كل مشقة عود عساكره على الاقتداء بتثبت سكان المدينة فى تلك الشدائد فثبتوا للاهوال عشرة اشهر حتى نفد زادهم ولم يبق عندهم مضغة واكلوا خيولهم وكلابهم وسائر ما احتوت عليه مدينتهم من الحيوانات فاصطروا الى التسليم وعرضوا على العدو ان يسلموا اليه المدينة ومع اضطرارهم هذا شرطوا على عدوهم شروطا توجب لهم الفخر والشرف وكان الامير كوم يعلم ما آل اليه حالهم وما هم فيه من الضنك والشدة فخشى عدم اجابتهم فيما طلبوه خيفة ان يحملهم يأسهم على ارتكاب ما يفسد عليه آماله فاجابهم وسلموا مدينتهم بموجب شروط كانت فوق آمالهم

مطلب اضطرار اهل سينه الى التسليم لوقوع الجوع والقحط بينهم

وكانت مشارطة التسليم باسم الامبراطور فالترم بان يدخل المدينة فى حمى الامبراطورية ووعد أن يقوم بحفظ الحرية كما كانت عليه فى عهد الجمهورية وان يبقى للقضاة وولاة الامور حكمهم كما كان وان يبقى الاهالى على التمتع

٢٢ شهر نيسان

سنة ١٥٥٤

باراضيهم واملاكهم ومزاياهم الاولى وعفا عن كل من عصوا عليه وسامحهم فيما فرط منهم فى حقه غير انه جعل لنفسه الحق فى أن يضع محافظين من عسكره بالمدينة ولكن لا يبنى القلعة بها الا اذا رضى السكان واقروه على ذلك واما مونلوك ومن كان معه من عساكر الفرنساوية فرخص لهم فى ان يخرجوا من المدينة مع انواع التبجيل والتشريف اللازمة بمقتضى اصول العسكرية

مطلب
انتقال مقدار جسيم من اهالى سينة الى مدينة مونتالينو

وقد راعى مدسينو مع غاية الدقة بنود المشارطة المتفق عليها ولم يحصل للسكان من طرفه اساءة ولا أذى وعومل المحافظون الفرنساوية لدى خروجهم بما يلزم لهم من الاحترام والتعظيم الذى استحقوه لشجاعتهم ولكن بتساهل الايمبراطور والاميركوم فى قبول ما عرضه سكان المدينة من الشروط لدى التسليم توهم كثير من السكان انهما سينقضان هذه الشروط بمجرد حصول فرصة وبناء على ذلك تركوا مدينة سينة وان كانت مسقط رأسهم عزيزة عليهم وتوجهوا مع الفرنساوية الى مدينة مونتلسينو ومدينة بورتوركول وغيرهما من المدائن الصغيرة الموجودة فى ارض الجمهورية

مطلب
ترتيب حكومتهم القديمة بمدينة مونتلسينو

وجعلوا فى مدينة مونتلسينو الحكومة التى كانوا يتمتعون بها فى سينة وولوا فيها قضاة وحكاما وجعلوا اقتاءهم عين ما كان بمدينة سينة وتسلوا عن ما خسروه بذلك حيث كان محتويا ولو صورة على حريتهم القديمة

مطلب
ما حصل لسكان سينة من الاساءة

وقد تحقق ما خطر ببال سكان سينة من غدر الايمبراطور والاميركوم بهم وذلك انه بمجرد استيلاء الجنود الايمبراطورية على المدينة اخذ الاميركوم فى ارتكاب افعال منكرة ولم يرع حرمة الشروط المتفق عليها وكان بموجبها تسليم المدينة فعزل القضاة والحكام الذين كانوا بها من قبل وبدلهم بغيرهم ممن كانوا فى حربه يميلون اليه والزم سكان المدينة بتسليم اسلحتهم اما عزل القضاة والحكام فقد تحملوه وان كان يشق على انفسهم حيث لم يحكمهم قبل ذلك احد اجنبى واما الامر الثانى وهو تجريدهم عن اسلحتهم فبمجرد الزامهم به هرب كثير من الاعيان الى مدينة مونتلسينو وانضموا الى ابناء وطنهم من محبى

سنة ١٥٥٤

ان يكونوا بها عرضة للمصائب والنكبات مع بقائهم احرارا على معاملتهم في مدينتهم الاصلية معاملة الارقاء الاسرى

مطلب
هجوم كوم على من اقاموا بمدينة مونتلسينو من اهل سينة

نخشى كوم حيث رأى اهل سينة يجتمعون بمدينة قريبة منه وهم اعداؤه وكانوا في الجملة لم يزالوا اقوياء وامر مدسينو بالهجوم عليهم في مدينة مونتلسينو وكان جيش مدسينو قد ضعف وقل عدده لطول محاصرة سينة ومع ذلك امتثل امر كوم وتوجه بجنوده الى مدينة بورتوركول واحاط بها وكانت تحصيناتها في اشنع حال ففتح سكانها له الابواب من اول وهلة وكانت هذه آخر واقعة له الى ذلك الوقت مع اهل

١٢ حزيران

سينة لان الامبراطور في اثناء ذلك صدر منه امر للامير كوم بان يوجه معظم عساكره الى اقليم بيمون فبهذا اضطرّ الى امهال اهل سينة الموجودين في مونتلسينو ولكن لم يكن ذلك آخر شقوة سكان سينة بل ان الامبراطور فضلا عن ان يعمل بمقتضى الشروط المذكورة في مشارطة التسليم جعل ابنه فيليش اميرا على هذه المدينة وما يتبعها فحصل ان فرنسيس

سنة ١٥٥٥

دوطوليدة نائب فيليش في ولايته الجديدة عامل اهل سينة معاملة الغالب للمغلوب ولم يلتفت الى مزاياهم القديمة ولا الى اصول جمهوريتهم ورتب بينهم الحكومة المدنية والعسكرية كما هي موجودة ببلاد اسبانيا وقد اضطرّ

مطلب
حرب الامبراطور في بيمون

الامبراطور لضعف جيشه في اقليم بيمون وكسل ضباطه الى ارجاع عساكره من طوسكانة وهم في اثناء الفتوح والنصر واضطرّ ايضا الى ان يجعل على جنوده رئيسا يكون بشهرته ومهارته جديرا بان يعادل المارشال بريسالة الذي كان قائد الجنود الفرنساوية بايطاليا فجعل عليها الدوق دالبة

مطلب
تولية الامير دوق دالبة امير عسكر جنود الامبراطور

غير ان انتخاب الامبراطور للدوق المذكور وجعله رئيسا على جنوده كان ناشئا عن الدسائس لا عن اعتقاد الامبراطور عليه وعلى معارفه وذلك ان هذا الدوق منذ زمن طويل كان ملازما لمداهنة فيليش ابن الامبراطور حتى اخذ بعقله لتواضعه وامتثاله وصار عنده بمكانة يعتمد عليه كل الاعتماد وكان ثم نسبة بين طباع فيليش وطباع هذا الدوق حتى اتحدا ببعض

وصارا

وصار على غاية الامتزاج وغدت للدوق كلمة نافذة عند فيليش وكان الامير روبغومز دوسلوا من ندماء فيليش المتقربين اليه قد اخذته الغيرة من الدوق المتقدم وخشى ان يزيد نفوذ كلمته بقرب فيليش فتحيل حتى حمل الامبراطور على جعله رئيسا على العساكر فى اقليم بيمون وعلم الدوق دالبة ان انتخابه لهذا الغرض ناشئ عن نميمة عدوه بقصد ابعاده عن ديوان الملك لكنه لم يمكنه المخالفة لانه ربما قيل ان عدم رضائه ليس الا خوفا من اخطار تلك الوظيفة ومشاقها غير انه لم يقبلها الا بشروط يصرح بها من طبعهم حب الظهور بعلو الالقاب والمناصب وهذه الشروط هى ان التمس من الامبراطور ان يجعله قائد كاسه ببلاد ايطاليا مع تلقيبه بسرعسكر الجيوش الامبراطورية والاسبانيولية معا فقبل شرلكان ذلك وقلد الدوق دالبة بهذه المناصب وجعل له حكومة تكاد أن تكون مطلقة لا حد لها

مطلب
قلة نجاحه فى مبدأ وقائعه

ولكن لم يحصل له فى مبدأ الحرب ماهو اهل لما كان يحظى به من الشهرة ونفوذ الكلمة بل كان ما حصل دون آمال الامبراطور وذلك ان جيش المريشال بريسالك وان كان اقل عددا من العساكر الامبراطورية كان يفوق عليهم من سائر الوجوه لما انه منتخبا من عساكر قد تعودوا منذ زمن طويل على الحرب فى هذا الاقليم وكانت مدائنه وقصوره كلها كناية عن قلاع وحصون ثم معرفتهم طرق الحرب بهذا الاقليم كانوا يفوقون جنود الامبراطور على ان اميرهم بريسالك كان له من حسن الادارة بقدر ما كان لهم من الهمة فافسد على عدوه ما كان يدبر بل واخذ منه بعض اراض ضمها الى البلاد التى كانت بيده ولم يمكن للدوق دالبة ان يتمم شيأ قل اوجل وان كان قبل ذلك قد اطنب فى مدح نفسه وهو يقول انه فى اسابيع قليلة سيطرد الفرنساويه من اقليم بيمون ورجع بعد خيبته الى المشتى وهو يجر ذيل الخزى حيث لم يمكنه ان يحفظ للامبراطور ما كان بيده اولا من البلدان

مطلب
القسمة التى حصلت سرا لتسليم مدينة ...ره الى حرب الامبراطور

وكان الحرب فى البلاد الواطية على ما كان عليه فى اقليم بيمون اى لم تثبت ثمرته لاحد الحزبين وذلك ان كلا من الامبراطور وملك فرانسا لم يكن لهما اقتدار على

سنة ١٠٥٥

جمع العساكر اللازمة لحرب كبير يتم به امرهما معا غير ان الايمبراطور أمل ان يسد ما فاته من القوة بخادعة حربية ولو نجحت على طبق مرامه لاغتنم عن عدة نصرات وبيان هذا هو انه مدة حصار متزة كان القسيس ليوبلد كبير دير من الديور الفرنساوية بهذه المدينة قد استمال قلب الدوق دوكير وصار عنده بمنزلة لما كان يبديه من الميل وقت المحاصرة الى حرب الفرنساوية وكان هذا القسيس متيقظا ذا سباهة تامة وعقل مطبوع على الدسائس والتعصبات فنفع الفرنساوية وقت المحاصرة كل النفع بتحريضه الاهالى على التثبت فى المدافعة وبالمكاتبات سرا بينه وبين بعض احبابه ليوقف الفرنساوية على احوال الاعداء ومقاصدهم فاحبه الدوق دوكير مراعاة لهذه الخدمة حتى انه عند ارتحاله من متزة وصى عليه الامير ولويل وقد ولى حاكما على المدينة فعمل ولويل بقول الدوق وصار يراعى هذا القسيس كل المراعاة ويأتمنه كل الائتمان حتى اذن له ان يخاطب من شاء حيث انه كان ممن لا يشك فى صداقتهم غير ان ليوبلد امالته عقله كما هى عادة من يحسون الترقى والمخاطرة بأنفسهم لنيل المعالى وامالرؤيته أن مملكة فرانسا لم تكافئه حق المكافأة اوطنا منه انه يسهل عليه الشروع فى كل شئ بدون ان يمسه ضرر صمم على ان يسلم مدينة متزة لجنود الايمبراطور وعرض مقصده على ملكة المجار وكانت حاكمة اذ ذاك بمملكة البلاد الواطية فمجرد وقوف الملكة على ذلك لم تتوقف حيث رأت فيه ثمرة لشقيقها الايمبراطور وراعات القسيس على تدبير امره بحيث يتحقق النجاح فى مقصده وانعقدت الشروط على ان القسيس المذكور يحمل قسس ديره على ان يكونوا من ارباب القسمة وان يدخل فى هذا الدير مقدارا من العساكر بعد ان يلبسهم ملابس القسيسين حتى لا يعرفهم احد واذا استعد القسيس بذلك وتمم ما يلزم لتحيز مقصده يتوجه حاكم مدينة تيونوى الى متزة ليلا مع طائفة كبيرة من العساكر وتسلق حيطان المدينة فاذا اهتم محافظوا المدينة بدفع الاعداء من اعلى الاسوار يصعد القسوس السارى عدة من رفاقاتها ويخرج حينئذ العساكر المختفية فى الدير ويهجمون

مطلب
كيفية القسمه

سنة ١٥٥٥

على محافظي الاسوار من خلفهم ولا شك انه في اثناء الرعب والخوف وما يترتب من الخلل والارتباك عن ذلك يسهل على جنود الامبراطور ان يتعلوا على المدينة ومن جملة الشروط ان القسيس مجازاة له على ذلك يجعل اسقف على مترة وان يجازي سائر القسوس الذين يعينونه في هذه الفتنة مجازاة عظيمة

مطلب نجاحه في تدبير هذا الامر اولا

واستعد القسيس ليونار في اقرب وقت لتدبير امره من غير أن يشعر به احد وكان له شوكة عظيمة فما احه على القسوس حسن لهم مكافأتهم وما سيمنحونه تشربها القدر هم اخذ بعقولهم وادخلهم في الفتنة وادخل في الدير من العساكر ما امكنه ادخاله بدون ايقاع شك في قلوب احد واحمر في وقته الامير حاكم تيونويل وكان له علم من قبل بهذا المقصد حتى كانت جنوده متهيئة للرحيل عند الطلب وقرب آن ضياع مدينة مترة من يدى ملك فرانسا لكنه لحظه حصل في اليوم الموعود أن اخبر ولويل وكان من الضباط

مطلب معرفة سر الفتنة

الماهرين المتيقظين من طرف جاسوس كان له بمدينة تيونويل ان بعض الرهبان الفرنسيسكية يجتمعون كثيرا عند حاكم تيونويل ويتذاكرون معه سرا وهو يطلعهم على اسراره والظاهر أنه يستعد لمشروعهم فبمجرد أن وقف ولويل على ذلك توجه الى الدير الفرنسيسكاني من غير ان يخبر أحدا فوجد العساكر مختفية به وألزمهم بان يخبروا عما يعرفونه من خصوص الفتنة وكان القسيس ليونار قد توجه الى مدينة تيونويل ليتمم امره فعند رجوعه الى مترة قبض عليه في بابها واقرمن تلقاء نفسه قبل العذاب والتعذيب بقصده وحكى عنه تفصيلا

مطلب انهزام طائفة من عسكر الامبراطور في هذه الفرصه

ولم يكتف ولويل بقبضه على الخائنين وافساد ما دبروه بل عزم على الانتقام من جنود الامبراطور وخرج من المدينة مع اجود رجاله واختفى بقرب الطريق التي يأتي منها حاكم تيونويل وانقض على جنوده وكانوا لا منهم على غير احتراس فلحقهم الرعب والفزع حين هجم العدو عليهم وهم يظنونه في غفلة فيحسبون ان سيكون فريسة لهم وتشتت شملهم ولم يحصل منهم ادنى

من سنة ١٥٥٥

مقاومة وقتل اغلبهم واسر وقتل فيهم اناس كثيرون من أولى القدر والامتياز ورجع ولويل الى المدينة على الفجر يجرّ أذيال النصر والفخر

مطلب عقاب من كانوا اسبابا فى الفتنة

وقد بقى امر عقاب القسيس ليوبار ومن كان معه فى الفتنة من القسوس مجهول الحال مدّة وسبب تأخير عقابهم فى نظير سيئ ارتكابهم هو احترامهم ومراعاتهم بالنظر لوظيفتهم سيما ولوحظ أن بعقابهم يشمت اعداء الكنيسة الرومانية فيها ولكن حيث كان عقابهم مما لا بدّ منه ليعتبر بهم غيرهم ولا تحصل خيانة مرة اخرى صدر الامر بتحقيق دعواهم ولم يكن اثبات خياناتهم تعسير حيث كانت ظاهرة بديهية لا تحتاج الى دليل فحكم على ليوبار وعلى عشرين من قسيسيه بالقتل وكان قد وضع كل منهم فى سجن على حدته حتى تم تحقيق قضيتهم وحكم عليهم بالقتل فجمعهم الحارس معا فى غرفة كبيرة فى الليلة التى يكون اجراء قصاصهم صبيحتها وانما جمعهم ليسهل عليهم أن يكملوا نصرانيتهم قبل موتهم على حسب دياناتهم فبمجرّد أن خلوا وحدهم صار الشبان منهم فضلا عن اشتغالهم بواجباتهم الدينية يوبخون ليوبار واربعة قسوس شيوخ كانوا اغووهم ويلومونهم على طمعهم حيث هو أدّى بهم الى الحتف والى طائفتهم بالمعرّة والرجس ومن التوبيخ انتقلوا الى لعن هؤلاء الشيوخ والسخط عليهم وبعد ذلك تلبس هؤلاء الشبان بالغضب واعماهم اليأس فاقتصوا على الشيوخ فحالهم مجانين وقتلوا ليوبار وأساؤا القسوس الاربعة كل الاساءة حتى انهم فى الصباح لعدم اقتدارهم على المشى وضعوهم فى عربة ذات عجلتين مع رمّة ليوبار وارسلوهم الى الميدان المعدّ لقتلهم وعفى عن ستة من الاصغرين سنا وقتل الباقون لما استحقوه بارتكابهم الغدر والخيانة

مطلب عدم نفع ما حصل من المداولات فى شأن الصلح

هذا ومع ذهاب قوى كل من الامبراطور وملك فرانسا لطول الحروب كان لا يظهر منهما رغبة فى الصلح وذلك ان الكردينال دولابول الذى بعثه البابا الى انكلترة بأساعنه كما تقدّم قد بذل من الجهد فى ايقاع الصلح بينهما ما تسمح به نفوس اهل الديانة والمروءة حتى انه حمل ملكة انكلترة على التوسط بينهما بل وحمل الامبراطور وملك فرانسا مع عداوتهما وبغضائهما لبعضهما على

ان

سنة ١٥٥٥

ان يبعثا رسلهما للمداولة فى شأن الصلح الى قرية بين مدينة غراولوينس ومدينة اردروس وتوجه هذا الكردينال بنفسه الى تلك القرية صحبة الاسقف ونكستر لقصد التوسط بين الحزبين فيما يحصل فيه التوقف وقد عين الملك هنرى اعظم وزير عنده للمداولة فى الصلح وكذلك الامبراطور عين من يأتمنه ويعتمد عليه من وزرائه ومع ذلك فلدى اجتماع الوزيرين اتضح انه لا احد من الحربين يود الصلح بطيب خاطر كيف وقد عرض كل من الوزيرين شروطا فوق كل حد بحيث لا يمكن قبولها فبذل الكردينال دولابول غاية جهده مع نباهته وفصيح بيانه فى تحسين الصلح للفريقين حتى يدعوهم الى العدول عن تلك الشروط الصعبة واشتراط غيرها الا انه رأى ان لا سبيل الى تأليف قلوب تحالفت على الحقد لبعضها فقفل المجلس ورجع الى انكلترة

فى ٢١ من شهر اياد

مطلب
مصالح المانيا

وكانت بلاد المانيا فى أثناء هذه المداولات السياسية فى غاية من الامن والراحة فكان هذا اوفق وقت بعقد مشورة الدينية لقصد المداولة فى شأن الدين وهو الامر الاهم لراحة داخل الامبراطورية ولا يخفى انه بمقتضى المشارطة المنعقدة بمدينة پاسو سنة ١٥٥٢ من الميلاد كان قد احيل الى مشورة الدينية المذكورة ان تصلح بين الناس فيما يخص الدين بحيث يمنع ما كان حاصلا اذ ذاك من التفاقم والشقاق وكان قد انعطف الرأى على انعقاد تلك المشورة بمدينة اوكسبورغ بعد اتمام المشارطة المتقدم ذكرها غير انه منع من انعقاد المشورة المذكورة شيا ن احدهما ما كان حاصلا اذ ذاك لبلاد المانيا من الرعب والخوف بسبب حرب الامير البيردو براندبورغ والثانى هو اشتغال فرديند بمصالح بلاد المجار

مطلب
انعقاد مشورة الدينية بمدينة اوكسبورغ وخطاب فرديند لهذه المشورة

وبعد أن تأخرت المشورة تلك المدة لدواعى الاسباب المتقدمة تحتم على فرديند لشدة لزوم تلك المشورة ان يذهب الى مدينة اوكسبورغ وتوجه اليها فى اوائل هذه السنة ولم يوجد بالمشورة سوى افراد قليلين من الامراء والوكلاء ومع ذلك بادر فرديند بافتتاحها وعرض على الحاضرين بها ان يجتهدوا فى ازالة الشقاق والفتن التى كانت المنازعات والمشاحنات الدينية سببا فيها وحكى ان هذا

سنة ١٠٥٥

الخصوص هو أهم المصالح لديه ولدى الامبراطور ثم سرد عليهم الموانع الجمة التى لاقاها الامبراطور لدى طلبه انعقاد مشورة قسيسية عامة لبت هذا الامر وذكرهم بالمصائب التى اوجبت تأخير هذه المشورة القسيسية ثم اوقعتها بالكلية ونبه على ان الاعصار تكاد أن تشبه بعضها فما حصل من التوقف الآن لابد من حصوله غدا والمشورة القسيسية لابد وأن يحصل التوقف فى اجتماعها مادامت ملوك النصرانية مع بعض فى عناد وخصام وان المشورة القسيسية الملية التى اريد انعقادها فى المانيا وكان يؤمل ان تكون اعظم وسيلة فى منع النزاع لدى المذاكرة هى مشورة لم تسبق بمثلها فتكون اشبه بدعة وافتاؤها لا يكون معلوم الحد ولا الصورة وانه لا يرى لمنع المنازعات الدينية التى تسبب عنها كل ضرر وشؤم سوى وسيلة واحدة وان هذه الوسيلة وان لم يكن لها ثمرة قبل ذلك فلابد من حصول ثمرة جليلة منها مع استقامة من يوكلون بها وخلوص بواطنهم من كل ضغن وعناد وهذه الوسيلة هى ان ينتخب بعض افراد من العلماء العارفين المدققين المشهورين بالاستقامة والصدق وبالمذاكرة مع بعض بالتى هى احسن فى الامور الدينية المتنازع فيها ان لم يمكن ارجاع الحزبين المتخاصمين الى عقيدة واحدة فلا اقل من امكان حملهما على مداراة بعض بحيث لا يكون تنافر بينهما وان كانت عقائد احدهما تخالف عقائد الآخر

مطلب وسواس المعتزلة وخوفهم

وقد طبع هذا الخطاب ونشر على حسب العادة فى سائر بقاع الامبراطورية فاوجب خوف المعتزلة ووسواسهم وتخوفوا مما فهموه من قول فرديناند حيث لم يذكر فيه مشارطة پاسو مع انها كانت معدودة عندهم اقوى وسيلة فى حفظ الحرية من جهة الدين والعقائد وقد كبر الوسواس فى صدورهم بما كان يبلغهم خبره كل يوم من ان المعتزلة كانوا يعاملون بأسوأ معاملة فى دول فرديناند الوراثية واستدلوا باعمال هذا الملك على نياته فلم يعتمدوا على ما كان يظهره من الاستقامة والخلوص حيث كانت اعماله تكذب اقواله

مطلب ازدياد وسواس المعتزلة وخوفهم لدى مجىء وكيل من طرف البابا ليحضر مشورة الدينية

وتدوافق لعظهم مجىء الكردينال موورون ليحضر مشورة الدينية بالنيابة عن البابا فرادهم ذلك ثباتا فيما كان قائما باذهانهم وجزموا بان المقصد انما هو

تدبير حيلة للتعكير على المعتزلة والاضرار بدينهم والواقع أن البابا جولس اغترارا منه برجوع الانكليز الى طاعة الكنيسة الرومانية ظن أن العاصين قد بطل جهدهم وضعفت حدتهم وان الامم بأجمعهم سيرجعون الى الامتثال لتلك الكنيسة وسيعود دين المسيح مظفرا منصورا فبعث وكيله موروون الى اوكسبورغ وامره ان يصرف جيد فصاحته فى حث الالمانيين على الاقتداء بالانكليز فى اتباع الكنيسة الرومانية وان يمنع بحذاقته صدور كل امر مضر بالدين المسيحي من اوامر الدينية وكان لموروون باع طويل فى المداولات والدسائس يشبه فى ذلك اباه الشهير كاتب السجلات بدوقية ميلان فلولم تحصل تلك الحادثة الآتى ذكرها الآمى المعتزلة وافسد عليهم تدبيرهم

مطلب هلاك البابا جولس الثالث

والحادثة المذكورة هى موت البابا جولس فكما شرع محضر وكيله موروون وسبب موته هو أنه لكثرة انهماكه على اللعب واللهو الذى لا يليق بكبر سنه ولا بمنصبه تعود على البطالة والكسل حتى صار ينفر كل النفور من التصدى للمصالح الجد واذا تصدى لمهم كان لا يقدر على تسويته وكان ابن اخيه مدة زمن طويل يلح عليه فى عقد مجلس الكردينالات وكان جولس يحاوله ويمارعه فى ذلك خوفا من أن يناقصه ارباب هذا المجلس فيما كان نواه من اعلاء قدر ابن اخيه المذكور ولكن حيث كان مع ما يقترحه من الحيل لا يجد راحة بسبب الحاح ابن اخيه وكان نفوره من الاشغال يزداد يوما فيوما استصوب ان يتمارض ليسلم من الحاحه وابرامه فلازم غرفته وغير اكله وشربه وكيفية عيشه حتى لا يفهم احد ان ذلك تمارض منه ولا مرض به وواظب على هذا الامر المضحك كل المواظبة فأورثه مرضا صحيحا هلك به بعد ايام قليلة وترك الكردينال دلمونت ابديه فى الوقاحة وقسيمه فى الفضيحة على منصب الكردينالية الجليل الذى كان يدنسه بنشر اعماله وبمجرد وقوف موروون على خبر هلاك جولس سافر من اوكسبورغ وكان بها منذ ايام قليلة وتوجه بدون تراخى الى رومة ليحضر بها انتخاب البابا الجديد

مطلب رجوع موروون الى رومة فى ٢٣ من شهر اذار

وتباعد موروون اطمأنت المعتزلة وعرفوا ان خوفهم كان فى غير محله وان

فرديننـد لم تكن بنيته نقض مشارطة باسو ولا الاضرار بهم ومن المعلوم أن الايمبراطور سلم لاخيه فرديند فى حكومة المانيا وادارتها الداخلية منذ انطمه موريس وافسد عليه ما آربه فى حق المانيا وهدم جور الدين وجور السياسة بعد أن كاد هذا الايمبراطور يمكنهما تلك البلاد وكان فرديننـد اقل طمعا من الايمبراطور فعدل عن نهجه ولم يقتد به فى ما كان مصمما عليه ولم يمكنه تجبره مع عظيم بطشه وصولته وصرف فرديننـد كل همته فى استصحاب امرآء المانيا فيه وفى عائلته فعدل فى حكمه وسلك كل ما يوجب ميل الناس اليه وكان سلوكه على هذا المنوال مبنيا على الصدق التام وخلوص الطوية من جهته لاسيما وكان حينئـذ يلزمه مداراة الناس ليساعدوه على ما آربه ويكونوا معه على قلب رجل واحد وينصروه على اخيـه الايمبراطور فى امر كان نواه وهو تبديل شروط حق وراثة الايمبراطورية بحيث يكون الملك من بعـده لابنه فيليش وقد كان شرع فى ذلك قبل الآن وعورض فيـه حتى اضطر الى تأخيره لهذا الوقت وألح بالثانى على اخيه فرديننـد ان يقبل جعلا ويتنازل لعائلة الاستريا عن حقه فى وراثة الايمبراطورية ولم يكن فرديند ممن يرضون بحرمان انفسهم من مثل ذلك المنصب الجليل ولكن رأى ان شأنه وتصميمه على الاباء لا يكفيان فى حفظ حقه ولا يقيانه من الحاح الايمبراطور ان لم يساعده امراء الايمبراطورية فصار يميل اليهم فى كل الامور ويجيبهم الى مطالبهم حتى يستميلهم ويدخلهم فى حزبه

وثم سبب آخر كان يحمل فرديند على مراعاة امرآء الايمبراطورية والامتثال لقولهم وهو أنه كان محتاجا لامداد قوى من طرف مشورة الدينية ليستعين به على مقاومة الاتراك حيث انهم بعد استيلائهم على معظم اراضيه ببلاد المجار كانوا يتأهبون بجيش جرار الى الهجوم على ما كان باقيا بيده من البلدان بالمملكة المذكورة وحيث كان لا يستغنى عن اعانة المعتزلة لزمه ان يستميلهم ليساعدوه على هذا الحرب فاحب ان يمكن اساس الصلح بداخل الايمبراطورية حتى يمكنه ان يثبت للقاء الاجانب

مطلب
الاسباب الحاملة للملك فرديند على مساعدة المعتزلة

مطلب
ما نواه الايمبراطور من تبديل شروط حق الوراثة فى الايمبراطورية

مطلب
تأهب الاتراك الى الاغارة على بلاد المجار

سنة ١٥٥٥

وقد حصل من المعتزلة بعد افتتاح الدينة بأيام قليلة ما اوجب على فرديننـد ان يكون على غاية الاحتياط فى معاملتهم وذلك انه حين اذيعت صورة خطابه للمجلس كما تقدم واوجب قوله خوف المعتزلة ووسواسهم ذهب كل من منتخبى السكس وبراندبورغ وحاكم هيسة الى نومبورغ وهنالك جددوا مشارطة المعاهدة التى مكثت بها عائلاتهم على الاتحاد والالتئام حينا من الدهر وزادوا فيها شرطا جديدا وهو أن تعهدوا باجرآء ما انحط عليه الرأى فى مدينة اوكسبورغ وتحالفوا على اجرآء مناسكه ورسومه الدينية كل منهم فى البلاد الموجودة تحت حكمه

مطلب ما حصل من المعتزلة مما اوجب على فرديننـد ان يتبع سبل الاحتياط والاحتراز

وبناء على ما تقدم اجتهد فرديننـد فى سياسة المذاكرة بمشورة الدينة وتدبيرها على وجه بحيث لا يعضب حرب المعتزلة حيث كانت محبتهم اذ ذاك لازمة له بقدر ما كان تنفيرهم يضر به فعرض على اهل المشورة أن يقدموا المذاكرة فى امر الدين على كل شئ وامتثلوا لقوله غير أنه لدى افتتاح المذاكرة اشتدت حمية الحربين وعلا النزاع فيما بينهم كما هى العادة من أن المحاجة فى هذا الخصوص لا ينشأ عنها سوى هيجان العقول ودوران الاذهان وكلما اتسع ميدان المجادلة كثرت الحروب المدنية وعظمت المصيبة بدون وقوف على غاية لذلك

مطلب اجتهاد فرديننـد فى الاصلاح بين حربى المعتزلة والقاثوليقين

اما المعتزلة فزعموا ان الحرية فى العقيدة حق ثابت بمقتضى مشارطة پاسوا ويجب ان يعم ذلك الحق كل من كان متمسكا او سيتمسك بمذهب لوتير واما القاثوليقيون فقرروا ان البابا هو قاضى القضاة وحاكم الحكام فيما يخص الدين فان كانت حالة الاعبراطورية الآن وحب الصلح ألزمتهما بالتساهل فى اباحة العقائد الجديدة فهم لا يتساهلون فى أن تعم تلك الاباحة المذاهب العاملة بمقتضى النائب الوقت الذى كان نشره الاعبراطور قبل ذلك ولا فى ان تعم القسيسين الذين يعتزلون من الآن فصاعدا وينفصلون عن كنيسة رومة ولم يكن امر الاصلاح بين الحربين بيسير حيث كان لكل منهما علماء عارفون يؤيدون دعواهم مع تبحرهم فى علم التيولوجيا وتمكنهم من فن البحث والمجادلة والاتيان بدقيق

مطلب دعوى كل من القاثوليقيين والمعتزلة

سنة ١٥٥٥

المعانى مع الطعن بالالفاظ المعهودة عند اهل هذا العلم ومع صعوبة ايقاع الوفق بين هؤلاء امكن فرديننداً أن يحمل كلا من الحزبين على التساهل فى أمور وفسر المسائل المشكلة تفسيرا يليق بالحال وصار تارة يبرهن على لزوم اتفاقهم معا وما يترتب عليه لهم من الفوائد الجمة وتارة يهددهم بان يفسخ المشورة ان لم يمتثلوا حتى وصل الى ارضاء الحزبين والاصلاح بينهم

مطلب حصول الصلح فيما يخص الدين فى ٢٥ من شهر ايلول

وتحرر تقرير بمقتضى ماذكر وصدق عليه ارباب المشورة واذيع بين الناس على حسب ماتقتضيه العادة اذ ذاك من الرسوم ولنذكر الشروط الاصلية من هذا التقرير فنقول اولا ان الامراء والمداين التى اتبعت المذهب المتفق عليه فى اوكسبورغ لاحرج عليهم فى اتباع هذا المذهب واجراء مايتعلق به من المناسك ولا حق لاحد فى ان يعكر عليهم فى ذلك بل ولو كان نفس الايمپراطور اواخاه فرديننـد ملك الرومانيين ثانيا ان المعتزلة يجب عليهم ايضا ان لايعكروا على الامراء ولا على الدول المتمسكة بقواعد القاثوليقيين فى شئ ما من مناسكهم وتعبداتهم ثالثا انه من الآن فصاعدا اذا حصل نزاع فى الدين يجب انهاؤه بالتى هى احسن اى بالمذاكرة والمشاورة مع اتباع سبل الرفق والملاطفة رابعا ان قسيسى الكنيسة الرومانية لاحق لهم فى الافتاء فيما يخص الدين على البلدان التابعة لمذهب اوكسبورغ خامسا ان كل من كان بيده شئ من التزامات الكنيسة اوايرادا ثبتته له الكنيسة قبل ذلك يحفظه ولا يجوز مزاحمته فى هذا الخصوص من طرف الديوان الايمپراطورى سادسا ان الحاكم السياسى له الحق فى ان يخص اى بلدة كانت باى عبادة كانت ولكن لاحق له فى ايذاء من خالفه فى ذلك من الاهالى وانما يجوز لمن لم يمتثل ان يخرج من البلدة بمتاعه وماملكت يداه ويذهب الى اى بلدة اخرى اراد الاقامة بها سابعا اذا حصل من الآن فصاعدا من حبر أو من قسيس مهما كان ان ترك دين رومة فهو يحرم مما بيده من اربشية اوايرادا وخلاف ذلك ومابيده يعد محلولا كباقى الاملاك بعد نقلها عن صاحبها او بعد موته وبعد حلها ورفعها من يده تعطى بامر صاحب الحل والعقد فى ذلك لانسان آخر

يكون مجرّب الاطوار مشهوراً بحبه دين الكنيسة الرومانية

سنة ١٥٥٥

هذه هي الشروط الاصلية المذكورة في هذا التقرير الشهير الذي كان اساساً لصلح الدين في بلاد المانيا ورابطة الاتحاد بين دولها وكانت اعتقاداتها الدينية في غاية التباين اما في عصرنا هذا فكل ملة متمدنة عرفت بقيمة الحرية الدينية وفوائدها الجليلة لا بدوان تستغرب من هؤلاء الناس كونهم لم يبادروا باتباع سبيل الرفق والوفاق كما هو مدلول دين المسيح وفحواه الصحيح ولكن سبيل المعروف وان كان الاقرب والاصوب كان الناس تعوّدوا على خلافه وتنوّعت عقائدهم حتى ضلوا وعميت ابصارهم عن ذلك الهدى نعم كانت الآراء والاعتقادات في شان الديانة كثيرة متنوّعة بين المشركين في الجاهلية ولكن لم ينشأ عن كثرتها منازعات ولا مشاحنات بين الملل وبعضها وذلك لانه كان لكل بلدة آلهة مخصوصة بها وكانت عبادة كل امة الهها لا تستلزم نفي وجود اله ملة اخرى فبهذا الاعتبار لم تكن ديانة بلدة منافية بأي وجه كان لديانة غيرها ولذا لم يترتب على ضلالاتهم وخرافاتهم مضرة لصلح الدول ومع كثرة تعداد آلهتهم وتنوع شعائرهم ومناسكهم الدينية كانت الاباحة في العبادات لم تزل موجودة عندهم وكانوا مع بعض على التألف والتحبب لا يحملهم اختلاف عباداتهم على التنافر من بعض فكأن المتعبد بشيء يقول لمن سواه لكم دينكم ولي دين .

مطلب
بعض ملحوظات على تقدم الناس في معرفة الدين وفي الحرية الدينية

ولكن لما ظهر عيسى عليه السلام بما اوحي اليه من انه لا اله الا الله وان الدين واحد لا سواه يليق بذاته العلية رأى من لحقته الهداية وعرف حقيقة هذا الدين ان التمسك بما سواه من الديانات من البدع الباطلة بل وهو كفر على الاطلاق فمن ثم نشأت غيرة اوّل من تنصر على اذاعة دينهم ونشره ونشأت عندهم تلك الحمية التي حملتهم على السعي في ابطال العبادات الاخرى ومحوها غير انهم في مبدأ الامر لم يسلكوا في نشر دينهم سوى طرق الحلم والملاطفة اللائقة بدين النصرانية كالاستيلاء على عقول العباد بقوة البراهين والادلة واستمالة افئدتهم باتباع اعظم الفضائل واجلها ثم حصل فيما بعد أن الحكام وولاة الامور ساعدوا دين النصرانية وانضموا الى حزبه لابطال ما عداه ودخل

سنة ١٥٥٥

معظم المشركين تحت قبضة الكنيسة اقتداء برؤسائهم الا انه بقيت جماعات كثيرة منهم محرصة على دياناتها الاولى لا ترضى ان تعدل عنها وكان امناء الانجيل لم تفتر همتهم فى نشر دين النصرانية ولو لم يكونوا باقين على فرط حميتهم الاولى لحنقوا لاباء الحزب العاصى وامتناعهم من الدخول فى دين المسيح وارادوا أن يلزموهم بالتمسك به من غير سؤال عن علة ولا معلل فتجاوزوا حدود رسالتهم وقوموا الملوك والحكام على من لم يتيسر لهم اقناعه والزامه بالحجج والادلة

ومع ذلك فالنصارى انفسهم لم يبقوا على الاتحاد مع بعض بل وقعت المشاجرات بينهم فى نفس دين النصرانية وعما قليل قاتلوا بعضهم بالاسلحة التى كانوا يحاربون بها من أبى الدخول فى دين المسيح وصار كل كاهن من الكهنة المنافسين اذ ذاك يسعى فى استمالة ولى الامر الى مذهبه وما ملك احد منهم فرصة الا حرض الملوك والحكام على اخصامه واستعار جاه الشوكة الملوكية فى زعمهم وتدميرهم وبادرت حينئذ اساقفة رومة بادعائهم العصمة والتنزه عن الخطأ فى تعبير الاصول والاحكام الدينية وفيما يصدر عنهم من الفتاوى فى بت اى قضية كانت من القضايا الدينية المتنازع فيها وقد مالوا معظم بهم هذا بارائهم وكثرة حيلهم ودسائسهم وأمرهم الناس لجهلهم اذ ذاك على المعصومية والتنزه عن الخطأ وصار ذلك حقا لهم بعد أن كان دعوا باطلا ومن وقتئذ صار هؤلاء القسوس اذا حكموا بامر فى احدى القضايا او احد الاحكام الدينية وناقضه احد او شك فيه فكأنه كذب الحق او عصى امرا منزلا من السماء ومتى ارادوا الانتقام ممن وقع منه ذلك استعانوا عليه بساعد الصولة الملوكية وكانوا قد استحوذوا على الملوك لجهلهم حتى كانوا اطوع ايديهم لا يخرجون عن اقوالهم

فترى ان بلاد اوروبا كانت قبل مذ قرون متعودة على ان يذاع فيها بعض القوة والتعصب ما كان نظريا محضا تصديقه موقوف على تصوره وادراك حقيقته ولم تكن اذ ذاك ادلة مقنعة غير الالزام والاكراه واهملت شعائر الحلم

والرحمة

والرحمة التى هى مبنى دين النصرانية وكانوا يجهلون لاباحة التعقل التى تجوز لكل امرئ ان يتبع حكم عقله و يتمسك بما استصوبه من التعبدات وبالجملة فالاباحة ولو بمعناها الدالة عليه الآن كانت مجهولة عند هؤلاء الناس وكانوا يعتقدون ان الاستعانة بساعد الظلم فى قمع اهل الزيغ والالحاد من ضمن مزايا من محو اسرار الحقائق وحيث كان كل حزب يزعم انه اختص بهذه المحبة كانوا كلهم يرتكبون المظالم كل بحسب اقتداره ظنا ان ذلك حق له بوصف كونه مفتاح باب الحق ولما كان القاثوليقية عاملين باصول البابا وكان الناس حينئذ يعتقدون انه معصوم عن الخطا ظلموا مع الائمة والكثير من الصولة المدنية ان تدمر المعتزلة فى نظير ابتداعهم فى الدين وكان المعتزلة ايضا يجزمون بحسن مذهبهم وجودته فأبوا الا التصميم عليه وحرضوا امراءهم على ايذاء من يتجاسر على مخالفته ومناقضته واخذ كل من لوتير و كاوين و اكرانمير واكنوكس وهم رؤس المعتزلة ببلده فى عقاب من شك فى حقيقة مذاهبهم ومتى ظهرت لهم فرصة كانوا يعذبون من عدل عن سننهم نفس العذاب الذى كانت الكنيسة الرومانية تنتجه فى تعذيب المعتزلة ولو لم يفعلوا ذلك لظن احزابهم واصحابهم بل وتوهم اخصامهم انهم فى شك من صحة مذاهبهم

وفى انتهاء القرن السابع عشر من الميلاد صارت الرخصة الدينية مقبولة بجمهورية الاقاليم المجتمعة وانتقلت منها الى بلاد الانكليز ثم انضم الى المصائب الناشئة عن ايذاء المعتزلة تأثير الحرية فى تكامل الدول وتأثير العلوم فى تقدم الناس وكسبهم الشفقة والرأفة وتأثير كياسة الحكام ونفوذ همتهم فى ضبط البلاد وترتب على هذه الاسباب ما نراه الآن من التنظيمات المحكمة وازيلت الجبة الجاهلية الاولى التى سوّلها للناس جهلهم بحقيقة الدين واسرار احكامه اوعوّدتهم عليها قوانين الكنيسة الرومانية وقواعدها التى وضعتها واذاعتها بينهم

ومن المشاهد حسا فى مشارطة اوكسبورغ ان من حضر المشورة التى

سنة ١٥٥٥

مطلب
العوائد التي نشأت عن صلح الدين لاتباع لوتير

رتبت تلك المشارطة لم يعملوا بموجب ما تقتضيه اصول الحزم والاصابة فيما يخص اباحة التعقل وترخيص الديانات باجمعها وانما كان القصد من ذلك ايقاع الصلح من حيث كان بين حزبي المعترلة والقاثوليقيين لاسباب سياسية حملت كلا من الحزبين على التساهل في التوافق وكان لازما لراحتهما وأمنهما على انفسهما ويوجد برهان قوي على ماذكرناه في احد بنود هذه المشارطة وهو ماذكر من ان فوائد صلح تلك المشارطة لاتشمل غير القاثوليقيين ومن يتبع الاصول الدينية التي اقرت في مشورة اوكسبورغ وبهذا القيد حصل حصر بين اصحاب ارونعلو واحزاب كلوين وصاروا عرضة للعقابات المعدة في القوانين لطائفة المعترلة اوالخوارج ومضى نحو المائة سنة والقوانين لاتسعفهم بالحماية والمدافعة عنهم ولم يتمتعوا بما كان ثابتا لاصحاب لوتير من المزايا فيما يخص الاباحة الدينية الابعد انعقاد مشارطة وستفاليا

مطلب
الفوائد التي خصت القاثوليقيين من صلح الدين

ولكن كما فرح اتباع لوتير لمشارطة اوكسبورغ حيث جوزت لهم مذهبهم فرح كذلك اعداؤهم القاثوليقيون لما اشتملت عليه المشارطة المذكورة من أن يختص قسوس القاثوليقيين بايرادات من بعد لوامن الا ن مصاعدا عن دين رومة واشتهر هذا الشرط ببلاد المانيا باسم الخصوصية القسيسية وهو على طبق ماكان قائما اذ ذاك في عقول الناس على ماهية الحقوق الثابتة لكنيسة رومة فظهر وقتئذ من العدالة والانصاف أن تلك الايرادات حيث كانت معدة من الاصل لتعيش من تمسك بدين الكنيسة الرومانية لابد وأن تبقى على ماعدت اليه كالوقف اذ لايصح تغيير شرط الواقف وقد احس نفس المعترلة مضرة ذلك وعارضوا فيه خوفا من عواقبه لكن معارضتهم لم تجد شيأ واضطروا الى السكوت هذا وكان امراء المانيا القاثوليقيون يدققون في اجراء هذا الشرط ويحافظون عليه مهما امكن فصار ببلاد المانيا اقوى سور تدفع به كنيسة رومة سوء المعترلة ومن وقتئذ صار لا فائدة لاحد من القسوس في العدول عن دينه فقل أن وجد احد بعد ذلك ادى به اعتقاده

سنة ١٥٥٥

فى الدين الجديد وحرمه به الى ضياع الارباح والايرادات الجسيمة التى كان يتمتع بها

مطلب انتخاب مرسيل الثانى بابا فى تسعة من شهر نيسان

ومدة انعقاد مشورة الديتة اختير مارسيل سروينو كردينال الصليب وجعل بابا على كنيسة رومة بعد موت البابا جاليوس ومارسيل المذكور لم يغير اسمه لدى ترقيه كما هى العادة بل حفظ اسمه اقتداء بالبابا ادريان وكان مثل ادريان المذكور طيب النية لكن يفوقه فى علم الحكومة ومعرفة كنه ديوان رومة وجبلة اربابه فكان لايخفى عليه فساد هذا الديوان والتحسين اللازم له وكان الخاص والعام يؤمل من عقل هذا الحبر انشاء قوانين جامعة مانعة تصلح ما افسد وترجع الى الكنيسة الرومانية من لم ينفروا منها الا لفرط مناقص قسوسها وخشيهم غير ان هذا الحبر

موته

ماسلم حتى ودع ولم يستقر غير برهة على كرسى الكنيسة وحرم الناس بموته مما كانوا يؤملونه من حكمته وسبب موته هو ان صحته كانت أخذت فى الهبوط لطول مكثه مقيدا بالاشغال فى ديوان الكردينالات بعد توليته بابا تعب تعبا شديدا لطول الاحتفالات والتكلفات الرسمية التى لزمت لتبريكه وتهنيته وانضم الى ذلك مشقة حصر فكره فى التحسينات التى كان يريد احداثها فى الكنيسة وكانت بنيته ضعيفة فلم تحمل تلك المشاق الفادحة ومرض فى اليوم الثانى عشر من توليته ومات فى المكمل للعشرين منها

انتخاب بولص الرابع لمنصب البابا

ثم اخذ الكردينالات يتداولون فى انتخاب من يحل محل مرسيل المتقدم وبذلوا فى ذلك دقائق الحيل والمخادعة التى هى من شأن دواوينهم فظهر حينئذ فريقان فريق الكردينالات الذين كانوا من حزب الامبراطور وفريق من كانوا امامهم معينين لحزب الفرنساوية وبذل كل من الفريقين الجهد فى استمالة ارباب الديوان اليه وتكثير الاراء من جهته لانتخاب من كان يريد توليته وبعد مجادلات اشتدت بقدر أهمية موضوعها اجمعوا على انتخاب

٢٣ من شهر ايار

مارى بطرس كاراف كبير جمعية الكهنة وهو ولد القونتة مونتاريو من عائلة شهيرة فى نابلى وكان انتخابه لاسباب منها ان الكردينال ونير

سنة ١٥٥٥

كان معيناله كل الاعانة وقد كان له حينئذ موقع عظيم ونفوذ كبير ومنها ان كاراف نفسه كان اهل عرفان ومنها انه كان طاعنا فى السن فرجحه الطالبون منصب البابا عن غيره لاملهم ان يحلوا المنصب بموته بعد قليل فمكنهم تطلبه وكاراف المذكور لدى توليته اختار اسم بولص الرابع وجعله لنفسه تعظيما لبولص الثالث الذى كان أولاه منصب الكردينال واعترافا بالشكر لعائلة فرنيز

مناقب هذا البابا

كان هذا البابا عجيب الطبع وكان يسلك منذ زمن طويل مسلكا يبعده عن هذا المنصب فعند توليته تحير اهل ايطاليا فى امرهم لانهم كانوا يعلمون اخلاقه واطواره بحيث لايخفى عليهم ماسيلحقهم فى حكمه وكان بولص من عائلة شهيرة بحيث يسوغ له بدون معارف الوصول الى اعلا درجات الكنيسة ومع ذلك شمر فى صغره عن ساعد الجد والاجتهاد كمن لايريد الارتقاء الا بمجرد فضله ولم يزل منقطعا للطلب حتى تبحر فى العلوم اللاهوتية السكولاستيكة وفى معرفة اللغات وعلوم الآداب وكان قد حدث تدريسها عن قريب ببلاد ايطاليا وصارت مرغوبة بها فلذلك عيرانه بمقتضى الجبلة كان قائم العقل ميله الى المجادلات اللاهوتية اكثر من رغبته فى طرافة الآداب ولطافتها فصار بمكانة من تعصب القسوس واعتقاداتهم المعهودة لا على شئ من المعارف اللازمة لتدبير المصالح الجسيمة وكانت قد اعطيت له ارباح وايرادات كثيرة عند دخوله فى خدمة الكنيسة وارسل نائبا عن البابا فى عدة من دواوين الملوك الافرنجية ومع ذلك سئمت نفسه من الخدمة وعزم على ان يقضى عمره فى الخلوة اذ هى اوفق له واليق بطبعه فترك جميع مناصبه القسيسية واستعفى من الخدمة ورتب طائفة من القسس سماهم التياتيين على اسم المطرانية التى اقام بها وانضم بنفسه الى هذه الطائفة وصار يعمل بمقتضى الاصول الصعبة التى فرضها على قسوس تلك الطائفة ورجح السكير والحبس فى الدير مع شرفه بانشاء الطائفة المذكورة على المناصب الجليلة التى كانت مأمولة له من خدمته بديوان رومة

سنة ١٥٥٥

ومضت عليه مدة طويلة وهو معتزل فى الدير حتى سمع البابا بولص الثالث
عن تقواه وعزارة علمه فدعاه الى رومة ليستشيره فيما به يمكن محو الالحاد
وارجاع شوكة الكنيسة الرومانية وبعد ان اخرجه البابا من عزلته صار
يرجوه تارة ويغلظ عليه اخرى حتى البسه قلنسوة الكردينال واخذ
بالثانى ما كان تركه من الايرادات والارباح وعلق بتشريف الخدمة بعد ان
أظهر الرغبة عنها غيرانه وان شهد اثنين من البابات لوث احدهما ديوان
رومة بانواع الحيل والدسائس لشدة طمعه ودنسه الآخر بجميع الفواحش
وانواع الفسق لم يتحول عن زهده وتقشفه الذى كان عليه فى الدير وكان عدوا
مبينا للاشداعات مما يحص الديانة ومدققا للعناية فى مراعاة الدين واتباع
احكامه فاعان اكثر من غيره فى ترتيب المحكمة المشؤمة الكريهة المشهورة
بمحكمة التفتيش الدينية على ما ذكرناه فى المقدمة ولم يجد قط فرصة الا وعضد
حقوق الكنيسة وناقض فى كل ما اريد احداثه لمجرد اسباب سياسية
اومصلحة نفسية لا لقصد تشريف الكنيسة الرومانية واعلاء كلمتها فكان
ارباب الديوان يرون ان حكم مثل هذا البابا لابد وان يكون قاسيا شديدا
كطبعه وان تكون السياسة فدية للآراء العاطلة السقيمة التى منشأها
التعصب والجهل وكان الاهالى يخافون ان تتبدل فى حكمه البشاشة والسخاوة

سلوكه بعد توليته

الموجودتان من مدة فى ديوان رومة بعبوس اهل الدير وشحهم غيران البابا
المذكور بادر باظهار ما يزيل به خوف الناس مما كان قائما بادهانهم فى حقه حيث
انه بمجرد استيلائه على الحكومة عدل بالكلية عن الشح والتقتير الذى امتاز به
هو وعائلته الى وقتئذ حتى ان وكيل بيته حين سأله عما يأمره به فى خصوص
ترتيب المأكل والمشرب من الآن فصاعدا اجابه مع الانفة بقوله كما يليق لملك
كبير وقد اجريت مراسم تتويجه فى غاية الابهة والاحتفال ويوم جلوسه على

مطلب فرط ميله الى اقاربه

الكرسى حاد بعدة امور لا تصدر حقيقة الا عن اهل الكرم والسخاء وكان قصده
بذلك استمالة اهالى رومة وتأليف قلوبهم ومع ذلك لابد وان كانت تغلب
عليه غلظته الجبلية وتحقق ظنون ارباب ديوان رومة ومخافة الاهالى

سنة ١٠٥٥ ولم يأت عقب توليته باثنين قربه من ابناء اخيه القوسة دوموستوريو وجعل الاكبر منهما حاكما على رومة والثاني اولاه منصب الكردينالية ثم جعله رئيس الطارقة في بولونيا مع انه الى وقتئذ كان خدم في العسكرية بمملكة فرانسا ومملكة اسبانيا وطبيعته واخلاقه اوفق لهذه الصنعة من استخدامه في القسوس على ان المنصب الذي أولية كان مقامه ونفوذه اعظم منصب حق للبابا ان يتصرف فيه هذا ولم يقتصر البابا بولص على ذلك في اعلاء درجة المذكورين بل تعدى الحد في اعتماده عليهما وميله اليهما حتى ظهر منه

مطلب ما تعلقت به مطامعهما

انه يؤثر مصلحتهما على سائر ما عداها ويهون عليه ان يشتري اعلاء قدرهما بكل ما كان في وسعه ولكن لو يل هذا البابا ووباله كانت مطامع المذكورين فوق كل حد ونهاية وذلك انهما لعلمهما بما سبق قبل من ارتقاء عائلة المديسيس في توسكانة الى المنصب الملوكي بواسطة البابات الذين خرجوا من هذه العائلة ولما رأيا كذلك من ان عائلة المريرقد تولت ملك دوقية برمة ودوقية بليزنسة لحزم فرعها البابا بولص الثالث تعلقت آمالهما بتطلب مثل ذلك وحيث كانا يعلمان ان عمهما بولص الرابع المذكور وان بلغ حبه فيهما ما بلغ لا يجترى به الى حل شئ من اوقاف الكنيسة لامماحه لهما رأيا انه لا تتم امانيهما الا بالسعي في تمزيق املاك الايمبراطور شرلكان الموجودة في ايطاليا حتى يخصهما شئ منها ولو لم يكن غير هذا السبب لكفى في حملهما على السعي في ايقاع الشقاق والتماقم بين عمهما البابا المذكور وبين الايمبراطور على انه كانت هنالك اسباب اخرى حملتهما على ذلك وهي

سبب حقدهما للايمبراطور

كان الكردينال كاراف المتقدم وقت خدمته عند الايمبراطور في عساكر اسبانيا لم يكرم ولم يحصل من الايمبراطور في حقه من الاحترام والتبجيل ما كان يراه لائقا لحسبه وفضله بحق لذلك وترك خدمة الايمبراطور ودخل في خدمة فرانسا وأكرمه الفرنساوية ورحبوا به فصار من وقتئذ يحبهم ويميل الى قربهم وقد كان اتحد غاية الاتحاد مع الجنرال ستروزي قائد جيش

الفرنساوية فى توسكانة وكان ستروزى المذكور يبعض الايمبراطور
ويحسده ويفهمه انه العدو الاكبر لاستقلال دول ايطاليا وحريتها هذا
ونفس البابا كانت له اسباب تحسن لعقله ما صورته له النميمة فى حق
الايمبراطور وذلك انه عند انتخابه لمنصب البابا عارض فيه
الكردينالات الذين كانوا من حزب الايمبراطور وكان توقفهم لم تزل صورته
منقوشة بمرآة خياله فحقد للايمبراطور من وقتئذ وزاد عنده هذا الحقد بتذكره
ما حصل له قديما من الاساءة من طرف الايمبراطور ووزرائه
فلما احس ولدا اخيه منه الكراهة للايمبراطور اخذا يبديان ما لا يوصف
من المكر وانواع الحيل والخداع فى ايقاع النزاع بين الفريقين واضرام نار بينهم
لا يمكن اخمادها فبالغا له فيما لحق الايمبراطور من الغم لتوليته منصب البابا
ورفعا اليه كتابا قبضا عليه مضمونه ان الايمبراطور يصف كردينالات حزبه
بالاهمال والعجز حيث انهم لم يمنعوا انتخابه وزعما ذات يوم انهما وقفا على امر
خفى وهو اتفاق وزير الايمبراطور مع كوم دوميديسيس على اعدامه
وادعيا مرة اخرى انه قد حصل تواطئ بين احزاب الايمبراطور على قتلهما
وبهذه الاراجيف القياه فى حيرة زائدة وفزع كبير وكان حديد الطبع
وزاد حدة ووسوسة لكبره وشيخوخته كما هى العادة فجرته التقاويل الى
سلوك طرق كان يستقبحها فى اوقات اخرى كيف لا وقد قبض على جماعة من
الكردينالات الذين يميلون للايمبراطور وسجنهم فى قلعة سنت أنج واضر
بامراء عائلة الكولون وغيرهم ممن كان فى حزب الايمبراطور من اعيان رومة
وباروناتها وقصارى الأمر انه اشتد به خوفه من الايمبراطور وبغضه له حتى
الجأه ذلك الى السعى فى جلب محبة ملك فرانسا ليعول عليه ويتخذه
عونا له

مطلب
حثهما له على استجلاب محبة ملك فرانسا

وكان هذا الامر غاية مامول ابنى اخيه حيث كانا يريان ان لا وسيلة سواه
فى حصول امانيهما ولما كان عمهما كبير السن خشيا ان تنشب به اظفار المنية
قبل حصول مرامهما فعوضا عن اضاعة الاوقات فى المداولات بهذا

سنة ١٥٥٥

الخصوص مع الملك فرانسا الذى كان بمدينة رومة حينئذ فهما عمهما ان الاوفق ارسال معتمد من طرفه الى نفس هنرى ملك فرانسا ليتم المعاهدة فى اقرب وقت فقبل البابا قولهما وبعث من يثق به فى هذا الخصوص الى ملك فرانسا وحسن له الشروط بحيث يأمن من امتناعه وكان مضمون ما عرض على الملك المذكور من الشروط هو ان يتحالف مع البابا وان تنضم عساكرهما الى بعض لشن الاغارة على دوقية توسكانة ومملكة نابلى فان نجحا وظفرا على العدو جعلا توسكانة جمهورية كما كانت واما نابلى فيجعل احد ابناء ملك فرانسا ملكا عليها بعد ان ينفصل منها قسم يلحق بدول الكنيسة ويقسم الى ولايتين يعطى لكل واحد من ابنى اخى البابا واحدة منهما

مطلب
مناقضة الجنرال مونتمورانسى فى محالفة الملك هنرى مع البابا

فاغتر ملك فرانسا لذلك وتلقى مبعوث البابا مع غاية الاحترام واكرم مثواه ولكن حين عرضت هذه الشروط على ديوان الفرنساوية لينظر فيها وكان الجنرال مونتمورانسى من ارباب وهو بالطبع يكره كل مشروع خطر وزاد وسوسة لكبر سنه وكثرة تجاربه فناقض فى تلك المحالفة ولم يرض باجرائها وذكران حروب الفرنساوية ببلاد ايطاليا قد اضرت بمملكة فرانسا كل الضرر مدة حكم ثلاثة ملوك متتالية وافاد ان الملة الفرنساوية لم تنجح فى التصدى لمثل هذا وقد كانت عساكرها وحراثها على احسن حالة فكيف تنجح مع ما هى عليه الآن من الضعف الذى وقعت فيه لحروب لم تنقطع منذ خمسين سنة واوهم ان من عدم الحزم والكياسة محالفة مثل هذا البابا وقد بلغ من العمر ثمانين سنة فوائد المحالفة معه تكمل حياته قريبة الانفصام والانصرام على ان موته لا بدّ وان يترتب عليه تقلبات كثيرة فى امور ايطاليا ويبقى الملك فرانسا أعباء الحرب بأسرها وحيث ان الايمبراطور شرلكان حيث عزم على الخلوة وترك علائق الدنيا لا بدّ وأن يمكن الصلح فى دولته قبل أن ينزل عنها لابنه فبناء على ذلك ينبغى التأنى ومن اللازم أن يحصل الصلح عن قريب بين فرانسا والايمبراطور واضاف الى ذلك

سنة ١٥٥٥

ان هذه المحالفة تجر الى الحرب بين انكلترة وفرانسا اذ في تلك المحالفة ما يفهم ان طمع الفرنساوية هو المانع لاعسر من نشر الوية الصلح ببلاد اوروبا

مطلب
تعصيد الدوق دوكيره لهذه المحالفة

وعبر كون هذه الاسباب قوية في حد ذاتها اذا راعيت كونها صادرة من مو تورانسي المذكور وكان كبير النفوذ والاعتبار وعرعنها مع مزيد الحيه رأيت انها كانت تكفي في ترغيب ملك فرانسا عن المحالفة مع البابا الا ان الدوق دوكيز وأخاه كردينال دولورينة كانا يفرحان للملمات وحظر المشروعات بقدر ما كان مو تورانسي المتقدم يهابها ويخشى عواقبها فجنحا الى تعصيد المحالفة لاسيما وكان الكردينال المذكور يؤمل أن يفوض له امر المداولات في هذا الخصوص مع ديوان رومة والدوق دوكيز كان يعشم أن يجعل رئيسا على الجيش الذي يرسل الى عروة نابلي بموجب المحالفة المذكورة فكل منهما كان يرى هذه فرصة يظهر فيها ويظفر بما كان قائما بنفسه من المطامع وقد عضدت قولهما عند الملك معشوقته المسماة ديانة دوبواتير وكانت تحب العائلة الكبيرة وتساعد في اتمام ما تريها وكان توسط المذكورة فوق حد الكفاية في استمالة الملك الى قبول قول الاميرين المذكورين وترجيحه على رأى مو تورانسي وان كان سديدا فلعماء الملك وعدم تبصره سمع ما جاء به رسول البابا

مطلب
وكالة الكردينال دولورينة بالمداولة مع البابا

وعما قليل ارسل الكردينال دولورينة حسب أمنيته الى رومة وفوض له في امر المداولة وعقد المشارطة بشرط أن يكون ذلك في اقرب وقت الا أن البابا لدى المذاكرة ظهر عليه الفتور والتراخي بل واستبان منه ما فهم انه كان يود الغاء المذاكرة وعدم المحالفة مع فرانسا وذلك امانه فكر في تلون حرباء الحرب وتقلب صروف الدهر أو أن وزير الامبراطور التي في ذهنه لنباهته ما اوجب قلقه واضطرابه عن أن ابني احيه احرجاه من هذا التردد باشعال نيران حقده للامبراطور واتبعا في ذلك مسلك الحيل الذي سلكاه اولا وتجافيه واوهماه ان الامبراطور مصمم له على كل سوء وان وزراء

سنة ١٥٥٥

مطلب غضب البابا من الشروط الصادرة عن جمعية اوكسبورغ

لم يزالوا فى عتوهم يظهرون فى حق البابا انواع التهديد والتخويف ويسعون فى اضرام نيران الفتن لقصد اعدامه

وحيث كان من المشهور ان الابرام مع التكرار يصبح الاعتبار لابد وان كان الحاح امين اخى البابا لا يؤثر فيه تلك المرة وكان لا يجيبهما الى مطلوبهما اعيرانه لمساعدة الدهر اياهما حصلت حادثة مهمة احيت حروح البابا وزادته سخطا وغضبا على الايمبراطور وهى الجمعية المنعقدة فى مدينة اوكسبورغ لخصوص المذاكرة فى المنازعات الدينية وقد كانت الشروط الصادرة عن هذه الجمعية مساعدة للمعتزلة على ما تقدم فغضب البابا غضبا شديدا على الايمبراطور وملك الرومان حتى حرّ به حنقه الى التصميم من نفسه على المشروعات الحسنة التى كانت مطمحا لنظر ابى اخيه وكانا يحاولان ترغيبه فيها وكان البابا يرى ان مزايا الكنيسة بديهية الثبوت ويبغض المعتزلة ودينهم وابداعاتهم التى كانوا شارعين فيها فرأى أن ما انحط عليه الرأى فى جمعية اوكسبورغ مجرد اجحاف بالكنيسة واضرار بمزاياها لا سيما وكان بعض ارباب هذه الجمعية خارجا عن خرقة القسيسين فعدّ البابا ان تصديهم لامر يخص الدين من باب الفضول واساءة الادب حيث ان هذا الامر حق ذاتى له لا يعزى الى سواه ورأى ان الاباحة الدينية التى اعطيت للمعتزلة بموجب قرار الجمعية المذكورة ملغاة لا يعمل بها اذ ان مثل ذلك شئ متعلق به وهو لا يقرّ ما حصل ويراه ظلما وتعديا على حقوقه الذاتية واخبر بذلك الايمبراطور وطلب أن ينشر اعلامات بالغاء القانون الصادر عن الجمعية المتقدمة واوعد الايمبراطور وملك الرومان بكل سوء اذا ابيا اجابته فى ذلك او توانيا فى ابطال القانون المذكور وحكم مطلوبه وبالجملة فكان قوله مع اظهار ابهته على نمط ما كان يصدر عن خلفاء دين النصرانية فى القرن الثانى عشر حيث كان يمكنهم بمجرد صدور امر منهم ان يخلعوا اعظم ملوك ذلك العصر الا ان خطابه هذا لم يكن فى اوانه لا سيما وكان يخاطب وزير ملك قد اضرّ بطشه غير مرة بقسوس كانوا اعظم من البابا المذكور واشد منه باسا ومع ذلك لم يقلق ايلچى الايمبراطور من تهديد البابا بل صغى

سنة ١٥٥٠

لحديثه مع غاية الصبر والتأني واخذ يهديه ويسكن غيظه ويفهمه الصلح الذي وقع فيه الايمبراطور بمدينة أنسبروق واضطراره الى التزام ماتعهد به للمعتزلة لخلاص نفسه من ورطته وكيف الجأته الضرورة فيما بعد الى انجاز عهوده وكيف ألزمته مقتضيات الاحوال بابقاء ماوعد به المعتزلة غير ان هذه الاسباب وان كانت قوية وراجحة لم يكن لها ادنى تأثير عند البابا لشدة غروره وجهله واجاب الالجى ثانيا بما مضمونه أنه بمقتضى ماله من الاجتهاد والتصرف حسب منصبه قد حكم ببراءة الايمبراطور وفك قيده من عهوده مع المعتزلة بل ونهاه عن انجازها وانه لا يجوز احباط الله لارضاء العبيد ومصلحة دين الله مقدمة على كل شئ فلا ينبغي العدول عنها لاى سبب كان اوجبته السياسة والكياسة اوحتمته الفكرة فى عواقب الامور البشرية وان الايمبراطور قد عاقبه الله تعالى بخذلانه فى مشروعاته ببلاد ألمانيا لكونه آثر مصلحة نفسه على مصلحة الدين ثم انصرف عن الالجى بوجه عليظ ولم ينتظر منه جوابا

مطلب

اشعال ابن اخيه لنيران حقده

وغير ذلك لم يقصر ابن اخيه فى مدحه على صنيعه ونيته وكان لغروره وامتلاء ذهنه باوهام القسوس يرى ان صولته فوق كل صولة وكان يكرر دائما أنه خليفة من حطوا الملوك والايمبراطرة وان كلمته نافذة على الجميع فلا مانع له من تنكيس من يتجاسر على مقاومته ومعارضته هذه كانت نيته فى حق عائلة الاوستروبا حين قدم اليه الكردينال دولورينة بصدد عقد المعاهدة بينه وبين مملكة فرانسا

مطلب

مشارطة البابا مع فرانسا

فلم يشق على الكردينال المذكور استمالة البابا الى وضع امضائه على المشارطة المحررة بينه وبين الفرنساوية وكان القصد منها ابادة الايمبراطور وهو عدوه الاكبر وكانت شروط هذه المعاهدة عين الشروط التى قدمها رسول البابا بمدينة باريس وقد حصل الاتفاق على ابقاء هذه المحالفة خفية الى أن يتأهب كل من الطرفين الى الشروع فى الحرب

مطلب

عزم الايمبراطور على التنازل عن دولة الوراثة

ولكن فى اثناء المداولة فى شأن هذه المحالفة ظهرت على حين غفلة حادثة

سنة ١٥٥٥

يترتب عليها ازالة الاسباب التى كانت علة فيها وتلك الحادثة هى أن الايمبراطور تنازل عن دوله الوراثية لابنه فيليبش وعزم على نقص علائق الدنيا وامضاء ما بقى من عمره فى الوحدة والعزلة ولا حاجة الى امعان النظر وقدح الفكر فى معرفة كون مقام الملوكية لا يخلو عن الهم والغم وان اغلب الناس الجالسة على سرير الملك يشترون هذا المنصب المحسودين عليه باعلاء ثمن اى يتجرعون فى نظيره كأس الحيرة والقلق وانواع الحرص والملل التى لا تنفك عنهم طرفة عين غير أن التنازل عن اوج العلا والمراتب الى حضيض التبعية والرضاء بترك الدولة لقصد تحصيل الراحة والسعادة الحقيقية شئ يرى مما فوق الطاقة البشرية ومع ذلك قد ذكر فى التاريخ انه حصل اكثر من مرة كون بعض افراد من الملوك تنازلوا عن سرير الملك ليقضوا بقية ايامهم فى الوحدة الا انهم كانوا على قسمين قسم منهم قليل التؤدة والتمكين سقيم العقل فيعض على يديه بعد التنازل ندما على ما فرط منه والقسم الثانى عبارة عن اناس جليلى الشأن عاندهم الدهر واسعف عدوهم بالنصر فنزلوا من اوج الملوكية الى حضيض الخمول والتبعية وهم فى حسرة زائدة واسف كبير ونظن أن لا احد من الملوك الجديرين بمقام الملوكية قد تنازل عن المملكة تنزها وعلوا فى النفس سوى ديوقلسيان فانه تخلى عن الايمبراطورية مع نفس عالية عما يشين حالية وترك العلا والمناصب ترك حكيم ينظر الى الاشياء الدنيوية بعين التحقير ومضى سنوات عديدة فى العزلة والتنزه بمحض اختياره من غير أن يلتفت الى ما زهده ادنى التفات او يتأسف على ما عدل عنه من الابهة ورفيع الدرجات

مطلب
اسباب هذا التنازل

قد تعجبت بلاد اوروبا من تنازل شرلكان عن الملك ولم يفهم معاصروه بل ولا مؤرخوا عصره لذلك سببا وان لم يألوا جهدا فى البحث عن مابه يستدلون على حقيقة الامر والواقع أن تنازله من الغريب الذى يستبعده العقل حيث كان طماعا محولا على حب العلا والرياسة سيما وكان فى سن الستة والخمسين وفى هذا السن يقوى طمع النفس بضعف سائر

الشهوات

الشهوات النفسية فيصمم الطماع على ما آربه ويأبى الا اتمامها وانفادها وقد نسب كثير من المؤلفين تنازله الى اسباب واهية سقيمة لا تؤثر فى قلوب البشر ولا تصح أن تكون الحاملة له على التنازل وشاء آخرون على اسباب سياسية خفية ولكن رأى المتبحرون المتفقهون من المؤرخين أن لا حاجة لتكلف مثل تلك الاسباب السقيمة من سياسية وغيرها حيث ثم اسباب مشاهدة محسوسة لتنازل الامبراطور وهذه الاسباب هى انه كان مصابا بداء النقرس من صغره ومع اعتناء أمهر اطباء زمنه لم يزل هذا الداء يشتد عليه كلما كبر فى السن ويزيد وجعه منه فى كل سنة بحيث كان لا يطيق آلامه فضعفت بنيته وتلاشت قوته وجر ذلك الى ضعف قواه العقلية حتى صار لا اقتدار له على القيام بمصالح الدولة الا فى اوقات قليلة كان يفيق فيها من آلامه واما سائر اوقاته فكان يقضيها فى العذاب يتسلى بها على وجعه ويريح بها ذهنه حيث كان قد كل ومل من شدة العلل وبهذه المثابة كان لا يتيسر له أن يقوم باعباء ممالكه فبالضرورة كان لا يمكنه المداومة على اجراء مقاصده الحسنة التى نواها وهو فى عنفوان شبابه ولا على ما اتخذه مذهبا فى السياسة اذ كانت سياسته محيطة بعالك اوروبا بأجمعها وحاوية لمفصل مصالحها ومشاكل امورها لكنها على انه كان معتادا منذ مدة مديدة على أن يكون لنظره الصائب احاطة بسائر فروع الادارة وأن يباشر بنفسه امور الدولة ولا يكون له شريك فى بث جميع الاحكام فاسف وتأثر حين رأى امراضه افضت به الى تسليم عنان الامور لوزرائه ويدل على ذلك أن الدولة من وقتئذ ما اصيبت بمصيبة الا ونسبها الامبراطور الى عدم اقتداره على القبض باعنة الدولة ومباشرة امورها بنفسه وكان يتشكى من الدهر حيث أراه فى آخر عمره خصما شابا يمكنه تدبير اموره وانفادها بدون احتياج الى الاشتراك فيها مع احد واما هو فقد صار مضطرا الى الاعتماد على غيره فى كل الامور بناء على ما تقدم مما اعتراه من عطل الكبر والهرم قبل اوانه استصوب أن يحذو حذو العقلاء وأن ينزوى فى زوايا الوحدة ليخفى عيوبه عن اعين الناس لتيقنه ان عدم تركه

سنة ١٥٥٥

مطلب المقتضيات التى كانت سببا فى تأخير تنازل الايمبراطور الى هذا الوقت

لا عنة الدولة مع عجزه عن أن يسوسها و يحسن ادارتها مما يجر الى ضياع فخاره وجليل اشتهاره

وكان الايمبراطور قد صمم على ذلك منذ عدة سنوات واخبر به اختيه ملكتي فرانسا والمجار بالوراثة عن تعليم ماواستحسنتا منه ذلك وعرضتا عليه أن تصحباه الى محل عزلته وان تقيما معه الا انه كان ثم عدة اسباب منعته عن انفاذ هذا المقصد وحملته على تأخيره لوقت آخر ولا يقال انه اخر تنازله الى وقتئذ لكون ابنه فيليبش كان لم يبلغ فى السن ولا فى التجارب درجة كافية بحيث يمكنه القيام باعباء المملكة بدون مشقة عليه كيف وكان فيليبش فى سن الثامنة والعشرين من عمره وكان متعودا من صغره على الاشغال والتقيد بالمصالح وكان له فى هذا المعنى دراية كبيرة ورغبة زائدة فلا يصح ان الشفقة الايمبراطور على ابنه أخر امر تنازله حتى لا يكلفه مالا يطيق والاحرى من ذلك بان يكون سببا فى تأخير تنازله عن الايمبراطورية هو ان امه كانت لم تزل فى قيد الحياة وكانت تشركه حكما فى ملوكية اسبانيا وان كانت مدة نحو الخمسين سنة محجوبة عن الناس باقية على الاختلال الذى اورثته لها موت زوجها كما تقدم وكان اسمها يكتب فى جميع الاوامر بجانب اسم ابنها وكان اهل اسبانيا يجلونها و يحترمونها كل الاحترام حتى كانوا لا يرضون باقرار فيليبش بالحكم عليهم الا اذا رضيت باشراكه معها فى الملوكية وحيث كان لا يمكن جلب رضائها وهى فى حالة اختلال مرض اضطر الايمبراطور الى تأخير تنازله حتى ماتت فى تلك السنة وزال بزوالها كل مشكل وصار متصرفا فى ملوكية اسبانيا لا منازع له اذا تنازل عنها لابنه فيليبش هذا وكان يود شيأ آخر وهو سد باب الحرب الموجودة بينه وبين مملكة فرانسا حتى يترك ممالكه لابنه وهى فى اتم صلح عمران هنرى ملك فرانسا لم يكن يجنح الى الصلح بل وعرضت عليه فى هذا المعنى امور مقبولة لطيفة لاستمالته الى الصلح فتلقاها بطريقة تشعر بانه مصمم على دوام الحرب فرأى الايمبراطور ان لا فائدة فى الانتظار

سنة ١٥٥٥

وهم بتخيير ما كان في نيته منذ سنوات من التنازل عن الملوكية

مطلب الرسوم التي اجراها عند تنازله

واحب ان يكون تنازله عن الملوكية مقرونا بالرسوم والاحتفالات اللائقة به وان يشهر آخر يوم له في الحكم بلمحة غريبة يبقى تأثيرها في نفوس رعاياه وفي نفس ابنه فيليبش على مدا الايام فكتب اليه امر ابالحضور من انكلترة وكان في تلك المملكة منغص العيش لغلاظة طبع زوجته ملكة الانكليز سيما وكانت شراسة اخلاقها في ازدياد لكونها لم ترزق منه بذرية وهناك سبب آخر لتنغيص عيشه تلك المملكة وهو ان الانكليز كانوا يغارون منه فكان لا يؤمل ان يحظى ذات يوم بان يكون ملكا عليهم ثم عين الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول لانعقاد مشورة وكلاء مملكة البلاد الواطية في مدينة بروسيلة وفي اليوم الموعود ذهب الى المشورة وجلس على سريره وكان ذلك آخر جلوسه على سرير الملك وكان ابنه فيليبش على يمينه واخته ملكة المجار ونائبة البلاد الواطية على يساره وكان خلفه جم غفير من اكابر اسبانيا وامراء المانيا وعمر رئيس مجلس فلاندرة بوجه مختصر عن قصد الامبراطور من عقد تلك المشورة ثم قرأ على الحاضرين الحجة المشتملة على تنازله لابنه فيليبش عن حكمه واقضيته وما يملكه بالبلاد الواطية وذكر في هذه الحجة رفع التكليف عن رعاياه اهل مملكة البلاد الواطية بالطاعة له ليكونوا في طاعة وارثه الشرعي فيليبش ويقوموا بخدمته مع الغيرة والصداقة كما كانوا مدة حكمه عليهم وبعد قراءة ذلك قام شرلكان من كرسيه متوكئا على كتف امير اورنجة لسبب ضعفه وهزاله وخاطب بنفسه المشورة وبيده ورقة يستعين بها على تذكار ما يريد قصصه على الحاضرين فقص عليهم مع الهيبة والجلال الخاليين عن الغرور والتباهي ما شرع فيه واتمه من الامور الحسنة مدة ان حكم عليهم فقال ما معناه انه وهو في سن السبعة عشر قد وهب نفسه لخدمة المملكة وحوّل كل همه الى سياسة الملك ولم يصرف من اوقاته في راحة نفسه الا القليل ولم يصنع شيأ منها في اللعب واللهو وانه طورا في زمن الصلح وطورا بقصد الحرب قد زار تسع مرات بلاد المانيا وست مرات بلاد اسبانيا

سنة ١٥٥٥

وأربعا بمملكة فرانسا وسبعا ببلاد ايطاليا وعشرا بمملكة البلاد الواطية وثنتين بمملكة انكلتيرة ومثلهما بقسم افريقة وعبر البحر احدى عشرة مرة وكل ذلك لمصلحة الدولة ومادامت صحته تسوغ له القيام بما يجب عليه في حق الممالك الواسعة الموجودة في قبضة حكمه لم يتأخر طرفة عين عن الاشغال الشاقة التي تستلزمها الحكومة ولم يتشك قط من تلك المشاق ولكنه الآن قد زاد هزاله ووهن العظم منه لما اعتراه من التعب والنصب بسبب دائه الذي صار عضالا او هاوهنه يزداد يوما فيوما ويذكره بأن لا بد من ترك تلك الدنيا وانه لا يرغب في الحكم مادام لا يقتدر على قبض اعنة الحكومة بحيث يحمي حمار رعاياه ويسعى لهم في اسباب السعة والثروة وانه لعظم دائه لا يؤمل ان يعيش سوى اليسير فاستصوب ان يجعل ملكهم بيد ابنه فيليبش حيث هو جامع بين قوة الشبوبية والعقل هذبته التجارب وانه يطلب العفو والسماح ان كان وقع منه خطأ او هفوة في الادارة مدة حكمه او كان حصل منه ظلم في حق أحد من رعاياه مدة اثقاله باعباء المملكة وتفرغه لتدبير امورها وانه لا ينسى ابدا صداقة رعاياه ومحبتهم له وانه يذكر ذلك في عزلته ويتسلى به ويعده جزاء عظيما الذي نظيرما لقاه مدة حكمه من التعب والمشاق وان آخر آماله وغاية مناه ليست الادعوات صالحات يرفع بها اكف الضراعة الى المولى جل وعلا بصون ممالكه وسعادة رعاياه

وعند ذلك جثى فيليبش على ركبتيه ليقبل يده فالتفت اليه قائلا لو تركت لك بموتي هذا الميراث العظيم الذي زاد في عهدي زيادة كبيرة لكان يجب عليك ان تذكرني بالخير وتترحم علي ولكني تنازلت لك عنه بمحض الارادة فلي الحق في ان اطلب منك ان لا تنسى ذلك الفضل ولا تسلك مسلك كفران النعم غير اني اسامحك في ذلك واعد حبك لرعاياك وسعيك في راحتهم وثروتهم أدلة قطعية على ذكر الجميل صنعي وعليك ان تحقق آمالي فيك وما منحتك اياه بمحض محبتي لك فكن اهلا لاعتمادي عليك وكن في سياسة ملكك على وفور العقل محافظا على الدين مؤيدا لاركانه مؤمنا بقواعد القانون ليقيس وارع شرائع

سنة ١٥٥٥ م

مملكتك وقوانينها ولا تهتك حرمة رعاياك ولا تتعد على حقوقهم ولا على شيء من مزاياهم واسأل المولى جل جلاله ان يرزقك بغلام صالح بحيث اذا اردت ذات يوم ان تستريح مثلي من اثقال الملوكية تراه اهلا لان تنزل له عن الملك بطيب خاطر وانشراح صدر كما هو حاصل لي الآن في تسليمي لك أعنة الحكومة

ولدى فراغه من هذا الخطاب ألقى بنفسه على سريره يكاد أن يغمى عليه مما لحقه من التعب لذلك وفي اثناء خطابه كان جميع الحاضرين يسكبون العبرات بعضهم تحماسا على نفسه والبعض الآخر تأثرا من عجيب عباراته الدالة على حب ولده ورعاياه وكلهم تألموا اسفا عليه حيث كان مدة حكمه لا يغفل عن تمييز اصل غرسه ومسقط رأسه وكان يخصه بالرعاية ومزيد الاعتبار

وكان فيليبش لم يزل جاثيا على ركبتيه بين يدي والده فقام حينئذ وتكلم بصوت منخفض دال على الطاعة والامتثال ليشكره على صنيعه وما منحه له بمحض فضله ثم خاطب اهل المشورة معتذرا بأنه في الم رائد من عدم اقتداره على التكلم مع السهولة بلغة فلاندرة حتى يفصح لهم بنفسه عما يجب عليه لرعاياه اهل مملكة البلاد الواطية وترجاهم ان يأذنوا لاسقف أراس المسمى غرانويل في ان يتكلم بالنيابة عنه واطنب غرانويل في خطابه واطرأ في مدح فيليبش وبيته الخيري حق رعاياه وتصميمه على صرف كل برهة من زمانه وكل لمحة من عرفانه في سعادتهم وانه سيقتدي بابيه في معاملة اهل فلاندرة مع التلطيف التام ويخصهم بالتجمل والاحترام ووقتئذ نزلت الاميرة مارية ملكة المجار عن نيابة مملكة البلاد الواطية وكانت موكلة بسياستها بامر اخيها الامبراطور مند خمس وعشرين سنة وثاني يوم من ذلك حضر فيليبش بمجلس وكلاء الملة وحالفهم على حسب العادة ان يحافظ على حقوق رعاياه وعلى مزاياهم وحالفه جميع وكلاء الملة عن انفسهم وعن من هم موكلون عنهم على الطاعة والامتثال

٦ من شهر كانون الثاني سنة ١٥٥٦ م

وبعد ذلك ببعض اسابيع جمع شرلكان ايضا مشورة كبيرة وتنازل

سنة ١٥٥٦

بالابنه عن ممالك اسبانيا وما يتبعها من الاراضى فى قسمى الدنيا الجديد والقديم ومن هذا كله لم يبق شرلكان لنفسه سوى مرتباسنويا عبارة عن مائة الف ايكو ليصرفه فى لوازم بيته وفى الصدقات وما اشبه ذلك

مطلب اختيار شرلكان مقره ببلاد اسبانيا

وقد كان اختار أن تكون اقامته ببلاد اسبانيا مؤملا ان يسكن داؤه بجودة هوائها وحرارة قطرها ولم يجعل اقامته بمملكة البلاد الواطية لما سبق له من اشتداد دائه عليه بالكثرة رطوبتها وشدة شتائها وكان يود ان لا يتأخر

مطلب اضطراره الى الاقامة مدة بمملكة البلاد الواطية

ساعة واحدة عن الخروج من مدينة بروسيلة وركوب البحر ليتوجه الى محل عزلته حتى يخلص بالكلية من عوائل المصالح و يبعد عن قيل العالم وقاله غيرأن اطباءه اوهموه انه يخشى عليه من ركوب البحر فى مثل هذا الفصل وهو ابرد فصول السنة واكثرها رياحا وعواصف فرضى على رغمه بتأخير سفره بعض شهور

مطلب المداولات التى حصلت لصدد الصلح

وقبل سفره من مملكة البلاد الواطية ادرك امرا قرت به عيناه وهو أن نجح فى افتتاح مادة الصلح مع مملكة فرانسا وكان هذا الامر غاية آماله لكونه غير مراعاة فى ذلك مصلحة ابنه كان يود أن يثبت لنفسه للمجد قبل تركه علائق الدنيا بكونه اعاد الى ممالك اوروبا الراحة التى سلبها منها منذ جلوسه على سرير الملك وصورة ذلك ان تعينت قبل تنازله بمدة وكلاء من طرفه وآخرون من طرف ملك فرانسا للمذاكرة فى استبدال من اسروا من الطرفين مدة الحروب السابقة وكانت المذاكرة فى هذا الشان فى دير وسيل قريبا من مدينة كمبريه فاتفق فى اثناء المذاكرة ما اوجب تسهيل الصلح وهو أن اتفق وكلاء الطرفين على هدنة طويلة يبقى كل من الحزبين حافظا لما بيده من البلاد والممالك المتنازع فيها ويصرف النظر مدة الهدنة عما يدعى به فى كل خصوص وكان شرلكان لا يجهل ما لحق مملكته من الخراب والدمار بسبب الحروب الطويلة التى اوقعه فيها طمعه و يعلم ان الصلح لا بد منه لابنه حتى يثبت على سرير الملك فرضى بالهدنة وان كان فى شروطها ما يضر به ويكسبه العار وكان له موقع عظيم فى قلوب الناس من جهة العقل

سنة ١٥٥٦

والدراية واختباره الامور بكثرة تجاريبه حتى ان ابنه لم يمكنه المخالفة ورضى بالهدنة على تلك الشروط وان كانت تكدر عن أن تقبل

مطلب انعقاد الهدنة

ولم يكن شئ احب الى هنرى من تلك الهدنة لما كان له فيها من الفوائد الجمة المهمة وهى أن يبقى بملكه معظم دوقية ساوية مع ماتغلب عليه من القلاع والمدائن الحسية على صواحى ألمانيا ولكن كان ثم عائق عظيم يمنعه عن تلك الهدنة وهو معاهدته مع البابا كما تقدم ولولا ذلك لما تردد طرفة عين فى قبول الهدنة المذكورة وكان الواسطة والسبب فى معاهدته مع عائلة كاراف اعنى عائلة البابا هو الكردينال دولورينة وفى اثناء المفاتحة فى الهدنة المذكورة كان غائبا فاغتنم الجنرال دومو تمورانسى فرصة غيابه واوهم الملك هنرى ان من الخطر العظيم اهمال مافيه مصلحة حقيقية للدولة مراعاة لبعض مواعيد لم تكن ناشئة الا عن عطل الرأى وقلة الحزم وكان هنرى بالطبع من اولى التردد الذين لايصممون على امر عن فكر فيصغون الى آخر رأى طرق آذانهم فجنح الى قول دومو تمورانسى وامر

فى ٥ من شهر شباط

من بعثهم الى الامبراطور ان يعقدوا الهدنة بخمس سنوات على الشروط المتقدمة اما التحققه أن البابا سيغضب لهذا الفعل ألح فى أن يصرح باسمه فى المشارطة ليكون ذلك وسيلة فى تسكين غيظه واخماد ناره *

مطلب اقرار الهدنة من طرف كل من القرانين

وارسل القونتة دولالان من طرف الامبراطور الى مدينة بولواس وبعث الاميرال دوكولونى من طرف ملك فرانسا الى مدينة روسيلة ليحضر كل منهما بالنيابة عن سيده اقرار المشارطة وميثاق كل من ملك فرانسا من جهة والامبراطور وولده من الجهة الاخرى أن يرعوا ماصدق تلك المشارطة وأن لايخرموا شيأ من شروطها

مطلب ما اعترى البابا من الفزع والحيرة

واما البابا فلم يسرع حين وصل اليه الخبر فى مدينة رومة بالمذاكرة الحاصلة فى هذا الخصوص بمدينة موسيل وبشروط الهدنة المتفق عليها وانما لم يفزع لذلك لانه كان يعتقد فى الملك هنرى شرف النفس والفتوة فلم يجوز له عقله امكان نقضه للمعاهدة المنعقدة بينهما عن قرب على ماتقدم

سنة ١٥٥٦

وثم سبب آخر انبت عند البابا عدم صحة ما طرق آذانه وهو أنه كان يعهد في الامبراطور شرلكان كمال العقل والكياسة فتعذر عليه التصديق برضاء شرلكان بمثل تلك الهدنة وكانت شروطها تضر به وقد حتر بالبابا جرمه بمادكر الى أن قال ان هذه المداولات كغيرها من المداولات السالفة عديمة الجدوى لا تنتج شيأ ولكن من الخطأ الكبير في السياسة وتدبير الدول أن يستنتج الانسان من عدم احتمال الشيء ظاهرا عدم امكان وقوعه ولم تمض مدة يسيرة الا وايقن البابا بما كان سمعه ولم يصدق به وثبت عنده وهمه لثبوت اقرار الهدنة واشتد غيظه لهذه العلة وكان متكبرا مغرورا وكان الكرديال دولورينة لم يزل بمدينة رومة وان كان قد اتم المعاهدة التي هو مبعوث بصددها من طرف ملك فرانسا فخشى حينئذ عاقبة غضب البابا وسافر سريعا من رومة وترك امر تسكين غيظه للكرديال دوتورون واحس البابا وابنا اخيه وقتئذ بعظم خطوبهم خشية بطش فيليبش وكان حديدا عنودا واظهر من الحمق ما لا مزيد عليه لدى علمه خبر المعاهدة الحاصلة بين البابا وملك فرانسا سيما وكان المأمور من طرف فيليبش بالانتقام من المتمردين عليه هو الدوق دالب وكان بعرفانه وقسوته الجبلية جديرا بان يفوض له في مثل هذا الامر فسار من ميلان الى نابلي وبدأ يجمع الجنود والعساكر من حدود الاقاليم القسيسية هذا وكان البابا ضعيف الشوكة بقدر ما كان فيليبش قويا مقتدرا فرأى هو وولدا اخيه ان ترك مملكة فرانسا لهم في هذه الحالة يترتب عليه خيبة آمالهم وضياع ثمرة اعمالهم ولذا بذلوا الجهد في ارجاع فرانسا الى حربهم فانظر فيما بعد الى سعيهم لنيل مآربهم

مطلب
سعي البابا في ايقاد نار الحرب

واستعان بولص في هذا الامر بالحيل والدسائس كما هي عادة ديوان رومة من اتباع طرق المكر وسلوك سبل الخداع في كل امر دهمهم فاظهر البابا أنه استحسن تلك الهدنة حيث هي وسيلة جليلة في منع سفك دماء النصارى وهو يرجو أن تكون ممهدة للصلح العام وجعله على قرار مكين ووعظ

الحصين

سنة ١٠٥٦

الخصمين اعنى الملك فيليش وملك فرانسا أن ينتهزا تلك الفرصة ويشتغلا بتمكين الصلح فى ممالكهما وهو يكون واسطة فيما بينهما ليصلح شأنهما حيث هو كأب للملة المسيحية وبهذه العلل الباطلة ارسل من طرفه الكردينال روبية الى ديوان بروسيلة وابن اخيه الكردينال كاراف الى ديوان فرانسا كل منهما بوصف نائب عمه فى الديوان الذى وجه اليه وكان ما امر به هذان النائبان على رؤس الاشهاد وكلا تلقينه لمن هما مبعوثان اليه موافقا لما اظهره البابا من استحسان الهدنة ومطابقا لما قاله فيه من قبل وكانا مأمورين ببذل الجهد فى استمالة الملكين المتقدم ذكرهما الى قبول توسط البابا حتى يتيسر بعد ايقاع الصلح الاحد فى الاسباب اللازمة لجمع مشورة قسيسية عامة غيران ذلك وان كان مما يسهل التصديق به حيث لا يليق بخليفة المسيح سواه لم يكن نية البابا ولم يظهره الا امتثالا لاحكام الضرورة وكانت نيته مغايرة لهذا بالكلية اذ كان كاراف مأمورا فى السر بان يدعو ملك فرانسا الى العدول عن الهدنة وأن يحسن له بمزيد الرجاء والتصريح تجديد المحالفة مع الكنيسة الرومانية بل وامره أن يعده بما طاب له وأن يقدم اليه من الهدايا ما طمع فيه حتى يرغبه فى تلك المحالفة ويستميله الى حربه هذا هو الغرض الحقيقى للبابا من بعث من بعثه وكان امره على حد يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم ولم يكن ظاهر فعله الا ليخدع الامبراطور وابنه ويخفى ما فى نفسه عن العوام وسافر الكردينال كاراف

فى الحادى عشر من شهر آيار

من وقته الى باريس ووصلها سريعا واما الكردينال روبية فحجر فى رومة عدة اسابيع بعد ذلك الى أن اذن الوقت بتوجيهه الى محل مأموريته بل وامر سرا بالتوانى فى سفره حتى تعلم رومة قبل وصوله الى بروسيلة طالع كاراف فى ماامر بتلقينه لكى تعرف ما يجب عليه اتباعه فى آداء ما امر بتبليغه الى الامبراطور وولده فيليش

مطلب
مداولة كاراف فى هذا الغرض

وقد دخل كاراف مدينة باريس فى محفل فوق العادة وقدم الى الملك هرى سيفا مبروكا من طرف البابا كأنه يفهمه بهذا انه ملجأ للبابا

سنة ١٥٥٦

وان البابا لدى الملمات لا يعتمد على غيره ولا يؤمل اعانة من سواه و بعد ذلك اقسم عليه أن لا يرد رجاء البابا وهو كوالده وقد وقع فى كرب عظيم وأن يعتد هذا الحسام لمساعدته واسعافه ثم قال ما معناه ان اعانته واجبة من وجهين الاول عملا بحق برّ الولد والديه والثانى ان الايمبراطور لبغيه حق التحرب عليه وان البابا ان كان فعل شيأ جرّ الى غضب ملك اسبانيا عليه وعلى ولدى اخيه فلم يفعله الا اعتمادا على مشارطته مع فرانسا فهم يرجون معا من ملك فرانسا أن لا يتركهم فريسة لعدوّهم وكان حبهم له ولمملكته هو السبب فى بغضه لهم ومع تحيل كاراف بهذه الكيفية على هنرى ليرق قلبه ذكر له اسبابا قوية بحيث تؤثر فى نفسه وتثير طمعه وافهمه ان الاوقات مساعدة اذ ذاك على الهجوم على بلاد ميلينش بمملكة ايطاليا وان مع الهجوم لا بدّ من النجاح حيث ان مصطفى صفوف العساكر الاسبانيولية الذين هدّتهم الحروب قد هلكوا جميعا فى وقائع بلاد الجبار وبلاد ألمانيا ومملكة البلاد الواطية وان الايمبراطور لم يترك لابنه الا ممالك بائدة القوى خالية عن الرجال والاموال وان المقصود قتاله الآن ليس شرلكان مع مهارته الباهرة ودرايته الوافرة وسعد طالعه بل المراد قتال ابنه وهو مبتدئ فى هذا المعنى لم يجلس على كرسى المملكة الا عن قريب وليس بمقتضى الحالة ممن هم اهل للحكم وتدبير الممالك سيما وهو مبغوض عند اكثر بلاد ايطاليا وكل الناس ينفرون منه و يخشون عاقبة الوقوع فى حكمه واضاف الى قوله هذا ان البابا قد بدأ بلم العساكر اللازمة حتى يوجد عنده الآن جيش عظيم مهيأ للسير لدى الطلب وان هذا الجيش اذا انضم اليه مقدار مناسب من الجنود الفرنساوية يكفى مع بذل الهمة والجهد فى طرد الاسبانيوليين من ارض نابلى وتبقى لملك فرانسا وكانت منذ نصف قرن قبله مطمعا لنظر اسلافه وسببا فى حروبهم مع الايمبراطور بلاد ايطاليا

مطلب ثمرة ذلك

وقد أثر قول كاراف كل التأثير فى نفس هنرى وايقن أن الحق للبابا

فى ان يلومه

سنة ١٥٥٦

في أن يلومه على فعله ادليس من الاسبانية عدوله عن محالفته ودخوله في مشارطة الهدنة المنعقدة في ووسيل هذا وكان هنري يود أن يشهر ايام حكمه بفتوحه مملكة نابلي وقد عجز عن تسخيرها ثلاثة قبله من ملوك فرانسا على ان هذه المملكة كانت معدة لان تعطى لاحد اولاده بمجرد نزعها من ايدي الاعداء ومع ذلك كله مكث مدة وهو يتردد حايرا في امره لايدرى من ينبغي له ترجيحه من الحزبين فهووان اثر فيه قول كاراف كان ثم اسباب توجب عليه عدم العدول عن حرب الامبراطور الاول منها هو قسمه بأن يرعى شروط الهدنة ولا يخالف شيأ منها الثاني هو أن البابا كان هرما فمن الجائز أن يموت على حين غفلة فتتغير الاحوال و يترتب على موته اضطراب عظيم في سياسة ايطاليا الثالث ان مونمورانسي كان لم يزل يلح عليه في الصلح مع الامبراطور ويفهمه ان في مهادنته فوائد جليلة بخلاف المحالفة مع البابا فما فيها سوى محض الضرر فكانت تلك الاسباب تعادل ولاشك قول كاراف الا ان كاراف المذكور كان على مكانة من فن المداولة وحسن السلك فلم يعجز عن ازالة لنفي هذه الموانع وازالة ما يدهش هنري فأبرز حق الترخيص له من طرف البابا براءته من قسمه اى تبرئته عما يلزمه من الخطيئة اذا لم يعمل بيمينه واما ما كان قائما بذهنه مما يترتب على موت البابا فازاله كاراف بافهامه له ان البابا هو سيفعل ما يكون به الاطمئنان في هذا الخصوص اى انه يولي كرديالات يتوصلون الى هنري الامر لدى انتخاب غيره بعد موته وبذلك يسوغ له ان يجعل من شاء في منصب البابا ليكون مطيعا له في سائر الامور ويعمل على اغراضه واما ما فعله ليرغب الملك عن اتباع ما كان يفهمه به الامير مونمورانسي و يحمله على عدم الاصغاء الى نصحه وكان له عنده موقع عظيم فهو ان استعان على ذلك بنشاط الدوق دوكيز وفصاحة الكردينال دولورينة ومكر المعشوقة ديانة دوابوتيه المتقدم ذكرها ووافقت في ذلك الاميرة قاترينة مع انهما كانت لا توافقهما على شئ ولا تريها سوى المخالفة

سنة ١٥٥٦

في كل الامور لقصد اغاظتها ولكنها الشقاوة مملكة فرانسا وافقتها في تلك المرة وتحزب الجميع فأثر قولهم على الملك لاسيما وكان من قبل مهيأ لذلك ومن وقتئذ صار لايعتني بقول مونتورانسي ولايبالي بما كان يحذره به من الاهوال والاخطار ثم حالف البابا الملك هنري من قيد قسمه وجدد معه عصبة اشتعلت بها نيران الحرب ببلاد ايطاليا ومملكة البلاد الواطية

مطلب ما ارتكبه البابا من الجبر في حق فيليبش

وبمجرد اخبار بولص ان كاراف ميقن بالحاح في سعيه مع ملك فرانسا ارسل مخصوصا الى روبينة على طريق بروكسيلة ليأمره بالرجوع الى رومة وذلك ان البابا لم يكن محتاجا وقتئذ الى اظهار الملاطفة بوصف كونه واسطة في الاصلاح بين الطرفين ولا الى كظم غيظه من فيليبش فعدل عما كان يظهره الى الآن من المراعاة والملاطفة ليخدع اعداءه وفعل امورا فاحشة تؤدى الى عدم امكان منع الحرب بينه وبين فيليبش فقبض على مبعوثه ووضع عليه السجن وصدر أمره بحرمان عائلة كولون وكانت من حزب اسبانيا وعزل ماركانتوان كبير هذه العائلة من دوقية باليانة واعطى اراضيها الى القونت دومونتوريو ابن اخيه ثم رفع دعواه مع فيليبش الى ديوان الكردينالات وحاصل تلك الدعوى هو ان فيليبش وان كان ولي الملوكية على نابلي بمحض فضل الكنيسة قد خان عهود الامانة والطاعة الواجبة عليه لها وقبل في دولته عائلة كولون مع انه حكم عليها بالحرمان وعدت من العصاة الباغين ولم يقتصر فيليبش على قبول من هم من تلك العائلة في دولته بل اعطاهم ما يلزم لهم من الاسلحة وها هو يتأهب للانضمام اليهم ليزحفوا معا على مخلفات خليفة المسيح وختم دعواه عامعما ان هذه الفعال من طرف التابع في حق المتبوع من باب الخيانة والغدر الفاحش ويجب عقاب الخائن بنزع الملك المعطى له وبناء على شكواه التمس منه امين الدعاوى بمجلس الكردينالات أن يبحث عن القضية بالاطراف والاكناف وان يعين يوما للسمع فيه اوجه اثبات هذه

التهمة

سنة ١٥٥٦

التهمة كما يأمر جنابه بعقاب يليق بعظم جرم المذنب وكان بولص لكبره وغروره ممن يفخرون باحضار ملك عظيم مثل فيليبش الى ديوانهم فقبل قول امين الدعاوى واخبر أنه سيتذاكر مع الكردينالات في الطرق اللازم اتباعها في مثل تلك القضية المهمة طامنه ان اجراء العقاب سهل كالحكم به فيمكنه تنفيذ ما يحكم به على ابن شرلكان

في سبعة وعشرين من شهر غور

مطلب فزع فيليبش لفرط جهالته من غضب البابا عليه

ومن الغريب انه بينما كان البابا يطيع نفسه في فرط الحقد والحنق كان فيليبش على غاية من الاستكانة ولين العريكة وسبب ذلك هو أن فيليبش قد رباه رهبان اسبانيا وعودوه من صغره على احترام الدين والكنيسة وكان بالطبع سوداويا يميل الى الاعتقادات الباطلة العاطلة وقبول الترهات فلم يزده تقدمه في السن الا ابدعا على بدعه التي اكتسبها من الرهبان والقسيسين فلما رأى غضب البابا عليه وفهم ان ذلك يجر الى الحرب بينهما وان لا بد له من قتال خليفة المسيح واب كافة النصارى فزع وارتعدت فرائصه واشد ما قام به من الفزع سأل بعض علماء اللاهوت الاسبانيوليين الذين يحلون المشكلات عن جواز مثل هذه الحرب وكانوا الساعدهم من الحذاقة واللباقة يدورون مع الدهر فأجابوه بما يوافق مقتضيات الاحوال اذ ذاك وافهموه انه بعد سلوك سبل الترجي تارة والترهيب اخرى ان لم يمكن عدول البابا عن البغي ولم يفىء الى الحق فله بمقتضى الشرائع الالهية والقوانين البشرية أن يدفع عن نفسه لدى الهجوم عليه بل وله ان يهجم على البابا في بلاده ان لم يمكن ارجاعه عن بغيه بطريق اخرى الا ان فيليبش مع قولهم هذا لم يزل مترددا حائرا في امره طامنه ان اعظم شؤم ووبال عليه ان ينتج حكمه بحرب مع البابا وهو امام الدين يجب احترامه وتجليله

مطلب بدء الدوق دالب بالحرب مع البابا

وكان الدوق دالب وقتئذ سر عسكر الجنود الامبراطورية الموجودة ببلاد ايطاليا فراعاة لسيده فيليبش تجنب اسباب الحرب وسلك سبل المداولة ليسوي امر المنازعة بالتي هي احسن لكنه وجد ان لا سبيل الى استعطاف البابا وتسكين غضبه وان اتباع سبل الرفق معه يزيد

سنة ١٥٥٦ في خمسة من شهر ايلول

في طغيانه وامهاله يكثر في بغيه فبدأ بالحرب وزحف على اراضي الكنيسة وكان جيشه لا يزيد عن اثني عشر الف رجل الا انهم كانوا مختارين شبوا وشابوا في العسكرية وكان رؤساؤهم من البارونات الرومانيين الذين غربهم البابا عن اوطانهم فبانضمام شجاعة العساكر الى حقد رؤسائهم للبابا وكانوا يقاتلون لقصد استخلاص ما غصبه منهم من الاملاك لدى نفيهم حقت الهزيمة على جنده وان كانوا اكثر عددا وكان الى ذلك الوقت لم يأت اليه امداد أياما كان من جانب فرانسا وسلمت بعض المدائن الحصينة الى جند دالب بجبن محافظيها لان العساكر منهم كان لا المام لهم بتعليم العسكرية وكان الضباط لا دراية لهم وبقية المدائن فتح سكانها ابوابها الى البارونات ساداتهم وبهذا الوجه تغلب دالب على بادية رومة في اقرب وقت غير انه خيفة ان يتهم بالكفر لزحفه على اراضي الكنيسة جعل تغلبه على هذه المدائن بالنيابة عن ديوان الكردينالات معلنا انه سيزول عنها بمجرد شروع الكردينالات في انتخاب احد غير بولص المذكور لمنصب البابا

وامتلأت قلوب الناس رعبا في مدينة رومة لظفر جنود اسبانيا ونجاحهم وكانت عساكرهم الخفيفة تزحف حتى تصل الى ابوابها فاضطر بولص مع علاظته وفظاظته الى العدول عن دعواه وكان الكردينالات تخوفهم يلحون عليه في المصالحة فصغى لقولهم وبعث رسلا من طرفه الى الدوق دالب بصدد انعقاد هدنة بين الطرفين لكنه لم يفعل ذلك عن طيب نية بل كان قصده شيئين الاول ادهاب رعب اهل رومة والثاني ان يكون معه في الوقت فسحة حتى يصل اليه من جانب فرانسا ما كان ينتظر أن تمده به واما دالب فلم يرده في طلبه بل اجابه لوقته وذلك انه كان يعلم ان سيده لا يود الا انهاء هذه الحرب اذ كانت على غير مرامه وثم سبب آخر وهو تناقص جيشه لما انه أخرج منه ما لزم للمحافظة على المدائن والحصون التي تغلب عليها وبذلك كان لا يمكنه المداومة على الحرب بدون جمع جنود جديدة فرضي بما عرض عليه وعقدت اولا الهدنة بعشرة ايام ثم بأربعين يوما

شهر نشبرين الثاني

وفي اثناء

سنة ١٥٥٦

وفى اثناء تلك المدة عرض من الطرفين اكثر من مرة بصدد الصلح واستقرت المداولة فيما بينهما لهذا الخصوص الا ان المداولة من طرف البابا لم تكن عن طيب نية بل كان يظهر خلاف ما يضمر وقد حصل انه لدى رجوع ابن اخيه من فرانسا ووصول مبلغ جسيم من الدراهم ارسله اليه الملك هنرى وطائفة من العساكر الفرنساوية وظهور ما جعله يؤمل أن عدة الفرنساوية بعد ذلك طغى وبغى ورجع الى ما كان عليه اولا وابى الا الحرب والانتقام من خصمه

(المقالة الثانية عشرة)

*(من اتحاف ملوك الزمان * تاريخ الامبراطور شرلكان)*

مطلب
سعى الامبراطور بالثانى فى تعميروراثة الامبراطورية

وبينما كان البابا وفيليبش مشغولين بهذه الدسائس رفض الامبراطور ما كان باقيا له من العلاقات بهذه الدنيا وسافر الى محل عزلته وكان الى وقتئذ لم يزل باقيا فى مقام الامبراطورية غير أن محافظته على هذا المنصب لم تكن ناشئة عن علاقة قلبية تمنعه التنازل عنه وذلك ان من المستبعد عقلا كونه بعد تنازله عن الامارة الحقيقية والتصرف المطلق اللذين كان يحظى بهما فى دوله التى ورثها عن آبائه يشق على نفسه ترك مملكة لم يكن مطلق التصرف فيها حيث كان ملكها يولى بطريق الانتخاب والسبب الحقيقى فى تأخيره امر تنازله عن التاج الامبراطورى هو أن كان يريد فسحة الوقت معه حتى يسعى بالثانى فى تحيير امر تكلم عليه سابقا وهو بيته من نقل التاج الامبراطورى الى ابنه فيليبش وكانت رغبته فى تتميم هذا الغرض فوق كل حد وغاية فهو وان كان يظهر عليه انه ميقن بطلان هذه الدنيا وزاهد فى زخرفها وزينتها وتاركها محتقرا لما احتوت عليه من الابهة والعلا كان لم يزل ذهنه مشغولا بالمطامع الجزيلة والمقاصد الجليلة التى استغرقت منه دهرا وعمرا فكان يشق عليه أن يترك لابنه بين ملوك اوروبا مقاما دون مقامه نفسه وقت ان كان فى مجال الحكم وقد حصل منه على ما تقدم انه سعى ولم ينجح فى اثبات التاج الامبراطورى لابنه فيليبش مؤملا انه بانضمام ممالك اسبانيا

سنة ١٥٥٦

الى املاك عائلة بورغونيا يتيسر لابنه المذكور ان يحذو حذوه و يتمكن من تحرير ما كان في بيته من المشروعات الجسيمة ومعه كره وعياه عن انفاذها هذه كانت امانيه وكان يشق على نفسه عدها مما لا يمكن تحريره

مطلب عدم ظفره بمقصوده المذكور

لا يخفى ان اخاه فردنند لم يمكنه قبل الآن من نقل التاج الامبراطوري الى ابنه فيليبش ومع ذلك لم يعتبر والح عليه بالثاني في هذا المعنى ووعده ان يعطيه في نظير تخليه عن التاج اقليما ببلاد ايطاليا او بمملكة البلاد الواطية وكان فردنند لم يعبأ بقوله وقت ان كان مهانا مقتدرا فكيف يصغي الى قوله بعد تنازله عن المعالي واختياره الانحطاط لنفسه وبالجملة فرده خائبا ولم يقبل منه عدلا ولا صرفا حتى انه خفته الخجل من نفسه حيث وهم انه يمكنه في الحالة الراهنة الظفر بما تعذر عليه وقت ان كان دا بطش واقتدار فيئس لوقته من حصول تلك الاماني وترك اعنة الامبراطورية لاخيه فردنند ملك

في ٢٧ من شهر آب

الرومانيين وتنازل له عن حقوق ملوكيته على جرمانيا وكان ذلك بمقتضى حجة مستكملة الشروط والاركان وصح عليها امضاءه ودفعها الى غليوم امير اورنجة وامره ان يقدمها الى ديوان المنتخبين -

مطلب رحلة شرلكان الى اسبانيا

وبعد ذلك لم يبق عائق يمنع شرلكان عن الارتحال الى العزلة التي كان تمناها لنفسه وكان قد تأهب للسفر قبل ذلك بمدة فارتحل الى زيلاندة قاصدا زويتبورغ وكانت ميعادا للسفن المعدة لرحلته ومنها سلك سبيل مدينة غندة وكانت مسقط رأسه واعتراه من الفرح والطرب ما يعتري امثاله من الشيوخ لدى رجوعهم الى اصل غرسهم ورؤيتهم الاشياء التي كانت لهم من جملة الملاهي في شرخ شبيبتهم ثم سار من غندة مصحوبا بابنته وبابنه فيليبش وباختيه ملكة فرانسا وملكة المجار وبصهره مكسيمليان وبعدد كبير من امراء الفلمنك وقبل ركوبه البحر ودع الجميع وخاطب كلا منهم بما يليق له من التعظيم والمودة وعانق ابنه فيليبش معانقة الاب لابنه عند فراق لا تلاقي بعده وركب البحر في ١٧ من شهر ايلول وكانت تخفره دونما كبيرة من مراكب اسبانيا والفلمنك والانكليز وقد دعته

سنة ١٥٥٦

ملكة الانكليز مع مريد الابرام ليترك محل من بلادها ليستريح عندها وتحظى برؤياه فلم يجبها الى ذلك قائلا انها من الملوك فلا يسرها ملاقاتي وانا واالدروجها وصرت الآن من آحاد الناس

مطلب وصوله الى اسبانيا

ولم يحصل له مدة سفره ادنى شئ يعكر خاطره ووصل سالما الى لاريدو في يسكاى الحادي عشر بعد ارتحاله من زيلاندة وعند نزوله البر وضع جبينه على الشاطئ وقال عبارة يفهم منها انه كان يعد نفسه من الاموات وان كان لم يزل بقيد الحياة وهي أن خاطب الارض بعد تقبيلها بقوله يا ام البشر قد خرجت من بطنك عريانا وسأعود اليك عريانا ثم ارتحل من لاريدو الى بورغوس تارة يحمله خدمته في كرسي وتارة يضعونه في تختروان وهو في غاية المشقة يتألم في كل حركة وخطوة وقد ذهب الى بورغوس بعض اعيان اسبانيا لمقابلته لكنهم كانوا قليلين جدا ولم يؤدوا اليه من رسوم التعظيم والتبجيل ما كانوا يفعلونه في حقه قبل الآن واحس شرلكان منهم التكلف وهذه اول مرة ايقن فيها انه تجرد عن مقام الملوكية وأثر فيه ذلك كل التأثير لانه كان متعودا من صغره على تعظيم الناس له واحترامه كما يليق بشأن الملوكية فتلقاهم مع الغرور والانفة كما هي عادة الملوك وتأثر اصعفه من كونهم لم يحترموه كالعادة مع انه كان يظن ان احترام الناس له لم يكن عن عقله بل كانوا يحترمونه نظرا لذاته الا انه لم تمض عليه برهة الا واعتاد على تلك الامور التي أثرت فيه وصار يتحمل من رعاياه اهمالهم في حقه ولا يعبأ بافعالهم ومع ذلك لحقه الالم والحزن من فعله تنافي شروط المروءة والانسانية فعلها في حقه ابنه فيليبش وهي انه لم يرع حقوق نعمه عليه ولم يرسل اليه نصف مرتباته في الاوقات المعينة مع ان تلك المرتبات كانت قليلة ولم يبق لنفسه سواها من جميع ما كان في حكمه من الممالك والاقطار ولتأخيرها اضطر شرلكان الى الاقامة بمدينة بورغوس عدة اسابيع حيث بدون وصول المبلغ المذكور اليه لم يكن في وسعه أن يكافئ خدمته بما هم اهل له في نظير خدمتهم او بما عوّدهم من العطايا بمحض الكرم ولذا

سنة ١٥٥٦

عسر عليه كظم غيظه واخفاء ما قام به من التعجب والاستغراب لفعل ابنه والحاصل انه بعد أن وصلت اليه مرتباته سرح كثيرا من خدمته لزيادتهم عن اللزوم عنده اولعدم اتساع التكاليف عليه فى عزلته ثم ارتحل الى مدينة ولادوليدة وفيها ودع اختيه وبكى لفراقهما ولم يأذن لهما فى أن يصحباه فى عزلته مع انهما الحتا عليه فى ذلك وأدمعهما ساكبة قائلتين ان اقصى امالهما مساعدته فى آلامه واوجاعه سيما وقصدهما أن يستعيدا من التعبدات والتنسكات الدينية التى سيقضى فيها بقية ايامه

محل عزلته

وتوجه من ولادوليدة الى مدينة بليرنسة الكائنة باقليم استرامادور وكان سبق له انه مر بهذه المدينة واستحسن موقع دير سانجوست التابع الى طائفة سانجيروم والدير المذكور غريب الموقع بالبعد عن مدينة بليرنسة ببعض اميال وكان شرلكان قبل ذلك عند رؤيته لهذا الدير قال لكثير من اتباعه ان هذا محل لو رآه ديوكاسيان لود ان يتخذ له خلوة فيه فلم يزل تأثيره باقيا فى نفسه حتى جعل عزلته فيه وكان هذا الدير موضوعا فى حوض ضيق مشتمل على غدير صغير ومحاط بتلال مخضرة وفيه اشجار كبيرة تظلل ارضه ومن جهة طبيعة الارض واعتدال القطر كان هذا الحوض الطف بلاد اسبانيا واسلمها للصحة وكان الامبراطور قبل تنازله بعدة شهور قد ارسل احد البنائين ليصنع له فى الدير المذكور سكنا لكنه امر أن لا يبنى هذا السكن على ما يليق لمقام الملوكية بل يكون على حسب ما يليق بحال الخمول والوحدة التى هو عازم على اتخاذها فصنع له ست غرف اربع منها على هيئة صوامع الرهبان وحيطانها مجردة عن الزخرفة والنقوش والغرفتان الباقيتان كانت مساحة كل واحدة منهما عشرين قدما مربعا وكانت حيطانهما مستورة بقماش اسمر وفراشهما وامتعتهما عارية عن الزينة والرونق وكان سطح هذا المسكن مستويا مع سطح الارض وله من احدى جهاته باب على بستان كان شرلكان قد اعطى رسمه بنفسه وملأه من نباتات متنوعة ابرزعها بيده وهو فى وحدته ومن جهة اخرى كان للمسكن المذكور رحبة

موصلة لمحل من الدير كان شرلكان اعدّه لنسكه وتعبداته ودخل ذلك الامبراطور وما معه من الخدم سوى اثني عشر مسابهذا المسكن الحقير الضيق الذي لا يكفي لسكنى شخص من آحاد الناس بحيث يكون فيه مستريحا وبانزوائه هنالك انزوى معه في زوايا الخمول والفتور مطالبه العالية المهمة ومطامعه العالية الجمة التي اوقعت ممالك اوروبا مدّة نصف قرن كامل في الفزع والاضطراب والرعب والانقلاب وارتعدت فرائص كل امّة من بأسه وشوكته وخشيت أن تشيب بها اطفال بطشه وصولته

سنة ١٥٥٧
في ٢٤ من شهر شباط

مطلب
المغايرة الموجودة بين اعمال شرلكان واعمال البابا

وكان ثم بون بعيد بين اعمال الامبراطور واعمال البابا حتى ادرك الفرق بين افعالهما كل غافل اومتساهل من المتفحصين وعند مقابلة امورهما ببعضها عاب الناس على البابا بولص المذكور وذلك ان شرلكان وان كان من الفاتحين المجبولين على حب الحكم والرياسة وكان معتادا امد زمن طويل على الابهة والتفاخر كما هو مقتضى مقام الملوكية وما تصدّى اليه من تطلب المجد والمعالي حسبما جرّبه طمعه وولعه قد ترك لدسائسه وهو غير طاعن في السن وعزم بدون التنازل عن سرير الملك أن يقضي بقية ايامه في الراحة والنعيم بأن يجعل لنفسه اوقاتا مخصوصة يخلو فيها عن الاشغال لريض عقله وترويح ذهنه واما بولص فهو وان كان قسيسا قضى سنيه الاولى مترويا في المدارس منكبا على الاشتغال بالعلوم العصرية وسبق له ما يدهم زهده في الدنيا حيث اعتكف عن الخلق عدّة سنوات وحبس نفسه سنين في خلوة من احد الديور ولم يرق الى كرسي البابا الا وهو هرم طاعن في السن قد ظهر عليه على حين غفلة شدّة الطمع الذي هو من شأن الشمو لية وتصدّى الى مشروعات كبيرة ولم يخش أن يترتب على سعيه في تدبيرها وقوع الفشل في اوروبا واشتعال نيران الحرب في كافة دولها ومع كون الناس عابوا عليه في ذلك ووصموه بالنقص والخسة لم يرجع عن الوقاحة التي هو مجبول عليها ولم يزل مصرّا على ما رامه حتى ان وقاحته وان كانت وقتئذ فوق حدّ ما يتصوّر طبعي وبغي وزاد عتوّا لدى مجيء الدوق دوكيز الى ايطاليا لقصد

سنة ١٥٥٧

امداده واعانته

مطلب
توجه الدوق دوكيز الى ايطاليا مع جيش من جنود الفرنساوية

وقد حصل ما كان تمناه الاميران دولورينة من التسليم فى قيادة الجيش المبعوث لاعانة البابا الى الدوق دوكيز حيث ارسل هذا الدوق الى ايطاليا مع جيش مشتمل على عشرين الف رجل من اجود الجنود التى كانت موجودة اذذاك فى خدمة فرانسا وكان لهذا الدوق شهرة كبيرة فى العسكرية وكان يؤمل فيه أن سيبذل غاية جهده وما عنده من العرفان فى هذه الحرب سيما وكان هو السبب فى ايقاع فرانسا فيها ولم يوقعها فى ذلك الا ليفتح لنفسه ابواب الشهرة والفخر ولهذا الداعى ادرج فى جيشه كثيرا من الكرادات الفرنساوية بمحض ارادتهم واجتاز هذا الجيش جبال ألبة فى فصل شتاء شديد وتقدم الى رومة ولم يتعرض اليه عساكر اسبانيا الموجودين بذلك الطرف لانهم لم يكونوا كثيرين حتى ينتشروا فى محلات كثيرة فبقوا مجموعين معا على حدود مملكة نابلى ليمنعوا الاعداء عن الدخول بها

مطلب
اظهار البابا العداوة الى فيليبش

وقوى قلب البابا لقدوم الفرنساوية فاظهر ما كان بضميره من الحقد للملك فيليبش لان البابا وان كان حديد المزاج وكان غيظه من فيليبش لا مزيد عليه الجأته الضرورة بكظمه حيث لم يكن ذا اقتدار على مخاصمة فيليبش فلما رأى الفرنساوية انصارا له عين من طرفه اناسا وامرهم ببت

فى ١٢ من شهر شباط

الحكم فى الدعوى التى كان امين الدعاوى بديوان الكردينالات قدمها فى حق فيليبش لقصد اثبات ضياع حقه فى تاج مملكة نابلى بسبب عصيانه على الكنيسة وهو من اساءتها وصدر من البابا ايضا اوامر الى نوابه

فى ٩ من شهر نيسان

الموجودين بديوان كل من شرلكان وابنه فيليبش والمتحالفين معهما بالرجوع الى رومة وكان القصد من ارجاعهما اعاظة الكردينال دولابول الذى كان نائبا عنه فى ديوان انكلترة وكان خبيرا ممتازا وبذل غاية جهده حتى اصلح ما بين انكلترة وكنيسة رومة وكان يؤمل فيه أن يخدم الكنيسة فى امور جسيمة اخرى ومع ذلك حقد له البابا وغضب عليه لكونه

سنة ١٥٥٧

توسط في ايقاع الصلح بين عائلة الاوستريا ومملكة فرانسا وكانت العادة جارية في رومة بلعن اعداء الكنيسة في يوم الخميس المقدس من كل سنة فاصاف پولص الى الجاري في كل سنة مقدارا جسيما من السخط واللعن وحكم بالطرد والحرمان على من شنوا الاغارة اخيرا على دول الكنيسة ولم يستثن منهم احدا قل او جل وبناء على ذلك ابطل في اليوم الثاني من عربة البابا الدعاء المعتاد للامبراطور

ولكن البابا مع اتباعه هوى نفسه في عصبه وتجاوزه الحد في تهوره حتى صارت فعاله في ذلك تعد من قبيل ما لا يرتكبه الا الاطفال او المجانين كان لاهماله او عدم اقتداره لم يستعد بما يجعل عصبه ذا تأثير عند اعدائه وذلك ان الدوق دوكيز وان تلقوه عند دخوله مدينة رومة مع الاحتفال والابهة كأنه قادم من حرب انتصر فيها او آتاه الدهر آماله لا قادم الى واقعة اماعليه واماله لم يحصل له انشراح لدى وقوفه على حقيقة الامور حيث لم يجد مهمات الحرب ومالزمها في الحالة التي اخبرعنها كاراف ووجد جنود البابا اقل عددا مما انعقدت الشروط عليه ولم يكن هنالك من الذخائر والاصناف ما يكفيهم ولم يكن موجودا بالخزينة ما يلزم لصرف ماهياتهم هذا وقد حصل ان اهل البندقية اعتبارا بما اصاب على جمهوريتهم سابقا من المصائب اخبروا البابا واحزابه انهم مصممون على أن يبقوا على الحياد وأن لا يتداخلوا في حروب ملوك اعظم منهم قوة واما بقية دول ايطاليا فانضم بعضها جهرا الى حزب فيليپش والبعض الآخر كان يود سرا انتصاره على هذا البابا حيث اوجب طمعه ازدياد اشتعال نيران الحرب بالثاني في بلاد ايطاليا

مطلب وقايع الدوق دوكيز

ولما ايقن الدوق دوكيز ان اعباء الحرب ستقع كلها عليه ندم حيث لا ينفع الندم على وثوقه بالبابا واعتماده على امداد من طرفه بحيث يمكنه تحرير ما كان في نيته من المشروعات الحسية الا انه كان له رغبة عظيمة في تتميم ما اهتم به وكان البابا يلح عليه كل الالحاح في افتتاح الحرب فتوجه الى نابلي وقابل

سنة ١٥٥٧

الاعداء بالقتال غير أن نجاحه في مبدأ الامر لم يكن قدر ماله من الشهرة
ولا على طبق ما كان يؤمل فيه بالنظر لدرايته بالحروب بل ولم يكن على وفق
ما وعد به هو نفسه من قبل وذلك انه افتتح الحرب بمحاصرة سيوتلا وهي
مدينة كبيرة موجودة على حدود مملكة نابلي يدافع عنها المحافظ الاسبانيولي
الموجود بها مع مزيد القوة وغلبت قوته عزم الجنود الفرنساوية حتى اضطر
الدوق دوكيز بعد ثلاثة اسابيع الى رفع الحصار ورجع يجر ذيل الخزي
لدى الادبار لكنه أملا في محو ما لحقه من العار عطف عنان جسارته نحو
معسكر الدوق دالب وعرض عليه القتال وكان دالب المذكور من ذوي
التبصر في عواقب الامور لا يجهل فائدة الاقتصار على المدافعة مع عدو دفعته
نفسه الى القتال فتجنب الحرب واقتصر على المدافعة عن معسكره من داخل
المتاريس وداوم على هذا المنوال مع التثبت والاصرار كما هي عادة
القسطليين ابناء وطنه وفسد حزمه وتدبيره جميع مادبره الدوق دوكيز
من المكر والخداع ليوقعه في القتال هذا وكانت الامراض في اثناء ذلك تفني
جنود الفرنساوية وكانت حصلت منازعة كبيرة بين سرعسكرهم وبين رئيس
الجنود الرومانية فانتهز الدوق دالب تلك الفرصة وجدد اغاراته على
الاراضي القسيسية وايقن البابا بعجزه وعدم اقتداره على المدافعة عن
بلاده من الاعداء بعد أن كان يؤمل الظفر بهم والتغلب على بلادهم فصار
يتشكى ويتظلم ويتطلب الصلح واما الدوق دوكيز فتأثر كل التأثير
من عدم نجاحه حتى انه تضرع الى ديوان ملك فرانسا في أن يرسل اليه امدادا
او يأذن له بالرجوع من ايطاليا ولم يقتصر على ذلك بل طلب من البابا
أن يوفي بما كان قد تعهد به وحض الكردينال كاراف وصار يلومه تارة
ويهدده اخرى ليجبره على تأدية مواعيده حيث هي اوقعته في الخطأ ولم يلح
على سيده هنري في فسخ الهدنة مع فيليش والمعاهدة مع البابا
الا لاعتماده على تلك المواعيد واغتراره بزخرفها

مطلب
الحرب الحاصلة وقتئذ بمملكة البلاد الواطية

وبينما كان الفرنساوية في اسوء حال ببلاد ايطاليا حصلت في مملكة البلاد

الواطية

سنة ١٥٥٧

الواطية حادثة لم تكن على خاطر احد وبهادعى الدوق دوكيز من ذلك المحل وكان يعد عليه بها اكتساب الفخر والشهرة الى محل آخر وجعل فى اعظم منصب واشرف مقام بعد مقام الملوكية وسبب ذلك هو أن الفرنساوية لدى ارسالهم الجيش المتقدم ذكره الى ايطاليا ومحاولتهم التغلب على بعض المدائن الموجودة على حدود فلاندرة فهم منهم انهم عازمون على فسخ الهدنة المنعقدة بمدينة وسيل كما تقدم فصمم فيليبش وان كان لايحب الخصام على الحرب والقتال مع همة لا تكل حتى يرى اعداءه ان الولد سر ابيه وان والده شرلكان لم يخطئ فى كونه رآه جديرا بأن يسلم له فى اعنة الحكم وكان فيليبش يعلم ان ملك فرانسا قد صرف مبالغ كبيرة لتجهيز الجيش المبعوث الى ايطاليا مع الدوق دوكيز وان خزائنه لاتكفى الاقليلا فى المصاريف الجسيمة التى تستلزمها الحرب فى مثل تلك الاقطار البعيدة وبناء على ذلك ادرك ان الفرنساوية اذا فتحت عليهم حربا اخرى من جهة مملكة البلاد الواطية لا يمكنهم القيام بأعبائها مادام باب الحرب مفتوحا عليهم ببلاد ايطاليا فصمم لاصابة رأيه على تحويل معظم قواه الى الجهة التى لا يوجد فيها الا القليل من جنود الفرنساوية وجمع من مملكة البلاد الواطية لهذا القصد جيشا يبلغ نحو ستين الف رجل وساعده اهل فلاندرة على ما يريده كل المساعدة كما هى عادة الرعايا غالبا فى حق كل ملك تولى الحكم عن جديد هذا وكان فيليبش من صغره يظهر عليه علامات النباهة والتبصر فى عواقب الامور ولم يكتف بهذا الجيش الجرار وسعى فى امور اخرى حتى يتحقق النجاح فى مشروعاته المذكورة فجد فى استمالة الانكليز الى حزبه ليكونوا حلفاءه وانصاره

مطلب
سعيه فى استمالة الانكليز الى حزبه لعينوه فى هذه الحرب

وكان منذ زمن طويل يسعى فى استمالة الانكليز الى مساعدته على الحرب وكان الانكليز لايجهلون ان لهم مصلحة كبيرة فى مكثهم خلى اعراض عن الحربين المتشاحنين بل وكان فيليبش لايجهل كونه ممقوتا عند الملة الانكليزية بحيث يشق عليها أن تساعده على تتميم اى شئ كان من مشروعاته

سنة ١٥٥٧

ومع ذلك لم يقنط فيليبش من اعانتهم له لدى التماسه الاعانة منهم وكان يعتمد فى ذلك على محبة ملكة الانكليز له وهى زوجته كما تقدم وكانت لم تزل تحبه مع ما فعله معها من الامور الغير اللائقة فكان جازما بأنها لا تخرج عن رأيه وانها لا بد وان ترضيه فيما يطلبه هذا وقد سافر بنفسه الى انكلترة حتى لا يعسر عليه شئ ويفوز بمرامه

وكانت ملكة انكلترة مدة غيابه فى كآبة وهزال ففرحت لقدومه وعادت اليها القوة فلم تلتفت الى مصلحة مملكتها ولا الى قول رعاياها واطاعته فى جميع ما عرضه عليها وعارضتها شوراها الخاصة فى ذلك وافهموها ان التعرض لتلك الحرب من الخطأ وعدم التبصر فى العواقب بل ويلقى بالملة الانكليزية الى التهلكة والاخطار وذكروها بالمعاهدات والمشارطات الاكيدة المنعقدة بين كل من مملكتى فرانسا وانكلترة وافهموها ان تلك المشارطات لا يجوز نقضها بأى علة كانت الا ان مارية لم تقبل منهم عدلا ولا صرفا وسبب عدم اصغائها لقولهم اما ان يكون استحواذ فيليبش على عقلها بالحيلة والخداع اوانه اغلظ عليها وكانت تحبه حبا جما فلا يعظم عليه تهديدها وتخويفها حاشاه والحاصل انها اصرت على الحرب فى اقرب وقت مع مملكة فرانسا ولم تزل شوراها الخاصة تعارضها مدة مستطيلة مع اتصافها بمقام الملوكية ومع تحيل فيليبش على اربابها كل التحيل وبعد المعارضة تلك المدة سلمت الشورى فى الامر المطلوب الا ان تسليمها لم يكن عن طيب خاطر بل لمحض الامتثال الى امر الملكة واعلن رسم الحرب الى مملكة فرانسا

فى ٢٠ من شهر يونيه (جوان)

ولربما لم يسبق للملة الانكليزية الدخول فى حرب بدون اختيار الا هذه المرة وكانت مارية تعلم ان نفرة الانكليز من هذا الحرب فوق كل حد ولذا لم تجسر على عقد مجلس البرلمان اى حيث ان تجمع وكلاء الملة لتطلب منهم الامداد والاعانة بل ضربت بنفسها مبالغ جسيمة على الرعايا وفى ذلك تجاوز لحدود قدرتها حيث يجب عليها بمقتضى اصول الدولة ان تعرض مثل هذا الامر على ارباب مجلس البرلمان اى وكلاء الملة

فاذا

سنة ١٥٥٧

فاذا اقروه لدى المذاكرة معا حكموا بالاجراء وعلى كل فقد جمع ما امرت به من المبالغ و به امكنها ان تجمع طائفة كبيرة من الجنود وارسلت ثمانية آلاف رجل تحت رياسة القونت دوپامبروك الى جيش فيليپش ليكونوا معينين له

مطلب
وقايع جيش فيليپش بمملكة البلاد الواطية

ولم يكن فيليپش ذاوله في اكتساب الشهرة والفخر بالتظاهر والعاوق في الحرب فاعطى قيادة جيشه الى الدوق دوساووة المسمى ايمانويل فليبر ثم توجه الى مدينة كامبرى ليقيم بها حتى يكون قريبا من محل الواقعة لتصله الاخبار في اقرب وقت من رئيس جنوده المذكور ويأمره بما يستحسنه وقد افتتح هذا الدوق الحرب بما شهد له بالمهارة والشطارة واثبت تفوقه في المعارف على رؤساء الجنود الفرنساوية وتحقق الناس ان اختيار فيليپش له كان في محله وانه لا بد وأن يكون المصرح لديه في جميع وقائع مدة هذا الحرب وذلك ان الجهة التي عينها لتكون ملتقى جنوده كافة كانت بعيدة جدا عن المحل الذي كان نوى في ذهنه ان يجعله مركزا للحرب ثم مكث مدة يشاغل اعداءه وهم لا يدركون حقيقة ما رتبه وحدعهم بسيره من جهة الى اخرى كالمتردد في اموره وظنوا ان نيته أن ينقض بجنوده على اقليم شمپانيا ليلج من تلك الجهة في مملكة فرانسا وبناء على هذا الظن توجه الجيش الفرنساوي الى هذا الاقليم وزيد الى محافظيه معظم من كانوا محافظين على المدائن الاخرى الموجودة على حدود المملكة حتى لم يبق بهذه المدائن من الجنود ما يكفى للمدافعة عنها لدى الهجوم عليها

مطلب
احاطته بمدينة سانكانتين

فلما رأى الدوق انخداع اعدائه بحيله وتدبيره عطف الى يمينه مجدا في السير وجال في اقليم پيكاردية وارسل امامه الفرسان من جنده وكانوا كثيرين ولم يزل مستمرا على السير حتى احاط بمدينة سانكانتين وكانت معتبرة اذ ذاك من احصن المدن وكانت من اهمها لانه قل ان كان يوجد وقتئذ مدائن اخرى محصنة فيما بينها وبين پاريس التي هي تخت مملكة فرانسا ومع ذلك كان اهمل الفرنساوية في تحصينها كل الاهمال واخذ مقدار من محافظيها

سنة ١٥٥٧

ارسل الى اقليم شمبانيا حتى لم يبق بها من الجنود ما يكفى لتحمل مشاق المحاصرة على ان رئيس المحافظين بها وان كان بطلا هماما ذا خبرة ودراية كانت رتبته ونفوذه دون ما يلزم لحفظ مدينة كبيرة مهمة مثل هذه وقد هجم عليها جيش جرار ولو بقيت على هذا الحال لتغلب عليها الدوق دوسافوة فى ايام يسيرة الا ان الاميرال دوكولونى حاكم اقليم بيكاردية رأى ان من العار له ضياع تلك المدينة وان حفظها مما يجب عليه لوطنه سيما وكانت من جملة مدن اقليمه فألقى بنفسه الى المدينة مع من امكنه جمعه من العساكر وذلك فعل جليل لا يجسر عليه سوى ذوى الشهامة كيف وقد جر مقدار من سرية جنوده ومع ذلك لم يزل يجول بين صفوف الاعداء حتى ولج بالمدينة فلما رأى محافظوها انه خاطر بنفسه مع علو رتبته وسمو شهرته واقتحم الاهوال حتى وصل اليهم ليساعدهم تقوت قلوبهم وعظم تجلدهم وقد صرف كولونى كل ما جادت به قريحته مع تمكنه من فن الحرب وتجاريبه الكثيرة فى اتعاب المحاصرين للمدينة وفى تحصينها حتى يمكن من بها أن يدافعوا عنها وعن انفسهم حق المدافعة وانضم اهل المدينة الى العساكر وخدموا كولونى خدمة صادقة حتى كان يتراءى منهم انهم مصممون على القتال الى أن يموتوا و يجعلوا انفسهم فداء لسلامة مملكتهم

مطلب
حصور الفرنساوية لاعانة مدينة سان كانتين

ووصل القونت دوپامبروك مع العساكر الانكليزية الى الدوق دوسافوة وهو يبذل غاية جهده فى حصر المدينة والمضايقة عليها ومما لا ينبغى تفصيله هنا تفوق مثل هذا الجيش وكان جرارا يكثر عدده جميع ما يلزم له من الذخائر والمهمات على محافظى المدينة وكانوا لقلتهم لا يجسرون على الخروج منها ليفسدوا على المحاصرين ما يديرونه من العمليات وكان كولونى لا يجهل ان المدينة فى خطر عظيم وانه يستحيل عليه المدافعة عنها مدة مستطيلة فكتب الى عمه مونتورانسى يخبره بذلك وكان وقتئذ سر عسكر الفرنساوية و بين له طريقة يمكن بها توصيل الامداد الى المحصورين بالمدينة وكان مونتورانسى يعلم ان حفظ تلك المدينة من اهم الامور حيث ان

الاعداء

الاعداء اذا تغلبوا عليها ساغ لهم الجولان بداخل المملكة وان من الواجب عليه انقاذ ابن اخته من تلك التهلكة التي اوقعه فيها حبه لوطنه فقبل ما عرض عليه وصمم على التوجه لاعانة المدينة ولو اوقعه ذلك في المهالك والاخطار وسار على تلك النية من لافير الى سانكانتين المذكورة وكان جيشه لا يبلغ نصف جيش الاعداء فاعطى الامير داندلوت شقيق كولوني قيادة طائفة من العساكر الخاصة وجعله رئيسا على كافة المشاة من جنود الفرنساوية وعرفه الطريق الذي اخبره به كولوني من قبل وامره ان يدخل منه الى المدينة واما هو نفسه فبقي مع معظم الجيش ليهجم على معسكر الاعداء من جهة اخرى حتى يشتغلوا به ويغفلوا عن داندلوت وعساكره لدى دخولهم المدينة لكن داندلوت لم يتبع في اجراء ما امر به سبل الاصابة والسداد وانما اعتمد على الشجاعة والجلادة وانقض بعسكره على الاعداء بدون احتراس وهزموا اول فوج تصدى لسد طريقهم لكنهم بعد قليل وقع الخلل في صفوفهم وانقضت عليهم جنود اخرى واحتاطت بهم من كل فج حتى قتل اكثرهم الا ان داندلوت كان لم تدن منيته فساعد جسارته الحظ هو وخمسمائة معه من جنوده ووصلوا بشق الانفس الى المدينة ودخلوا بها

مطلب
واقعة سانكانتين

هذا ما كان من شأن داندلوت واما مونتمورانسي فخرّت به بنته الى ان قرب جدا من معسكر الاعداء المحاصرين للمدينة فارتبك حاله ولم يمكنه ان يرجع على عقبيه آمنا من جهتهم اذ كانوا اكثر منه نفرا وكان الدوق دوساوة متيقظا متنبها فادرك ان مونتمورانسي قد اخطأ خطأ كبيرا في تقربه من المعسكر وتأهب لانتهاز تلك الفرصة وصف جيشه سريعا وترقب الفرنساوية حتى اخذوا في المسير نحو لافير ووجه اليهم الكونت دغمون مع فوج الفرسان ليهجموا على ساقة جيشهم واما هو نفسه فتقدم مع المشاة ليكون معينا للفرسان على الهجوم ولم يزل الفرنساوية آخذين في الانتحاء مع الثبات التام وحسن النظام الى ان رأوا دغمون منقضا عليهم مع الفرسان وكانوا كثيرين جدا فأحسوا أن لا طاقة لهم على المقاومة

سنة ١٥٥٧

وأن لا تحين مناص سيما وكانوا لا يعتمدون حينئذ على اميرهم مونتمورانسى لكونهم قد ادركوا جميعا ما ارتكبه من الخطا فى التقرب من معسكر الاعداء فتمكن الرعب والخوف من قلوبهم واخذوا يجدون فى السير وساقة الجيش تدفع من امامها حتى ظهر عليهم فى اقرب وقت علامات الهزيمة والانكسار وفهم انهم آخذون فى الفرار لا فى الالتجاء وادرك دغمون حال ارتباكهم فحمل عليهم حملا قويا ولم تمض برهة الا وانهزم فرسان الفرنساوية وولوا مدبرين وان كانوا حينئذ معتمد الجيوش الفرنساوية وزهرتها الاان مونتمورانسى كان لم يزل مع المشاة وكان له فيهم كلمة نافذة فنعهم عن الشتات والتبدد ولم يزالوا باقين تحت ألويته آخذين فى الالتجاء مع حسن النظام الى ان أتى دغمون بعدة مدافع ووجه شرار نارها الى مركز هؤلاء المشاة فانحل نظامهم فى اقرب وقت وحل بهم الخلل والارتباك وامر حينئذ دغمون الفرسان بالهجوم عليهم فهدموا بناء صفوفهم وحقت عليهم الهزيمة وقتل منهم فى تلك الواقعة نحو أربعة آلاف من جملتهم الدوق دانغيان وكان من العائلة الملوكية ووجد فيهم ستمائة من اعيان البكرادات واما مونتمورانسى فلم يجد اذذاك وسيلة فى ارجاع الحظ اليه بعد الادبار وخشى العار وصمم على أن لا يعيش بعد تلك المصيبة وكانت ناشئة عن قلة حزمه وعدم تبصره فى عواقب الامور فرمى بنفسه الى اكثف صفوف الاعداء ليهلك وهو يقاتلهم بحسامه فجرح جرحا قاتلا وانترحت قواه بنزيف دمائه فاحتاط به عند ذلك بعض ضباط فلمنكيين كانوا يعرفونه وأنقذوه من ايدى العساكر وحملوه على التسليم واخذ اسيرا وأسر معه ايضا كل من الدوق دومونبانسية والدوق دولونكويل والمارشال دوستاندرة وعدة من الضباط المختارين وثلاثمائة من البكرادات والاعيان ونحو اربعة آلاف من العساكر وتغلب الغالبون على اعلام المشاة جميعها وعلى الذخائر والمهمات الحربية وجميع المدافع سوى قطعتين منها على ان الغالبين لم يفقد منهم فى هذا الحرب اكثر من ثمانين رجلا

مطلب
هزيمة الفرنساوية وشتاتهم

سنة ١٥٥٧

مطلب
ماكان لهذه الواقعة من التأثير اول وهلة

وكانت هذه الواقعة مشؤومة على مملكة فرانسا كواقعة كريسى وواقعة ازنكور لدى انتصار الانكليز عليهم في عين هذا المكان وتشبه الواقعتين المذكورتين ايضا من وجوه اخرى وهي انهزام الفرنساوية في اقرب وقت وعدم حزم اميرهم وكثرة من قتل واسر فيها من الضباط المختارين وقلة من فقده الغالبون ومانزل بمملكة الفرنساوية اذذاك من الهم والغم والرعب الجم حتى ان كثيرا من اهل باريس فزعوا كما اذا كان الاعداء في ابواب المدينة وبادروا بالارتحال منها الى داخل المملكة وصار الملك وقتئذ يبذل جهده في تطمين من بقي بها وتقوية قلوبهم وباشر بنفسه ما لزم من الاشغال لاصلاح الحرب من استحكامات المدينة وحصونها وبذل في ذلك وسعه وتأهب لدفع الاعداء لدى هجومهم على المدينة الا انه لحظ فرانسا كان فيليبش خوفا هيابا وكان الاميرال دوكولونى لم يزل مقيما على المدافعة عن مدينة سانكانتين بقوة وعزم يندر وجودهما في الخلق ولذا أمنت مدينة باريس من الخطر الذى كانت تخشى الوقوع فيه بل والفى الفرنساوية في الحالة وسعة في الوقت حتى أفاقوا من دهشتهم واطمانت قلوبهم مما اصابهم بغتة فأفزعهم واضاع قوتهم وشمر الملك هنرى عن ساعد الجد والجهد في تدارك ما يأمن به على مملكته واستعد في اقرب وقت لدفع اعدائه وتأهب لذلك بأمور جليلة تشهد له بانه جدير بالحكم على ملة قوية حربية مثل ملة الفرنساوية

مطلب
توجه فيليبش الى جيشه

ثم ان فيليبش بعد الواقعة المتقدم ذكرها توجه حالا الى معسكر جنوده تحت اسوار سانكانتين وتلقوه ثم في موكب عظيم من المواكب العسكرية التي تصنع عادة لدى الظفر والنصر واشتد فرح فيليبش بانتصاره في اول حكمه ظهر عليه حسن الخلق وان كان متكبرا جبارا ومكث حينا وهو يمازح الخلق ويلاطفهم ملاطفة لم تكن من طبعه حتى ان الدوق دوسافوة لدى دنوه منه اراد أن يجثو على ركبتيه ليقبل يديه فعانقه فيليبش معانقة الاحباب قائلا يجب على منى أن اقبل يديك حيث كنت سببا في هذا النصر

سنة ١٥٥٧

الجليل ولم يفقد من رجاله سوى القليل

مطلب
مذاكرة فيلبيش مع كارضماطه فى شان استمرار الحرب

و بعد فراغ مراسم تبريك قدومه وتهنئته فى قومه انعقد مجلس عسكرية وحصلت المذاكرة به فيما يلزم فعله لاغتنام ما احتوت عليه تلك النصرة من الفوائد الجليلة اما الدوق دوسابوة ومن كان معه من الضباط الماهرين الذين تربوا فى عهد شرلكان فكان رأيهم ان يترك حالا حصار سانكانتين ادليس حربيا باشتغال الجيش به وأن يساق بالجيش الى مدينة باريس لحصرها حتى تسلم اليهم وعضد الدوق المذكور هذا الرأى بما افاده من أنه لا يوجد فى طريقهم عساكر تصدهم ولا قلاع تردهم وتمنعهم الوصول الى تلك المدينة وان الفرنساوية فى دهشة كبيرة لانهزام جندهم فمن عاتق همالك يجعلهم المسير الى باريس والتغلب عليها باسهل طريق واما فيليبش فكان اقل جراءة واوكثر تبصرا من رؤساء جيشه فرجح ثمرة قليلة حقيقية عن ثمرة جليلة مشكوك فى الظفر بها فأفاد ارباب المجلس بأن مملكة فرانسا قوية لا تعجز عما تدفع به عن نفسها وان الفرنساوية ابطال جبلوا على حب الفخر بالحرب وحب ملوكهم وانه يرجح كثيرا ما يرجح محاربهم فى ارضه و بلاده ويخسر خسرا نامبينا ويهلك جيشه اذا جال فى مملكتهم قبل أن يتغلب على مكان يجعله وصلة بينه و بين بلاده بحيث يأمن العاقبة ويسهل عليه الالتجاء اذا خانه الدهر واضطر الى الرجوع على عقبيه هذه كانت ملحوظاته و بموجبها انحط الرأى على استمرار حصار سانكانتين وامتثل اليه رؤساء جيشه فى ذلك عن طيب خاطر اذ كانوا جازمين بأن سيكون تغلبهم على سانكانتين المذكورة قبل مضى ايام قليلة بحيث لا تستغرق منهم مدة تضيع عليهم ما دبروه من الهجوم على باريس بل وكانوا جازمين بأنهم مع تشميرهم عن ساعد الجد والاجتهاد يتغلبون عليها فى اقل مما يظن و يباشرون تحرير ما كان فى نيتهم

مطلب
مدافعة كولونى عن مدينة سانكانتين

وكانت تحصينات سانكانتين فى اسوأ حال وكان محافظوها لا يؤملون وصول امداد اليهم من اى جهة كانت ومن هذا الوجه كان يظهر ان ضباط فيليبش

لم يخطئوا

سنة ١٥٥٧

لم يخطئوا فى حسابهم انهم سيتغلبون على المدينة فى اقرب وقت ولكن ثم أمر آخر لم يلتفتوا اليه وهو أن كولونى كان رئيسا فى المدينة فغفلوا عن قدره ولم يدخلوه فى حسابهم وان كان يفوق على جميع امراء عصره فى العسكرية و يمتاز عنهم بصفات جليلة وهى انه كان يصبر على البلوى و يرى منه التجلد التام لدى الشدائد والملمات وكان دائما وقادا يجود عقله بكل بادرة حتى تخال قريحته تزداد سعة وقوة عند كل مشكل ومعضل وكان بمكانة من جلب قلوب الناس اليه مع بقائه مهابا محترما عندهم نافذ الكلمة بينهم ولو كان ذلك فى اعسر وقت واصعب مركب وهذه صفات لا يليق سواها بمقتضيات الاحوال اذ ذاك وكان يعلم ان كل برهة لا تعادلها قيمة بالنسبة لوطنه فى تلك الشدائد والاهوال فبذل وسعه فى اطالة مدة الحصار ومنع الاعداء عن الشروع فى امر آخر يكون اشأم من حصار المدينة المذكورة على مملكة فرانسا والحاصل انه ثبت امام الاعداء و بذل فى دفعهم عن تلك المدينة من البراعة والمهارة ما لا مزيد عليه وعلم كيف يلقى الصبر على المحافظين حتى ان مدة المحاصرة كانت سبعة عشر يوما وان كان يوجد بها رجال من ملل ثلاثة اعنى الاسبانيوليين والفلمنكيين والانكليز وكانوا يتسابقون معا لغيرة كل منهم على اشتهار ملته وعلو افتخارها و يبذلون الجهد للتغلب على المدينة فى اقرب وقت و بعد ذلك اخذت المدينة عنوة وتكاثر الاعداء على كولونى واسروه وهو بالثلم لم يبرح عاكفا على قتالهم

مطلب اخذ المدينة عنوة فى ٢٧ من شهر اوغسطوس

هذا ومدة ما كان كولونى يشغل الاعداء بتجلده وثبته كان الملك هنرى يصرف جهده فى أن يتأهب لقائهم ومنعهم الدخول فى مملكته فعين ضباطا لجمع البقايا الناشئة من جيش الامير مو نتمورانسى وصدرت منه اوامر بأخذ رجال للعسكرية من جميع بقاع المملكة واستصرخ كافة الاشراف والكرادات الموجودين بضواحى المملكة ليدعوهم الى التسلح والاجتماع تحت رياسة الدوق دونوير فى اقليم بيكاردية وحضر ايضا معظم الجنود القديمة الموجودة باقليم بيمون تحت رياسة المارشال دوبريساك

مطلب مبادرة الملك هنرى بالمدافعة عن المملكة

سنة ١٥٥٧

وبعث اكثرمن سفير الى الدوق دوكيز يأمره بالرجوع مع جيشه حالا للمدافعة عن المملكة وارسل مخصوصا من عنده الى حضرة السلطان يلتمس منه أن يمده بالسفن العثمانية وأن يقرضه مبلغا من الدراهم يستعين به على ما اصابه وبعث آخر الى مملكة ايقوسيا ليحث اهلها على شن الاغارة على شمال انكلترة حتى تشتغل الملكة ماريه بذلك فلا يمكنها أن تمد فيليپش بجنود أخرى من عندها وبالجملة فقد رأى هنرى فى رعاياه من الشهامة والصداقة ما شد عضده اما مدينة باريس فتبرعت له بثلاثمائة الف فرنك واقتدى بها فى تلك المروءة جميع المدائن الكبيرة من المملكة وساعدته بحسب ما فى وسعها وتعهد عدة من اكابر الاشراف بأن يقوموا بما يلزم للمدافعة عن القلاع والمدائن التى يخشى عليها من الاعداء اكثر من غيرها ولم تكن تلك الشهامة مقصورة على مجموع طوائف الاهالى بل ازدادت الحمية عند جميع الناس حتى كان كل فرد مستعدا لبذل جهده وما فى وسعه كأن عرض الملك ونجاة الوطن متوقفان على مجرد عزمه ومحض شهامته

مطلب
لم يستفد فيليپش من نصرة سنكانتين عظيم فائدة

وكان فيليپش لا يجهل ما كان يدبره ملك فرانسا لصون بلاده وما كان الفرنساوية عليه من الحمية والشهامة للمدافعة عن اوطانهم وادرك أخيرا انه قد فاته فرصة لا يسمح الدهر بمثلها وانه بعد ذلك لا يمكنه الدخول بمملكة فرانسا فعدل بدون ان يلحقه كبير أسف عن تلك النية اذ كانت جسيمة خطرة على كل هياب من امثاله واقتصر على حصار كل من مدينة هام ومدينة كاتليت وتغلب عليهما بجنوده فى اقرب وقت وكان هاتان المدينتان مع مدينة سانكانتين ثمرة تلك النصرة الكبيرة التى لم يظفر أحد بأعظم منها فى ذلك العصر ومع ذلك كان فيليپش لم يزل يظهر الفرح التام لانتصاره على الاعداء وكان فى كل الامور ذا اوهام باطلة كاسدة واعتقادات عاطلة فاسدة فنذر أن يبنى كنيسة وديرا وقصرا للقديس يسمى لوران فى نظير انتصاره بواقعة سانكانتين حيث صادف ذلك مولد القديس المذكور وقبل مضى السنة

سنة ١٥٥٧

ووضع فى موقع يسمى اسكوريال بقرب مدينة مدريد اساس عمارة مشتملة على ما ندره ولفرط بدعه جعل بناء هذه العمارة على شكل مصبع حيث ورد فى سير القديسين ان هذا القديس زهقت روحه وهو يعذب على شبالك من الحديد تقاد تحته نار حامية ومع ما اوقعه به طمعه من المشروعات العظيمة الجسيمة المصاريف مكث اثنين وعشرين سنة وهو يجد فى اتمام هذه العمارة المعدودة اثرا لغروره وفرط تدينه وصرف عليها مبالغ شتى وبقيت بعده للملوك الاسبانيا قصرا يعد أفخر القصور الملوكية الموجودة ببلاد اوروبا واكثرها تجملا ورينة وان لم يكن اطرفها فى الرسم والصورة

مطلب رجوع الفرنساوية من ايطاليا

واول من وصل خبر هزيمة الفرنساوية بواقعة سانكانتين الى مدينة رومة هو المبعوث من طرف هنرى بصدد حضور الدوق دوكير مع من كان تحت رياسته من الجنود وحيث تقدم أن البابا مع اعانة الفرنساوية له لم يمكنه أن يدافع عن نفسه حتى المدافعة من الاسبانيولين ايقن انه لدى تخلى انصاره عنه لابد وان يزحف الاسبانيولون على بلاده بدون تراخ واذا تظلم من خروج جيش الفرنساوية من اراضيه وبالغ فى لوم الدوق دوكير حيث كان السبب فى ايقاعه بهذا المشكل وتشكى من هنرى حيث تركه وتخلى عنه فى تلك الشدائد والملمات ولكن لم يجد ذلك نفعا اذ كانت الاوامر الصادرة الى الدوق دوكير قطعية لا تقبل ردا فاضطر البابا المذكور مع غلظة وحدة طبعه الى أن يدور مع الدهر ويمتثل لاحكام الضرورة وتوسل فى طلب الصلح مع فيليبش بأهل البنادقة وبالامير كوم دوميديسيس وكان فيليبش متأسفا من خصامه له وكانت حربه معه على غير مرامه بل انه فى اثناء انتصاره كان فى شك من جوارح به معه حتى فاتحه اكثر من مرة فى شأن الصلح وأبى الا القتال وبناء على ذلك رضى فيليبش بما عرض عليه فى شأن الصلح وبادر الى قبوله واظهر من التساهل ولين العريكة ما لا يؤمل ممن اعتز من الملوك بظفره وامتلأ كبرا بنصره

سنة ١٥٥٧
مطلب
مشارطة الصلح المعقدة بين البابا والملك فيليبش

وتعين لهذا الخصوص الدوق دالب من طرف فيليبش والكردينال كاراف من طرف البابا واجتمعا هذان المرخصان ببلد يسمى كاوي واحدا يتذاكران فيما هما مأموران بصدده وكانا متهيأين للصلح فلم تطل مدة المذاكرة بينهما وعقدا معا مشارطة كان مضمونها أن يتخلى البابا بولس عن العصبة المعقدة بينه وبين فرانسا وأن يلازم من الآن فصاعدا ما يليق به بوصف كونه ابا لكافة النصارى من تمام حيادته لاغراض لا يتداخل في امر تعصب ولا تحزب وان يترك فيليبش حالا جميع المدائن والحصون التي تغلب عليها من بلاد الكنيسة واما ما كان يدّعي به كاراف من جهة دوقية باليانو وسائر بلاد العائلة الكولونية فحال قضيته الى جمهورية البنادقة لتنت الحكم فيها وان الدوق دالب يجب توجهه بنفسه الى رومة ليطلب العفو من البابا عن سيده وعن نفسه في نظير ما حصل احترامن الاغارة على اراضي الكنيسة حتى يطهره البابا مما لحقه لذلك من الدنس والرجس هذا معنى ما احتوت عليه من الشروط فتأمل كيف امكن البابا لفرط اوهام فيليبش أن ينهي امر تلك الحرب وكانت شؤما عليه من غير أن يمس الكنيسة ادنى ضرر فكان حظ الغالب التذلل والاعتراف بالذنب مع الاستكانة وكان حظ المغلوب ان عومل معاملة الاعلى من الادنى بدون أن ينزل عما كان من عادته من الغرور وما جبل عليه من الكبر والانفة

وتوجه الدوق دالب على حسب المشارطة الى رومة وقبل قدمي البابا وهو في هيئة الذليل الخاضع وتضرع اليه أن يسامحه ويعفو عنه مع انه قبل ذلك ببرهة كان قد افزعه وأوقعه في اشد الكروب ويستدل مما اخبر به الدوق المذكور على ان الاسبانيوليين لفرط وهمهم كانت هيبة البابا عندهم فوق كل حد ونهاية وذلك ان هذا الدوق كان متعوّدا من صغره على معاشرة الملوك والامراء وممازجتهم بل وربما كان اعظم اهل عصره كبرا وانفة ومع هذا قد اعترف انه لدى قربه من البابا امتلأ قلبه رعبا وخوفا لهيبته حتى عجز

سنة ١٥٥٧

عن التكلم وصاعت منه رؤيته لدهشته

مطلب
ردّ فيليبش اقليم بلزانسة الى الامير اوكتاوة فارنيز

وبهذه الحرب وان ظهر فى اوائلها أن سيترتب عليها تقلبات عظيمة وحوادث مهمة جسيمة قد انتهت بدون حصول شئ مّا فى البلاد التى كانت موضوع النزاع وانما نشأ عنها حوادث مهمة جدا فى بلاد اخرى من مملكة ايطاليا وذلك ان فيليبش كان لايودّ الارفع النزاع بينه وبين البابا فرأى من الواجب عليه أن لايخل بما يلزم للاستحواذ على كل من كان يظن فيه أن يكون معينا مع الفرنساوية لهذا البابا ولهذا القصد اخذ يتداول مع الامير اوكتاوة فارنيز حاكم پارمة ليخرجه عن المعاهدة مع الفرنساوية وردّ اليه مدينة بلزانسة مع مايتعلق بها من الاراضى وكان شرلكان قد تغلب عليها سنة ١٥٤٧ وبقيت بيده الى ذلك الوقت واعطاها لابنه مع سائر ما تنازل له عنه من الممالك

مطلب
ما دبره الامير كوم دومديسيس لينال سينة

وبهذه العلة عرف الامير كوم دومديسيس طمع فيليبش وادرك ما رّ به لانه كان اروع امراء ايطاليا واكبرهم مهارة وحذقا فانتهز تلك الفرصة لينال ما كان فى باله مدة مدة ولم يظفر به وهو انضمام مدينة سينة مع مايتعلق بها من الاراضى الى اراضيه الموجودة باقليم توسكانة وكان يعلم انه لاينجح فى مثل هذا المأرب الا مع بذله غاية اللباقة والحزم فلم يبق من خدائع السياسة وحيل التدبير شيأ الاوصرفه فى اتمام هذا المشروع مبدأ بأن طلب من الملك فيليبش أن يوفيه بالمبالغ الجسيمة التى كان اقرضها الوالده الامبراطور مدة محاصرة سينة وانما طلب ذلك منه لعلمه انه لا اقتدار له على تأديته حيث كانت خزائنه قد نفدت فى الحروب ولذا ماطله فيليبش وحاول أن لايجيبه الى ماطلب فاظهر كوم لذلك غاية التكدر وارسل حالا الى مبعوثه الموجود بمدينة رومة يامره بالمداولة مع البابا فى مهمّ مّا مهما ان مماطلة فيليبش له كانت السبب فى ذلك وقد وفى المبعوث المذكور بما امر به مع غاية الحزم والحذاقة حتى وهم البابا أن كوم قد هرمن اسپانيا وعزم على فض مابينه وبينها من العهود فعرض عليه

سنة ١٥٥٧

ان يتعاهد مع مملكة فرانسا ويزوج ابنه البكرى باحدى بنات هنرى ملك الفرنساوية فقبل كوم منه ذلك واظهر من الانشراح والسرور ما به تحقق وزراء البابا ومبعوث فرانسا الموجود بمدينة رومة من كون هذا الامير الخطير قد صار من حلفائهم بلا شك حتى صاروا يتكلمون بذلك على رؤس الاشهاد وكان كوم يعلم انه لابد وان يفزع فيليبش من وصول خبر ذلك اليه فبعث قريبه لويز دوطوليد الى مملكة البلاد الواطية ليلاحظ ما يلحق فيليبش من الغم وينتهز الفرصة قبل فواتها وكان لويز المذكور جديرا بان يفوض له فى مثل هذا الامر المهم فصبر حتى تحقق وصول الاخبار الى فيليبش وفهم انه فزع منها وامتلأ رعبا وخوفا فسأل مقابلته ولما قابله طلب منه بقلب ثابت ما كان والده الامبراطور اقترضه من الامير كوم وفى اثناء الحاحه عليه فى هذا الطلب ألقى قصدا بعض عبارات مشتبهة احسن سبكها ليفهمه ان كوم مع اضراره الآن لا يبعد عليه فعل شئ ما ادام لم يعط حقه سيما وذلك يذكره باساآت اخرى حصلت فى حقه قدما

مطلب نجاح تلك المداولات

فلما سمع فيليبش ذلك من طرف امير صغير مثل امير توسكانة تعجب كل العجب وتيقظ لما اتت له به الاخبار من مدينة رومة ففهم ان كوم لم يتجاسر على اظهار ذلك الا لاعتماده على معاهدة بينه وبين فرانسا وخشى أن ينضم هذا الامير الى حزب البابا والملك هنرى فتقوى به عصبتهما وتزداد صولة وبطشا لا سيما والامير المذكور مع معارفه الكبيرة كان موقع بلاده يساعد جدا على الاضرار بمملكة اسبانيا فرضى فيليبش أن يسلم له فى حق الحكم على سينة اداقبل فى نظيرماله من الدراهم وتعهد بان يقدم من طرفه طائفة من الجنود لتدافع عما كان للملك اسبانيا من الاراضى ببلاد ايطاليا من كل عدو مدة الهاية التعدى وعند رضاء فيليبش بهذا الامر ولم يكن كوم بحيله وخداعه يقصد سواه اخذ يحاول البابا فيما كان موضوع المداولة بينهما ويستعين على ذلك بفرط حيله ومكره وقبل ما عرضه عليه فيليبش وانعقدت بينهما مشارطة بهذا الامر واسرع

سنة ١٥٥٧ م

فيليبش بوضع امضائه عليها وان عارضه فى ذلك احذق ارباب شوراه وكانت غيرة فيليبش على حقوقه لم يسبقه احد من الملوك بمثلها ولذا تعجب الناس من تسليمه بدون مقابل لكل من امير بارمة وامير توسكانة فى تلك الاراضى الواسعة مع ان والده لم يحزها الا بعد أن جد سنوات عديدة وسفك دماء غزيرة وصرف مصالح واموالا كثيرة ولا يمكن وجود سبب لتفريطه فى الاراضى المذكورة سوى خوفه دوام الحرب بينه وبين البابا وكان لفرط وساوسه واوهامه لا يطيق أن يكون خصما للأب النصارى وعلى كل حال فقد حصل ان كانت المشارطات المذكورة سببا فى توطين ميزان تعادل فى القوى بين امراء ايطاليا وتمكين التساوى بينهم اكثر مما كانوا عليه منذ أن دكت ايطاليا دكا باغارة كرلوس الثامن عليها ومن وقتئذ خلت ايطاليا عن الحروب التى كانت لا تنقطع من بين كل من ملك اسبانيا وملك فرانسا وامبراطور ألمانيا اذ كانت ميدانا لحروبهم وكانوا بها يتسابقون فى اكتساب الفخر والشهرة وابراز البطش والقدرة نعم ان ما حصل بينهم بعد ذلك من الحروب لم يكن قليلا غير أن موضوع تلك الحروب كانت امورا أخرى غير ايطاليا فانتقلت حروبهم الى سواها وسفكوا دماء كثيرة فى اقطار اخرى من بلاد اوروبا حتى تخربت وكبرت شقوتها كما يحصل عادة لكل بلدة دهمتها الحروب واحتاطت بها الخطوب

مطلب
خروج الدوق دالب من رومة فى ٢٩ من شهر سبتامبرو

ولنرجع الى الدوق دوكيز فنقول انه خرج من مدينة رومة يوم تذلل حصمه الدوق دالب امام البابا وامتثاله له وعند دخوله بمملكة فرانسا اكرموه وبالغوا فى تبجيله حتى كأنه الملك الموكل بحفظ تلك المملكة وكأنهم نسوا ما حصل له من الهزيمة والخيبة ببلاد ايطاليا فصاروا يبالغون فى خدمه القديمة لاستمداد همته عن مدينة مترة وفى كل مدينة مر بها اكرم واحسن مثواه كما اذا كان متكفلا بأمن الناس كافة واطمئنان المملكة

مطلب
تلقيه بمملكة فرانسا

حيث انه بعد أن رد بحزمه وعزمه جنود الامبراطور المصورة قد لبى دعوة وطنه وسعى اليه ليرد عنه فيليبش ويمنعه أن يظفر به لكسر بطشه هذا

سنة ١٥٥٧

وقد حصل له من طرف الملك مثل ما حصل له من الاهالى وذلك ان هنرى تلقاه مع غاية الترحيب والاكرام بل اخترع ألقابا ومناصب جديدة جليلة شرفه بها مجازاة له على جليل صنعه فجعله رئيس رجال الدولة داخل المملكة وخارجها وجعله مطلق التصرف فى جميع الامور حتى كان تصرفه دون تصرف الملك بيسير فانظر الى ذلك السعد العريب الذى كان مقارنا لطالع امراء عائلة لورينة حتى انهم مع خيبتهم فى مشروعاتهم كانوا يزدادون رونقا وبهجة ويرقون اوج العلى والسعود كيف لا وقد كان ما صب على مملكة فرانسا من المصائب وما ارتكبه الامير هونتورانسى من الخطأ سببا فى ارتقاء الدوق دوكيز المذكور الى درجة جليلة من الشوكة والفخر وغلو القدر على انه كان لا يؤمل الوصول الى مثل ذلك بل ولو ساعدته المقادير ونجح فى ابهج امانيه مما كان يحدثه به طمعه النامى وولعه بكل فخر سامى

مطلب
تولية الدوق المذكور قيادة جيش الفرنساوية

ثم ان الدوق دوكيز تولع بأن يظهر فى ظفر عظيم حتى يحقق آمال ابناء وطنه فيه ويكون اهلا لوثوق الملك به فجمع ما امكنه جمعه من الجنود وسار بهم الى بندر كومبينة وكان اذ ذاك شدة فصل الشتاء ومع ذلك بارز الاعداء مع جنده واما الملك هنرى فقد جمع من مملكة فرانسا بمزيد همته ومساعدة رعاياه له مقدارا كبيرا من العساكر وجلب من ألمانيا وبلاد السويسة ايضا مقدارا آخر عظيما حتى ألف جيشا يهابه اعداؤه ولو كانوا منتصرين عليه ولذا فزع فيليبش حين رأى جنود الفرنساوية تساق الى القتال مع شدة الشتاء وخاف على ما تغلب عليه من المدائن والحصون لا سيما مدينة سانكانتين فان اسوارها لم يكن تم ترميمها وتعميرها

مطلب
محاصرته مدينة كالس فى عدة شهور يونيه سنة ١٥٥٨

غير أن الدوق دوكيز كانت نيته الزحف على جهة اخرى اهم مما كان قائما بذهن فيليبش فبعد أن خادع اعداءه وتأهب اكثر من مرة للهجوم على مدينة ثم اخرى من المدائن الموجودة على حدود اقليم فلندرة حتى افهمهم ان ذلك الطرف هو مطمح نظره عطف بغتة بجميع جنوده الى شماله

سنة ١٥٥٨

وحاصر مدينة كالس ولا يخفى أن هذه المدينة كان انتزعها الانكليز في عهد الملك ايدوار الثالث بعد نصرتهم الشهيرة في واقعة كريسي وكان لم يبق بايديهم من الاراضي الواسعة التي كانت لهم بمملكة فرانسا غير هذه المدينة وكان بها يسهل عليهم الدخول بالمملكة المذكورة في اي وقت كان ولذلك كان الانكليز يفخرون ببقائها في ايديهم كما كان الفرنساوية في حسرة واغاظة كبيرة لانتزاعها منهم وكان موقعها بالطبع قويا حصينا وكانت حصونها واستحكاماتها معدودة مما لا يمكن تسخيره والتغلب عليه حتى لم يجسر احد من ملوك الفرنساوية على الهجوم عليها ولم ينازع الانكليز فيها احد مدة الحروب الطويلة المهولة التي حصلت بين عائلة يورقة الملوكية وعائلة لانكسترة وان كان يظهر وقتئذ ان انكلترة قد أعيتها تلك الحروب الداخلية وصارت لا تلتفت الى أمر ما من الامور الخارجية ووقت ان حاصر الدوق دوكيز مدينة كالس كانت مهملة خلية عن من يقوم بحفظها والمدافعة عنها وذلك أن الملكة مارية كانت لا تعرف شيأ مما يخص سياسة الحرب وكان ارباب شوراها اعلمهم من القسيسين لا يدرون اكثرهما في هذا الخصوص وكانت هي وهم لا يشتغلون بسوى تطهير المملكة من عقائد الهراطقة الملحدين فلم يلتفتوا الى ما يلزم للأمن على هذا الثغر المهم الجسيم ظنا منهم أن شهرة ما به من الحصون تكفي في حمايته والذب عنه حتى انهم بعد شهور الحرب بين انكلترة و فرانسا لم يعدلوا عن أمر كان اوجبه قبل ذلك خزائن المملكة وهو أن يؤخذ مدة الصلح معظم المحافظين على هذا الثغر في أوائل الخريف و يرد اليه في فصل الربيع وذلك أن الاراضي التي حول مدينة كالس كانت تعلوها المياه مدة الشتاء فتصير البرك الموجودة حول تلك المدينة غير صالحة لان تكون مطروقة الا من جهة واحدة وتلك الجهة عليها قلعتان حصينتان وهما قلعة سنتاغات وقلعة نوبامبريج ولذا كان يؤخذ محافظوا المدينة المذكورة واخذوا وقتئذ ايضا على حسب العادة وان كانت الحرب حاصلة بين الملتين وقد تشكى

سنة ١٥٥٨

الامير واتفورث محافظ المدينة من هذا الفعل مفهما ان تجريد المدينة عن الجنود فى مثل ذلك الوقت من قبيل الامساك الذى لا معنى له حيث من الجائز ان يفاجئها الاعداء فلا يجد عنده من المحافظين ما يكفى للذب عنها ووصلت شكواه الى الشورى فاستحقرتها ونسبتها طامنها انه لم يعرض عليها ذلك الا لخلوه عن ثبات القلب اولرغبته فى أن يبقى تحت ادارته مقدار كبير من العساكر شرها منه وحبا فى الرياسة بل ان بعض ارباب المشورة لفرط وثوقهم بنفسهم كما هى عادة الجاهلين افادوا أن فيهم اقتدارا على أن يدفعوا بعصيهم البيضاء اى عدو تصدى للهجوم على مدينة كالس مدة الشتاء هذا وعند رجوع الملك فيلبيش من انكلترة الى مملكة البلاد الواطية مر بالمدينة المذكورة واطلع على حالها فاخبر الملكة أنه يخشى عليها من الاعداء وبين لها ما يلزم للأمن عليها من تغلب العدو وعرض أن يضيف الى محافظيها مدة الشتاء سرية من جنوده الا ان ارباب مشورة تلك الملكة وان كانوا يخدمونها بنصح فيما يخص الدين كانوا كسائر الانكليز يسيئون الظن بالملك فيلبيش فوهموا أن ذلك حيلة وخداع منه ليتغلب على المدينة المذكورة ولم يقبلوا نصحه ولا العساكر التى اراد أن يمدهم بها وتركوا كالس ولم يكن بها من الجنود سوى الربع ممن كان يلزم لحفظها والذب عنها

مطلب تشديد الدوق دوكيز فى المحاصرة

وكان الدوق دوكيز يعلم أن كالس على هذا الحال فقوى قلبه وصمم على حصرها حتى تعجب منه ابناء وطنه بقدر ما تعجب اعداؤه وكان يعلم أن نجاحه فى هذا المشروع يستلزم غاية السرعة فى التنجيز حتى لا يتمكن الانكليز من امداد تلك المدينة بحرا أو يأتى اليه فيلبيش برا فيعاق عن تتميم آماله وبناء على ذلك ضيق على المدينة كل التضييق وصرف فى تسخيرها من القوة والعزم ما كان يندر وقوعه اذ ذاك فى شأن المحاصرات

وبمجرد هجومه اخرج الانكليز من قلعة سنتاغات وتغلب عليها ثم زحف عليهم فى قلعة نوهامبريج وثبتوا للقائه ثلاثة ايام ثم تغلب عليها وأخذ ايضا

سنة ١٥٥٨

مطلب
استيلائه على المدينة

عنوة القلعة المحصنة للمينا وفى اليوم الثامن من وصوله الى مدينة كالس تعب المحافظون من كثرة الاشغال ومشاق القتال وكانوا لا ينيفون عن خمسمائة رجل فاضطروا الى تسليم المدينة

استيلائه على عيبة وقلعة هام

ولم يمهل الدوق دوكير الانكليز حتى يفيقوا من دهشتهم بل توجه حالا الى مدينة عيبة وضرب حصارها وكان محافظوها اكثر عددا من محافظى كالس ومع ذلك لم يثبتوا امام الفرنساوية وسلموا الى المدينة بعد مدافعة قليلة واما العساكر الذين كانوا فى قلعة هام فانهم هربوا قبل وصول الفرنساوية اليهم

مطلب
رونق هذا الفتوح ونتائجه

فانظر كيف كانت جسارته حيث هو فى مدة قليلة مع شدة الشتاء وفتور همة الفرنساوية مما حصل لهم من الهزيمة فى مدينة سانكانتين حتى صاروا لا يفكرون الا فى المدافعة عن بلادهم امكنه أن يطرد الانكليز من مدينة كالس وكانت فى حكمهم منذ مائتين وعشر من السنين وكان لم يبق لهم فى مملكة فرانسا سواها من جميع ما كانوا يملكونه تلك المملكة من الاراضى الكثيرة الواسعة وبهذه الحادثة صار لمملكة فرانسا موقع كبير عند الافرنج كما صار للدوق دوكير اعتبار عظيم عند ابناء وطنه حتى عدوه أعظم ضباط عصره وصاروا يتحاكون فى كل ناد بنصره وظفره وهم به فى فرح زائد واما الانكليز فصاروا يسخطون على ملكتهم وارباب شوراها كما هى عادة كل ملة حرة ذات اهمة وشمم اذا أصابها ضرر وكان السبب فيه عدم رأى أولى الامر منها وصارت الملكة ووزراؤها محتقرين مبتذلين لا حرمة لهم عند الانكليز وكانت المذكورة مطلقة التصرف فى حكمها ذات جبر وقسوة ومع ذلك لم يخش الانكليز لها بأسا وبالغوا فى زجرها ونهرها والسخط عليها وعلى وزرائها حيث كانوا اسدا فى ادخال الملة الانكليزية فى الحرب الواقع بين فيليبش والفرنساوية مع عدم المصلحة لها فى ذلك وقد جر بها اهمالهم وعدم رأيهم الى أن ركبها العار والخزى وضاع منها ما هو أعظم ما حازه الانكليز وأفخر ما كسبوه

منذ حين

سنة ١٥٥٨

وقد فعل ملك فرانسا فى حق كالس مثل ما فعل بها اوّل ملك تغلب عليها اعنى الملك ايدوار الثالث وذلك أن ملك الفرنساوية الذى تغلب على هذا الثغر امر بخروج من كانوا به من الانكليز واعطى بيوتهم للفرنساوية وكلفهم الاقامة بها مع انعامه عليهم بمزايا وخصوصيات كثيرة وأعدّ للمحافظة على المدينة المذكورة مقدارا كبيرا من العساكر وجعل لهم رئيسا من أولى الخبرة والدراية وبعد اتمام ذلك كله دخل جيشه المنصور فى المشتى لتستريح عساكره ولم يحصل شئ بعد تلك الحوادث بل اعقبها الفتور والخمول بسبب الشتاء كما هى العادة فى هذا الفصل

مطلب تسليم التاج الايمپراطورى الى فرديننداخ شرلكان فى ٢٤ من شهر فبراير

وعقد فرديننـد حينئذ بمدينة فرانكفور مجلس المنتخبين ليطلعهم على حجة تنازل اخيه شرلكان له عن الايمپراطورية وسبب تأخير هذا الامر الى ذلك الوقت هو ما حصل من التوقف فى خصوص توليته بحق التنازل حيث لم يسبق فى الايمپراطورية تولية ايمپراطور بهذا الحق فبعد تسوية الامور وارضاء الجمهور بادر الامير دورنجة باجراء ما كان شرلكان كلفه به من تبليغ تنازله لاخيه عن التاج الايمپراطورى وأقرّه المنتخبون على ذلك وحكموا بصحة تولية فرديننـد محل أخيه وألبسوه تاج الايمپراطورية وما للمنصب الايمپراطورى من الشعار والعلامات

مطلب امتناع البابا عن اقرار فرديننـد على المنصب الايمپراطورى

وبعد اقرار فرديننـد على الايمپراطورية من طرف المنتخبين وجه فى تحليته اى كاتب سجلاته المسمى كوزمان الى البابا ليعلمه بهذه الحادثة ويبلغه احترامه للكنيسة المقدسة ويفهمه أنه سيبعث اليه عن قريب سفيرا كبيرا ليتذاكر مع جنابه فى شأن تتويجه بتاج الايمپراطورية غير أن البابا پولص المذكور كانت لم تهذبه التجارب ولم تعظه الصروف والنوائب وكان باقيا على كبره وغروره وحرمه بأن البابا من شأنه أن يكون له السلاطة على كل ملك وأمير وكان عليطا لا يدور مع الدهر ولا يرعى شروط المدارة فأبى أن يأذن لمبعوث فرديننـد فى الدخول اليه وأعلن ببطلان ما أقرّه المنتخبون بمدينة فرانكفور وكان زعمه أن البابا بيده مفاتيح ملك السموات والارض

سنة ١٥٥٨

بوصف كونه خليفة المسيح وان تقليد احد بالمنصب الايمپراطورى ليس الا من خصوصيات الكنيسة وان ما حصل قبله من اسلافه البابات من الترخيص للمنتخبين فى تعيين ايمپراطور وهم يقرونه بعد هذا التعيين لم يكن فى مثل تلك الصورة بل ذلك مقصور على صورة ما اذا كان كرسى الايمپراطورية قد خلا بموت من يشغله وان الحجة التى كتبها شرلكان بتنازله لغو لا عمل لها حيث هى عرضت الى مجلس ليس من شأنه الحكم فى مثل ذلك ولا يشرك البابا احد فى هذا الحق فله أن يعطى او يمنع او يقر هذا التنازل او يلغيه و يجعل من شاء فى منصب الايمپراطورية وانه بقطع النظر عن ذلك كله ثم شيآن يبطلان صحة انتخاب فردیننـد الاول أن المنتخبين الذين هم من المعتزلة قد وحدوا الذى المذاكرة وسمعت آراؤهم فى شأن التولية مع انهم بخروجهم عن الدين القاثوليقى قد صاروا لا حق لهم فى منصب الانتخاب وماله من المزايا الثانى هو أن ابن فرديند قد اقر ما حكمت به مشورة الدينية مساعدة للهراطقة و بهذا صار لا يصلح لان يكون ايمپراطورا حيث أن الايمپراطور مجعول لان يحمى حمى الكنيسة لا لتخريبها وتدميرها غير أن البابا بعد أن قال ذلك مع غاية الكبر والانفة اخبر متساهلا بأنه يساعد فردیند بكل المساعدة اذا كان يقر بأنه لا حق له فى التاج الايمپراطورى وان مجلس المنتخبين المنعقد فى مدينة فرنكفور لا يثبت له حقا ما ويستغفر على رؤس الاشهاد فى تطهير ما فرط منه قبل ذلك فى جنب الكنيسة ويرجع الى البابا اكف الضراعة والابتهال ليقر حجة شرلكان المثبتة لتنازله عن الايمپراطورية و يقر توليته بدلا عنه هذا ولكن كورمان مبعوث فردیننـد لا يطيق حصول مثل هذه الامور من طرف البابا حيث هى من دعوى البابات القديمة المستهجنة التى قضى عليها فتعجب كل التعجب لدى سماعه اياها فى مثل ذلك العصر حتى انه تحير فى رد الجواب لكنه لحزمه لم يتعرض لخصوصيات البابات ولا لبيان دائرة سلاطتهم واقتصر على ابداء كل ملحوظة سياسية توجب على

سنة ١٥٥٨

البابا أن يكون لبس العربكة وأن يقر فرديند على الايمبراطورية حيث هو قد تولاها ولبس تاجها فلا فائدة فى المعارضة وألقى ما ابداه من الملحوظات بكيمية لا بدّ وان كانت تؤثر فى هذا الكاهن لو كان ممن يعرف مصلحة نفسه وقد حصل ايضا أن فيليپش ابن شرلكان قد بعث من عنده سفيرا الى رومة ليرجوه أن يعدل عن دعواه حيث لا تليق بالحال اذ ذاك ولا ينشأ عنها سوى اغضاب امراء الايمبراطورية كافة كالتعصب فرديند بل ورعما اتخذها اعداء الكنيسة وسيلة فى القدح فى أقضية الپاپا وبادروا بالتشنيع عليها محتجين بأنها منافية بالكلية لحقوق الملوك وموجبة لزوال كل حكومة مدنية وانحلال كل عروة سياسية وكان پولس ممن يرى من الكبائر مراعاة شروط الحزم ومداراة البشر فى صورة المدافعة عن مزايا الكنيسة وحقوق باباتها فلم يعدل عما تفوه به اول مرة ولم يقر ديوان رومة فرديند على الايمبراطورية مادام پولس المذكور ماسكا باعته

مطلب سعى هنرى فى حث اهل ايقوسيا على القيام على انكلترة

وبينما كان هنرى يتدارك ما يلزم للحرب الآتى بينه وبين فيليپش كانت تصل اليه الاخبار بنجاح سعيه فى بلاد ايقوسيا وذلك ان اهل ايقوسيا قد عرفوا بطول التجارب ان من عدم الرأى والاصابة تداخلهم فى الحروب والوقائع الحاصلة بين فرانسا وانكلترة فأبوا ان يصغوا الى سفير الملك هنرى مع ابرامه عليهم ولم يلتفتوا الى قول ملكتهم مع تحيلها وصولتها فيما بينهم ولم يرضوا ابدا بالانضمام الى حرب الفرنساوية لقتال الانكليز وكان امتناعهم من ذلك مراعاة للمصلحة العامة وراحة المملكة وان كانوا الى ذلك الوقت لا يلتفتون الى مثل تلك المصلحة حيث كانوا اهل شهامة وولع بالحروب يخرجون من واقعة ويلجون فى اخرى عن رأيهم

مطلب تزوج ابن ملك فرانسا بملكة ايقوسيا

مع امتناعهم عن المداخلة فى الحرب قد رضوا بأمر آخر كان هنرى امر سفيره بمخاطبتهم فيه

وكانت ملكة ايقوسيا قد خطبت منذ سنة ١٥٤٨ لولى العهد من

سنة ١٥٥٨

ابنة ملك فرانسا ومن وقتئذ أخذت وربيت في ديوان تلك المملكة حتى صارت أرق أميرة وعدّت من أدق نساء ذلك العصر وطلب هنرى في تلك السنة رضاء اهل ايقوسيا باشهار النكاح فعقدوا مجلسا لذلك وعين ارباب هذا المجلس ثمانية اشخاص ليكونوا نائبين عن الملة الايقوسية في محفل الزواج ورخصوا لهؤلاء الثمانية في أن يضعوا امضاءهم على جميع الاوراق والوثائق التي يلزم تحريرها قبل عقد النكاح وعند عقد الشروط من الطرفين احترس الايقوسيون مهما أمكن حتى لا يمس حريتهم واستقلال بلادهم أدنى خلل واما الفرنساوية فلم تبق وسيلة الا وتشبثوا بها لكي يثبتوا لابن ملكهم وولي عهدهم حق ادارة المملكة وتدبير أمورها مادامت زوجته بقيد الحياة واذا ماتت قبله يخلفها في الحكم على ايقوسيا وكان اشهار النكاح مع ما يليق من الاحتفالات بقدر الزوجين وبأبهة ديوان فرانسا وكان اذذاك ابهى دواوين ملوك الفرنجة فاظطر الى هنرى حيث أمكنه في ظرف بعض شهور أن يسترد ماكان قبل لمملكة فرانسا وضاع منها ثم ضم اليها بزواج ابنه مملكة كبيرة وترتب على تلك الوقائع ايضا ان حظى الدوق دوكيز بشهرة جليلة واعتبار لانهاية له فزوّج بنت اخته شاني ابناء ملك فرانسا وازداد بهذا الزواج رفعة وشأنا وعظمت كلمته وزاد نفوذا عما كسبه بانتصاره في وقائعه المتقدم ذكرها

في ١٤ من شهر ابريل

مطلب افتتاح الحرب

وقد افتتح في الحرب بعد زواج ولي عهد فرانسا بمدة يسيرة وجعل الدوق دوكيز رئيس الجيش وجعلت له كلمة نافذة وتصرف مطلق كما كان قبل ذلك وكان ملك فرانسا قد امده رعاياه بمبالغ جسيمة تكفيه لجمع جيش كبير وتقوم بجميع ما يلزم له من المصاريف والمهمات واما فيليبش فكانت خزائنه قد نفدت بما لزم للحرب الحاصل قبل ذلك حتى انه اضطر الى تسريح بعض عساكره مدة الشتاء فكان لا يمكنه أن يجمع من الجنود ما يكفي لمقاومة جيش الفرنساوية وكان الدوق دوكيز لا يجهل تلك الاحوال بل يعلم تفوقه

سنة ١٥٥٨

ورجاله عليه فبادر باغتنام هذه الفرصة وحاصر مدينة تيونويل وهي ثغر حصين من دوقية لوكامبورغ على ضواحي مملكة البلاد الواطية لا تنكر اهميته لمملكة فرانسا بسبب قربه من مدينة متزة وقد بذل من كانوا بهذا الثغر كل وسعهم في المدافعة عنه وبقوا ثلاثة اسابيع على هذه الحال حتى أعيتهم كثرة الجنود واضطروا الى التسليم

في ٢٢ من شهر ابريل

مطلب هزيمة جيش الفرنساوية في كراوليس

وبينما كان يتراءى أن هذه النصرة ستجر الى غيرها حصل عقبها بقليل حادثة أخرى بجهة ثانية من بلاد المملكة الواطية ترتب عليها خذلان الفرنساوية وبكالهم وتلك الحادثة هي أن المارشال دوترمس محافظ مدينة كالس الماصال على اقليم فلاندرة وجال به ولم يجد من يدفعه ويرده حاصر مدينة دونكرقة ومعه خمسة عشر ألف رجل واخذها عنوة في اليوم الخامس من المحاصرة ومنها اغار على نيوبورطة ولولا وصول القوتة دغمون في جيش اكثر منه عددا لتغلب عليها في اقرب وقت الا انه اضطر الى الادبار وركن الى الفرار وكانت جنوده في ارتباك لثقلها بما غنمته في مدينة دونكرقة وغيرها من البلاد التي خربتها في مسيرها حتى كانت بطيئة السير بخلاف جنود دغمون فانه كان قد ترك خلفه مهماتها الثقيلة ومدافعها وكانت جيوشه خفيفة سريعة السير فتعقب الفرنساوية ولحقهم بقرب مدينة كراوليس وهجم عليهم بأقوى همة وكان دوترمس قد جعلهم في موقع محكم في قطعة ارض على شكل زاوية فيما بين البحر ومصب نهر آيا وثبت للقاء دغمون ثباتا عظيما حتى بقي الحرب مدة على القتال من غير أن يظهر تفوق احدهما على الآخر نعم ان جنود دغمون كانوا اكثر من جنود الفرنساوية الا أن الفرنساوية كانوا يعرفون أنهم اذا هزموا في تلك البطاح وكانت اعداؤهم لابد وأن يهلكوا عن آخرهم فصاروا يقاتلون مع قوة من غلب عليه اليأس والقنوط حتى كانت همتهم تعادل كثرة اعدائهم الى أن طرأ أمر يجل عن أن تحيط به بصيرة البشر علما فختمت به الهزيمة على جنود الفرنساوية وذلك أن فرقة من سفن الانكليز الحربية كانت بهذا الساحل فجرّبها الى محل الواقعة

سنة ١٥٥٨م

صوت البارود والنار حتى دخلت فى نهر آيا وحررت مدافعها على الجناح الايمن من جيش الفرنساوية فكسرته فى أقرب وقت وانتشر الخوف والرعب بين كافة العساكر وازداد اهل فلاندرة قوة وعزما وصالوا على الفرنساوية قبل أن يفيقوا من دهشتهم وهزم كافة الفرنساوية فى أقرب وقت وقتل منهم فى الهيجاء ما يبلغ نحو الفى رجل وعند فرارهم بعد الهزيمة تبعهم فلاحوا البلاد التى كانوا خربوها قبل فى مسيرهم وصاروا يذبحونهم بدون رأفة وقتلوا منهم اكثر من ذلك ومن نجا منهم بعد هذا كله أخذ أسيرا وأسر معهم كبيرهم دوترمس وعدة من اكابر الضباط

مطلب توجه الدوق دوكيز الى قتال الجنود المنتصرة

وقد حصل من فيليبش ان أساء الامير دغمونت فيما بعد ولم يعامله بما هو أهل له من الرعاية والاكرام نظرا لتلك النصرة العظيمة التى أفرغت الفرنساوية حتى اضطر الدوق دوكيز الى العدول عن مقاصده الاولى وتوجه سريعا نحو ضواحى بيكاردية لرد الاعداء عن الجولان بمملكة فرانسا وكانت الهزيمة المذكورة قد زادته رونقا وشهرة عند أبناء وطنه حتى أيقنوا أن لا سواه جدير بالانتصار قدير على الاخذ بالثار وعدوه معتمدهم لدى الخطوب والملمات ومرتكنهم فى الكروب والمعضلات ولما استعد للمسير للقاء الاعداء اخذ الملك هنرى مقدارا عظيما من محافظى المدائن والثغور القريبة من تلك النواحى وأدخلها فى عساكر الدوق المذكور حتى بلغ جيشه اربعين ألف رجل وكان جيش الاعداء بعد انضمام الدوق دوسابوة بجنوده الى جنود القويمة دغمونت لا ينقص عن هذا المقدار فكان كل من الفريقين فى جيش جرار وضربت خيام الجيشين على البعد من بعض ببعض أميال وكان كل من الملكين فى مقدمة جيشه فصار الفريقان مطمح نظر كافة الناس حيث سبق لهما معا حروب وضرب وكان كل منهما طورا غالبا وطورا مغلوبا فظن أن تكون هذه الواقعة نهاية كل غاية بينهما وأن لا بد من هتك احدهما بالآخر واهراده فيما بعد بالقوة والبطش وبقائه منتصرا فاطلقا فى بلاد الفرنجة يكلمها بما شاء وكان فى وسع كل

سنة ١٥٥٨

من الخصمين أن ينهي قصية النزاع في تلك المرة اما عليه واما له ومع ذلك لم يستنسبا تعليق مصالحهما الجمة ومما لكهما المهمة على واقعة واحدة اما الملك هنرى فكانت صورة واقعة سنكانتين وواقعة كرانو يلس لم تزالا منقوشتين في مرآة خياله فعدل عما كان من عادته من الجسارة والجراءة ولم يلق بنفسه الى الحرب مع جنود الاعداء اذ كانوا هم ورؤساؤهم وضباطهم عين من غلبوا جنوده في الواقعتين المتقدمتين وألبسوهم رداء الخزي والعار واما الملك فيليبش فكان بالطبع يكره الحروب واقتحام الخطوب ولا يسلك غير طرق التبصر والاحتياط سيما وكان متيقنا بأن السعد معقود بناصية الدوق دوكيز خشي العاقبة وأبى التعرض للقتال والحاصل أن كلا من هذين الملكين قد اقتصر على الاحتراس من الآخر حتى كأنه كان بينهما تواطؤ على ذلك وأخذ كل منهما يتحفظ ويتحصن في معسكره ويتجنب كل ما يجر الى التحام كافة جنودهما معا

مطلب اظهار كل منهما الرغبة في الصلح

وبينما كانت جنود الحزبين على هذا الحال من قلة الاعمال كان الملكان يودان الصلح حتى ظهر على كل منهما مايدل على ميله للرضاء بما يؤدي الى المسالمة وازالة المخاصمة وسبب ذلك هو أن كلا من مملكتي فرانسا واسبانيا كانتا منذ خمسين سنة لم تزالا في حروب مستمرة مع بعضهما وصرفتا مالا يحصى من المبالغ بدون حصول تفوق كبير لاحداهما على الاخرى وما بذله كل منهما من الجهد في تلك الحروب لم يكن يعهد حصول مثله بين امم الافرنجة قبل وقوع التعاقم والشقاق بين شرلكان والملك فرنسيس الاول فكانت عاقبة ذلك ان ساء حال المملكتين وأحسنتا بالخراب والدمار حتى كان يتعذر عليهما امداد ملكيهما بما يلزم للحروب الحاصلة بينهما فايقنتا أن لا بد لهما من الصلح حتى تعيقا ما دهمهما وأصابهما هذا وكان حال الملكين كحال رعاياهما فكان فيليبش يرغب جدا في الصلح لانه كان متشوقا الى بلاد اسبانيا لا يود الا العود اليها اذ تعود من صغره على هوائها ومائها واخلاق اهلها فكان يحبها حبا جما ولا يطيب له عيش سواها

سنة ١٥٥٨

ولكن حيث كان لا بد وأن يعار عليه و يعاب بل وربما كان يعرض نفسه للاخطار اذا هو ترك البلاد الواطية مدة الحرب ورحل الى اسبانيا كان له في الصلح رغبة تامة حتى لا يبقى ما يحول بينه و بين ما يشتهى هكذا كان حال فيليبش واما الملك هنرى فلم تكن رغبته في الصلح دون ما ذكر حيث كانت عقائد الهراطقة قد فشت وكثر اصحابها بمدينة باريس وغيرها من المدائن الكبيرة من المملكة حتى كان يخشى أن تجر الى ضياع الدين فكان يود انقضاء الحرب بينه و بين فيليبش ليتمكن من قهر المعتزلة وقسرهم ومحق عقائدهم

مطلب الدسيسة الحاصلة في ديوان فرانسا لتسهيل الصلح

وغير هذه الملحوظات المقررة قد حصل في ديوان فرانسا دسيسة اعانت على تسهيل مادة الصلح وانجازها في أقرب وقت وهي أن الامير دومو نتورانسي مدة أسره كانت الغيرة ترعى قلبه من ظفر الدوق دوكيز ونصره في الحروب وكان يعد كل نصرة تثبت لهذا الدوق نقصا في حرمته وشهرته حيث يعلم أن اعداءه لا بد وأن يستعملوا نصر الدوق المذكور على اضاعة اعتباره من قلب الملك وتأكيد نفوذ كلمة الدوق دوكيز ولعلمه أن الملك هنرى أمة ضعيف العقل كان يخشى من أن يترتب على ذلك أن يصير عنده نسيا منسيا وأن يزول من قلبه ما كان له عنده من المحبة ولكن كان دومونتورانسي لا يرى له سبيلا الى منع وقوع ذلك الا السعي في الرجوع الى ديوان فرانسا لكي يبذل جهده بنفسه في افساد آمال اعدائه وتجديد علائق المحبة التي كانت بينه و بين الملك هنرى وكانت تلك العلاقات بينهما أكيدة كمحبة اثنين من الاقران تصادقا في عهود المودة لا كما يحصل أحيانا بين أحد الملوك و بعض اخصائه من العلائق الواهية المعللة بالاعراض

و بينما كان مونتورانسي يدبر أمرا يتوصل به الى الرجوع الى مملكة فرانسا وكان في حيرة كبيرة حيث كان يظهر له تعذر ذلك طرأت حادثة غريبة ساعدته على تحصيل مرامه وهي أن الكردينال دولورينة أخ الدوق دوكيز وقسيمه في القبول عند الملك ونفوذ الكلمة بين الخلق لم يصن

سنة ١٥٥٨

حقوق النعم وداخله الغرور فنسى فضل الاميرة دوواالمتنواى عليه وعلى اخيه ولكثرة غروره أظهر ما يوهم أن لا فضل لاحد عليه فى خصوص تلك النعم بل انه استحقها بخدمة عائلته للدولة وكثرة ماعاد من العائدة على الدولة من عشيرته مع أن الاميرة المذكورة كانت السبب فيما كان يتمتع به من النعم الجليلة والخيرات الجزيلة ولم يقتصر على صدها واهمالها بل صار يعاندها فى اغراضها ويذم فى ذاتها وصفاتها ويسبها كل المسبة

وقد نقل معاصروا هذه المرأة أنها بقيت الى سن الستين على جمال الشبوبية وبهائها وكمال بهجتها ومحاسنها فكان الملك متولعا بها مشغوفا بحبها فاشتد غضبها على من سبها وصممت على الانتقام منه فى أقرب وقت وحيث لم تجد الى خلع امراء عائلة لورينة سبيلا سوى المحالفة مع مو تمورانسى عرضت عليه أن تزوج احدى بناتها بأحد أبنائه فقبل منها ذلك بدون توقف وبعد احكام روابط المحالفة بينهما بعقد تلك القرابة بذلت ماكان لها عند الملك من القبول ونفوذ الكلمة فى استمالته الى الصلح واطلاعه على الطرق التى يسهل بها حصوله فحسنت له بتحيلها ان الاوفق أن يفاتح مو تمورانسى حرب فيليپش فى مادة الصلح حيث هو من اهل الخبرة والدراية فلا بد مع حزمه أن يتم هذا الخصوص على أحسن حال ويأتى على طبق الآمال

مطلب
ترخيص هنرى للامير مو تمورانسى فى خصوص الصلح

وكانت عادة هنرى منذ زمن طويل الاعتماد على مو تمورانسى فى أهم الامور فكفى قول الاميرة المذكورة فى ارجاعه الى قديم طباعه وكتب حالا الى مو تمورانسى مع الرفق والملاطفة وعلامات المحبة كما كانت عادته ورخص له فى ترقب الفرص حتى يلوح له ما يختبر به قلب فيليپش ووزرائه ويقف على ضميرهم فى خصوص الصلح وقد حصل من مو تموراسى ان سلك اوفق طريق فى التوصل الى ايقاع الصلح وهو أن فتح ضميره للدوق دوسابوة وكان قد ارتقى الى اوج العلا والمناصب وحاز فى العسكرية بخدمة اسبانيا صيتا كبيرا وفخرا شهيرا وكان اذ ذاك معتزا ممنيا عن أوطانه وكان فى غاية الاشتياق الى رؤيتها وكان لا يؤمل امكان رجوعه اليها

بطريق

سنة ١٥٥٨

بطريق القوة والقهر خطر له أن لا سبيل الى ذلك سوى حصول مشارطة
قطعية بين فرانسا واسبانيا وبدونها لا يمكنه العود الى دوله المنتزعة
منه وكان يعرف الحامل للملك فيليبش على الصلح فسهل عليه استمالته
الى سماع ما عرض عليه فى شأن الصلح بل وأذن للامير مو تمورانسى
فى العود الى فرانسا بدون طلب رهن عنه وكلفه بأن يدعو سيده هنرى
الى الصلح ويقوى عنده الاسباب الداعية الى المسالمة وعند دخول
مو تمورانسى عند سيده هنرى رحب به وبالغ فى اكرامه كأن غيابه
عنه زاده عنده محبة واعلاه مكانة حتى انه بمجرد دخوله بالديوان الملوكى
صار له عند الملك منزلة اعلى من منزلته الاولى ولما رأى الدوق دوكيز
واخوه الكردينال دولورينة اعتبار الملك له امتثلا لاحكام الضرورة
وصارا لا يتعرضان الا لما يخص وظائفهما وتركا مو تمورانسى والاميرة
دووالتنواى يتصرفان على اغراضهما فى مصالح الدولة وتدبير امورها
وقد أثمر سعيهما حتى حملا الملك هنرى فى أقرب وقت على تعيين اناس فوض
لهم امر الصلح وعين فيليبش ايضا من طرفه اناسا لهذا الخصوص
وتعين دير سركامب لان يكون به مجلس مرخصى الطرفين وبعد قليل انحط
الرأى فيما بينهم على عقد هدنة برفع الحرب حتى تتم المذاكرة فى شأن الصلح وتنهى
قضية النزاع والشقاق

مطلب
موت شرلكان

وفى اثناء تلك المقدمات الممهدة لنشر ألوية الصلح والراحة ببلاد اوروبا
هلك شرلكان فى دير ساجوست وكان طمعه وشرهه سببا فى ايقاع بلاد
الفرنجة حينا من الدهر فى الشقاق والفشل والمشاق والملل ولا يخفى أنه بعد
دخوله الخلوة كانت عيشته وسطى اى كان يعيش عيشة انسان من
الاعيان ايراده يسير فكانت مائدته مطعومة نظما لا ثقلا لكمال خليتها عن
التكلف والزخرفة وكان أتباعه قليلين وكان يعيش معهم كالاقران لانه كان أبطل
التكلف والرسوم فيما يخص خدمة نفسه اذ هى لما فيها من المشقة لا تليق بما
كان يتبعه من قضاء ما بقى من ايامه فى الراحة وصفو البال فبجودة هواء

سنة ١٥٥٨

تلك السطاح وبعده عن مصالح الدولة وعدم تشويش ذهنه بتدبير امورها خف بالتدريج داء النقرس وسكنت آلامه الحادة التى كانت تنغص عليه عيشه ولربما اصبحت اوقاته فى هذه الخلوة الوضيعة وتمتع براحة لم يذق طعمها فى عهد دولته وصولته كيف لا وقد كان لا يشغل باله بالمطامع والافكار التى كانت تقلقه على الجرمدة حكمه وصار لا يلتفت بالكلية الى حوادث الفرنجة وسياستهم واحوال بلادهم بل وكان لا يسئل ابدا عن هذا المعنى حتى كانه عرف ان ليست الحياة الدنيا الا متاع الغرور آفاتها شتى ولذاتها باطلة لا تبقى فزهد فيها احتقارا لها ليأمن غوائلها وهو من نقص علائقها فى سرور وحظ موفور

مطلب
اشغاله وملاهيه فى خلوته

وكانت أشغاله فى خلوته مما ينبغى التنبيه عليه فكان احيانا يزرع بيده النباتات فى بستانه وأخرى يذهب لقصد النزهة الى اجمة كانت بجواره راكبا على حصان صغير الجثة لم يبق لمسه سواه ويستصحب واحدا من اتباعه يذهب معه راجلا وكانت اسقامه تمنعه غالبا الخروج من محله لمثل هذه الرياضة وفى تلك الاوقات كان يأتى لزيارته بعض افراد من الاعيان القاطنين قريبا من الدير وكان يرحب بهم ويدعوهم يأكلون معه على مائدته وكان أحيانا يشتغل ببعض مسائل من فن الميقانيقا أعنى فن الآلات وكان يشتغل بتعليم اصول هذا الفن وكان له فيه بالطبع رغبة جيدة ويفهم فيه جيدا بل انه قبل خلوته أخذ معه شخصا يقال له توريانو وهو من أدق اهل عصره فى هذا الفن وصار يشتغل معه فى اكثر الآلات معا ويجرب خاصية كل منها ولربما كان ملحوظات الملك وسيلة فى تكميل اختراعات الاوستة وكان أحيانا يتسلى بصنع آلات مستغربة عجيبة مثل صور بباطنها عدة تحركها حتى تصير تشبه الانسان فى الاشارات والحركات فيعجب لها القسيسون من جهلهم كل العجب ولا يفهمون سرها فتراهم تارة لا يصدقون حواس انفسهم وتارة يظنون أن شرلكان وتوريانو لا يخلوان عن تواطؤ واتفاق مع ارواح لا تدركها الابصار وكان لشرلكان

سنة ١٥٥٨

رغبة عظيمة فى صنع الساعات من كبيرة دقاقة وصغيرة ورأى بعد التجارب المتعددة أنه لا يمكنه أن يوفق بين حركة اثنين منها فكر متعجبا على ماقيل وتأسف على ما صرفه من الايام لقصد التوفيق بين الناس فى الامور العقلية والاسرار المشكلة الدينية وقد توارت بحجاب ووقف دونها أولوا الالباب

اجلّ من اشغاله

ومع هذه الاشغال كان له دائما أوقات مخصوصة معدة للتعبد والنسك فكان صباحا ومساء يحضر اداء الفرائض الدينية فى معبد الدير الذى كان به وكان منكبا على مطالعة كتب التدين لاسيما تآليف كل من القديس اوغوسطين والقديس برنار وكان يحادث كثيرا فى المسائل الدينية مع قسيس اعترافه ومع أمام الدير

ومثل هذه العيشة يليق برجل مثله قد قطع علائق هذه الدنيا وتأهب للارتحال الى الدار الاخرى فأول سنة من خلوته قضى بعضها فى ملاهى بريئة من اللوم يستعين بها على تخفيف آلامه وأوجاعه ويريح عقله مما لحقه من التعب والنصب مدة حكمه الطويل واشتغاله بتدبير ملكه وادارة اموره الشاقة وقضى البعض فى النسك والتعبد حيث كان يراه ضروريا له ليتأهب به للرحلة الى دار الآخرة لكنه قبل موته بستة أشهر بلغ به داء النقرس غاية الشدة كأنه لم يسكن قبل ذلك مدة فوق العادة الا ليرجع اليه فى نهاية الاشتداد فزادت آلامه عن المعتاد وكان ضعيف البنية نحيفا فلم يطق شدة الآلام والاسقام وضعف من وقتئذ عقله وهزل جسمه وكثر ملله حتى لم يبق فيه أثر من عقله القوى ونهاه العلى الذى امتاز به عن معاصريه وصار من ذلك الوقت

بموته

ذا اعتقادات باطلة وأوهام عاطلة وهجر كل تسلية واقتصر على النسك والعبادة واتبع طرق الرهبان المتعبة ومسالكهم الشاقة الصعبة وصار لا يحب سوى معاشرة الرهبان يصرف اوقاته الا القليل منها فى قراءة الاناجيل معهم وكان لقصد تكفير سيآته يجلد نفسه جلدا مبرحا حتى وجد بعد موته السوط الذى كان يضرب به نفسه ملوثا بدمه نعم أن مثل هذه الكفارة

سنة ١٥٥٨

شاقة جدا لكنه سبق بمثلها فاراد أن يفعل شيأ ينفرد به لما أنه تمكن منه القلق والوسواس والخوف كما هي عادة من غلبت عليهم الاوهام والاعتقادات السقيمة فتكدر عيشه وتعكر ذهنه وعظم طيشه ورأى أن فعله المتقدم ذكره ليس بكبير شيء حتى ينال به الرحمة والمغفرة وصمم على فعل شيء يعد من أغرب ما خطر ببال من أعماهم فرط التعبد والنسك وجردهم عن نور العقل وهو أن صمم على اجراء جنازته بنفسه قبل موته وانطوائه في رمسه وبناء على ذلك بنى لنفسه قبرا في معبد الدير وسار أتباعه وخدمه الى هذا القبر على رسم الجنازة وبيدهم شموع سود وهو حولهم ملفوف بالكفن ثم وضعوه في نعش في محفل عظيم وتلوا عليه ما يتلى على الاموات وكان هو يتلو معهم وينوح على نفسه مع الحاضرين كما اذا كانت تلك جنازة له حقيقية وانتهى رسم الجنازة على حسب العادة بصب ماء مقدس على النعش ثم انصرف كل الناس وغلقت عليه أبواب المعبد فخرج بعد انصرافهم وعاد الى مسكنه وذهنه مشحون بكل فكرة محزنة تنشأ عن مثل هذا المحفل وقد حصل أنه اما لتعبه من طول المحفل او لشدة تأثره من صورة الموت اعترته حمى شديدة في اليوم الثاني وكان نحيف الجسم من الاسقام فلم يطقها ومات بها في الحادي والعشرين من شهر سبطمبر سنة ثمان وخمسين سنة وستة اشهر وخمسة وعشرون يوما

في ٢١ من شهر سبطمبر

مطلب مناقبه

وكما كان شرلكان بمقتضى منصبه ومقامه اول ملوك عصره كان ايضا مافعله ابهج ما جرى في ذلك العهد وأبهاه اذ كانت مشروعاته كثيرة جمة تدل على علو الهمة ونجح فيها كل النجاح وفتحت له ابواب السودد والفلاح وبالاطلاع على كتب اهل اسبانيا تراهم قد بالغوا في مدحه لكونهم اهل وطنه كما أن كتب الفرنساويه قد بالغت في ذمه وقدحه فبهالا يمكن الوقوف على حقيقة هذا الذهن وكنه ما اتصف به من القريحة والنهى بل الطريقة في معرفة كنهه هي التأمل في اعماله وافعاله والواقع أنه مع امعان النظر في ذلك يرى أنه يختص باوصاف جليلة وشمائل جميلة تقضي بامتيازه عن سائر ملوك

سنة ١٥٥٨

عصره بل وتفهم سر تفوقه عليهم تلك المدة الطويلة ففي كل امر دبره شوهد أنه لم يعدل عن سبيل الحزم والاحتياط ولم يكن ذلك مجرد تعوده بل اتصف به بأصل الجبلة والفطرة وزادته التجارب دراية وخبرة فقد خلق على معارف لدنية كان نموها فيه بطيأ ولم تبلغ غاياتها الا شيأ فشيأ مع تقدمه في السن ولذا تعود على امعان النظر وقدح الفكر في كل أمر كان له به مدخل او مصلحة ما فيزاول تدبيره ليحيط به علما ولا يشتغل في اثناء ذلك بلهو يجر الى فتور همته او بهوى يحول بينه وبين بغيته وكان يكتم سره حتى يحقق أمره فاذا لاح له السداد ووقف على غاية او مراد أخبر وزراءه وأفهمهم بما نواه وبعد وقوفه على آرائهم وسماعه لاجاباتهم يباشر بتنجيز قصده مع عزم شديد وحزم اكيد يندر وجوده في من كان مثله بطيأ ذا تأن لدى التدبير والتفكير فكان بون بعيد بين افعاله وبين افعال كل من هنري الثامن ملك انكلترة وفرنسيس الاول ملك فرانسا حيث كانت افعالهما لا تخلو عن عطب الاستعجال وعدم التؤدة والتبصر في المآل بخلاف افعاله فكانت مع مقابلتها مع بعضها ترى كمذهب ذهب اليه وسنن صمم عليه بحيث ترى جميع اموره مرتبطة ببعضها كل الارتباط خالية عما هو من قبيل الاعتباط مشتملة على ما يكون به تمام المرام كأن تدبير جليلها وقليلها مع غاية الاحكام كان لم يفرط فيها من شيء بل هي جامعة لما يحتمل وقوعه وان كان بمعزل عن اصل القضية موضوعه وكان لدى المداولة والمشاورة ذا رخاوة وبرود ولدى العمل والتدبير ذا قوة نادرة وعزم عزيز وكان ذا حزم عظيم في معرفة ما يوصل الى سبل السودد والنصر كما كان جيد القريحة في ايجاد ما به يثبت لنفسه الظفر ولم يكن بالطبع يميل الى الحروب والخطوب ففي عنفوان شبوبيته وشدة شهوته كان خاملا قليل العمل لكنه لما صمم على تسيير جنوده لمبارزة الاعداء وتصدى للقائهم لم تتعلق آماله بغرض في هذا المعنى الا وكان مقتدرا على حل مشكله وفض معضله وبعد قليل أبرز في فن الحرب ورياسة الكتائب ما ساوى به أمهر أبطال عصره بذهنه الثاقب وكان يعرف حق المعرفة شيأ آخر لا بد منه للملوك وهو معرفة

سنة ١٥٥٨

الناس بالسماء والسلوك فكان يجعل كل واحد من رجال دولته فى الوظيفة اللائقة بطبيعته ومنذ موت وزيره شيورة الى آخر حكمه وتاركه لم يجعل وزيرا أو واليا أو سفيرا الا وكانت معلوماته كافية للخدمة التى اعدّ لها والوظيفة التى حلها نعم كان عاريا من لطافة الطبع وطراوة الخلق التى كان فرنسيس الاول يمتاز بها عنه ويستحوذ على قلوب من كان يقربه منه لكنه كان داخلا من الفصائل المرغوبة المألوفة الداعية لقبول الانسان وصدق الناس معه فى كل أوان فكان يعتمد على رجال دولته ويثق بهم ويكرمهم كل الاكرام فى مقابلة خدمهم ولا يعطهم على ما يحوزونه من الفخار والشهرة ولا يظهر عليه أنه يغار منهم اذا عظم بطشهم فى ملكه وكسبوا نفوذا وقدرة وكل امراء الجنود الذين حكموا جيوشه معدودون ماعدا قليلهم من اكابر أبطال ذلك العصر قدرا وأعظمهم فخرا وقد كان ولاشك تفوقه على اخصامه ناشئا عن تفوق ضباطه الذين انتخبهم وأعدّهم للقاء الاعداء بعد أن اعلا رتبهم نعم ان هذه العبارة تقص فى فضله الذاتى وفخره لكن ان صدق ذلك يكون فى صورة ما اذا ثبت أن من المسلم كون معرفة الجيد والاجود واعداد كل لما اليه استعدّ لا يشهد للمرء بالفضل والكياسة وحسن التدبير والرياسة

ولكن اتصف شرلكان من جهة السياسة بمسالب وعيوب تنقص ما حازه من الفخر بمعارفه الكثيرة الوافرة وذلك ان كان طمعه فوق كل غاية وشرهه يكبر عن أن يقف الى نهاية فان لم يصح ماذهب اليه اهل عصره من أنه بلغت به الامانى الساطلة الى أن صمم على جعل ممالك اوروبا مملكة واحدة فمن اليقين ان حبه الرياسة وتمييز نفسه عمن سواه فى خصوص فتوح البلدان وتسخيرها قد أوقعه فى حروب دائمة مستمرة جرّت الى افقار رعاياه ودمارهم ومنعته عن تكميل العلوم والفنون بين رعيته واحكام القوانين الداخلية فى مملكته مع أن هذين الغرضين هما الاحرى باشغال فكرة كل ملك عرف أن القصد من حكمه انما هو راحة الاهالى وعمارية البلدان وكان من

صغره

سنة ١٥٥٩م

صغره قد جمع بين تاج الايمبراطورية وبين ممالك اسبانيا وماورثه من الاراضى الواسعة عن كل من عائلة اوستريا وعائلة بورغونيا فوجود هذه الممالك الكثيرة فى قبضة يده تمكن منه الغرور وعظم طمعه حتى أوقعه فى امور جسيمة مشكلة أصعب من خرط القتاد حتى كان غالبا يتحقق من عجزه عن اجرائها وانفاذها فيستعين على تتميمها بحيل ومخادعات دنيئة لا تليق بعلو قريحته بل كان يبعد أحيانا عن سبل المروءة بعدا يزرى بمثله من ذوى الهمة من الملوك وكان عذره فى السياسة يكثر ظهورا ويزيد الخلق نفورا لحسن سلوك معاصريه فرنسيس الاول وهنرى الثامن وصدقهما فى معاملة الناس نعم كان اختلافهم فى السلوك ناشئا عن اختلاف طباعهم ولكن مع الالتفات الى مغايرتهم لبعض فى السياسة والى مذهب كل منهم فى هذا المعنى يلتمس لشرلكان معذرة من بعض الوجوه وذلك أن فرنسيس وهنرى كانت شهواتهما تدفعهما مع القوى الضعيف وتسوقهما الى ما كان مطمح نظرهما بدون تفكير واما شرلكان فكان فى افعاله ذا فكر ونظر قراهما محكمة على منوال منتظم جيد التدبير ومن المعلوم أن من كان طمعه من القبيل الاول اذا قصد امرا لا يبحث عن حيلة يتخذها وسيلة فى تنفيذ ذلك الامر واما من كان طمعه من القبيل الثانى أعنى طمع شرلكان فلذى التفكر فى قصد او اجراء أمر لا بد له من الميل الى سلوك طرق دقيقة فتوقعه دقته فى اتخاذ سبل الحيل وهذه تنتهى غالبا بأن تكون خداعا وغشا

ومما احتوت عليه التآليف فى مناقب شرلكان وأوصافه الذاتية واحواله شئ هين يسير بالنظر لعدة المؤلفين الذين تصدوا لتأليف سيرته ومع ذلك نحن لا نتعرض لذكر شئ من هذا المعنى لانه يعزل عن موضوع كتابنا هذا حيث جعلناه لبيان الوقائع الحاصلة مدة حكمه لا لوصف احواله الذاتية وتعريف خصائله او رذائله الخصوصية

مطلب
المذاكرة الحاصلة لخصوص الصلح

وفى اثناء ذلك كان مرخصوا فرانسا واسبانيا وانكلترة لا يزالون

سنة ١٥٥٩

يتذاكرون فى دير سركامب وقد حصل اوّلا أن كل مرخص قد طلب عن لسان سيده امورا جسيمة كما هى عادة المأمورين فى مثل هذا المعنى ولكنهم كانوا جميعا يودّون الصلح وكانت نيتهم التساهل حتى لا يبقى عائق ولا مانع و يتم الصلح على أحسن حال ولما مات شرلكان ازدادت رغبة فيليبش فى الرجوع الى اسپانيا حيث لم يبق بها احد فوق مقامه فكان لا يودّ الا حصول الصلح فى أقرب وقت ولكن مع رغبة الجميع فى المسالمة طرأت حادثة ترتب عليها تأخير المذاكرة وهى موت مارية ملكة انكلترة وكان موتها بعد افتتاح مذاكرة سركامب بنحو شهر وكانت مدة حكمها قصيرة وقد تمت أيام لم تتمكن بادارة المملكة جديرة وتولت المملكة اختها ايليزابيطة وفرح كافة الناس بتوليتها وعلوّ درجتها وسبب تأخير المذاكرة هو أن مرخصى انكلترة قد انفسخ توكيلهم بموت الملكة مارية فقطعوا المذاكرة حتى يأتى اليهم أمر من طرف الملكة الجديدة

مطلب
موت مارية ملكة انكلترة وتولية ايليزابيطة عوضا عنها فى ١٧ من شهر نوامبر

وقد كانت تولية ايليزابيطة موجبة لاشتغال بال كل من هنرى وفيليبش وذلك أن مارية كانت ذات ظن ووسواس فسلكت ايليزابيطة مدة حكمها مسلكا حسنا يبرؤها من كل شبهة وأظهرت من الحزم والاحتياط ما هو فوق سنها فأيقن الملكان المذكوران أنها ذات معارف وافرة وعقل كبير وان مسلكها فى الحكم سيصير غير مسلك اختها مارية وأحسا بأن استمالتها اهم الامور فلم يبق كل منهما وسيلة فى استمالتها الى حزبه وكان كل منهما قد فعل معها صنعا جميلا قبل ذلك اما هنرى فكان عرض عليها أن تلتجئ بمملكته اذا اشتدت فى حقها اساءة مارية وصارت لا تأمن الاقامة بمملكة انكلترة وكذلك فيليبش فانه لبطشه وصولته منع مارية عن اعدامها فكان كل منهما يؤمل استمالتها اليه بما قدمه فى حقها فكتب اليها هنرى يهنيها بعبارات التبجيل والتعظيم والاحترام والتكريم وأفادها أن الحرب الذى حصل بينه وبين انكلترة لم يكن مبنيا على سبب آخر غير مراعاة مارية خاطر زوجها فيليبش وذلك عما بصيرة منها

مطلب
سعى كل من هنرى وفيليبش فى استمالة ايليزابيطة الى حزبه

سنة ١٥٥٩

واقسم عليها فى كتابه بالعدول عن المحالفة مع فيليبش حيث ثبت اضرارها بمملكة انكلترة وترجاها أن تعقد معه صلحا خصوصيا بقطع النظر عما يخص مملكة اسبانيا وأن تنفصل بالكلية عن حرب تلك المملكة واما فيليبش فكان يعلم أن محالفته مع انكلترة جليلة العائدة كما ثبت ذلك بانتصاره على الفرنساوية بمساعدة الانكليز له ولخوفه ضياع تلك المحالفة لم يقتصر على اظهار تلك المحبة والاحترام للملكة ايليزابيطة ولا على ابهامها تصميمه على دوام المصادقة بينهما بل عرض عليها أن يتزوج بها لاحكام عروة المودة بينهما وتعهد بأن يستاذن البابا حتى يحكم له بتحليل ذلك ويرتفع كل محظور

مطلب
تفكر ايليزابيطة فيما ينبغى لها فعله

واما ايليزابيطة فقد ورنت ما عرضه عليها كل من الفريقين لتعرف الارجح لرواج مصلحتها وكانت تفقه كنه الامور وتعرف من أين يؤكل الكتف فقبلت اوّلا قبولا حسنا ما عرضه عليها هنرى من المداولة بينهما بدون ادخال فيليبش معهما لانها رأت ذلك وسيلة الى استجلاب فوائد جليلة من مملكة فرانسا فى صورة ما اذا حصل من فيليبش تفريط فى مساعدتها على حصول آمالها من المحالفة المطلوب عقدها بين الجميع ولكن مع قبولها لقول هنرى كانت على احتياط عظيم حتى لا توجب نفور فيليبش اذ كان طامعا فى جنس من الناس وليس من الرأى تغييره وهو حليفها بسعيها فى استمالة هنرى وكان عدوّا لها على أن هنرى المذكور قد وقع منه خطأ كبير تعسر مسامحته فكان سببا فى منع ايليزابيطة عن مكاتبته ومراسلته كثيرا بحيث يوجب ذلك غضب فيليبش وخطأ هنرى هو أنه فى اثناء جدّه فى استمالة المذكورة واستحيائها ترجاه امراء عائلة لورينة أن يأذن لزوجة ابنه ملكة ايقوسيا أن تلقب بملكة انكلترة وأن تلبس نشاناتها وعلاماتها فسمع القول وأذن للملكة المذكورة فيما ذكر مع انه لا حق له فى هذا مطلقا فترتب عليه ما حصل للملكة ايقوسيا من الضرر والشقاوة واضاعة محبته عند ايليزابيطة اذ حقدت له من وقتئذ وبغضته كل البغض

سنة ١٥٥٩

وصارت لا تأتمنه ولا تثق به في شيء ما واستنسبت أن تكون على غاية من التودد والموالاة مع فيليبش وأن لا تعتمد في حصول الصلح الاعلى اشراكه معها في المداولة والمشاورة

مطلب ترخيصها للمبعوثين في المذاكرة بخصوص الصلح

وبمجرد جلوسها رخصت بالمذاكرة لمن كانوا مامورين من طرف اختها وأمرتهم أن لا يفعلوا شيأ الا بمشاركة مبعوثى اسبانيا وأن لا يتعرضوا الى امر ما الا بالمذاكرة معهم لكنها مع استصوابها اظهار وثوقها بملك اسبانيا لم تظهر الميل الى قبول ما عرضه عليها من تزوجه بها ومن جملة ما منعها عن ذلك كون الانكليز قد لاموا على اختها الترجيحها هذا الملك وفرحوا بموتها حيث ترتب عليه قطع علاقة النسب بينه و بينهم فن الخطر الرضاء بتزوجه اذ هو يغضبهم وينفر قلوبهم هذا ولما كانت تعهده في فيليبش من الفظاظة وعلاطة الطبع لم تكن ترغب في زواجه سيما وكانت لا تظن أن تحليل البابا يكفى لرفع كل محظور في زواجها به لانه يؤذن ببطلان طلاق ابيها للاميرة قاترينة داراغون وبطلان تزوج امها الاميرة آندوبولان بالملك هنرى الثامن واذا ثبت ذلك ثبت كونها نسمها من الزنا حيث تكون بهذا الفرض ثمرة نكاح غير مستوف للشروط والاركان غير أنها مع تصميمها باطنا على عدم قبول زواجها بالملك فيليبش كانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك لا تأذن لها بردّه بوجه قطعي فيما طلب فأجابته بجواب ملتبس مبهم وبعد أن اطنبت في تعظيمه واحترامه افادته بما معناه انها وان كان لا يمكنها الآن اجابته في مرغوبه فلربما كان لا مانع من تحقق مطلوبه فيما بعد

مطلب المذاكرة الحاصلة في كاتوكامبريزى

في ٦ من شهر فبرايه ١٥٥٩

هذا وقد أخفت ما كانت تضمره في شأن الدين حتى انخدع فيليبش بحيلها وساعدها كل المساعدة في المذاكرة التى تجددت بدير سركامب واستمرت بعد ذلك في كاتوكامبريزى وكان القصد من تلك المذاكرة بت امر النزاع بين ملك اسبانيا وملك فرانسا وملكة انكلترة بعقد مشارطة تبين حقوقهم وتوفق بينهم فيما كان يدعيه كل منهم وكان بينهم امور مشكلة يعسر

سنة ١٥٥٩م

حلها فكان يظهر أن لا بد من طول مدة المذاكرة ولكن صار مونتموراسى ينتقل من ديوان ملك فرانسا الى ديوان فيليبش لقصد ازالة كل مشكل وحل كل معضل وسلك فى ذلك مسلك الحذق والحزم حتى اصلح بينهما فى القضايا المتنازع فيها وجهز كل ما يلزم لرفع الشقاق وعقد مشارطة بنية بالاتفاق ولم يتأخر انهاء تلك المشارطة الا لسبب واحد وهو ما كانت تطلبه مملكة انكلترة من استرداد مدينة كالس من ايدى الفرنساوية واصرارها على عدم قبول الصلح بدون هذا الشرط وكان ملك فرانسا لا يرضى بذلك فصار كل من الفريقين يشتد من جهته حتى ظهر أنه لا سبيل الى عدول احدهما عن نيته وكان ملك اسبانيا يعضد دعوى ايليزابيطة لا لكونه رأى من الانصاف مساعدة الانكليز على استرداد ما فقدوه بتصديهم لنصره بل ولم يكن قصده بذلك مجرد استحمابه عند ايليزابيطة بل كانت نيته اضعاف مملكة فرانسا بنزع هذا الثغر الجسيم منها وجعله بين أيدى الانكليز وهم اعداء لها فيه يسهل عليهم الجولان فيها متى ارادوا ولكن قد حصل ان فترت همته شيأ فشيأ وعدل عن تعضيد حق الانكليز وسبب ذلك هو أن ايليزابيطة كانت أيقنت تمكنها من كرسى المملوكية فعدلت عما كانت عليه قبل من طرق المداراة واظهرت فى اثناء المذاكرة ما لم تكن تظهره قبل من محو ما كانت احدثته اختها لتأييد دين البابا بل وبدأت فى فعل ما به يكون دين المعتزلة على قرار مكين ومن وقتئذ أيقن فيليبش أن تعلق آماله بزواج ايليزابيطة من الامانى الباطلة وقلت مساعدته لها وضعف تعضيده لمصالحها بل ولم يكن يفعل ذلك القليل الا خوف اللوم ومراعاة لمحوطات سياسية بعيدة الشأو وقد أدركت ايليزابيطة منه هذا وفهمت باطنه من لسان حاله وكانت تعرف أن بقاء الحرب بينها وبين فرانسا يضر جدا بمصلحة رعاياها بل انها مع دوامه لا تتمكن من تنفيذ ما كان فى نيتها من وضع ما يلزم من القوانين لترتيب ممالكها وادارتها الداخلية فأحست بلزوم الامتثال لمقتضيات الاحوال والمبادرة بالعدول عن الامور الجسيمة التى

مطلب التوقف الحاصل بسبب دعوى انكلترة

سنة ١٥٥٩

كانت تطلبها من مملكة فرانسا حتى يمكن اتمام الصلح قبل عدول فيليبش بالكلية عن حربها وبناء على ذلك صدرت منها الاوامر الى وكلائها بالتساهل وانعقدت المذاكرة بينهم وبين وكلاء الفرنساوية وكان مبعوثوا اسبانيا واسطة بين الفريقين ووجدت ثم وسيلة تؤدن لها بالتساهل والعدول عما كانت تطلبه اولا من استرداد كالس وبعد تسوية هذا الشرط سهلت جميع الشروط وحصل فيها الاتفاق بدون أدنى توقف من الطرفين وقد اراد فيليبش أن يتقدم امضاء المشارطة بين ايليزابيطة وهنرى على مشارطته مع هنرى المذكور وانما فعل ذلك خوفا من أن يفهم الناس رغبته عن حرب الانكليز وبالجملة فقد اقرت المشارطة الاولى فى الثانى والثانية فى الثالث من شهر ابريل ولم تكن المشارطة بين فرانسا وانكلترة محتوية على شيء مهم غير أمر كالس * فوقع الاتفاق على أن يبقى هذا الثغر وتوابعه بيد هنرى مدة ثمان سنوات وبعدها يرده الى انكلترة واذا أبى رده بعد تلك المدة يدفع اليها خمسمائة ألف كورون (نوع من النقود بنحو اربعة وعشرين قرشا) ويضمنه فى اداء هذا المبلغ سبعة او ثمانية من التجار لا يكونون من رعاياه وأن يسلم الى انكلترة فى خمسة من اكابر الفرنساوية يبقون تحت قبضتها على سبيل الرهن حتى يعطى اليها ضمان التجار المطلوب وانه بعد دفع المبلغ المذكور لا يزال حق انكلترة فى كالس ثابتا مقررا وأن يكون كل من ملك ايقوسيا وملكتها اذا اخلا فى المشارطة وانه اذا حصل من هنرى او من حلفائه نقض للصلح باظهار معاداة او تعد أيا ما كان وجب عليه حالا رد كالس وكذلك اذا حصل من طرف ايليزابيطة باعث الى نقض الصلح فلا يجب على هنرى ولا على ملك ايقوسيا وملكتها اجراء شرط ما من الشروط المذكورة

مطلب
ما احتوت عليه المشارطة المعقودة بين فرانسا وانكلترة

ومع ما اشتملت عليه تلك المشارطة من شروط الاحتراس والتبصر يرى من البديهى الجلى ان هنرى لم تكن نيته رد كالس وان ايليزابيطة لم تكن

مطلب
حقيقة نية الفريقين من هذه المشارطة

سنة ١٥٥٩

توقّل امكان استردادها وذلك ان من المتعذر بقاء هذه الملكة مدّة ثمان سنوات على عهد الاتحاد والمحبة مع مملكتى فرانسا وايقوسيا حتى لا يمكن أن يتعال هنرى عليها بشىء ويتهمها بكونها بدت بنقض العهود وفسخ الصلح الموجود فاذا فرض امكان مضى تلك المدّة بدون حصول مكدر بينهم فمن الجائز أن لا يرضى هنرى بعد فراغ المدّة بدفع المبلغ المقرّر وفى هذه الصورة لا سبيل الى ايليزابيطة فى طلب حقها سوى الجبر والقهر وبناء على ماذكر لم يكن القصد مما تقرّر من الشروط فى شأن كالس استردادها من الفرنساوية بل كان قصد ايليزابيطة ارضاء خاطر رعاياها وقد عدّ هذا اهل السياسة دليلا على حزمها حيث سترت عجزها وقصدت عن استردادها بطريقة مقبولة تؤدّى الى تعلق آمال رعاياها بردّها اليهم عن قريب ولو غفلت عنها بالكلية ولم تشترط شيأ من ذلك لنسبت الى الجبن ونفرت منها قلوب الانكليز

مطلب ما كان وسيلة فى تسهيل الصلح بين مملكتى فرانسا واسبانيا

واما ما جعله موتمر اسى وسيلة فى ايقاع الصلح بين فرانسا واسبانيا فهو أمر زواجين نذكرهما هنا الاول منهما زواج الاميرة ايليزابيطة بكرية هنرى ملك فرانسا بالملك فيليبش وكانت هذه الاميرة قد صار الاتفاق فى مذاكرة سركامب على تزويجها بالامير كرلوس بن فيليبش فنوى أن يأخذها لنفسه غدرا بابنه المذكور * الثانى زواج الاميرة مارغريطة اخت هنرى المرقوم بالدوق دوسابوة ثم ان روابط القرابة والمخاتنة ضعيفة بين الملوك لا يرعون حرمتها مع تمكن الطمع منهم ولكنهم يظهرون أحيانا المخادنة والمحبة لبعض اذا كان لهم فى ذلك مآرب كتحسين أمور أرادوا فعلها وكانت مخالفة للسياسة او للناموس فيتعللون بالقرابة والنسب حتى لا تسلقهم ألسنة الناس او لا يعاب عليهم بها وهكذا كان قصد هنرى من زواج اخته وبنته فانه جعله وسيلة فيما سلم فيه الى فيليبش والدوق دوسابوة اذ بدونه كان لا يتمكن من اجابتهما فى شىء من ذلك الا ويكون عرضة لقدح الناس وطعنهم

سنة ٩٥٥
مطلب
البنود التى اشتملت عليها مشارطة الصلح

فى عرضه
والشروط الاصلية المندرجة فى مشارطة الصلح بين فرانسا واسبانيا مبينة على الوجه الآتى (اولا) أن تدوم مملكتا فرانسا واسبانيا على صدق المحبة مع بعضهما (ثانيا) ان هنرى وفيليبش يسعيان معا فى عقد مشورة قسيسية عامة لمنع تقدم مذاهب الهراطقة وتأييد دين الكنيسة وجعله على قرار مكين (ثالثا) ان جميع البلدان التى تغلب عليها كل منهما فيما امام جبال آلپة من ابتداء حرب سنة ١٥٥١ ترد كل بلدة منها الى من كانت بيده منهما قبل الحرب (رابعا) ان دوقية سابوة وايالة پيمون واقليم بريسة وسائر الاراضى التى كانت قبل ملكا للدوق دوسابوة ترد الى الامير ايمانويل فيليبير بعد اشهار زواجه بالاميرة مارغريطة ويستثنى من ذلك مدينة توران ومدينة قيرس ومدينة پينرول ومدينة شيواس ومدينة ويلانواه فان هذه المدائن لا تعطى للامير فيليبير بل تبقى مع هنرى الى ان تحقق دعواه فى شأنها من كونها حقه بالوراثة عن جدته ويكون للملك فيليپش الحق فى وضع محافظين من جنوده بمدينتى ورسيل وأستى مادامت المذكورة بيد هنرى (خامسا) ان هنرى ينزل حالا عن المدائن التى كانت تحت قبضته من بلاد توسكانة واقليم سينة وأن يعدل عن دعواه فيما يخص هذه المدائن (سادسا) ان يرد اقليم موتفرات الى الدوق دومانتو وان يعفو عن اهل جنوزة ويسلم لهم فى المدائن التى تغلب عليها من جزيرة قورسقة (سابعا) ان كل ملك او أمير من هؤلاء ردت اليه بلدة لا يسأل اهلها عما فرط منهم فى حقه مدة حكم غيره عليهم ولا يؤاخذهم بما حصل منهم فى تلك المدة بل ما مضى يلقى به فى زوايا النسيان وقد اندرج فى هذه المشارطة اسم البابا والايمپراطور وملك دانيمارقة وملك اسويج وملك پولونيا وملك البرتغال وملك ايقوسيا وملكتها واكثر ملوك النصارى من صغير وكبير وكان ادراج هؤلاء بوصف كونهم حلفاء للفريقين بعضهم حليف للملك

هنرى

سنة ١٥٥٩

هنرى والبعض الآخر للملك فيليبش

مطلب
نشر ألوية الراحة والامن ببلاد اوروبا

وبعد هذه المشارطات انتشرت ألوية الراحة ببلاد الفرنجة ولاح نسيان جميع الاسباب التى اوجبت الشقاق والفشل مدة مستطيلة بين فرانسا واسبانيا وكانت اسباب التفاقم قوية حتى توارثه الابناء عن آبائهم وانتقل الشقاق من شرلكان الى ابنه فيليبش ومن فرنسيس الاول الى ابنه هنرى ولم يشك احد من هذه المشارطات سوى قوم الفرنساوية فانهم لم يستحسنوا الشروط لقلة ما يعود عليهم من الفائدة وغضبوا من ملكهم حيث تساهل على هذا الوجه انخداعا بقول مو تمورانسى وتحيل الاميرة والاتنواس مع ان الحاحهما لم يكن عن طيب نية كما تقدم بيان ذلك لان الامير مو تمورانسى كان يود الخلاص من ربقة الاسر والاميرة المذكورة كانت تريد الانتقام من الدوق دوكيز ومن اخيه وكيف لا ترفع الفرنساوية صوت الشكوى وقد كان ما سلم ملكهم فيه اذ ذاك عبارة عن مائة وتسع وثمانين من المدائن الكبيرة الحصينة بعضها ببلاد ايطاليا وبعضها بالبلاد الواطية وأخذ فى مقابلة هذه المدائن الجسيمة ثلاث مدن صغيرة وهى مدينة سنكانتين ومدينة هام ومدينة كاتليت وبالجملة فقد رأوا من العار الذى لا يمكن تطهيره ملتهم مسه الرضا بالنزول عن تلك المدائن وكانت مع اتساع اراضيها يسهل حفظها والذب عنها حتى كان الاعداء لا يؤملون امكان انتزاعها من ايديهم ولو قاتلوهم مدة سنين وانتصروا عليهم فى كل حين

مطلب
اقرار الصلح على الشروط المذكورة بين فرانسا واسبانيا

ولكن لم يلتفت هنرى الى تظلم رعاياه بل ولم يعبأ باخطار شوراه وأقر المشارطة وعمل بمقتضى ما اشتملت عليه من الشروط وتوجه الدوق دوسابوة الى باريس فى محفل عظيم لاشهار نكاحه مع اخت هنرى وذهب الى تلك المدينة ايضا الدوق دالب فى رسالة بهية ليكون وكيلا عن فيليبش فى تزوجه بالاميرة ايليزابيطة وتلقى كل منهما مع غاية الاكرام والتبجيل غير انه فى اثناء الولائم ومحافل الفرح والسرور هلك هنرى بغتة بحادثة

سنة ١٥٥٩

مطلب

موت الملك هنرى في عشرة من شهر يولية

في ثمانية عشر من شهر اوغسطوس

عجيبة اشهر من أن تذكر وخلفه ابنه فرنسيس الثاني وكان حديث السن ضعيف البنية والذهن وبعد ذلك بقليل لحقه البابا پولص وكان ظالما جبارا وهلك وهو في نزاع مع كافة الناس وفي غضب شديد على اقاربه المتقدم ذكرهم ولح فيليپش في اساءتهم وايذائهم وتخلى عنهم من خلف پولص في كرسى البابا وان كانوا هم الذين رفعوه الى اوجه فحكم عليهم بالقتل وكانوا يستحقونه لشدة طمعهم وعظم جرمهم بما ارتكبوه من الفواحش وقد كان موتهم شنيعا موجبا للفضيحة كما كانت حياتهم كبيرة الآثام كثيرة الكبائر فانظر كيف طوى الدهر في آن واحد جميع من كانوا مدار الحوادث الجسيمة التي حصلت في ذلك العصر ببلاد اوروپا وبعدهم بدئ عصر جديد بخلق جديد لهم تاريخ آخر وشأن تدونه كتب الأواخر وكانت مطامعهم ومآربهم اخرى وحصلت بين ملوكهم منازعات جديدة وظهرت اطماع عديدة اشتغل بها الناس وحل بهم الشقاوة والياس * وبالتأمل في تاريخ كل عصر اتصف بكثرة الحوادث والتقلبات يرى بون بعيد بين ما نشأ عن تلك الحوادث من التغير وما صرف من الجهد فيها ويرى أن الفتوحات لا تكثر ولا تتم في أقرب وقت الا بين الملل المتهاونة في فن الحكم والادارة فانظر الى اسكندر الاكبر حين اخذ قومه وكانوا اولى شجاعة وقناعة لا تنكر درايتهم في الحروب وهمتهم لدى الخطوب لضبط قوانينهم الحربية وربط اصولهم العسكرية وسار بهم لقتال اقوام ذوى خمول ورخاوة لفرط رفاهيتهم وانهماكهم على اللذات والشهوات والى جنكيزخان وتيمورحين سارا بأقوام متبربرين اقوياء البنية لتسخير ملل اضعف قوتها القطر والتجارة والفنون فان هؤلاء الثلاثة مع جنودهم قد برزوا في فتوحهم كسيل العرم وهدموا ما صادفهم وتغلبوا على كل اقليم او مملكة في طرف ما يلزم من الزمن لجوبها اما الامم الذين يقربون من بعض في التمدن والمعارف فهم في أمن من مضار الفتوحات العجائبية لانهم تقريبا في درجة واحدة من المعارف وفن العسكرية والسياسة فلا يظهر تفوق دولة على اخرى من واقعة واحدة ويمنع من ذلك ما اشتملت عليه

سنة ١٥٥٩

قوانينهم الداخلية من الوسائل الجليلة على ان كل دولة لها مصلحة كبيرة في حفظ ما عداها من الدول والذب عنه فاذا حصل نزاع بين دولتين توسط بينهما دول أخرى وكانت كثيرات لتعادلهما فالغالب لا يظفر بالمغلوب من اول نصرة وبعد حروب طويلة مشؤومة تكل قوى الملل المتخاصمة وتفتر همتهم بدون ثبوت النصر لملة منها فيضطر الجميع الى السلم وتبقى كل دولة على ما كانت عليه قبل الحرب من القوة ولا تخسر شيأ من ارضها وملكها

وكانت اوروبا مدة حكم شرلكان على هذا الحال فلم يكن ملك اقوى من السائرين حتى لا يمكن منعه عن مد يد الاقتيات والتعدي الى اراضي غيره ولم تكن ملة تفوق غيرها في فن الحكم والادارة حتى يثبت ظفرها بما عداها بل كانت كل دولة بحسب موقعها وقطرها فوق غيرها من حيثية ودونه من حيثية أخرى وكان لكل مملكة مزية تنفرد بها وتلك المزية مبنية على كيفية حكمها وترتيبها أو استعداد ناسها واخلاقهم وما كان لاحد اهاس المزايا كان يراجحه شيء آخر في الأخرى فمنع هذا من تفوق دولة على ما عداها تفوقا يجر الى اضرار الجميع والحاصل ان ممالك اوروبا قد كانت في ذلك العصر كما هي في عصرنا هذا كعشيرة كبيرة لها شبه بعضها من حيث العموم وان كانت كل ملة من حيث الخصوص متصفة بامور تميزها عن غيرها ولكن لم تكن طباعها وقرائحها على ما هي عليه الآن من التنوع العظيم الذي فاقوا به في الاغلب سائر الناس حتى كأنهم منحوه ليكونوا حاكمين في الارض وغيرهم محكوما

مطلب
التغير العظيم الحاصل في حال اوروبا مدة حكم شرلكان

وبناء على ما ذكر كانت ممالك الفرنجة على التساوي في جميع الامور وكانت تشبه بعضها شبها كليا في سائر الاحوال ولهذه الاسباب لم تتمكن شرلكان من اشهار أيامه بفتوحات كبيرة وتغلبات جسيمة كثيرة كما سبق لمثله في اوقات أخرى ومع ذلك حصل في عهده لكل مملكة كبيرة من ممالك اوروبا تغير عظيم من قبل السياسة وأثرت وقائع عصره في كل منها حتى لم يزل

سنة ١٥٥٩

هذا التأثير باقيا فيها الى الآن انما يتفاوت قوة وضعفا بحسب احوال كل مملكة منها والحاصل أن طمع شرلكان قد جرّ به الى ان أجهد ممالك اوروبا وكان لا يفتر عن رميها بسهام جراءته وشرهه فتنبهت من عهده كل مملكة لحفظ نفسها وزاد عزمها فى احكام قوانينها واحكامها الداخلية وبدا حزمها فى معرفة كنه مصلحتها وادراك حقيقة قوتها وبذلت الجهد فى التوقى والترقى حتى غدت مهابة عند ما سواها على ان هذه الممالك كانت قبل بمعزل عن بعضها لا جامعة بينها فتألفت قلوبهم فى عهد شرلكان واتحدوا كل الاتحاد حتى صاروا من قبل السياسة كفريق واحد على سنن واحد وحلّ كل منها فى السياسة مكانة لم يزل عاكفا عليها منذ ذلك العصر مع ان مثل ذلك كان لا يؤمل اذ كانت بلاد اوروبا منذ قرنين كاملين فى غاية الاضطراب ومزيد الانقلاب

مطلب علو عائلة استريا

واما ما كسبته عائلة الاستريا فكان أعظم وأكبر مما كسبه غيرها من ملوك الفرنجة وقد ذكرنا فى غير هذا المحل ما ورثه شرلكان عن آبائه وأجداده من الاراضى المتسعة الاقطار والارجاء بعضها من عائلة الاستريا وعائلة برغونيا والبعض الآخر من ملوك اسبانيا وقد اضاف بنفسه الى تلك الاملاك التاج الامبراطورى وكان ذلك غير كاف له فانفرجت ارجاء العالم أمامه وظهرت دنيا جديدة ادخلها فى حكمه وبمقتضى تنازله استحق ابنه فيليبش اقاليم برغونيا ومملكة اسبانيا وتوابعها فى الدنيا الجديدة والدنيا القديمة لكنه ترك هذه الممالك لابنه على حال غير الحال التى كانت عليها وقت انتقالها اليه بالوراثة بمعنى انه وسع دائرتها باقاليم كبيرة اضافها اليها ولحزم ادارته وشدة عزمه عوّد الاهالى على الطاعة والامتثال وعوّدهم على معاناة الاين ومكابدة المشاق على الدوام وكان مثل ذلك غير معهود ببلاد اوروبا قبل القرن السادس عشر وصار من وقتئذ لازما ضروريا بسبب تمدن الملل حتى يمكن لكل منها أن تصبر لكيد عدوها فى الحروب والخطوب وقد وسع املاك عائلة برغونيا باقاليم ثلاثة اشتراها

سنة ١٥٥٩

من اصحابها وهي اقليم فريز واقليم اوتريك واقليم اويرسيل واستعمل طورا الحرب والضرب وطورا الحيل والمداولة حتى تغلب على دوقية عويلدرس واضافها الى املاك عائلة الاستريا المذكورة وقد ورث عن الملك فرديننند والملكة ايزابلة مملكة اسبانيا مع ما احتوت عليه من الاقاليم من آخر جبال البيرنة الى حدود البرتغال ولكنه قضى حكمه في صلح مع هذه المملكة الاخيرة فلم يشرع قط في الاغارة على تلك الجهة ولم يتطلع الى التغلب على شيء منها

وقد مكن شوكته في مملكة اسبانيا كل التمكين لانه بانتصاره في الحرب على اخطاط قسطيلة ساغ له تشييد مباني مزاياه الملوكية على اطلال خصوصيات الاهالي نعم انه أبقى مشورة القرطس ورسوم مجالسها لكن لم يكن ذلك الا مجرد الاسم والواقع انه ابطل شوكتها وعطل اقتضاءها ورتبها ترتيبا جديدا حتى صارت كناية عن جمعية مركبة من اشراقاته واتباعه لا عن مشورة كان اربابها ينوبون حقيقة عن الاهالي ويقومون بتدبير مصالحهم وقد جر محو هذه المشورة الى ضعف شوكة نبلاء المملكة واكابرها لانهما امران متلازمان وذلك ان هؤلاء الاكابر قد جرّهم تولعهم بالحرب كأهل عصرهم او طمعهم في نيل العلاء ودرجات الامتياز من خدمة الدولة الى انفاد اموالهم في الخدمة العسكرية او في استجلاب رضاء الملك وكان الملك يلاطفهم ويخادعهم فلم يدركوا سوء العاقبة لهم من ازدياد الشوكة الملوكية واعتزوا بأن كان يأذن لهم في ستر رؤسهم بحضوره وحسبوا هذه مزية عظيمة فعموا عن سلبه اياهم شيأ فشيأ ما كان لهم من القوة والشوكة وقت ان كانوا مع الاهالي في اتحاد واتفاق ولما شاهد فيليبش نجاح والده في ابطال مزايا تلك البلدان واضعاف شوكة اكابرها واعيانها طمع في فسخ حقوق مملكة اراغونيا وفسخ مزاياها وخصوصياتها وكانت اعظم من مزايا مملكة قسطيلة المتقدم ذكرها وكان اهل قسطيلة قد تعودوا على الانقياد والامتثال فاطاعوا أمره واعانوه على الزام اهالي

سنة ١٥٥٩

اراغونيا بماشاء والحاصل ان ارادة الملك قدصارت هى القانون النافذ فى سائر ممالك اسبانيا ومن المعلوم ان الملوك متى خلوا عن المزاحم وصار لامعارض لهم من الاهالى ولا من الاعيان فى تنفيذ أغراضهم ساغ لهم التصدى الى كل مشروع مهم جسيم وامكنهم جمع قوى الدولة وسوقها الى قصاء اوطارهم

مطلب
نموشوكة العائلة المذكورة فى غير تلك البلاد من اوروبا

وبينما كان شرلكان يجدّ فى توسيع دائرة المزايا الملوكية ليجعلها وسيلة فى جعل ملوك اسبانيا مطلق التصرّف بداخل بلادهم كان لا يهمل فى رفع مقام دولته وازدياد قوّته وشوكته بتكثير فتوحاته فى سائر الممالك فأثبت لملوك اسبانيا مملكة نابلى حتى امنوا ممن ينازعهم فيها وكان اخوه فرديننـد قداغتصب هذه المملكة بالخداع والحيل فلم يكن ثابت القدم بها وقدضم شرلكان ايضا الى ملك اسبانيا دوقية ميلان وهى من اخصب اقاليم ايطاليا واعمرها والحاصل ان خلفه بقطع النظر عما كان لهم من الاراضى والممالك الخاصة بهم قدصاروا اقوى ملوك ايطاليا وأعظمهم بطشا وصولة على انه طالما تحارب اعظم ملوك الفرنجة بها محاولين التفوق على بعض فقل ان ثبت لاحدهم ظفر عظيم بغيره وبعد اتمام مشارطة قانوقامبريزى عدلت مملكة فرانسا بالكلية عما كان فى يدها احرازه من الفتوحات خلف جبال الپة وخرجت جنود الفرنساوية من ايطاليا فازداد بها اهل اسبانيا قوة وشوكة ولم يزل ملوكها مقتدرين ذوى نفوذ عظيم فى ايطاليا المذكورة مادامت اسبانيا بمكانة تامة من القوة والاقتدار ولكن ما اكتسبه شرلكان لخلفه ملوك اسبانيا من الشوكة ونفوذ الكلمة فى داخل بلادهم وغيرها من بلاد الفرنجة لم يكن بكبير شئ بالنظر لما حازه ببلاد امريقة فانه فتح فى هذه الدنيا الجديدة ممالك كبيرة جعلها بعالى همته تابعة لدولة اسبانيا وتغلب على اراض واسعة واخرج منها ايرادا جسيما وبالجملة فكان هذا الاستكشاف جليل الفائدة من سائر الوجوه حتى انه لو فرض ان من

سنة ١٥٥٩

خلفه فى الحكم كان اقل طمعا من فيليبش لاعترابعظم ذلك كله وصار كبير الهمة خطير القدر جليل المشروعات والمقاصد

مطلب تقدم الفرع المتساوى من عائلة اوستريا

و بينما كان الفرع البكرى من عائلة اوستريا يرتقى الى اوج العلى والشوكة ببلاد اسبانيا كان الفرع الصغير الذى رئيسه فرديننـد يزداد صولة واعتبارا ببلاد ألمانيا وبالالتفات الى مالهذه العائلة منذ زمن طويل من الاراضى ببلاد ألمانيا والى مملكتى المجار و بوهيمة اللتين ضمهما فرديننـد بزواجه الى الاراضى المذكورة يعلم مالهما من القوة سيما وقد اضاف الى ذلك كله التاج الايمبراطورى فصار ملك فرعه اوسع ملكا من سائر الايمبراطرة الذين حكموا منذ عدة قرون ماعدا شرلكان *ولحظ اوروبا حصل من فرديننـد ان أبى أن يسلم فى التاج الايمبراطورى الى فيليبش فغضب منه وترتب على هذا السبب أن حصل تنافر بينهما مدة وقد أراح عدم اتفاقهما بلاد اوروبا من بطشهما لكنهما ادركا فيما بعد أن بعورهما من بعض ليس من الرأى والسياسة وحتم عليهما ترويج مصالحهما أن تناسيا تلك المخاصمة شيأ فشيأ و تقيا معا على الالتئام والاتحاد وصار أعلى قدر عائلتهما مطمح نظرهما والفائدة المقصودة من سعيهما واعانا بعضهما على اجراء مقاصدهما وكان نجاح كل منهما باعثا الى كثرة اعتبار أمراء العائلة جميعا وعظم قدرهم حتى صارت تلك العائلة لشدة طمعها وكبر شوكتها محسودة مهابة عند كافة الدول ومكثت دول اوروبا قرنا كاملا وهى تبذل مالها من الجهد والقوة وتصرف ماعندها من السياسة فى وضع تلك العائلة وحط قدرها واضاعة ثمرة سعيها وثم مايدل حق الدلالة على عظم ما كان لعائلة الاوستريا من الشوكة والبطش ببلاد اوروبا وهو أنه بعد فقدان قوتها وضياع صولتها بتصديها الى ماشرعت فيه مما هو فوق الحد بل وبعد سقوط اسبانيا ونزولها الى الحضيض وانتقال حكمها الى ملوك قليلى البضاعة موصوفين بالجبن والحماقة كانت لم تزل تتمتع بمزيد الهيبة بين الافرنج وكانوا يخشون بأسها وسبب ذلك هو أن الملل الافرنجية

سنة ١٥٥٩

كانوا لطول التجارب قد أيقنوا بتفوقها عليهم وكانوا دائماً منها على حذر ومع طول المدة صار خوفهم منها كطبيعة اكسبهم التعوّد اياها ومثل ذلك لابدّ وأن يبقى تأثيره مستمرًا ولو بعد زوال الاسباب الموجبة له

مطلب ما كسبه ملوك فرانسا مدة حكم الامبراطور شرلكان

وبينما كانت عائلة الاوستريا تجدّ في توسيع ممالكها وتنجح في كل تدبير اعتدته لهذا القصد كان ما تكسبه مملكة فرانسا من الاراضي غير جسيم فما كان في بتهافتهم ببلاد ايطاليا كان من الأماني الباطلة ولم يتم لها فيه مرام وكانت لم تملك كبير شيء في الدنيا الجديدة حتى انها مع بذلها الجهد التام مدة حكم اربعة متعاقبين من ملوكها كانت لم تزل باقية تقريبا على حدودها التي قررها لها الملك لويز الحادي عشر ومع ذلك يقال ان هذه المملكة وان لم تزدد ارضا ازديادا بينا ولم تكن فتوحاتها كبير شيء بالنظر لفتوحات عائلة الاوستريا كانت آمنة على الشيء اليسير الذي كسبته اذ ذاك من الاراضي فانظر الى ما عاد عليهم من الفوائد الجليلة بتغلبهم على ثغر كالس فانه مع الانكليز عن الهجوم على فرانسا اذ لو هجموا على تلك المملكة مادام الثغر المذكور بأيدي الفرنساوية لكانوا عرضة للاهوال والاخطار وبذلك أمن الفرنساوية من دخول الانكليز بمملكتهم وكانوا قبل ذلك قادرين على الجولان بها بل ويتيسر لهم أن يعطلوا عليهم ما يدبرونه في حق دول أخرى وبتغلبهم على مدينة متزة قد صانوا مملكتهم وكانت غير حصينة من تلك الجهة لا يوجد ما يدفع عنها عدوّا طمع فيها وبالجملة فبعد ان أمنت فرانسا لهذه الاسباب من هجوم الاجانب عليها صارت معدودة اقوى ممالك اوروبا واعظمها شوكة وهي حقا أعظم دول الارض القارة موقعا بالنظر للهجوم على غيرها او الذب عن حوزتها من نهاية أرتوارة الى اعمق محال جبال البيرنة ومن خليج اريطانيا الى حدود دوقية سابوة وسواحل المحيط الابيض ترى اراضيها متصلة متلاصقة ببعضها ليست مختلطة بأراضي غيرها من الدول وهناك اقاليم كبيرة كانت قبل ذلك الوقت تحت حكم الاكابر والاعيان فتجدد الضبط والربط في حكم

فرانسا

فرانسا دخلت عدة من هذه الاقاليم الجسيمة تحت طاعة ملك الفرنساوية وتعودوا على الامتثال اليه وعدوه سيدا لهم وصاروا من جملة اهالى فرانسا يعدون أنفسهم معهم ملة واحدة ويبذلون الجهد فى خدمة دولة الفرنساوية ويشمرون عن ساعد الجد فيما يكون به تشريفها وازديادها قوة وصولة وانتزعت الشوكة ونفوذ الكلمة من الاعيان وانتقلت الى الملك غير أن الاهالى لم يعد عليهم من هذا ادنى فائدة ولم ينالوا مزية جديدة ولا خصوصية ما بل لم يزالوا محرومين من مشاركة الحاكم فيما يلزم انشاؤه من القوانين والاحكام والحاصل ان ملوك فرانسا لم يكن قصدهم بحط الاعيان وخفض شوكتهم مصلحة الاهالى وانما كان قصدهم توسيع دائرة المزايا الملوكية خاصة فعند ادخال الاعيان تحت الطاعة والزامهم بالامتثال وفق الآمال لم يعتنوا بخلاص الاهالى من ربقة التبعية لهؤلاء الاعيان بل تركوهم ليتصرفوا فيهم كما كانوا اهل الآن

ولا يخفى ان الملك متى كانت رعاياه على هذا المنوال متحدين بعض سالمين من الشقاق بداخل مملكتهم قادرين على الهجوم على بلاد الاجانب فله أن يتصدى الى كل مشروع عظيم ومقصد مهم جسيم ولا يعجز عن تنفيذ ما تعلقت به آماله وهكذا كانت ملوك فرانسا فى ذلك العصر فبطول حروب الفرنساوية مع البلاد الاجنبية منذ جلوس الملك كرلوس الثامن ازدادوا تولعا بالوقائع الحربية الصعبة وتعودت جنودهم على مشاق العسكرية وعلى الطاعة والامتثال لرؤسائهم وهم بالطبع اهل حمية وشهامة وازدادوا قوة وعزما بتقدمهم فى اصول الضبط والربط وتمكنهم من التعليمات العسكرية اما الامراء والبكرادات فكانوا ذوى شجاعة كبيرة ينفرون من البطالة والكسل ولا يرون امر احد برايهم وصرف اوقاتهم سوى الوقائع الحربية ولا يتسلون الا بالتعليمات والالعاب العسكرية بل ولا يرون سبيلا سواها الى اكتساب السودد والشهرة والفخار والثروة ومثل هؤلاء لا يطيقون من ملكهم أن يمكث كثيرا بدون حرب وقتال واما الاهالى فكانوا بمعزل

عن فنون الصلح يبادرون بأخذ السلاح بمجرد أدنى اشارة من رؤسائهم وقد عوّدهم ما استلزمته الحروب مع الاجانب من المصاريف على تحمل ما كان يضرب عليهم من الفرد والعوائد نعم ان تلك العوائد تظهر خفيفة بالنظر لما يضرب الآن من الفرد الجسيمة ولكن تعدّ فاحشة بالنظر لما كان يضرب على مملكة فرانسا اوغيرها من دول اوروبا قبل حكم الملك لويز الحادى عشر وبناء على ماذكر كان جميع الفرنساوية فى الشجاعة والنشاط على حد سواء كاملين بالحرب والقتال فلم تكن مشروعات فرانسا وحروبها ببلاد اوروبا اقل هولا من مشروعات اسبانيا ووقائعها بل انها بسبب تفوّقها عن غيرها باحكام موقعها واتصال اراضيها ببعضها واتقان ترتيبها السياسى كانت مشروعاتها أنجح من مشروعات اسبانيا واعظم خطرا هذا وكان ملك فرانسا له التصرّف المطلق بين رعاياه وكانوا خليين عن الدواعى والاخلاق الباعثة للرغبة عن الحرب واما الاكابر والاعيان فانهم وان كانوا على الطاعة اللازمة فى مملكة منتظمة مضبوطة كانوا لم يزالوا ذاكرين استقلالهم عاكفين على ما لهم من الشمم وعلوّ النفس باقين على ما كان لهم من القوّة فى عهد الحكومة الالتزامية وانما زال ما كان ينشأ عن مثل هذه الحكومة من الخلل والشقاق لعدم وجود رئيس واحد فى المملكة نافذ الامر على الجميع وعلى هذا كان ملك فرانسا مقتدرا على تحريك عرق حمية هؤلاء الاكابر متى شاء ويجنى منهم كل ثمرة جليلة من غير أن يكون عرضة للاخطار التى كانت تنشأ اوّلا عن جرهم وقت ان كانت حكومتهم الالتزامية باقية على اصلها لم تمسها يد التغيير والتبديل

مطلب
الاسباب المانعة لمملكة فرانسا عن البطش ببلاد اوروبا

وكل مملكة اتصفت بما ذكرناه من بما كان لها قوّة تجبيرية فى الوقائع الحربية اكثر مما يتيسر حصوله فى عصر آخر يكون اعظم تمدنا من هذا العصر غير أن مملكة فرانسا وان كانت مهولة خطرة على غيرها من الممالك اشتعلت بها نيران الحروب المدنية فاشتغلت بأمرها وسلمت بلاد اوروبا من بطشها وشديد بأسها كيف لا وقد مكثت المملكة المذكورة نصف قرن

سنة ١٥٥٩

فى ارتباك واختلال بسبب حروب مدنية لا تحصى وفتن داخلية لا تستقصى كان الدين علة ظاهرية فى وقوعها وكانت اسبابها الحقيقية أطماع الناس وخسيس طباعهم وفى تلك الفتن تكاثرت الاحزاب والطوائف وذهب كل فريق مذهبا وكان رؤساؤهم يتنافسون بالمعارف والفضل وكان بيدهم العقد والحل بخلاف ملوك ذلك العهد فلم يكونوا من اولى الكياسة والعقل ولم يظهروا عزما ولا مهارة ولا حزما وجرّت تلك الفتن الى ضياع قوة المملكة وطبعت قلوب الاكابر على حب الرياسة وكبر طغيانهم وعظم عصيانهم حتى كانوا لا يمتثلون للاحكام والقوانين المقررة فى المملكة فبعد ضعف شوكتهم وادخالهم تحت الطاعة وجب التزام الصلح والامهال من وجهين (الاول) راحة الملة حتى تعود اليها قوتها التى فقدتها بطول الشقاق والتفاقم (الثانى) تقوية الشوكة الملوكية وتمكينها * فمضى على مملكة فرانسا دهر طويل وهى مشغولة بأمر نفسها لا تقدر أن تتفرغ الى المصالح الخارجية او تصرف ما لها من القوة فى الحروب مع الاجانب وبالجملة فلم يكن فى طاقتها أن تظهر فى اوروبا مظهرا جليلا ولم تكتسب القوة ونفوذ الكلمة الا من عهد وزارة الكردينال دوريشليو وها هى الى الآن باقية على تلك القوة بسبب احكام موقعها واتساع اراضيها وصورة تحكمها وعلو نفس اهلها .

مطلب
تقدم انكلترة فيما يتعلق بامورها الداخلية .

و بينما كانت دول الارض القارة تنمو قوة وصولة كانت جزيرة انكلترة ايضا ناجحة السعى فيما كانت تهتم به لازدياد قوتها الداخلية واستكمال حكومتها وكان ملكها هنرى السابع قد شرع فى ضعف شوكة الاشراف والاعيان وقد نسج ابنه هنرى الثامن على هذا المنوال ولم يكن ذلك قصدا منه بل كان من قبيل الصدفة والاتفاق اذ المحقق انه لم يكن له مطمح نظر ولا نتيجة فكر وانما كان متكبرا ذا غرور ومتلون الطبع خاليا عن الثبات والتمكين ليس فى افعاله على يقين فاستصوب أن يجعل مصالح الدولة بين ايدى اناس جديدة لكى يكونوا ملازمين لطاعته غير قادرين على معارضته وجعل لهم

سنة ١٥٥٩

من النفوذ ما الامزيد عليه وأعلى قدرهم حتى حملهم فى أجل المناصب ولقبهم بأفخر المناقب وبخس بذلك قدر الاعيان الاقدمين وفرعونهم وقد تصرف ايضا فى الاملاك القسيسية بالبيع وغيره ونفدت اثمانها ومحصولاتها بالاسراف والتبذير وأذن لاربابه العقارات الاصليين فى بيع اراضيهم واملاكهم وفى التصرف بالوصية فيها لمن شاؤا وبهذا الوجه كثر الاخذ والعطاء بين الناس وربحت التجارة بعد أن كانت كاسدة فيما بينهم وتعلق الناس بالصنائع وراحت امورهم من سائر الوجوه وفتحت سبل الثروة ونفوذ الكلمة لجميع طوائف الاهالى ولا يخفى ان كثرة الاموال والنقود ببلاد اسبانيا بسبب استكشاف امريقة قد أضر بالصنائع والتجارة عند اهلها بخلاف ما حصل فى بلاد انكلترة فان الاموال لم تكثر بين الناس الاشيأ فشيأ فأحيت التجارة والصناعة وأوجبت رغبة الانكليز فى مشروعات جليلة وخيرات جزيلة وقد مر فى ذكر فرانسا ان ما فقده الاعيان قد استحوذه الملك وانه قد عادت عليه خاصة فائدة اضعافهم وهنا نرى ان اهالى انكلترة قد قاسموا الملك فى سلب الاعيان فان الاهالى قد صاروا بذلك ارباب عقارات واملاك واصبحوا ذوى شوكة واعتبار وقد أحسوا بنمو اعتبارهم وازدياد اهميتهم فسعوا سعى الجد حتى صار لهم بالتدريج نفوذ عظيم فى الجمعية القائمة بانشاء ما يلزم للمملكة من القوانين والاحكام ولم يزالوا كذلك يتطلبون شيأ بعد شئ حتى نالوا شوكة عظيمة قد كانت سببا فى حفظ حرية البلاد الابريطانيقية وبقاء حكومتها على تلك الاصول المضبوطة التى هى بها الآن مربوطة ولم يكن يخطر ببال الاهالى بل ولا ببال اولى الامر منهم أن سينتهى الحال الى هذا المآل

وبينما كانت حكومة الانكليز آخذة فى التقدم والاستكمال اذ عرضت عدة مقتضيات ساعدتها على تغيير مذهبها السياسى مع الاجانب بمذهب آخر جديد لها فيه فائدة جليلة فقد تخلصت الملة الانكليزية من ربقة التبعية

سنة ١٥٥٩

الديوان البابا وتوفرت عليها مبالغ جسيمة كانت تدفع الى رومة فى كل سنة كعوائد العمران ومصاريف زوار البقاع المباركة وعوائد التقسيط التى تؤخذ على الارباح الكبيرة القسيسية فى نظير الفرمان المثبت للملكية والعوائد المسماة بالثمار الاولى وغير ذلك من الفرد والعوائد التى لا تحصى وكان الديوان المذكور لشره وحيله ينتهز فرصة جهل الناس واعتقادهم طهارة اهله فيكلفهم بها كيف شاء ولا شك ان وجود قضاء غير القضاء المدنى يدعى الاستقلال بنفسه بل ويدعى علوه عن القضاء المدنى مما لا يقبله العقل فى خصوص الحكم اذ هو امر يوجب اضطراب العقول الضعيفة السخيفة ويترتب عليه خلل البلاد وعدم انتظام احوال العباد وقد نسخ هذا الامر القبيح وصار قضاء الاحكام بيد الحاكم المدنى اى السياسى وانتظمت المصالح وسهل تشهيلها وكبر اعتبار الحاكم حيث صار الاهالى على اختلاف طوائفهم على حد سواء ملمن صنعة ولا من رتبة ايا ما كانت توجب معافاة انسان من ان يطلب وتنظر دعواه فى دواوين الحكم السياسى ويحكم عليه بمقتضى القوانين المقررة لا فرق بينه وبين سائر الناس

مطلب
تقدم انكلترة بالنظر لمصالح الارض القارة

ثم ان الانكليز بضياع كالس منهم قد طردوا من الارض القارة وايقنوا بعجزهم عن اتمام ما كان فى نيتهم من شن الاغارة على مملكة فرانسا وفى الحقيقة كانت تلك النية مضرة بالانكليز والحاصل انهم اضطروا اولا الى حصر آمالهم فى حدود جزيرتهم ثم تبين لهم ما فى ذلك من العوائد الجليلة فاختاروه خاصة وعدلوا عما سواه وحلت قلوبهم عن التولع بالفتوحات وكانوا قبل ذلك لشدة ولعهم بها قد مكثوا عدة قرون وهم فى حروب دائمة مستمرة مع غيرهم ولم يعد عليهم منها سوى اتعاب ملتهم واضطرابها حتى كادت قواها فانظر الى هذه الملة كيف اشتغلت بالصنائع وفنون الصلح بعد ان كانت ذات ولع بالحروب ولم يكن لها الى ذلك الوقت صنعة سواها والواقع ان الدولة قد كسبت من الصلح كسبا عظيما وعاد الى الملة الانكليزية ما كانت فقدته من القوة بسبب حروبها مع الارض القارة ومن وقتئذ

سنة ١٥٥٩

صارت اذا ألجأتها الضرورة الى التشبث بحرب مع الاجانب ظهرت فيها بصولة كبيرة وباس شديد سيما ولم يكن تداخلها فى مثل هذه الحروب الا وقتيا قصير المدة

مطلب
تقدم انكلترة بالنظر لمملكة ايقوسيا

وما حمل الانكليز على اتخاذ هذا المذهب الجديد فى سياستهم مع دول الارض القارة قد كان باعثا لهم ايضا على سلوك طريق جديد فى حق مملكة ايقوسيا اذهى بالنسبة لموقعها دون غيرها من الممالك الاجنبية كان لها ارتباط بمملكة انكلترة يوجب على الانكليز أن يلتفتوا اليها غاية الالتفات وأن لا يغفلوا عن مراقبتها طرفة عين فعدلوا عما كان فى نيتهم من التغلب على المملكة المذكورة حيث بالنظر لموقعها وشجاعة اهلها كان اتمام هذه النية مما لا يمكن وعلى فرض امكانه كان اصعب من خرط القتاد وبناء على ذلك رأوا الارجح لهم أن يسلكوا سبلا اخرى تكون داعية لنفوذ كلمتهم فيها بحيث تأمن انكلترة من جهتها وكان حصول هذا القصد الاخير سهلا على الانكليز لثروة مملكتهم وعظم قوتها وفقر أهل ايقوسيا وكثرة الشقاق بها وقد حصل ان استحوذت انكلترة بالرشوة على كبار اهالى المملكة المذكورة وعلى الوزراء والمتقربين من الديوان الملوكى وصار لها بشوراها ودواوينها ما لا مزيد عليه من نفوذ الكلمة حتى غدا معظم امورها مرهونا بمصالح الانكليز وصارت انكلترة من وقتئذ فى أمن تام من جهة الممالك الاجنبية وبانضمام ذلك الى ما كان لها من الفوائد الجليلة بداخلها أضحت بين الدول ذات كلمة نافذة واعتبار عظيم وقد أسعفها الحظ بطول حكم ملكتها ايليزابيطة وكانت ذات عقل واسع وعزم شهير فكثرت قوتها وعظمت شوكتها حتى ارتقت بعد قليل الى اوج تلك الدرجة الرفيعة التى هى باقية عليها الى الآن بين دول اوروبا

مطلب
ما حصل من التغيير بالنسبة للسياسة فى الدول الصغيرة من ممالك اوروبا

وكما حصل اذ ذاك تغيير فى حال السياسة بالممالك الافرنجية الكبيرة حصل تغيير عظيم فيما يخص السياسة بالممالك الصغيرة منها واكبر تغيير فى هذا المعنى قد حصل بديوان رومة وكانت نتائجه جمة مهمة بحيث ينبغى

سنة [illegible]

الابتداء بذكرها

قد ذكرت فى اتحاف الملوك الالباء الذى هو عبارة عن مقدمة لتاريخ الايمپراطور شرلكان منشأ دعوى البابات الاقتداء فى الدين بوصف كونهم خلفاء المسيح وتتبعت نمو شوكتهم وازدياد صولتهم بوصف كونهم حكاما سياسيين وأقول الآن انه قبل حكم الايمپراطور شرلكان لم يكن هنالك ما يمنع شوكة البابا عن تجاوز الحد سوى الادبيات والفلسفة وكان الناس قد شرعوا بممارستهما والاعتناء بهما ولم تكن العلوم وقتئذ فى تقدم عظيم اذ العادة أن يكون مشيها ادا تما وئيدا يلزم ممارستها دهرا مديدا حتى يعود على الناس منها فائدة جليلة أو تكون لاكسابهم الراحة والأمن وسيلة نعم من الجائز أن تكون المعارف مع طول الأمد كاشفة للغطاء فيصير البصر حديدا ويتزلزل بعد ذلك مبانى كل دين باطل او اعتقاد عاطل ولكن لما كانت سدا فى محو دين من تلك الاديان وازالته بالكلية فالمعارف آلات صغيرة غير كافية لهدم مبانى باطل الاديان وهى ذات بنيان أنيق متين وضعته ترهات الجهال على أساس عميق مكين واحكمته أوهام العوام بما أبدعته من الفنون العجيبة التصنيف فى عالم الخيال الضعيف

مطلب
اعظم تغيير حصل فى القرن الخامس عشر كان بديوان رومة

وقد رمى لوتير شوكة البابا بسهام أخرى فتت فى عضدها وقد احكم سلوكه فنجح فى مشروعه وكان الوقت مساعدا له من جهات شتى قد تقدم ذكرها من جملتها تيقظ عقول البشر بغتة بعد ان كانوا امتد دهر طويل على غاية الامتثال يأخذون كل ما سمعوه قضية مسلمة حتى كأنهم قد محوا العقل ليصدقوا بما يقال لهم بدون فكر ويفعلوا ما يكلفون به فبانحطاط سحاب الجهل عن سماء العقل عرف الناس أن الحكم على الشئ فرع عن تصوره وأخذوا يفقهون بالفكر حقيقة الشئ قبل اعتقاده والتصديق به فعرفوا أنهم مغلولون بسلاسل ثقيلة وبذلوا الجهد حتى تخلصوا بعد قليل مما كانوا فيه من الاستعباد الى ذلك الوقت وبالاطلاع على خمول الناس ووخامة عقولهم منذ اعصار اذا فكر الانسان فى تيقظهم دفعة واحدة تعجب كل العجب وجزم بأن ذلك لم ينشأ الا عن اسباب

مطلب
قيام الناس كافة على مذهب الكنيسة وفرط تجاوز شوكة البابات

طبيعية قوية التأثير حيث ان مملكة دانيمارقة ومملكة اسوج وانكلترة وايقوسيا ونحو نصف بلاد ألمانيا قد خرجوا عن حكم البابا وبطل اقتداؤه عندهم واتخذوا مذاهب جديدة مخالفة لأصول مذهبه بالكلية

ثم ان التولع بالابتداع لم يكن مقصورا على من خرج من الامم عن طاعة البابا بل عم سائر بلاد اوروبا وظهر في جميع ممالكها انما كانت تتفاوت في ذلك ولم تمض برهة الا وانتشر بمملكة الفرنساوية وكثرت بها احزاب المذاهب الجديدة وعظم ولعهم بها وكان رؤساء تلك الاحزاب ذوي عقول كبيرة ومعارف عزيزة حتى انهم بعد قليل وصلت بهم جراءتهم الى المناظرة مع رومة في الدين وكادوا أن يظفروا بها وأما ما بقي من الاقاليم في ألمانيا والبلاد الواطية تابعا للبابا فكان مذهب المعتزلة يقرأ فيها سرا وكثرت احزابه حتى تهيؤا للعصيان ليصيروا مستقلين عن الكنيسة الرومانية كغيرهم من الملل المجاورة لهم ولم يمنعهم عن القيام سوى خوفهم من تشديد الحكم وقتئذ وفرط جبر الحكام وقد شوهد أيضا من اهل اسبانيا وايطاليا انهم كانوا يرغبون في الخروج عن دين البابا اذ ظهر منهم جملة ذوات ممتازين بالمعارف وسعة الرأي ودققوا البابا وقدحوا فيما كان يدعيه من أنه الحاكم المطلق المتصرف كيف شاء وانه معصوم عن الزلل والخطأ ولولا تيقظ الحكام السياسيين وانتباه البابا والقسوس وتشديد محكمة التفتيش الديني لما تيسر قمع الناس ومنعهم عن القيام والخروج عن طاعة الكنيسة الرومانية

مطلب تناقص اراضي البابا

وقد أضر اعتزال هذه الدول العديدة الكثيرة الثروة والقوة بشوكة رومة اضرارا كبيرا وحط شأنها اذ ترتب عليه نقصان اراضي البابا ومحصولاته ونقص ايراده اضطر الى تنقيص ما كان ينعم به على طائفة القسوس الذين كانوا له بمنزلة آلات يستعين بها على اجراء ظلمه واقتياته في جميع الممالك الافرنجية ومن المعلوم أن القسوس لم تكن ملازمتهم لطاعة البابا بمجرد حب في ذاته لا لعلة أخرى بل كانوا ملازمين لخدمته لمصلحة تعود على انفسهم كالانعامات

سنة ١٥٥٩

والمخ المتقدم ذكرها فانتهى الحال الى أن انفصل عن حزبه بقاع جسيمة وبلدان عظيمة على ان الاقطار التي انكرت البابا اذ ذاك وخرجت عن طاعته كانت قبل ذلك أصدق الناس له واكبرهم تمسكا بديانته وذلك ان شوكة الحاكم متى كانت مبنية على جهل الناس واعتقادهم ما لا طائل تحته من الامور الوهمية فهى فرق بينها وبين شوكة ثابتة لاى حاكم وكانت ناشئة عن اسباب أخرى غير المذكورة فترى الحاكم بالمعنى الاول اكبر صولة وأنفذ كلمة والناس تأخذ اوامره قضية مسلمة ما دامت بلدانهم بعيدة عن مستقره ودار حكمه وأما البلدان القريبة منه عهدا فلتمكن اهلها من ملاحظته يقفون على حقيقة أمره ويعرفون ما هو عليه من الكذب والافتراء ويفقهون كنه ما يتخذه من الحيل لتأييد شوكته وتعضيدها وهذا ما حصل للبابات فان اهل ايطاليا الذين هم ابناء وطنهم قد عرفوا عررهم ومساليهم الذاتية وضلالاتهم الملفقة وقبح اخلاقهم وطمع أرباب ديوان رومة وغشهم وغشمهم فقل احترامهم لهذا الديوان ووهت عندهم هيبة كبيرة والامتثال اليه وأما اهل ألمانيا وانكلترة وسائر البلدان والاقطار المتباعدة عن رومة فكانوا يجهلون ما كان عليه البابا وديوانه من الضلال والبهتان وكانوا يسمعون عنه لاغير فكان تأثيره فيهم ضعيفا لم ينفروا منه كما نفرت اهالى ايطاليا وبناء على ما ذكر كانت هيبة البابا تزداد عند الناس على حسب بعدهم عن مقره وباضافة هذا السبب الى فرط جهل الناس اذ ذاك علم سبب تصديقهم كل شيء واخذهم الاشياء قضية مسلمة وفهمت علة ما كانوا عليه من مزيد الطاعة والامتثال لديوان رومة واذا التفت الانسان الى تقدم شوكة البابات ودرجات نموها ورأى أن بلاد ألمانيا وغيرها من البلاد البعيدة عن ايطاليا كانت مبدأ الاطماعهم واكبر مشروعاتهم وانهم قد نجحوا بها كما يؤملون وضربوا عليها اكبر الجرائم واثقل الغرامات وارتكبوا فيها من المظالم ما لم ترد بمثله الروايات ايقن بأنه اذا اريد تقويم ما فقده ديوان رومة من الصولة ونفوذ الكلمة بسبب اتساع مذاهب الهراطقة لزم الالتفات الى شيئين معا

شفة ١٥٥٩

(الاولى) بعدارالامم الخارجين عن طاعته (الثانى) ما كانوا عليه اذذاك من الطباع والاخلاق يعنى أنه ينبغى ملاحظة ما كان عليه هؤلاء الناس من الامتثال للبابات كما يجب مراعاة وسع الاراضى المنفصلة عن حكمهم ولم يترتب على انتشار المذاهب الجديدة بمجرد تنقيص شوكة البابات بانفصال هذه الدول والممالك الكثيرة عن حكمهم بل حملهم دخول الناس فيها افواجا على اتخاذ منوال جديد يعملون بمقتضاه فى معاملة الخلق من راغب عنهم ومن باق تحت طاعتهم وأحسوا أن من الضرورى الذى لابد منه اتباع سبل الرفق والملاطفة والعدول عن الاصول القديمة بالكلية اذ كانت منافية لشروط العدالة والانسانية وعلمهم السبح بطريق التحضيض والتهديد ما كانوا يتجاهلونه الى ذلك الوقت من كون الناس وان بلغوا ما بلغوا فى الامتثال وكانوا أمة ما امكن متى اشتدت بهم الكروب وعيل صبرهم تنبهوا من غفلتهم وتشبثوا بتحصيل راحتهم وبالجملة فعدل القسيسون عن قسوتهم وظلمهم خوفا من تنفير من كانوا باقين تحت حكمهم سيما وقد ترتب وتشكل فى عدة من الاقطار الافرنجية جمعيات دينية ترقبهم فى جميع ما يحصل منهم من المساوى وتشنع عليهم فيما يقع منهم من الزلل وكانوا يعرفون ان آراء القادحين فى ظلمهم وجورهم كانت مذهبا لاحزاب كنيسة رومة كما كانت مذهبا لأعدائها وبناء على ما تقدم من الملحوظات لم يكن من الممكن لقسوس رومة ان يحكموا احزابهم بمثل ما كانوا يفعلونه يوم ان كانت العقول غافلة والناس خاملة لا يعرفون سوى الطاعة والامتثال والتصديق بما كلفوا به بدون فكرة والاولى أن يقال ان الامم كانوا كالاغنام ممتثلين لصوت الراعى اذا ناداهم فترى أن البابات منذ عهد النسخ حكموا الامم بالحيل والدسائس لا بالصولة والقوة نعم ان عبارة اوامرهم لم تزل باقية على العهد القديم لكن فرق بين ثمرة اوامرهم الآن وثمرتها سابقا ومن المعلوم ان ما كان يصدر عنهم من الفرمانات والاوامر بالمنع او بالطرد كان قبل النسخ ترتعد له فرائص اكبر ملوك الافرنج وأما بعد النسخ فصار أصغرهم يستحقرها

مطلب

اضطرار البابات والقسوس الى اتباع سبل جديدة فى الحكم

ويسحقر

ويسطو بها ومكث البابات عدة قرون وهم يحكمون بما شاؤا بدون مبالاة ويفتون كما احبوا وكانت اوامرهم لا تجد معارضا ولا مناقضا بل كانت محترمة مطاعة حيث هي صادرة عن ديوان مقدس واجب الاحترام يعتقد فيه التنزه عن الآثام واما بعد تفطن الناس وانتشار مذهب لوتير صار ما يصدر من هذه الاوامر لغوا ينظر اليه بعض الافرنج بعين الاحتقار ويعده من حماقة البابات وفرط رعمهم وادعائهم ويعده البعض الآخر من باب الكفر ومحض الظلم والاجحاف فاضطر البابات الى موافقة الاصول الجديدة الجارية اذ ذاك بين احزابهم بل والجأتهم الضرورة الى مراعاة اخصامهم وعدم التشديد عليهم في عقائدهم وصاروا يحترسون من الادعاء بحقوق وخصوصيات جديدة بل ومن الاطراء في المدافعة عن مزاياهم القديمة خوفا من تنفير الناس كافة من احباب لهم او أعداء وعرف ديوان رومة اصول المداراة والمراعاة وصار هيابا محاذرا بقدر ما كان جسورا جبارا وحيث كان ادعاء المعصومية عن الخطأ اساس الشوكة البابات وصولتهم ولا يليق بهم وهم على هذا الوصف أن يتنازلوا عما كانوا قد ادعوه من الافتاء وأجروه اكثر من مرة رأوا الاحوط لهم والاوفق بمصالحهم أن يتساهلوا من تلقاء نفسهم في كثير من مزاياهم وخصوصياتهم خوفا من أن يترتب على تشديدهم وتصعيبهم فقدان ما كان باقيا لهم من الكلمة والشوكة والحاصل أنه قبل القرن السادس عشر لم يقع امور جسيمة او حوادث مهمة عظيمة الا وكان البابات سببا فيها ورؤساء عليها وكان بيدهم الحل والعقد في جميع العقود وما يحصل بين الدول من المشارطات والعهود وكانوا معدين لفصل القضايا بين كافة الملل النصرانية وكان ديوان رومة مركزا للدسائس وما يتعلق بسائر الامور السياسية ولكن حصل منذ القرن المذكور ان صار اكبر الامور واهمها يفعل بدون توسط البابات وانحطت درجة البابا حتى صار كسائر الاصاغر من ملوك ايطاليا نعم انهم كانوا لم يزالوا باقين على ادعاء اطلاق التصرف في خصوص الدين ولكنهم كانوا لا يتجاسرون على اجراء شئ

سنة ١٥٥٩ من دعوا أهم وقد فقدوا كذلك ما كان لهم سابقا من الشوكة السياسية ولم يبق لهم منها سوى الصورة والخيال

مطلب مساعدة المذاهب الجديدة على تكميل العلوم بين القسوس واصلاح حالهم فى الديانة

ومع اضرار المذاهب الجديدة بشوكة البابات قد ترتب عليها اصلاح حال قسيسى رومة فى الدين وحسن الاخلاق واضطروا الى ممارسة العلوم الادبية وذلك انهم رأوا قسيسى المذاهب الجديدة معتبرين بين الخلق لما لهم من المعارف الكثيرة فداخلتهم الغيرة ورغبوا فى مساواتهم فى هذا المعنى سيما وكان من الالزم لهم تحصيل العلوم والمعارف حتى يكون فى وسعهم الذب عن مذاهبهم من اعدائهم والرد على اخصامهم فيما كانوا يوجهونه اليهم من الاعتراضات فصاروا يتنافسون معهم فى ممارسة العلوم النافعة وأدمنوا عليها فى هيام على الدوام حتى بلغوا المرام وساووهم بالشهرة فى العلوم الادبيه بعد أن مكثوا عهدا طويلا وهم مشهورون بالحمق والجهالة وكانت المحوطات المذكورة ايضا سببا فى تحسين سلوكهم وتهذيب اخلاقهم وقد تقدم الكلام على الاسباب التى اوقعت قسوس رومة فى عدم الاستقامة وفساد الاخلاق وارتكاب ما يوجب الفضيحة والعار فلما ظهر لوتير واحزابه بدؤا بهذه الامور الفاحشة فى التشنيع عليهم فالتزموا أن يسلكوا حد الاعتدال والتوسط فى الامور حتى يسكتوا اخصامهم ويقفوا ألسنتهم عن ذمهم خصوصا وكان المعترلة ممتازين بالتقوى والتقشف مشهورين بالزهد والتعفف حتى لو لم يقتد بهم قسوس رومة فى هذا المعنى لبغضهم الخلق وضاع نفوذهم واعتبارهم عند كافة الناس اذ كان المعترلة يرقبونهم فى جميع امورهم ولا يغفلون عنهم طرفة عين فاذا وجدوا لهم زلة شنعوا عليهم ووجهوا نبال القدح اليهم فاحترسوا غاية الاحتراس واجتنبوا ما يوجب الذم والملام بل وجدوا فى اكتساب الفضائل الموجبة لتبجيلهم وثناء الناس عليهم هذا ولا يخفى انه كان بمملكتى اسبانيا والبورتغال تشديد زائد فى تأييد دين رومة فمنع ذلك من انتشار مذاهب المعترلة بهاتين المملكتين وبقى القسوس بهما على حالهم الاصلية ولم يحصل لهم كبير تقدم فى العلوم الادبية

بخلاف

سنة ١٥٥٩

بخلاف البلاد التي كان بها كل من المعتزلة وقسوس رومة يعاشرون بعضا ويتعاملون مع بعض فان قسوس رومة قد حصل لهم تحسين بين في العقل وآداب المعاشرة وبالالتفات مثلا الى مملكة فرانسا نرى أن القسيسين فيها من اكابر واصاغر قد اكتسبوا لينا في الطبع ورقة في الخلق حتى امتاز عدة من بينهم بالفضائل والمعارف الموجبة لشرافة حرفة القسيسين

مطلب
تأثير المذاهب الجديدة في نفس البابات

ثم ان تأثير المذاهب الجديدة لم يكن مقصورا على الاصاغر من قسيسي رومة بل كان لها ايضا تأثير عظيم على البابات نفسهم لانه وقت ان كانت شوكة البابات بدون نهاية وكان احترام الناس لهم فوق كل حد وغاية ولم يكن لهم اعداء يلتفتون الى فعالهم ويذمون ما بدا لهم من القبح في خصالهم شوهد منهم أن تعدوا حدود الادب والمروءة وهتكوا حرمة الدين بدون أن يتجاسر احد على زجرهم او التشنيع عليهم وأما الآن فاذا حصل منهم مثل هذه الفعال الذميمة لا بد وان تسلقهم الناس كافة بألسنتهم وينفرون منهم كل النفور ولذلك لم يظهر في البابات من وقتئذ من اقتدى بأبهة الملوك وزخرفتهم واراد أن يتنافس معهم في الانهماك على اللذات واللعب واللهو بل تخلقوا بأخلاق التقشف والتخشن وسلكوا ما يليق بحرفتهم فمنذ قرنين لم يدنس كرسي خليفة المسيح بوجود من يشبه اسكندر السادس في الغش والفجور او يشبهه من كانوا قبله من البابات الذين جرت كبائرهم الى تلويث الدين وتدنيس طبيعة البشر بل ان ديوان رومة تجددت فيه اخلاق جيدة ووقار وتؤدة لم يكن اربابه موصوفين بها قبل ذلك العهد وقد كان عدة من البابات مستحقين للتعظيم والتبجيل بفضائلهم الجليلة كما اشتهر آخرون بالخيرات والصدقات والقناعة والتولع بالعلوم والمعارف حتى يعد ما اتصفوا به من الخصال الجميلة مراضاة للبشر في نظير ما فرط من البابات السالفين وبالجملة فبامعان النظر فيما ترتب من الفوائد على المذاهب الجديدة يرى أن فوائدها اجل مما يتصور ببادي الرأي وانها قد كانت أعظم سبب لتهذيب اخلاق الناس وترغيبهم

فى العالم وتاكيد علائق المحبة بينهم ومن اطلع على المصائب العظيمة والاضرار الجسيمة المترتبة على المشاجرات فى الدين وجدها امورا منفرة منكرة فينشرح صدره لرؤيته ما ترتب فى تلك المرة من الفوائد الجليلة على خصوص الدين بعد طول اضراره بالناس

مطلب حال جمهورية البنادقة وقتئذ

واما جمهورية البنادقة فقد أخذت فى الانحطاط بعد أن كانت شديدة البطش فى اوائل القرن السادس عشر حتى أن اغلب ملوك اوروبا قد تحزبوا لتدميرها وذلك أنها فقدت قسما كبيرا من اراضيها بسبب الحرب المترتبة على عصبة كامبرى وقد تناقص ايرادها ونفدت اموالها فى الحروب الطويلة التى اوقعتها فيها ضرورة الدب عن نفسها من حزب اعدائها وأيضا ان التجارة قد كانت سببا فى ثروتها وعظم صولتها وقد اخذت تجارتها وقتئذ فى الكساد والسبب هو أنها قد استكشفت ان رأس عشم الخير طريق يوصل الى شرقى بلاد الهند ولأجل اجتناء ثمار ذلك والسلامة من اضراره أحبت أن تمنع اهل البرتغال عن الاستيطان بالهند فحرضت عليهم سودان مصر وسلاطين الدولة العثمانية بل وأمدتهم بما يعينهم على ما التمسته منهم ولكنها لم تنجح فى مشروعها هذا وغلبت شهامة البرتغاليين وشجاعتهم كل عائق واستوطنوا مع التمكين بتلك البلاد الحصينة وأخذوا فيها اراضى واسعة جدا وصار لهم بالاقطار الهندية كلمة نافذة وأضحت مدينة لسبون التى هى تحت البرتغال سوقا تباع به المحصولات النفيسة المشرقية بدلا عن مدينة البنادقة وحرم اهل البنادقة من تلك التجارة الرابحة بعد أن مكثوا دهرا طويلا لا يشركهم فيها احد وقد أضر بهم كل الضرر أيضا ما استكشفه الاسبانيوليين فى الدنيا الغربية حيث ترتب عليه حرمانهم من فروع صغيرة أخرى كانوا لم يزالوا يتاجرون فيها وقد تقدم ذكر ما اشتمل عليه ترتيب هذه الجمهورية من العيوب والنقائص ولم يكن ثم من يعتنى باصلاحها فكانت موجبة لخسارة الجمعية فى كل ما همت به من المشروعات الجسيمة حتى جرت الى بوارها ودمارها وقد أوجب كساد تجارتها كما ذكر

نقصان

نقصان قوتها الداخلية وضعف مشروعاتها فى البلاد الاجنبية حتى انه قبل
منتصف القرن السادس عشر بمدة مستطيلة كانت البنادقة غير معدودة
من الممالك الكبيرة الافرنجية بل عادت من جملة الممالك الصغيرة غير
ان ارباب مشورة السنت كانوا اهل سياسة ورياسة فستروا بحجاب
الحزم والاحتياط عجز هذه الجمهورية وتناقص قوتها ولم يتعرضوا من وقتئذ
الى خطب فوق طاقتها فيظهر عجزها سيما وان علامات انحطاط دولة تما
انحطاطا سياسيا لا تشاهد الا مع البطء وقل ان لاحظها فى اقرب وقت
ما جاورها من الممالك فبقيت البنادقة مدة مستطيلة وهى لم تزل معتبرة
محترمة بين الدول وكان الملوك يعاملونها لا بحسب حقيقة حالها الراهنة
بل بحسب درجتها الاولى حتى ان شرلكان وملوك فرانسا كانوا
يستعينون بها فى جميع مشروعاتهم ويلتمسون منها أن تتحد معهم كانوا
يحتاجون اليه ولم تزل الى آخر القرن السادس عشر باقية على اعتبارها
بين الدول بل وكانت من اعظم ما يركن اليه فى المداولات والدسائس
السياسية

ثم ان الشوكة التى كسبها كوم دومديسيس الاول وحفيده المسمى لورنسة
فى جمهورية فلورنسة بمعارفهما وعلو همتهما قد اغرت اعقابهما حتى طمعوا
فى ان يصيروا ملوكا على وطنهم بل وكانت تلك الشوكة ممهدة لهم السبل الموصلة
الى هذا القصد وذلك أن شرلكان كان قد جعل اسكندر دومديسيس
رئيس الجمهورية فعظمت شوكة العائلة المديسيسية وكبرت كلمتها باغماس
الاعبراطور ولما فات اسكندر المذكور خلفه الامير كوم وكان يلقب بالاكبر
وعرف بانتهاز كل فرصة لاحت له ان يمكن اساس صولته على اطلال الجمهورية
القديمة وثبتت له بها الملوكية وورثها عنه اخلافه مع لقب
دوق توسكانة الاكبر وكانت اراضى مملكتهم عبارة عن فلورانسة
وجمهورية بيزة وجمهورية سينة وصارت على هذا الوجه من اعظم
دول ايطاليا

واما امراء سافوة فكان مايملكونه من الاراضى فى اوائل القرن السادس عشر واهيا غيرمهم وعند تغلب الفرنساوية على بعضها اضطر اميرها الحاكم عليها وقتئذ الى الالتجاء بقلعة نيسة ومكث محجوزا بها عدة سنوات واما ابنه امير بيمون فكان يخدم من جملة العساكر المطوعة فى جنود اسپانيا وعند تمام المشارطة المنعقدة فى كاتوكامبريزى ردت اليه اراضى والده وكانت الدول المجاورة لها قوية حتى يلزم لمن كان حاكما فيها أن يكون على غاية التيقظ والاحتراس حتى يسلم من كيد مجاوريه اذا قصده احد منهم بسوء أو يعرف من كانت محالفته منهم اكبر فائدة له حتى ينضم الى حربه فى صورة ما اذا الجأته الضرورة الى أن يكون له دخل فى الحروب التى كانت تحصل اذ ذاك وباضطرار هؤلاء الامراء الى المحاذرة والاحتراس على الدوام صاروا احذق من اشتهروا فى الكتب التاريخية واعظمهم حزما فى معرفة مصالح اراضيهم واكبرهم حزما وشأنا فيما عزموا عليه وأمهرهم فى انتهاز كل مالاح لهم من الفرص ولم تزل اراضيهم تزداد من حين الى آخر حتى اتسع ملكهم وكبرت صولتهم وطمعوا فى أن يلقبوا بالملوك وقد نالوا هذا اللقب من نحو نصف قرن وها هم الآن فى درجة رفيعة بين ملوك الافرنج

حال امراء سافوة

مطلب حال الاقاليم المجتمعة

وفى اوائل القرن السادس عشر كانت أراضى الجمهورية المسماة بالاقاليم المجتمعة من جملة الاقاليم العديدة التابعة لعائلة الاوستريا وكانت وقتئذ قليلة الاهمية حتى قل ان وجدت مناسبة للتكلم عليها فى الحروب والوقائع المذكورة سابقا ولكن حصل بعد مشارطة كاتوكامبريزى بقليل أن الدوق دالب عملا بمقتضى أوامر الملك فيليپش كان يشدد فى حكمه ويغلظ على الناس فنفرت منه اهالى البلاد الواطية كل النفور وخرجوا عن طاعة اسپانيا ورتبوا فى بلادهم حريتهم وقوانينهم القديمة وحموها بعزم لا يكل وهمة لا تفتر حتى ان اسپانيا بعد اشتغالها بقتالهم نصف قرن كانت قواها ولم تكسب من حربهم سوى الخذلان والعار

وكانت

سنة ١٥٦٠

وكانت عاقبتها ان اضطرت الى اقرارهم على ما أرادوا وصارت تعاملهم كسائر الملل الحرة المستقلة بنفسها وحيث كانت البلاد الواطية المذكورة مؤسسة على قواعد الحرية ومتولعة بالتجارة والصناعة ازدادت شهرتها قبل أن تفرغ من قتال اعدائها لنيل حريتها فلما حصل الصلح وانتشرت فيها ألوية الراحة والامن اتسعت دائرة تجارتها وعظمت مقاصدها حتى صارت من اجل الممالك الافرنجية قدرا ومن اكبرها فى اهمية المشروعات نفرا

ولم نتعرض لان نذكر فى تاريخنا هذا الا القليل النادر مما حصل من الوقائع فى الممالك الموجودة بشمال اوروبا ولنختم الكلام بما كان جديرا منها بالذكر فنقول

مطلب
حال بلاد الموسقو

امابلاد الروسيا المشهورة ببلاد الموسقو فكانت لم تزل وقتئذ ضالة فى بوادى الخشونة والجهالة ولم يخرجوا من تيه الغفلة الا فى اوائل القرن السادس عشر اخرجهم من ذلك التوحش قريحة ملكهم بطرس الاكبر الذى هو بين الافرنج كعلم على جبل او أشهر وجعل لبلادهم منزلة جليلة وهيبة كبيرة بين دول اوروبا

مطلب
حال دانيمارقة واسوج

واما كل من مملكة دانيمارقة ومملكة اسوج فقد حصل بهما مدة حكم شرلكان تغييرات كبيرة فيما يخص ترتيبهما السياسى والقسيسى فخلع اهل دانيمارقة ملكا كان يظلم فيهم وطردوه من المملكة وانتخبوا غيره واجلسوه على كرسى ملكهم وكذلك اهل اسوج فانه حملهم الظلم والجور على القيام والعصيان وكانوا اهل شجاعة وجراءة وخرجوا عن حكم الدانيمارقيين واعطوا مقام الملوكية ببلادهم الى منجيهم وحامى حماهم غوستاو آريكسون وكان من الابطال ذوى الفتوة والهمة حريصا على حب وطنه ووداد اهل بلاده

وقد وهنت قوى دانيمارقة بحروبها مع الأجانب وبالفتن التى حصلت فى داخلها بين الملك والاعيان فصار لا قدرة لها على استرداد ما تمتعت به دهرا

طولها في شمال اوروبا من الصولة ونفوذ الكلمة بخلاف مملكة اسوج
فانها بمجرد خلاصها من حكم الاجانب اخذت في التقوى وسلكت سبيل
السودد وبعد قليل صارت قوانينها الداخلية محكمة الترتيب حتى غدت
اول دولة بين الممالك الشمالية وارتقت في مبدأ القرن السابع عشر
بين الدول الافرنجية الى اوج الشوكة والبأس حتى كان المرجع
اليها من ارباب العصبة القوية التي قامت بنصرة دين المعتزلة
وبحماية حرية المانيا من بدع عائلة الاوستريا
وطمعها الذي لم تكن له نهاية

تم

انتهى المجلد الثالث من اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الامبراطور شرلكان *
وهو آخر التاريخ المذكور وقد جرى طبعه بالمطبعة العامرة * الكائنة
ببولاق مصر القاهرة * في ايام دولة صاحب السعادة الابدية الباهرة * والهمة
العلية الفاخرة * ولي النعم ذي المن والكرم * افندينا الحاج عباس باشا *
دام كما رام وبلغ ما شا * وكان الاتمام على هذا النظام * في الخامس والعشرين
من شهر ذي القعدة الحرام * سنة ست وستين ومائتين بعد الالف * من هجرة من
خلقه الله على اكمل وصف * صلى الله عليه وعلى آله * والناسجين على منواله